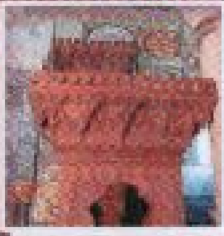
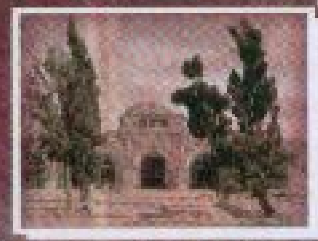
تاريخ القدس

عبر العصور









مهند حسن أحمد



تاريخ القدس عبر العصور


الذخيرة العربية



مهند حسن أحمد

الطبعة الأولى: 2010م



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (7 / 1 / 2009)

43.153

رباح، إسحاق

القدس: تاريخ القدس عبر العصور / الدكتور إسحاق رباح ـ عمان: دار كنوز المعرفة، 2009

(   ) ص.

ر.أ: (7 / 1 / 2009)

الواصفات: / تاريخ// حضارة// التعلم// إسلامي/

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ردمك: ISBN: 978 - 9957 - 74 - 011 - 5

دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري

تلفون: 4655877 6 962+ - فاكس: 4655875 6 962+

موبايل: 5525494 79 962+ - ص. ب 712577 عمان

الإيميل: dar_konoz@yahoo.com

الفهرس

الموضوع **رقم الصفحة**

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

فإن مكانة القدس عند أصحاب الأديان بعامة، وعند المسلمين بخاصة عظيمة جداً، وقد حظي بيت المقدس باهتمام المسلمين قبل فتحه وبعد فتحه. واعتنى به المحدثون، إذ أخذت الأحاديث في فضله حيزاً كبيراً في كتبهم ومصنفاتهم الحديثة، واعتنى به السلف الصالح فصنفوا المصنفات، وألفوا المؤلفات في تاريخه وفضائله... إلى غير ذلك.

لقد اتسمت مدينة القدس، منذ نشأتها، بالقداسة التي تجلت بارتباطها بقوافل الأنبياء والرسل، وبذكرها المتواصل في الكتب السماوية، ولكنها ارتبطت، أيضاً، برباط مقدس بعقيدة المسلمين خاصة؛ إذ هي كانت القبلة الأولى، ومسرى الرسول ﷺ إليها، والموطن الذي عرج منه إلى السماوات العلا، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

والقدس مدينة عربية النشأة، إسلامية التاريخ، وإنسانية الحضارة، كانت ولا زالت رمزاً يعبِّر عن تاريخها العربي الإسلامي، وعن رسالة الإيمان والإشعاع الروحي، ومعاني السلام والتعايش بين الرسالات السماوية في ظل سماحة الإسلام وتسامحه. وما اشتدت الظروف عليها يوماً، وتعرضت للاحتلال والغزو، إلا جازت تلك المحن واستعادت طابعها العربي الإسلامي، ودورها في أداء رسالتها، فهي الرمز

الذي يجمع الصفوف ويوحدها، ويذكي روح التضامن، ويجدد عزيمة الأمة لتسترد حقها الذي انغرس، وسيظل كذلك في ضمائر أبنائها وأجيالها. فكان تحريرها عنواناً لتحرير فلسطين من كل معتد أثيم، أو استعمار ظالم، أو احتلال باغ. وهي محور القضية الفلسطينية وجوهرها. وفي المقابل، فقد نسجت السياسة الصهيونية أحلامها كلها حول القدس، واعتبرتها قطب الرحى ومركز الدائرة في مخططها التوسعي، إدراكاً منها أن القدس وحدها، بمكانتها الروحية في الأديان السماوية، هي التي يمكن استغلالها لجذب يهود العالم أو تعاطفهم مع السياسة الصهيونية، فكان تخطيطها للسيطرة على القدس هو (اعتبارها محور المشروع الصهيوني لاحتلال فلسطين)، ذلك المشروع الذي يقوم على تزييف صريح للتوراة وللتاريخ، وممارسة العدوان أو الإرهاب والقتل والتشريد على الشعب الذي ارتبط بفلسطين والقدس، والذي صمد في وجه الحملات الأجنبية، وتحطمت بفضل ثباته وجهاده أمواج الغزوات العدوانية والاحتلالية.. وهو المصير نفسه الذي سيلقاه الغزو الصهيوني وفق سنن الله تعالى.

وإيماناً بعروبة القدس وإسلاميتها. باعتبارها قضية محورية ومركزية أولى، وأساسية للأمة العربية والإسلامية خاصة. لأنها تمثل جوهر الصراع العربي الإسلامي – الصهيوني. لذلك فإن موضوعها يأخذ أهمية كبرى للدفاع عنها. فالصراع حولها صراع عقدي فكري ثقافي حضاري في آن واحد. من هنا تقتضي الضرورة حشد كل الإمكانات المتاحة، وتوجيهها لتكون القدس أول أولويات قضايا الأمة ولتظل ماثلة في الضمير العربي والإسلامي والحر. وحية في برامج الأمة وخططها لمواجهة أعدائها المتربصين بها.

لهذا جاءت هذه الدراسة، لتؤكد الاعتراف الكامل بالواجب الأكيد الملقى على كاهل كل فرد مسلم تجاه القدس والمسجد الأقصى الشريف. بالإضافة إلى توضيح بعض المسائل التي تثير تساؤلات كثيرة من الناس. تلك التساؤلات التي هي

بحاجة إلى إجابات شافية مرتكزة على أساس علمي منهجي دقيق يتوافق مع أهمية هذا الموضوع في جانبه العقدي، لأنها تمثل ثوابت دينية، على كل المسلمين الدفاع عنها والمحافظة عليها من باب الوجوب، حتى تظل راية الإسلام مرفوعة وهامة المسلمين عالية. ولتحقيق هذه الغاية تم تقسيم الدراسة إلى الفصول التالية:

الفصل الأول: فلسطين والقدس في العصور القديمة. (قبل التاريخ) تضمن العصر الحجري والبرونزي، ثم الشعوب القديمة التي سكنت القدس. أيضاً الجذور الدينية والتاريخية للمدينة المقدسة والقدس في التوراة.

الفصل الثاني: الاحتلال العبراني للقدس وفلسطين. تناول تاريخ العهد العبراني من أنبياء اليهود وقيام مملكة بني إسرائيل خاصة في عهد داود وسليمان عليهما السلام. ثم تعرض فلسطين وبيت المقدس للسبي الأول والثاني والغزو الآشوري والبابلي، والغزو الفارسي. ثم الغزو اليوناني. وقيام المملكة الميكابية.

الفصل الثالث: القدس تحت الحكم الروماني والبيزنطي. ابتداء من الاحتلال الروماني، ثم ظهور المسيحية، فالاحتلال الفارسي إلى عودة الاحتلال البيزنطي.

الفصل الرابع: القدس الإسلامية، جذور قداستها في القرآن والسنة. وجذورها الإسلامية ابتداء من عهد الخلافة الراشدة إلى نهاية الخلافة العباسية حتى سقوطها تحت الاحتلال الصليبي.

الفصل الخامس: الاحتلال الصليبي والتحرير الإسلامي للقدس. تتناول وضع القدس أثناء الاحتلال الصليبي. والقدس خلال مراحل التحرير. ابتداء من الحمدانيين، السلاجقة، والفاطمية، حركة التحرير إبتداء من الزنكيين والأيوبيون. ثم التحرير الكامل في عهد المماليك. مع بيان أثر المماليك على القدس.

الفصل السادس: القدس في العهد العثماني. تضمن المرحلة التاريخية ثم المنشآت العثمانية. الدينية والحربية والدفاعية والخيرية. ثم بيان موقف الخلافة

العثمانية من التسلل الصهيوني اليهودي للقدس.

الفصل السابع: القدس تحت الاحتلال البريطاني. تضمن بداية الاحتلال، ثم مرحلة الانتداب البريطاني. وسياسة بريطانيا لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين حتى نهاية عام ١٩٤٨ وكذلك بيان الحركة الوطنية الفلسطينية ومشاريع التقسيم، والمواجهة العربية للصهيونية حتى قيام الدولة المحتلة وتهويد القدس.

الفصل الثامن: الجذور الدينية والتاريخية للمسجد الأقصى حتى الاحتلال الصهيوني ، ابتداء من العهد الراشدي والأموي والعباسي، ودول الإسلام حتى العهد العثماني، وبداية الاحتلال الصهيوني.

وأخيراً، فإن المسؤولية اتجاه القدس تتطلب تضافر الجهود الرسمية والشعبية على مستوى الأمة الإسلامية والعربية، كل قدر طاقته، أكثر من أي وقت مضى لتنسيق الجهود والتمسك بالقضية العادلة وفق تضامن عربي إسلامي مسيحي موحد. لتظل قضية القدس والمقدسات، القضية العقدية والمركزية للأمة، والقضية المشتركة لكل الجهود المخلصة لمواجهة الخطر الصهيوني واحتلاله لبلاد المسلمين والقدس خاصة. حفاظاً على استمرارية وجود الأمة وقدرتها على المواجهة لكل التحديات الحاضرة والمستقبلية.

والله الموفق

المؤلف: د.إسحق رباح

الفصل الأول

فلسطين والقدس في عصور ما (قبل التاريخ)





فلسطين والقدس في عصور ما قبل التاريخ

درج العلماء على تقسيم عصور ما قبل التاريخ إلى خمسة عصور حجرية، عمت أرجاء المعمورة. على الرغم من وجود خصوصيات محلية في كل منطقة حضارية. وهذه العصور تتضمن:

١- العصر الحجري (السحيق): يبدأ تقريباً من ظهور الإنسان على وجه الأرض إلى حوالي نصف مليون سنة من الفترة الحالية (١.٠٠٠.٠٠٠-٥٠٠.٠٠٠) ق.م.

٢- العصر الحجري القديم: تضمن العصور الجليدية الأربعة والفترات غير الجليدية الثلاثة التي تلتها. يبدأ من (٥٠٠.٠٠٠- ١٩.٠٠٠) ق.م.

٣- العصر الحجري الوسيط: يبدأ من نهاية العصر الجليدي الرابع. وبداية المرحلة غير الجليدية الرابعة (١٩.٠٠٠- ٨.٠٠٠) ق.م.

٤- العصر الحجري الحديث: يبدأ من (٨.٠٠٠- ٥.٠٠٠) ق.م.

٥- العصر الحجري النحاسي: يبدأ من (٥.٠٠٠- ٣٣٠٠) ق.م.

العصر الحجري السحيق ١.٠٠٠.٠٠٠- ٥.٠٠٠.٠٠٠ ق.م:

ساد في هذا العصر (الإنسان الماهر). وظهرت فيه الثقافة الحصوية. لم يعثر في فلسطين على أدوات تشير إلى هذا العصر. إلا أن الدلالات الأثرية تشير إلى انتقال الإنسان الماهر من إفريقيا عبر الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا واستقراره في فلسطين. وتحديداً على جانبي غور الأردن. وتحركه إلى الأزرق في الأردن. وغرباً تجاه سواحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين. وفي المواقع التي عثر فيها على دلالات

لهذا العصر. (موقع العُبيدية) الواقع جنوب غرب بحيرة طبرية. وموقع (قرب بيت لحم) وموقع (جسر بنات يعقوب)، وموقع الزطية قرب بحيرة طبرية. وفي مغارة الطابون في جبل الكرمل[١]. هذا وقد قسم العلماء هذا العصر إلى فترات ثلاث، حُددت فيها المواقع والحضارات.

الفترة الأولى: البليولبيت الأدنى (٥٠٠.٠٠٠- ١.٠٠٠.٠٠٠ ق.م).

الفترة الثانية: البليولبيت الأوسط: (١٠٠.٠٠٠- ٤٠.٠٠٠ ق.م)، تميز ظهور إنسان النباندرتال. والإنسان القديم الفلسطيني (الجليلي) وثقافة اللفلوازية أي الثقافة الطابونية نسبة إلى «مغارة طابون» في جبل الكرمل.

الفترة الثالثة: الباليوليت الأعلى: (٤٠.٠٠٠- ١٩.٠٠٠ ق.م)، تميزت بظهور الإنسان العاقل. وعلى سفوح جبال القدس الشرقية، ظهرت حضارة الباليوليث الأعلى المسماة بحضارة الأحمرية نسبة إلى كهف (عرق الأحمر) والحضارة العتليتية[٢].

العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) (١٩٠٠٠- ٨٠٠٠ ق.م):

ما زالت الآراء متضاربة حول بداية هذا العصر بين (١٩٠٠٠، ١٤٠٠٠، ١٢٠٠٠). ويطلق على هذا العصر اسم (العصر الحجري القديم المجاور أو الخارجي). تميز بظهور حضارتين متميزتين في فلسطين هما:

أولاً: الكبارية: نسبة إلى (مغارة كبارة) في الطرف الغربي لجبال الكرمل، استخدم فيها الأدوات الحجرية الدقيقة والتقليدية، ترك الإنسان فيه الكهوف إلى الوديان وبناء البيوت الدائرية الشكل. وخير دليل على ذلك موقع «النقيب» على

---

(١) الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص١٣-١٤، ط بيروت، ١٩٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢١؛ Kenyon, op., cit., 1947, and Shiloh, op. cit

I.H Vincent and AM steve, Jerusalem del'ancien Testament, III eme partie, Paris, 1956.

الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة طبرية. اعتمد الإنسان في هذه الفترة على الصيد البري، ومن ثم استئناس الحيوان، وصيد الأسماك واستعمال الحبوب. ثم ظهرت في هذا العصر الحضارة الكبارية الهندسية[1].

ثانياً: الحضارة النطوفية دعيت نسبة إلى «وادي النطوف» شمال غرب القدس وهي تمثل تطور نوعي للحضارة الكبارية. انطلقت من الجبال المحيطة بالقدس وعمت غور الأردن أولاً، ثم إلى سواحل المتوسط ثانياً. وتميزت هذه الحضارة باستخدام الأدوات المايكروليثية الهندسية المهذبة. واستمر النطوفيون في بناء البيوت والأكواخ مع ظهور بعض القرى في أريحا ومغارة الواد في جبل الكرمل. إلى جانب وجود نماذج لأضرحة نطوفية، وتماثيل حيوانية. كذلك تطورت الحياة الروحية النطوفية في شكلين أساسيين هما: «المدافن، والأنصاب الميغاليثية». التي أظهرت فيها قداسة الحياة الأخرى. وكذلك وجدت إشارات حول عبادة الأحجار الكبيرة أو اعتمادها لتقديم القرابين. أيضا اتجه إنسان هذه الحضارة إلى استئناس الحيوان البري. ولهذا تعد هذه الحضارة ثاني حضارة شامية واسعة مثل سابقتها الكبارية[2].

(النيوليت) العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠- ٥٠٠٠ ق.م): تميز هذا العصر بتغيير ملامح الحضارة النطوفية، نحو الانتقال التدريجي للزراعة. ومن ثم تحول الإنسان فيه من مستهلك إلى منتج. خاصة في موقع (مستوطنة أريحا). التي تمثل أول مدنية في تاريخ الإنسانية. هذا ويقسم العلماء هذا العصر إلى أربع مراحل هي:

الأولى: النيوليت الانتقالي: حصل في حدود (٨٠٠٠ ق.م) في مستوطنة أريحا. وتمثله أربع حضارات شاملة (غورية ساحلية جبلية) هي: (أ) حضارة أريحا، (ب) حضارة وادي الفلاح (قرب حيفا). الحضارة الخيامية (موقع الخيام قرب البحر

---

(١) أحمد هبو، تاريخ الشرق القديم، ص٥٠، ط٢، صنعاء، ١٩٩٩.

(٢) شوفاني، ص٣٥، Simons, op. cit؛

كامل العسيلي: تاريخ القدس، ص٣٣-٤٩.

الميت) والحضارة الطاحونية (وادي الطاحون) في جبال القدس.

الثانية: النيوليت الزراعي: تم فيه اكتشاف الزراعة في حدود (٧٧٠٠ ق.م).

المرحلة الثالثة: النيوليت ما قبل الفخار: استغرقت فترة أطول مما استغرقته الحضارة الطاحونية. حيث استوعبت فيه هذه الحضارة الألف السابع قبل الميلاد، ويمثلها موقع أبو غوش قرب القدس[١].

المرحلة الرابعة: النيوليت الفخاري: تميز بظهور الفخار وظهور حضارات ثلاث هي: (أ) الحضارة اليرموكية (دلتا اليرموك). ومثلها في فلسطين موقع «تل الأقحوانة». (ب) الحضارة الساحلية في وادي رياح بالقرب من رأس العين. حيث تطور الفخار بتغيير استعمالاته وألوانه وزخارفه. وتطورت المنازل من الشكل المستدير إلى المستطيل ذا الغرفتين أو الثلاثة. (جـ) الحضارة المنحطية نسبة إلى منطقة (المنحطة) في غور بيسان، ومجدو وتل بلاطة وتل الفارعة. وجبل القدس «أوفل». وفي كل ذلك دلالة واضحة على وجود سكن وحضارة في مدينة القدس مثلتها هذه المرحلة[٢].

وأما المظاهر الحضارية للعصر: اقتصادياً توصل فيه الإنسان إلى اكتشاف الزراعة. وانتقاله من حالة الاستهلاك إلى حالة الإنتاج الغذائي. ومن ثم استئناس الحيوان وتدجينه. إلى جانب استخدام الخزف وتطور الصناعة في الأدوات الحجرية الهندسية والآلات الزراعية والأسلحة. وقد أصبح الفخار من أهم مبتكرات العصر خاصة بعد تنوع استعماله وزخرفته. اجتماعياً: ظهر المجتمع القروي الذي جمعته العادات والقوانين والمؤسسات الإدارية والسياسية. كذلك زاد الاستقرار السكاني بعد استخدام البناء لمادة الطين مع التبن. كذلك ظهر الاندماج بين الأرض والأم

---

(١) شوفاني، ص٣٥، I Neuville, Le prehistorrigue de Palestine, RB 1934, 301-382

(٢) Kathleen Kenyon, Digging up Jerico, New Yourk, 1957, P.75.

Mare Harold, op. cit.

(آلهة الأم) كمبدأ للإخصاب. دينياً: ظهرت فيه آلهة الأم، وربما عبادة الجماجم وبعض الأجساد الذكرية والأنثوية، التي تمثلت في الأنصاب والتماثيل والدمى الصوانية والطينية، ثم ظهر المصلى العائلي في أريحا. وهذا بدوره ربما يمثل تقدماً للوصول لفكرة الإله في الفكر الديني. والخط الحضاري لهذا العصر يمتد من إيران إلى تركيا، شمال العراق إلى الشام حتى فلسطين. حيث أصبحت هذه البلاد مهداً للحضارة التاريخية اللاحقة.

العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت ٥٠٠٠- ٣٣٠٠٠ ق.م): يعد هذا العصر خاتمة العصور الحجرية، وفاتحة العصور المعدنية. حيث كان أول المعادن المستخدمة (النحاس) إلى جانب منظومة متكاملة من المنجزات الجديدة في كل مظاهر الحياة. اجتماعياً: الرجل أصبح مركز العائلة والقبيلة والمجتمع. دينياً: ظهر المعبد بدل المصلى والمزار. واتجهت العبادة نحو السماء بدل الأرض وظهرت فيه المؤسسات الدينية البسيطة والمدافن. اقتصادياً: تقدمت الزراعة باعتمادها على الري بعد اعتمادها على المطر. وظهرت التخصصات الحرفية الصناعية إلى جانب المؤسسات السياسية البسيطة. وتمثل مواقع هذا العصر «تل الفارعة» قرب نابلس، وبئر سبع لقربهما من وادي عربة مستودع مناجم النحاس. وفي موقع بئر سبع وجدت أفران صهر النحاس والأدوات اللازمة لذلك. هذا إلى جانب استخدام الأدوات الصوانية التي كانت أكثر استعمالاً من النحاسية. ثم الصناعات الفخارية الملونة والمزخرفة، والصناعات العاجية التي ظهرت على أشكال مختلفة منها تماثيل لرجال ونساء مثل هذه المرحلة (بئر الصفدي) «بئر الصفدي»[1].

هذا إلى جانب مواقع أخرى مثل: جسر بنات يعقوب في الجليل ومجدو «تل

---

(١) B Vanderemeersch, De Evolutie van de mens, Natuure en Techniek, 1982, 301-304.

معاوية إبراهيم: تاريخ فلسطين القديم، الموسوعة الفلسطينية، مجلد٢، القسم الثاني، ص٥٥، ط بيروت، ١٩٩٠؛ شوفاني، ص٤١.

المتسلم» والعفولة والقدس وأريحا وجازر وعين جدى وبيسان وغيرها. هذا فقد ظهرت في فلسطين مظاهر حضارية متميزة اعتبرت كوحدة حضارية مستقلة. برزت فيها عادات دفن متباينة سواء في الجبل أو الغور. وتوابيت من الصلصال المجفف على صورة بيوت سكنية، أو كهوف محفورة بالصخر مواقعها في منطقة يافا. وبالقرب من الخضيرة ويازور. ومعبد للعبادة في خربة الشيخ ميصر. أما الصناعة فقد تميز الساحل الفلسطيني بصناعة الفخار المتقدمة (خاصة موقع يازور)، كذلك تطورت العبادات بظهور العبادات الذكرية إلى جانب الأنثوية، والتماثيل والدمى الذكرية «الإله الذكر». وتوسعت المعابد وتخصصت مع ظهور أول أشكال المدن الفلسطينية المنظمة. ومن حيث الإنسان – ساد في فلسطين جنس البحر الأبيض المتوسط، الذي يمثل الشعب الأصلي لفلسطين طيلة العصور الحجرية، والتي ساد فيها الإنسان العاقل. ثم الإنسان الآخر الذي ظهر في حدود عام (٤٠٠٠ ق.م) حيث ظهر نزوح جنس سامي يرجح أن يكون الأموريين الذين ذابوا في الجنس المتوسطي. وآثار جازر تشير إلى وجود جنس آخر «ثالث» جبلي قدم من أواسط آسيا وآسيا الصغرى نحو بلاد فلسطين، في مطلع العصور التاريخية والعصر البرونزي، مكونة ثلاثة أعراق مختلفة هي (المتوسطي والجبلي والأموري). لكن كثافة الهجرات الأمورية صهرت في داخلها «العرق المتوسطي والجبلي». بحيث أصبحت الهوية الأساسية لشعب فلسطين أمورياً بالدرجة الأولى، بدلالة أن أول اسم تاريخي مكتوب لفلسطين هو بلاد «المور» نسبة إلى الأموريين على الأرجح.

يتضح من دراسة عصور ما قبل التاريخ «الحجرية» ما يلي:

(أ) شهدت فلسطين والقدس وجوداً بشرياً منذ أقدم العصور خاصة في موقع «بيت لحم» وفي موقع «أم قطفة» شمال غرب البحر الميت. هذا مع إحتمال عدم ظهور مدينة القدس في هذه العصور.

(ب) ظهر على سفوح جبال القدس الشرقية في «عراق الأحمر» الإنسان

العاقل الذي أسس الحضارة الأحمرية. ثم توالت الحضارة الطاحونية في جبال القدس فظهرت معها بوادر ظهور الزراعة. والفخار في أرض القدس خاصة في موقع «أبو غوش».

(جـ) موقع القدس في قلب فلسطين جعلها إحدى المراكز الهامة لظهور المراحل الحضارية القديمة، خاصة وأنها كانت تمثل إحدى المستوطنات الحجرية القديمة، ثم الزراعية. استدلالاً إلى ما عثر في وديانها وجبالها من أدلة أثرية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

(د) قدسية القدس في عصور ما قبل التاريخ لم توحي بعظمة مكانتها، في حين كان ظهور أريحا القريبة منها أكثر ظهوراً. فربما كان ذلك تقدمة لظهور القدس في العصور التاريخية اللاحقة[1].

المرجعية الآثارية للقدس

الطبقة	الفترة الزمنية	تاريخها	ملاحظات
1	العصر الوسيط وما بعده	القرن ١٤-٢٠م	
2	من العربي إلى الأيوبي	القرن ٧-١٣م	
A3	بيزنطي	القرن ٦-٧م	
3B	بيزنطي	القرن ٤-٦م	
4	روماني متأخر	القرن ١-٤م	
5	روماني مبكر	من الفترة اليهودية إلى ٧٠م	بقايا محطمة

(١) انظر: Vincent, op. cit, 615.

H Gunkel, Mythus and mythologie', Die Religion and Gegenwart, IV, 2nd ed, 381-382.

6	روماني مبكر	من الفترة اليهودية إلى ٧٠م	
7A	هيلستي (حاشموني)	النصف الأول من القرن الأول ق.م لغاية ٣٧ق.م	
7B	هيلستي (حاشموني)	النصف الثاني من القرن الثاني ق.م لغاية ٣٧ق.م	
8	هيلستي مبكر	القرن ٤-٢ق.م	
9	فارسي	القرن ٤-٦ق.م	
10A	الحديدي الثاني	القرن السادس ق.م	معظمها نفايات حطام تعود لـ ٥٨٦ق.م
10B	الحديدي الثاني	النصف الثاني من القرن السابع ق.م	يقسم إلى 10 B-C في منطقة G فقط
11	الحديدي الثاني	القرن السابع ق.م	أغلب منتصف القرن ٧ق.م
12	الحديدي الثاني	القرن الثامن ق.م	أغلب زمن حزقيا
13	الحديدي الثاني	القرن التاسع ق.م	
14	الحديدي الثاني	القرن العاشر ق.م	
15	الحديدي الأول	البرونزي المتوسط الثاني B	
16	البرونزي المتأخر	القرن ١٤-١٣ق.م	
17	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق.م	
18A	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق.م	

18B	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق.م	
19	البرونزي المبكر الثاني والثالث	النصف الأول من الألف الثالث ق.م	
20	البرونزي المبكر الأول	القرن ٣١ق.م	
21	الحجري النحاسي	النصف الثاني من الألف الرابع ق.م	

جدول (٢) الطبقات الحفرية لمدينة القدس المرجع: Shiloh 1993: 701

العصور التاريخية لفلسطين والقدس:

كانت نهاية عصر (الكالكوليت) فاتحة العصور المعدنية «النحاسي، البرونزي، الحديدي». التي تشكل القسم الأول من العصور التاريخية. ويمتاز العصر البرونزي باستعمال معدن البرونز الخليط من النحاس والقصدير. وبهذا بدأ استخدام الإنسان للمعادن بالدرجة الأولى ثم الفخار، وتراجع استعمال الأدوات الحجرية من أدوات عمل إلى أدوات فن وعمارة. كذلك ظهرت في هذا العصر (البرونزي) الكتابة التي حولت البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية (اختراع الكتابة حوالي ٣٢٠٠ق.م) على يد السومريين الذين طوروا الرموز المرسومة إلى الكتابة الصورية، ورافق ذلك ظهور المدن الكبيرة والمعابد الكبيرة في بلاد سومر. ثم المدن المصرية، والمدن الشامية ومدن إيران والأناضول. وترافق ذلك بظهور المدن العراقية والمصرية، مع ظهور المدن الشامية لهذا وضعت هذه المدن تحت الهيمنة العراقية ثم المصرية لاحقاً.

أما أبرز مظاهر العصر البرونزي المبكر في فلسطين فكان ظهور النحاس الأثني واللغوي الذي يعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد. حيث تدفقت على فلسطين الموجات السامية الأولى. لعل أولها الأموريين وتعود في الغالب إلى قبل عصر

الكالكوليت. وفي الغالب فقد قدم العصر البرونزي في فلسطين ثقافة أمورية كنعانية متميزة، بدأت بزراعة الحبوب والأشجار وتربية الحيوان. وانتهت ببناء المدن الكبيرة ومن ضمنها القدس. هذا ويقسم الباحثون العصر البرونزي إلى ثلاثة أقسام هي:

(١) العصر البرونزي الأوسط (٢٠٠٠-١٥٥٠ ق.م).

(١) العصر البرونزي المبكر (٣٣٠٠-٢٠٠٠ ق.م).

(٣) العصر البرونزي المبكر (٣٣٠٠-٢٠٠٠ ق.م)

(٤) العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م).

القدس الأمورية:

لا يزال ظهور الأموريون في التاريخ غير محدد على وجه الدقة سواء في المكان أو الزمان. لكن بعض القرائن الأثرية تشير إلى ظهورهم في بلاد العراق القديم. وتحديداً على ضفاف نهر الفرات الأوسط، وفي الصحراء العراقية السورية الأردنية حالياً. وربما زمان ظهورهم يعود إلى (٤٠٠٠ ق.م) أو قبل ذلك بقليل. في حين تشير الوثائق السومرية لوجودهم في الألف الثالث قبل الميلاد. كقبائل غرب الفرات. ولعل تسميتهم مارتو في الأكدية (أمورو) تعني الغرب (غرب الفرات). وجاءت علامة اسمهم بالإله القومي للأموريين (أمورو) الذي تطور عن (مُر) أو (موير) إله الطقس والسماء عندهم.

يمثل الأموريون أعظم الموجات السامية وأقدمها. ظهروا كأقوام بدوية غازية ومهاجرة. انتشروا في جهات شتى. شرقاً نحو السهل الرسوبي في العراق، وغرباً نحو بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، وشمالاً انشطر عنهم (الأراميون) وجنوبا على شكل قبائل بدوية تجوب شمال جزيرة العرب[1]. استوطن الأموريون

(١) خزعل الماجدي: تاريخ القدس القديم، ص٦٠ وما بعدها، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥؛ Macalister, op. cit., 173; F. Shiloh, op. cit., 11

بلاد فلسطين والأردن . وفي فلسطين أفسحت القبائل الأمورية المجال لاحقاً للقبائل الكنعانية. لهذا أُعتبر العصر البرونزي المبكر في فلسطين عصراً أمورياً. ظهرت خلاله المدن الفلسطينية الأولى في العصور التاريخية. وساد من بداية هذا العصر تغير مناخي استمر من (٣٥٠٠ق.م- ٢٣٥٠ق.م) أي لغاية العصر البرونزي المبكر في الفترة الرابعة. وبسبب هذه الظواهر (زيادة الأمطار، انخفاض درجة الحرارة، انخفاض مستوى البحر، جفاف بعض المستنقعات وتحولها لحقول زراعية، ثم انخفاض بحيرة بيسان (طبرية) إلى المجال الحالي لبحر الجليل). فنشأ بذلك مناخ مثالي للزراعة، ومستوطنات معدنية ومؤسسات سياسية. وظهر تقدم زراعي، ورفاه، وتقدم في التجارة الداخلية والخارجية، وظهرت بوادر نظم سياسية وكهنوتية وعسكرية. وظهور مدن طابعها أموري.

أما القدس ومن خلال الدراسة الأثرية لطبقاتها الأرضية (٢١طبقة) وأهمها الطبقة (٢١) التي تعود إلى العصر الحجري النحاسي (٤٠٠٠ق.م). أظهرت كشف عدد من الآبار المناظرة لما كشف عنه في أريحا وشكيم ولحنيش وتل العجول في غزة. كذلك أظهرت الطبقة (٢٠) وجود مدينة تقع عند التقاء نقطة (١) وادي الجوز مع وادي القدرون، يعود تاريخها إلى (٣٢٠٠ق.م) وهذا يعني أن القدس بنيت مع بداية العصر البرونزي المبكر، أي قبل مجيء الكنعانيين واليبوسيين. حيث كانت هويتها أمورية. وقد أظهرت الحفريات[1] عمران القدس من خلال بيوتها الدائرية والشكل الرباعي، وحفر الآبار، واعتماد الأعمدة وسط البيوت، والشكل الدائري للأسوار، وتقدم زراعي متطور. هذا وقد أظهرت البعثات الأثرية التالية منها بعثة شيلوح في مواقع (E1) عثرت على بنايات تعود للعصر البرونزي المبكر الأول وهي تدل على استيطان دائم في مدينة القدس[2].

---

(١) إبراهيم الغني: القدس عبر الحضارة والتراث منذ ستة آلاف عام، ص٤١، ط عمان، ١٩٩٧.

(٢) Shiloh, op. cit.

بعثة باركر جـ.فنسنت: اكتشفت وجود أواني فخارية متنوعة.

بعثة بنيا فازار: أشارت إلى أن جبل أوفل عند حافة وادي قدرون كان مأهولاً خلال الألف الثالث.

بعثة رحماني: سمى فترة هذا العصر بالفترة الكنعانية. اعتماداً على تلطيخ العظام باللون الأحمر «أوكر»[١].

- كاثلين كينيون: اكتشف قبراً في جبل أوفل يحتوي على فخار من تلك الفترة. أرجعه إلى القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد أي قبل مرحلة تأسيس مدن العصر البرونزي المبكر.

مما تقدم يُرى أن ظهور مدينة القدس الأول كان مع بداية العصر البرونزي المبكر. بشكل صغير جداً على أعلى مرتفع أوفل وقرب نبع جيجون. وقد شهدت استيطانا بشرياً محدداً ذا نشاط زراعي وطقوس لدفن الموتى في البيوت أو قربها[٢].

الدور الرابع للبرونزي المبكر (٢٣٥٠-٢٠٠٠ق.م): شهدت هذه الفترات الثلاث الأولى من العصر البرونزي المبكر رفاهاً ونمواً وازدهاراً في كل فلسطين بأكملها. وبنيت القدس لأول مرة. لكن الفترة الرابعة شهدت تغيراً مناخياً قاسياً. تبعه الجفاف وارتفاع درجة الحرارة وشح الأمطار وانخفاض مناسيب المياه. نتج عنه تناقص في عدد السكان المستوطنين في السهول والوديان، وقلة النشاط الزراعي قياساً للنشاط الرعوي. وهناك دلائل أثرية تشير إلى تحركات واسعة قام بها الساميون الغربيون للإبتعاد عن فلسطين، وهذا يفسر وجود الأموريون أكثر في شرق الأردن

---

(١) L.Y Rahmani, "Acnient Jerusalem" funerary (1), customes and Tombs, part tow, Biblieal Archasologist 44.4 (1981): 229-230.

(٢) IBID, p42؛ هـ.س.فرانكن: القدس في العصر البرونزي، الفصل الأول من كتاب القدس في التاريخ، ص٣٥، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٩٢.

وشمال الجزيرة العربية وقلته في فلسطين لاحقاً. وهذا يتعارض تماماً فيما فسره (G.E wright) وكينيون (Kenyon) حول تعرض القدس للتدمير بفعل غارات بدوية ذات ارتباط بالأموريين. في حين يرى أثريون آخرون أن الدمار الذي أصاب بلاد فلسطين، كان نتيجة حملات المصريين المتكررة. أو ربما جاء الدمار بفعل المناخ الذي عصف مدن الشرق الأدنى القديم، مع نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. أي في نهاية العصر البرونزي المبكر . حيث سقطت المدن في ظروف مناخية بالغة التعقيد[١]. في حين أظهر (W.G Dever) أن الدمار كان مرجعه التغيرات المناخية القاسية. وبهذا اتضحت هوية الفترة الانتقالية التي رافقها تغيرات عديدة مناخية ثقافية واقتصادية محددة إقليمياً. عانت فيه المنطقة من ركود رزاعي صاحبه قلة السكان، وقد تغير في هذه المرحلة النمط الاقتصادي حيث عاش الكثيرون في فقر مدقع لأنهم فقدوا قدرات أسلافهم الثقافية والتكنولوجية[٢].

وكذلك أظهرت الدراسات وجود علاقة متصلة بين فلسطين ومصر. باعتبارها عمقاً أرضياً لمناجم النحاس ومقالع الفيروز في سيناء. مثلتها الحملات التجارية أو العسكرية. مثل حملة الفرعون (بيبي الأول) بقيادة (دني) إلى فلسطين وصلت أنف الريم (جبل الكرمل) على الساحل، غرضها القضاء على تمرد من يسميهم (سكان الرمال) وهم حريوشع. أي الأقوام الأمورية. وهذا يربطنا بالأسماء الأربعة لفلسطين التي جاءت في الوثائق المصرية القديمة (حريوشع – سكان الرمال)، فينتو، أوتيو وعامو الذي يشير إلى وجود الأموريين[٣].

---

(١) Kenyon, op. cit, 1979, 72; Kenyon, op. cit, 1963.؛ انظر: فرانكن، ص٣٥؛ طومسون: ص١٢٨، ١٣١؛ شوفاني: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص٥٧، ط بيروت، ١٩٩٨.

(٢) طومسون، ص٣٣.

(٣) انظر شوفاني، ص٥٦.

ويري هـ.ي. ديل ميديكو[1] اعتماداً على ألواح الملك الكبير الأوغارتية أن فلسطين كانت تسمى (ميريام – Mrym) أو أموريا. وكلمة أموريا تشير إلى آومور أي بلاد الأموريين. وهذا الإسم سابق للكنعانيين. بدليل وجود جبل موريا الذي يقوم عليه بعض الحرم القدسي الشريف في القدس والذي ما يزال يحتفظ باسم فلسطين القديم، ويشير كذلك إلى استيطان آموري مبكر في القدس[2].

العصر البرونزي الأوسط (٢٠٠٠–١٥٥٠ ق. م.) القدس الكنعانية: بنيت القدس ثانية في هذا العصر على مرتفع (أوفل). وقد اعتاد المؤرخون تسميتها (يبوس) أو القدس اليبوسية. لكن الاحتمال الأقوى أن القدس اليبوسية ظهرت في العصر البرونزي المبكر. وأن القدس أنشأها عموم الكنعانيين وليس الطبقة الارستقراطية التي كانت تتزعمها (قبيلة يبوس) الكنعنانية. حيث تولى هؤلاء إعادة بناءها بعد دمارها في العصر البرونزي الأوسط[3]. أما قدس العصر البرونزي الأوسط: فهي القدس الثانية بعد القدس الامورية الأولى. ويمكن أن نطلق عليها القدس الكنعانية أو (أورسالم) التي تعني مدينة سالم أي مدينة الإله (سالم) الحامي والرئيس لهذه المدينة. وفي العادة كانت تقاليد الكنعانيين الدينية وجود آلهة كبرى تشترك فيها جميع المدن الكنعانية، مثل الإله إيل، الإله بعل، الإله عشيرا ...). وأيضاً توجد لكل مدينة كنعانية أله خاص حامي لها يعرف باسم (بيث شان) وأريحا مدينة اله القمر يبرج) وكذلك أورو سلام مدينة الإله سالم. هذا فقد استطاع الأثريون وخاصة (كينيون) توثيق أهم المواقع الأثرية في القدس، مع بيان العلاقة التاريخية. ومظاهر السكان والدين في فلسطين والقدس خاصة. بعد قيامه بالحفريات التي تقع أسفل جبل

---

(١) هـ.ي. ديل ميديكو: اللآلي من النصوص الكنعانية، ترجمة مفيد عرنوق، ص٢٨، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل، ص١١٥، القاهرة، ١٩٨٧.

(٣) Kenyon, op. cit., 1974, 74.

(أوفل) في الطبقات (١٧، ١٨، ١٩).

أولها: السور[١]: حيث أظهرت الحفريات أن القدس كانت محاطة بسور من الطين والحجر من جهاتها الأربعة، وبسمك (مترين) وأمامه خندق بعرض (١١متر). وللسور بوابة في الجهة الشمالية تؤدي إلى عين جيحون في الجنوب.

ثانياً: المقبرة العالية: وتقع على المنحدر الغربي لجبل الزيتون، وقد رأى المؤرخون أن هذه المقبرة يبوسية. وهناك مقبرة أخرى في القدس عند (نحلاتاخيم) في القطاع الشمالي الشرقي من القدس[٢].

ثالثاً: عين جيجون: اكتشفها المهندس البريطاني شاليزوارين ويبدو أن سبب اختيار موقع القدس الأول والثاني لموقع مرتفع (أوفل) كان لسبب وجود عين جيحون المصدر الرئيسي لمياه أهل القدس اليبوسية، أما عين روجل (بئر أيوب) فهي تعد المصدر الثاني للمياه في القدس[٣] بعد عين جيجون.

رابعاً: الصخرة المقدسة: صخرة منتظمة الشكل في جوفها مغارة. أُقيمت خارج أسوار مدينة القدس الكنعانية وعلى مرتفع موريا، لكنها كانت مقدسة مثل جبل موريا نفسه. وتروي الأخبار أن ملكي صادق وهو (ملك وكاهن بيت المقدس) الثانية كان يقدم عليها القرابين ويقيم عليها الطقوس الدينية. وكذلك ما ذكر حولها من قصة فداء إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام أنه كان على جبل موريا. إلى جانب كونها مقدسة عند اليبوسيين[٤]. أما الآثار المادية المنقولة فهي عبارة عن جرار اسطوانية. فخارية، جرار مصبوغة، أباريق، جرار مدببة، جرار كبيرة، أدوات

---

(١)آلن جاردند: ص ١١٥، فرانكن ص ٣٦؛ shiloh, op. cit., 12

(٢)mare. op. cit., p. 44.

(٣) IBID. p.42.

(٤) محمد هاشم موسى غوشة: القدس اليبوسية، ص٨٦، ط١، ١٩٩٦.

وأوعية، مصابيح، مرمر وزجاج زخرفي، أدوات معدنية، مـواد عظميـة وجعـران[1] وغيرها من الأدوات.

أما حول علاقة فلسطين بمـصر: فقـد انقـسم العـصر البرونـزي الأوسـط للقدس خاصة ولفلسطين عامة إلى قسمين: الأول: شهد ازدهاراً واضحاً بدايـة مـن عام (١٩٥٠-١٧٠٠ق. م.) شيدت فيه القدس الثانية عـلى أنقـاض الأولى. الثـاني: بداية من عام (١٧٠٠-١٥٥٠ ق. م.) شهدت فيه مدينة القدس دمـاراً واضـحاً. في القسم الأول ظهرت العلاقة الفلسطينية المصرية من خلال أسماء ثلاثـة عـشر مدينـة كنعانية، من بينها (روشاليموم) وهي أول إشارة تاريخية لمدينة القدس[2]. أما القسم الثاني من هذا العصر في العلاقة بين فلـسطين ومـصر ارتبطـت بالتخلخـل الـسياسي الذي حصل في مصر من خلال مجيء الملوك الضعفاء، ثم الهكسوس الـذين حـضروا هجومهم على مصر عبر الأردن وفلسطين، ثم أقاموا حكماً قلقاً في مـصر وفلـسطين. إلى أن تم طردهم من مصر إلى فلسطين[3] حيث أقاموا حكمهم فيها.

أما الهكسوس على الغالب هم أقوام خليط من الأموريين والبدو مـن مملكـة (شوتو) اوسوت) في شرق الأردن، الذين تحركـوا إلى مـصر وفلـسطين وكونـوا لهـم إمبراطورية فيها. وقد بدأت في مصر أولاً ثم تـم طـردهم منهـا إلى فلـسطين. حيـث اندفع الهكسوس في المدن الفلسطينية هرباً مـن المـصريين وكـان لهـذه الهزيمـة أثرهـا

---

(١) إبراهيم معاوية، الموسوعة الفلسطينية، قسم٢، مجلد٢، ص١٠١، عام ١٩٩٠.

(٢) كارين أرمترونج: القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة د.فاطمة نصر ود.محمد عناني، ص٢٧-٢٨، طبع ١٩٩٨.

(٣) كمال فرح: منذ فجر التاريخ والقدس هنا. القدس دراسات فلسطينية إسلامية مسيحية: إعداد جريس سعد خوري وآخرون، ص١٨٥، القدس: طبع عام ١٩٩٦.

السلبي على المدن الفلسطينية وربما كانت القدس واحدة منها[1].

المظاهر الدينية: عبد الكنعانيون عدداً من الآلهة طيلة تاريخهم الطويل. وقد كان لهم آلهة كبيرة، ويشرف على شؤونها كنعانيون كبار يتولون شؤون مظاهر الطبيعة الأساسية. ولهم آلهة صغيرة محددة وبعضهم الآخر يتولى حماية المدن. من هذه الآلهة. (إيل): كبير الآلهة. لقب بأب الآلهة والبشر، خالق الخالق، الملك. وقد ظهر للإله الكبير نسل نتيجة زواجه: مثل عثيرة وعشتار، ريّا، الحورية، انوبرت. وأشهر الآلهة وأقوى الأبناء (بعل) فقد أصبح الإله الأقوى للكنعانيين وصفاته (الطقس- الخصب – الخليقة) يظهر أن الآلهة (إيل) عُبد مبكراً واكتسب اسم ايل عليون أي الله العلي، وهو على رأس آلهة القدس، وآله ملك القدس القديم (ملكي صادق) الذي التقى إبراهيم عليه السلام.

وإله مدينة القدس المحلي والحامي لها بأن الإله ايل وهو الإله (شالم) الذي اشتق منه اسم المدينة القديم (أورشالم) أي مدينة الإله شالم أو نور الإله شالم. أما صادق: فهو اسم إله آخر دل على وجوده في القدس اسم (ملكي صادق). والإله (هبة) أو حيبا أو هيبات). في إشارة لاسم لملك القدس (عبدي حيبا).

الإله شالم: أو (شلم، أو سلم) هو ابن الإله إيل الذي لم يأتي عن طريق التناسل بل بالتقبيل والعناق. حسب رواية الأسطورة الكنعانية المسماة (مولد السحر والفسق) أو الآلهة الجميلة الوسيمة. أي آله السحر والفسق. وهو إله الكمال والتمام والنهاية. عُبد في أماكن كثيرة في ارض كنعان خاصة في فلسطين والساحل السوري. وكان مرتبطاً بزوجة تدعى (لاميث) التي أدخلت إلى مجمع الآلهة اليبوسية[2]. هذا

---

(١) انظر: ارمسترونج: ص٢٨، جاردنر: ص١٧٨، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ١/ ١٥٨/ ١٥٩ بيروت ١٩٥٨، طومسون: ص ١٣٦.

(٢) أنيس فريحة: ص٣٥٠–٣٥٨، خزعل الماجدي: الآلهة الكنعانية، ص٨٦– ٨٧، عمان ١٩٩٩، فرانكن: ص٤٤.

فقد ذكرت المصادر التوراتية لقاء إبراهيم عليه السلام بملكي صادق. كذلك ذكرت بعض ملوك وأمراء القدس في العصر البرونزي الوسيط منهم:

١- ملكي صادق ذكرته التوراة.

٢- سالم: وهو يبوس الذي وسع حدود القدس، ورد اسمه في اللغة المصرية، وتحدثت عنه نصوص أوغاريت حوله الإله سالم ملك القدس.

٣- ادوني صادق: عرفت القدس باسمه في أحد الفترات.

٤- سد حنّو (شاينرانو): ورد في نصوص اللعنة المصرية.

٥- ياقرعمّو: أول اسم تاريخي لملك أموري[1].

العصر البرونزي المتأخر[2] (١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق. م.) القدس اليبوسية:

جاء هذا العصر بمثابة خاتمة عصر سابق. في أحوال بلا وفلسطين عامة والقدس خاصة. لأسباب منها: . تغير المناخ في هذا العصر إلى الجفاف الأكثر، حيث ترك أثراً على حياة السكان والاقتصاد نتيجة التغير المناخي[3]. بدلالة انخفاض ناتج الزيتون، وانخفاض مستوى الإنتاج الغذائي. ثم خضوع فلسطين بأكملها تحت الاحتلال المصري، وقد اصحبوا في مواجهة مع الحثيين في شمال الشام فدارت رحاها على أرض فلسطين وعلى حساب أهلها. كذلك انقرضت مدن الأطراف الفلسطينية الكبيرة، وظهرت في هذا العصر مدن صغيرة وفقيرة وغير محصنة نتيجة الاحتلال

---

(١) العهد القديم التكوين، ص٢٤، ١-٣، ١٣؛ Mare, op, cit. p.20; IBID, p. 72-73 John Gray, History of Jerusalem, London, 1969, p.66, lBID.

(٢) SJ saller, the excavations Dominus Flevit, part II, The Jebusiteburial place, Jerusalem, 1964.

(٣) طومسون، ص١٤٢.

المصري[1]. كذلك ظهرت في هذا العصر الأقوام الرعوية غير المستقرة في فلسطين وهم على أربعة أنواع هم[2]:

١- عبيروا: طبقة اجتماعية أو جماعات متنازعة، أو جماعة من المشددين (لا فلاحين ولا رعاة) بل مرتزقة ولصوص. غير مستقرين وقد عاشوا على نمط غير مألوف في حياتهم الاجتماعية[3].

٢- شاسو: هم مجموعات سامية عاشت في منطقة جغرافية ممتدة إلى شرق الأردن، وأطراف الصحراء العربية وسيناء وبعض مناطق فلسطين غير المشهورة. وهم أقرب إلى البداوة والرعاة.

٣- شوتو: لهم ارتباط كبير بالشاسوا.

٤- كوشو: وهم سكان جنوب الأردن وفلسطين، ربما توفقوا عند العمق الفلسطيني، بعد طرد الهكسوس والاحتلال المصري منها. بدأو مرحلتهم الأولى مستقرة. لكن اضطربت أحوالهم منذ مطلع القرن الرابع ومطلع العصر البرونزي المتأخر. وتحطمت كياناتهم السياسية والاجتماعية. فاطروا إلى الهجرة والتشرد باتجاه فلسطين. وهذه الجماعة قامت بعد التحلل والتفسخ السياسي للهكسوس بعد طردهم من مصر. أما المجموعة الأخرى: يمثلهم الحوريون الذين نزحوا تدرجاً نحو بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، بعد انضمام بعضهم للهكسوس[4] والحوريون ينتمون إلى الأقوام الآرية. أطلق عليهم المصريون (حورو) أو الأرض السحرية في ارض كنعان. هذا وقد مثل الكنعانيون في فلسطين والقدس الأكثرية الساحقة في المدن

---

(١) طومسون، ص١٤٥.

(٢) أرمسترونج، ص٣٧.

(٣) طومسون، ص١٤٦.

(٤) ارم أرمسترونج كارين، ص٣٧؛ K Calling, Die Nekropole von Jerusalem, PJB, 32, 1936, 90-95.

والقرى الفلسطينية الأكثر استقراراً. ثم تبعهم الحوريون الذين توصلوا للمناصب العليا بسبب ثقافتهم ومعرفتهم للقراءة والكتابة ثم جاء دور البداوة والرعاة المشردون من الشاسو والشوتو والكوشو والعابيرو.

المظاهر الحضارية (لليبوسيين)

أعاد الكنعانيون اليبوسيون بناء مدينة القدس، بعد أن هُجرت في نهاية العصر البرونزي الأوسط. و قد شغلو هذا الموقع مدة (٤٠٠) سنة. وظل سورها هو نفس السور السابق. وقد توسعت القدس في عهدهم باتجاه الغرب، وأقاموا حصناً جديداً على جبل صهيون، بعد أن قاموا بإصلاح التحصينات القديمة على تل الأكمة[١]. كذلك أقاموا: حصنان يبوسيان الأول شرقاً على جبل أوفل، والثاني: على جبل صهيون، وعدة مصاطب استخدمت كبيوت مساكن وتحصينات دفاعية وقلاع[٢].

وحول علاقة فلسطين بالإمبراطورية المصرية: فقد مثل هذه الفترة بداية الاحتلال المصري لفلسطين. وبدء العصر الإمبراطوري لمصر. وفق مرحلتان: الأولى: سادها حكم مصري مباشر للقدس استمرت من (١٥٧٠-١٣٠٤ق.م) أثناء حكم الأسرة المصرية الثامنة عشرة. والثانية التي استمرت من (١٣٠٤-١١٩٥ق.م) أثناء مرحلة حكم الأسرة المصرية التاسعة عشر. وتنتهي هذه المرحلة بظهور عصر جديد.

أما تاريخ القدس في المرحلة الأولى فهو يرتبط بتاريخ الأسرة المصرية الثامنة عشر، لأن مصر أدركت أن حماية حدود مصر لا يكون إلا بالإستيلاء على فلسطين. هذه المرحلة كشفها الأثريون من خلال موقع (تل العمارنة). ضمن ألواح ورسائل. وقد سموا القدس «أورسالم» أو أرض حبيا «أرض هيبه» أو «لخيش وكيلة» وإيفن،

---

(١) فرانكن، ص٤٧.

(٢) أرمسترونج، ص٣٩-٤٠.

راشاليم ويوساليم[1].

أما مرحلة تاريخ القدس والأسرة المصرية التاسعة عشرة، فيرجع فيها ظهور اليبوسيين الذين يمثلون الطبقة الارستقراطية التي عاشت في قلعة القدس منعزلة عن سكان البلدة نفسها[2]. ومن المحتمل أنهم كانوا يشكلون أشراف أو زعماء الكنعانيين في القدس، وقد ظهرت قيادتهم للحكم في القدس بعد انهيار حكم (عبدي حبيا) وانفراط تبعية القدس لمصر. هذا وقد شغل اليبوسيون تاريخ القدس في النصف الثاني من العصر البرونزي المتأخر، في حين شغلها الكنعانيون في العصر البرونزي الأوسط.

وقد بنى اليبوسيون القدس الثالثة «يبوس» ووسعوها باتجاه جبل صهيون. وأقاموا فيها التحصينات الحديدة وأصلحوا التحصينات القديمة على السور وقمة التل. كذلك أوجدوا سلسلة من المصاطب المستوية المليئة بالأحجار، التي مكنت السكان من العيش في تلك المنطقة، التي تتميز بالمرتفعات والمنخفضات. ومن المحتمل أن هذه المصاطب المستوية حلت محل المساكن القديمة المتفرقة والشوارع شديدة الإنحدار[3]. أما علاقة القدس مع مصر في هذه الفترة، فقد سادها التوتر. واستمر إرسال مصر للحملات المتتابعة، بغرض إعادة السيادة المصرية على فلسطين. لذلك يمكن القول إن الموقف ظل متأرجحاً بين الخضوع والتمرد على المصريين[4].

وحيث تمت عدة تحالفات بين الحثيين والكنعانيين لصد الحملات المصرية. حتى خضعت أرض كنعان لمصر. وكان أهم مراكزها موقعي «تل القدح» تل وقاص. وحاصور. وهذا يعني أن مصطلح كنعان ظهر في الوثائق المصرية تحديداً في سنة

---

(١) إبراهيم الغني، ص٤٤-٤٥.

(٢) إبراهيم الغني، ص٤٥؛ كارين أرمسترونج، ص٣٩.

(٣) كارين أرمسترونج، ص٣٩.

(٤) شوفاني، ص٤-٧.

(١٢٨٠ق.م) أي قبل أن يظهر في التوراة بزمن طويل. ومصطلح كنعان أمر خلافي بين إطلاق هذه التسمية على (فلاحي السهول) المستقرين «كناخي»، والبدو الرحل حولهم. الذين يمثلون «شاسو وعابيرو وشوتو» أو أنه أطلق على التجار (الارجوان) «كنع» نسبة إلى صنعة الارجوان وتجارته التي وصلت إلى مصر والعالم، لذلك أطلق الإسم بسبب البحر والتجارة على كل المدن الساحلية الشامية، وعلى المدن والقرى السهلية. وهكذا تحول مصطلح «كنع» الجغرافي التجاري إلى مصطلح إثني ليدل على قوم بعينهم.

مما تقدم في باب العلاقة بين مصر وفلسطين. يرى أن التوتر الشديد ساد هذه الفترة نتيجة عمليات الغزو المصرية المتلاحقة لبلاد فلسطين، خاصة شمال وجنوب الشام، حتى أخضعت معظم المدن الفلسطينية لمصر، لكن اللافت للنظر أن القدس خاصة ظلت بعيدة عن أحداث القتال، وربما سبب ذلك أن الأسرة اليبوسية التي حكمتها قد دفعت الجزية للمصريين، مقابل السلام معهم. لهذا تطورت القدس اليبوسية كثيراً بسبب الهدوء في هذه المرحلة وما بعدها. وانتشعت تجارتها وطرقها التجارية، الأول يربط البحر بالصحراء ويمر بالقدس. والثاني يربط الخليل (حبرون) ببيت إيل ويمر بالقدس أيضاً.

والمتتبع لخط الهجوم المصري يرى أيضاً أن غالبية الحملات المصرية كانت تتجه إلى ساحل البحر، أو وسط فلسطين. بعيداً عن القدس، لهذا عاشت القدس في هدوء وحصن اليبوسيون مدينة القدس. في ظل علاقات سلمية سلكها حكامها مع دول الجوار[١].

ديانة اليبوسيين[٢]: استمر تقديس الإله «شاليم» قائماً في القدس اليبوسية إله

(١) طومسون، ص١٩٠؛ جاردنر، ص٣٠٣.

(٢) انظر: خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ص٣٢-٣٣، عمان ١٩٩٩؛ والماجدي خزعل: المعتقدات الكنعانية، ص١٤٥-١٥١، عمان ٢٠٠١؛ Kenyon, op. cit., 1974, 95-100.

المدينة الرئيسي وحاميها. كذلك عبدوا الإله «بعل» وهو إله الطقس، ويعني السيد أو الرب. وهو الذي يجمعهم ويشير إلى الحيوية والخصب والقوة، وركوب السحاب، وإرسال البرق والرعد الذي يبشر بسقوط المطر. وكان لبعل دورة حياة تبدأ بولادته فهو ابن الإله إيل «وأحيانا ينسب إلى الإله داحون» وتستمر الدورة بذكر صباه وتألقه وقوته. ثم صراعه مع إله البحر «يم» الذي نرى أنه الإلهة الكنعانية للأم تيمو.

جاءت كل هذه الآلهة في صلب عقائد الكنعانيين «ومنهم اليبوسيين» وهي تُكمل بذلك عبادة «شالم» ولا تتعارض معه، لأن بعل يمثل دورة الخصب، وشالم يمثل دورة الليل والنهار ممثلة بكوكب الزُهرة. الذي هو كوكب يمثل الخصب أيضاً عن طريق الحب. كما يظهر في بعل وسالم كابنين للإله إيل. وهنا لا بد من الإشارة إلى الشائع الخطير حول «صهيون» وربطه باليهود وإسرائيل خطأ، فصهيون اسم كنعاني سابق على ظهورهم بحوالي ألف سنة، لكن اليهود سرقوا هذا الاسم وجعلوه جزءاً تاريخياً من تراثهم في مدينة القدس.

لأن جبل صهيون هو مقر عبادة بعل إله اليبوسيين وجبل «أوفل» مقر عبادة شالم، وجبل موريا كان مقر عبادة أبيهما الإله إيل «إيل عليون». وجبل صفون هو مقر حكم بعل وقصره ومعبده وقبره في الوقت نفسه. لذلك أصبح هذا الجبل مقدساً. كذلك فإن اليهود أولوا باطلاً «هيكل شليم» واعتبروه هيكل سليمان.

مما تقدم نرى أن هناك ثمة ديانة يبوسية هي التي استقرت في القدس، وصهرت في نسيجها، ما يمكن أن نسميه بعبادة العصر البرونزي في القدس التي ظهرت في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. والآلهة الرئيسية في فلسطين والقدس هي (بعل وإيل وسالم)، وبهذا فقد استمدت القدس قداستها الطبيعية من مرتفعاتها التي تشكل أماكن عالية وواضحة، يمكن أن تكون مركزاً كونياً، إضافة إلى ما امتزجت به من قداسة إلهية حيث استقر كل إله على جبل (سالم على أوفل) وبعل على صهيون وإيل على موريا. وهذا بدوره يمثل ثلاثياً لاحقاً لليبوسيين ومن أتى بعدهم. حتى

أصبحت القدس بقداستها تمثل مركزاً عالمياً (ثلاثياً).

القدس في العصر الحديـدي (١٢٠٠-٣٣٢ ق.م): يقسم المؤرخون تاريخ القدس في العصر الحديدي إلى ثلاثة عصور فرعية هي:

١- العصر الحديدي الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م): ويعد مرحلة انتقالية ما بين نهاية العصر البرونزي، وبداية العصر الحديدي الفعلي.

٢- العصر الحديدي الثاني (١٠٠٠-٥٣٩ق.م): وهو عصر الممالك المحلية.

٣- العصر الحديدي الثالث: وهو عصر الاحتلال الفارسي.

هذا ويعد العصر الحديدي بأكمله أكثر العصور جدلاً وأكثره عرضة للتزوير. وذلك في محاولة واضحة من جانب اليهود. خاصة في اعتمادهم على مرويات توراتية مزيفة. جاءت معارضة تماماً للعلم وخاصة علم الآثار.

١- العصر الحديدي الأول: شهد هذا العصر في فلسطين خاصة، تحولات بيئية وعسكرية وسياسية وأثنية. حيث تغيرت أحوال فلسطين في جميع النواحي بفعل عوامل هامة منها:

أ- الجفاف المتوسطي بسبب تغير المناخ في العالم بين عام (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م) حيث تعرض الشرق الأدنى لانخفاض معدلات الأمطار بحوالي ٢٠٪. وكان لهذا الجفاف وقلة الأمطار آثاراً على الزراعة والغذاء والسكان حيث تقلصت الزراعة واتجه السكان إلى الرعي أو البداوة. وتغيرت خارطة الاستيطان البشري بشكل واضح[١]. وقد صحب الجفاف والقحط سقوط حضارة العصر البرونزي المتأخر شاملة حوض المتوسط، وفي فلسطين دمرت فيها عدة مدن مثل حاصور وتقلصت مدن مثل بئر السبع.

---

(١) طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوادح، ص١٤٩، بيروت ١٩٩٥.

ب- غزوات أقوام البحر بسبب حالة الجفاف. حيث قام أقوام بحر إيجة بغزوات كاسحة على بلاد آسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط. تمثلت في مجموعات ثلاث، انطلقت المجموعة الأولى من البلقان هاجمت قلب الإمبراطورية الحثية ودمرتها نهائيا عام (١١٩٠ق.م). والمجموعة الثانية انطلقت من كريت واتجهت نحو قبرص وليبيا ومصر لكن المصريون أجبروها على التراجع. والمجموعة الثالثة التي ضمت (الفلستية والليرية والزاكارية) واتجهت نحو ساحل بلاد الشام وتوغلت في الجنوب أي إلى فلسطين. تصدى لها المصريون. لكن اللافت للنظر أن المجموعة الثانية والثالثة إن كثيراً من قبائلها التي تفرقت استقرت كسكان مسالمين في أرجاء منطقة البحر المتوسط. منهم «البلست» الذين أصبح اسمهم يطلق على فلسطين منذ ذلك العهد. (استقرار القبائل البلستية على ساحل أرض كنعان). حيث تمركزوا واستقروا في خمس مدن ساحلية كنعانية هي (عكا، أسدود، عسقلان، جت، غزة) وأصبحت أسدود عاصمة مملكة فلستية (فلسطينية) انصهرت فيها القبائل الإيجية الغازية مع القبائل الكنعانية التي كانت تسكن هذه المدن. وهكذا بدأ أول تحول أثني في فلسطين عندما كون الفلستو دولتهم في الساحل الفلسطيني وضمن خمس مدن كبيرة[1].

جـ- علاقة فلسطين بمصر (عهد الأسرة العشرون): استمر فيها حكم مصر لفلسطين حكماً قاسياً طيلة عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وفي عهد الأسرة العشرون حاول المصريون صد هجمات أقوام البحر بكل قوة، مع محاولة الاحتفاظ بتبعية فلسطين لهم. لكن النفوذ المصري بدأ يضعف على بلاد الشام وفلسطين بسبب ضعف الحكام وخضوعهم لسلطان الكهنة. حتى اقتصر في النهاية

---

(١) أحمد فخري: مصر الفرعونية، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى ٣٣٢ق.م، ص٢٩٣، طبع القاهرة ١٩٩٥؛ توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، ص٨، طبع دمشق١٩٨٥.

على فلسطين التي تحررت منه مع نهاية الأسرة العشرين[١].

د- حركات الهجرة والاستيطان الجديدة داخل فلسطين: كان تـأثير الجفـاف على البلاد والمدن الفلسطينية متفاوتاً، استغلته الصهيونية العالمية لتأكيد حق تـاريخي مزعوم في فلسطين، قائم على التوراة المزيفة، والتي تعارضت رواياتها مـع الأثـريين، فالمعروف أن الساحل الفلسطيني في سهل (شـارون) شـهد تحـولات اسـتوطن فيـه إيجيون يدعون (جكر – سيكيل) في هـذه المنطقـة وقـد انـدمجو سـلمياً مـع الـسكان المحليين الساحليين[٢]. وأما ساحل فلـسطين مـن يافـا إلى غـزة فقـد شـهد اسـتقرار الفلستو واندماجهم أيضاً مع السكان المحليين. لهـذا اقـترن الـسهل الـساحلي باسـم سهل فلسطين باسم (البلست) الذين سكنوا السواحل الفلستينية قبل هجـوم أقـوام البحر أو ربما كانوا هم جزء من أقوام البحر[٣].

وفي منطقة فلسطين الشمالية، فقد أثبتـت الآثـار وجـود ارتبـاط بـين فينيقيـا وساحل فلسطين الشمالي بدلاً من اتصالها بالسامرة ويهوذا. وقد شهدت هذه المنطقـة استقراراً سكانياً، على الرغم من حالة الجفاف التي سادت فلسطين، خاصة في منطقة وديان الأراضي المنخفضة ذات الاستيطان الكنعاني الأصيل. ومع ذلك فقـد حـاول بعض الأثريين المتأثرين بمزاعم التوراة اعتماد نظريات مخالفة، خدمة لإظهار الوجود اليهودي القديم في فلسطين، خاصة في منطقة المرتفعـات الوسـطى كأسـاس لنـشوء إسرائيل. التي تتعارض تماماً مـع العلـم ومـع الأدلـة الأثريـة. وفي منطقـة فلـسطين الوسطى الجنوبية «تلال يهوذا» التي تقع بين القدس والخليـل. فقـد أشـارت الأدلـة الأثرية على أن تلال يهوذا كانت مهجورة في العصر البرونزي الأخير باستثناء القدس وخربة رايود. التي تواصل السكن فيها خلال العصر الحديدي وفي منطقـة فلـسطين

(١) انظر فخري أحمد، ص٣٠٩، ٣٩٢؛ طومسون، ص١٨٩.

(٢) طومسون، ص١٨٢.

(٣) طومسون، ص١٨٦.

الجنوبية (النقب) فقد استمر السكن المحدود في بعض مواقع شمال النقب، مثل تل الحويليفية من العصر البرونزي الأخير إلى العصر الحديدي الأول. ثم يتوسع السكن فيها كلما اتجهنا نحو العصر الحديدي الثاني[1].

مما تقدم نرى أن فلسطين مرت في العصر الحديدي الأول بتحولات اقتصادية واجتماعية جذرية، أثرت على تكوينها الحضاري والسياسي ذات الطابع الأموري والكنعاني. كذلك شهدت فلسطين استقرار أقوام الفلستو الإيجية من الساحل الفلسطيني اختلطت بالتراث الكنعاني وذابت فيه. أيضاً شهد شمال فلسطين تدفقاً كنعانياً زراعياً نشيطاً حافظت فيه على الهوية الكنعانية. كذلك استمرت الهوية الكنعانية في وسط فلسطين، وأيضاً استمر الجنوب الصحراوي لفلسطين كما هو عليه. مع إحاطة تخومه بالبدو شبه المستقرين من (الكوشان والأدوميين) وهما من بقايا الأموريين. هذا كله يتعارض مع محاولة التوراتيين ملء الفراغ الأثاري في فلسطين للعصر الحديدي الأول. بترهات الهجرة البدوية وتكوين بذرة إسرائيل في شمال الوسط. وبذرة يهوذا في جنوب الوسط. وقد دلت الآثار في مدينة القدس كذلك أن العيش استمر فيها كمدينة (يبوس) الكنعانية. ولا أثر فيها لقبائل جديدة أو استيطان جديد ولا أثر فيها لمجتمع جديد. وهذا بدوره يكشف زيف الروايات التوراتية التي تتعارض مع الأدلة الأثرية.

٢- العصر الحديدي الثاني (١٠٠٠-٥٣٩ق.م): يعد أكثر العصور إثارة وجدلاً، بسبب اختلاط الروايات التوراتية، التي تتعارض مع العلم والأدلة الأثرية. خاصة وأنه استمر حوالي أربعة قرون ونصف من الزمان.

أظهرت الدراسات الأثرية في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، انتعاش المرتفعات الوسطى مع بداية العصر الحديدي الأول، وظهور مستوطنات أصولها

---

(١) طومسون، ص١٧٧-١٧٨، ١١٥، ١٩٥، ١٠١، ١١٠، ١٩٩، ١٩٧؛ وايتلام، ص١٢٧، ١٤٤-١٤٥.

رعوية. في حين شهدت الأراضي المنخفضة استقرار المزارعين ونمو حضارتهم مع العصر الحديدي الأول. وهذا يعني عدم وجود آثار تدل على إثنية سكانية مثل عابيرو (شاسو) (شوتو). حيث سيطرت المسحة الكنعانية العامة على البلاد الفلسطينية. مع وجود العنصر البلستي في الساحل الجنوبي ذا الطبيعة الإيجية التي اندمجت في التراث الكنعاني. وهذا يعني عدم وجود «إسرائيل أو السامرة أو يهوذا» في هذا التاريخ المبكر (١٠ق.م) اعتماداً على الأدلة الأثرية المتوفرة. كذلك يمكن استبعاد هذه الفكرة في العصر الحديدي الأول أو في بداية العصر الحديدي الثاني. مع وجود أورشليم كمدينة يبوسية كنعانية ناشطة وليست كدولة. وهذا بدوره ينفي وجود المملكة الموحدة المكونة من يهوذا وإسرائيل حسب المرويات التوراتية المتناقضة مع الأدلة الأثرية[1].
التي أنكرت ما يذكر عن داود عليه السلام ودخوله القدس، وتسميته لها بـ(مدينة داود) أو صهيون. وكذلك كل ما يتعلق بالنبي سليمان عليه السلام وسيرته وبنائه الهيكل في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، لأن المعطيات الأثرية التي قام بها ثلاثون آثارياً، لم تجد أية معطيات أو معلومات أو مواد تؤكد ما ورد في نصوص التوراة. كذلك هناك نص منقوش على بوابة كبيرة تعود إلى عصر الملك المصري شاشنق الأول (٩٥٠-٩٢٩ق.م) يذكر حملة مصرية حصلت على فلسطين في حدود عام (٩٣١ق.م) لم يذكر فيها اسم أي مدينة فلسطينية خاصة (القدس ويهوذا) أو إسرائيل والسامرة[2].

من هنا نرى أن القدس في القرن العاشر قبل الميلاد ظلت مجرد مدينة عادية، تزايد سكانها في القرنين اللاحقين، وقد تحولت عدد من مدن فلسطين أسواق لها مثل الخليل، كذلك تحول اقتصاد القدس من الرعي إلى القرى الزراعية التي تعتمد على الأشجار المثمرة وتربية الحيوان. وقد اتسعت حدودها في القرن العاشر باتجاه الشمال، وتضاعفت عندما زحفت المباني نحو جبل موريا. أما أهم الآثار الدالة على ذلك،

---

(١) خزعل الماجدي: تاريخ القدس القديم، ص١٦٩-١٧١.
(٢) خزعل الماجدي، ص١٧٣.

فهي التحصين الحجري المعروف (بالمهماز)، الذي اشتمل على مساحات للسكن، أبنية دفاعية، أواني فخارية، درج حجري، شبكة مياه من عين جيجون إلى داخل المدينة. المنحدر الشرقي الصخري كتحصين دفاعي، الجدار الأول للقدس، الحجر المربع ختم صخري وديكورات حجرية ومساند للمنازل[1]. مما تقدم نرى أن القدس بآثارها المذكورة في العصر الحديدي الثاني لم تكن سوى مدينة بسيطة تعد في تاريخها امتداداً للقدس اليبوسية[2].

دول المدن الفلسطينية (القرن التاسع قبل الميلاد):

شجعت الظروف المواتية المناخية والاقتصادية والأثينية في فلسطين، دوراً في خلق مدن متميزة شكلت بعضها فيما بعد مدن مستقلة. ويعود سبب هذا الانتعاش السياسي في هذه المدن إلى القوتين الكبيرتين «الآشورية، والمصرية» اللتين انشغلتا بالصراعات الداخلية والنزاعات الأسرية. لكن هذا الانتعاش لم يستمر إلى نهاية القرن التاسع بسبب عودة تفاقم قوة الدولة الآشورية التي ظلت تهدد مدن بلاد فلسطين المستقلة.

في ظل الانتعاش المؤقت استمر الاستيطان وزاد عدد السكان، خاصة في المرتفعات الوسطى والمنخفضات في كل مكان، وزاد استقرار الرعاة والمزارعين. كذلك تسربت هجرات الأقوام غير المستقرة كالسوتو والشاسو والعبيرو من مناطق الأطراف والسهول. وبدأت بعض المدن الداخلية تستقطب مجالاً حولها لتتحول إلى دول إقليمية صغيرة متأثرة بدول المدن الساحلية الفلستية والفنيقية. وكان الطابع العام لهذه المدن كنعانياً وعلى أثر ذلك ظهر نوع جديد من السلطة السياسية المركزية، وقيام كيانات محلية تنافس الدول المدينية خلال العصر الحديدي الثاني.

---

(١) خزعل الماجدي، ص١٧٤-١٧٩.

(٢) إبراهيم الغني: القدس عبر الحضارات والتراث منذ ستة آلاف عام، ص٥٠، عمان ١٩٩٧.

أما الإشارة الأركيولوجية العابرة الواردة في لوحة (مرنفتاح) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. حول إسرائيل فهي لا تعدو كونها ذكراً لمدينة عابرة، في وسط فلسطين، لا يعرف موقعها الحقيقي حتى اليوم. مع احتمال كونها مدينة أو بلدة كنعانية قديمة، ليس لها علاقة مطلقاً بـ(إسرائيل) التوراتية. خاصة وأن كلمة إسرائيل يمكن تفسيرها كنعانياً، على أنها (إيشر + إيل) أي (عشيرا زوجة إيل). وهي الآلهة الكنعانية الأم وزوجة إيل فعلاً. ويمكن أن تكون هذه المدينة قد سميت باسمها تقديساً لها واحتراماً لعبادتها فيها[1].

إن غالبية الأدلة الأثرية التي تناولت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد في فلسطين، تدل على عدم وجود (الملكية الموحدة). حتى أن إسرائيل والسامرة من جهة، كانتا على نزاع ديني وسياسي دائم مع القدس كمدينة ودولة لاحقاً. وهذا الإحتراب تذكره الروايات التاريخية التوراتية وتؤكده. إنهما دولتان عدوتان حاولت كل منهما إنهاء الأخرى بشتى الطرق. كذلك كانت إسرائيل على دين مختلف تماماً عن دين القدس. بل إن الدينين متضادان تماماً. فقد كانت إسرائيل دولة مدينة كنعانية تعبد الإله إيل أب الآلهة والبشر عند الكنعانيين ومعه زوجته (عشيرا) (أشيرا أز أسيرا) التي تلمح لها التوراة بـ(الساريات). أما يهوذا التي ستظهر بوضوح في القرن الثامن قبل الميلاد، فقد ظهر فيها قوم يعبدون الإله (يهوا) في القدس وغيرها، وهو شكل من أشكال الإله بعل، لكنه غريب عن آلهة الكنعانيين تماماً، فقد عرف الكنعانيون الإله بعل، ولم يعرفوا (يهوا) وهو الإله الذي نرجح أنه قدم مع بعض البدو والرعاة الذين قدموا من جنوب فلسطين، وربما من (مدين) تحديداً. والإله (يهوا) بمقام ابن الإله (إيل) إذ هو يوازي (بعل) الابن الحقيقي للإله (إيل). وكانت عادة الإله بعل وما يناظره بمواجهة إيل، تعتبر أحياناً، عبادة خارجة عن التقاليد الكنعانية.

---

(١) خزعل الماجدي: تاريخ القدس، ص١٨٠-١٨٢.

وهكذا كان الإسرائيليون أو السامريون الكنعانيون، يعتبرون عبدة (يهوا) في يهوذا والقدس كفرة، يتوجب محاربتهم ومقاطعتهم وهو ما حصل فعلاً بين إسرائيل ويهوذا. إن الاختلاف الديني بين الكيانين، زاده كذلك الاختلاف في المصالح السياسية والاقتصادية لذلك اندفع الكيانين إلى الإحتراب. ولعل ما يؤكد ذلك أن إسرائيل كانت دولة مدينية منذ السلالة العمرية، وليس من قبل ذلك. استدلالاً بالنص الآشوري العائد إلى عصر الملك (شلمنصر الثالث) (٨٥٩-٨٢٤ق.م) الذي قام بحملة كبيرة على بلاد الشام. حيث ظهر فيه أول ذكر صحيح لمملكة إسرائيل، ولم يذكر مدينة القدس بأي إشارة، وربما يعود ذلك إلى أن القدس في تلك الفترة لم تكن بمستوى دولة مدينية، أو لأنها لم تدخل التحالف ضد الآشوريين.

وهذا يؤكد أن القدس في القرن التاسع قبل الميلاد، مدينة بسيطة عادية كنعانية الطابع وهو ما تؤيده الآثار. حيث كانت التجارة وليست السياسة سبب نمو القدس وانتعاشها في القرن التاسع قبل الميلاد. وهي بهذا لم تخرج عن كونها دولة مدينية كمثيلاتها من مدن فلسطين مثل لخيش وجازر والخليل[1]. ومن أهم الأدلة الأثرية التي تشير إلى أن القدس ظلت في القرن التاسع قبل الميلاد مدينة يبوسية كنعانية أثارياً، التوسع العمراني في القدس خصوصاً في حكم حزقيا. وهذا بدوره يؤكد عدم وجود ما يسمى (المملكة الموحدة) لإسرائيل ويهوذا. وعدم تميز القدس كمدينة خارجة عن السياق الكنعاني اليبوسي كأن تكون عبرية أو يهودية. وفيما يلي أسماء أورسالم في أدوار العصر البرونزي:

---

(١) طومسون، ٢١٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢٨٨، ٢٢٩، ٢٣٤؛ نبيلة عبد الحليم: معالم العصر التاريخي في العراق القديم، ص٢٢٠-٢٢١، ٢٢٤.

الاسم	أصله اللغوي	مكان ظهوره	معناه
أورشاليم	إبلائي	ألواح إبلا	–
أور سالم	أكدي	ألواح أكدية	أسسها الإله سالم
أور شالم	أكدي	ألواح أكدية	الإله الكامل، النور الكما
يورو شاليم	مصري	نصوص الطهارة القرن ١٩ق.م	–
أوشاميم	مصري	نصوص اللعنات القرن ١٨ق.م	–
روشاليموم	مصري	نصوص اللعنات القرن ١٨ق.م	شاليم وضع الأساس
أو شاليم	مصري	القرن ١٤ق.م	–
أور ساليمو	أموري	؟	مدينة ساليم (الأمين)
كيله	أكدي	رسائل تل العمارنة	–
إيفن	؟	رسائل تل العمارنة	–
راشاليم	؟	رسائل تل العمارنة	–
يور ساليم	؟	رسائل تل العمارنة	–
يابيشي	؟	رسائل تل العمارنة	–
نورمستك	أكدي	سجلات ماري	–
شهر شلايم	أوغاريتي	ألواح أوغاريت	نو الشفق، الشفق

أسماء القدس في العصر البرونزي

وهكذا نرى أن أغلب أسماء القدس في العصر البرونزي دارت حول الاسم (أورشليم) الذي أصبح اسمها الثابت، تقريباً، في العصر الحديدي[1].

---

(١) خزعل الماجدي: تاريخ القدس، ص٨٦.

القدس والمسجد الأقصى لغة واصطلاحاً

وبعد لا بد من التعريف بالجذر اللغوي لمدينة القدس، والمسجد الأقصى، وذلك لما لبيت المقدس والمسجد الأقصى من مكانة دينية تاريخية على مر العصور. وقد جاء في لسان العرب: التقديس تنزيه الله عز وجل وفي التهذيب، القدس تنزيه الله تعالى، وهو المتقدس، القدس، المقدس، والقدس بلغة أهل الحجاز (السطل) لأنه يتطهر فيه، ومن هذا «بيت المقدس»، أي البيت المطهر، والأرض المقدسة، هي دمشق وفلسطين، وبعض الأردن»[1].

وجاء في الإنس الجليل، «بيت المقدس» بفتح الميم، وسكون القاف، أي المكان المطهر من الذنوب، واشتقاقه من القدس، وهي الطهارة والبركة فمعنى بيت المقدس المكان الذي يُتطهر فيه من الذنوب ويقال المرتفع المنزه من الشرك... والبيت المقدس، (بضم الميم وفتح الدال المشددة)، أي المطهر. وتطهيره إخلاءه من الأصنام»[2]. والقدس، والقدوس، اسم من أسماء الله تعالى، وبيت المقدس هو «بيت الله»... ومن هنا جاء في القرآن الكريم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر].

أما في لغة اليهود العبرية، فترد عبارة «بيت - ها - ماكداش - Bet Ha Mukdash، وتشير إلى اسم «بيت المقدس». أما هيكل سليمان، الذي يتمسك به اليهود، فقد كان المفروض أن يبنى باسم الله ويحمل اسمه، فإن الله أوصى لداود، وسليمان عليهما السلام أن يبنى له بيتاً مقدساً: لا هيكلاً يحمل اسم سليمان، كما تشير إلى ذلك المصادر الأولية[3]...

---

(١) انظر: ابن منظور الخزرجي، كتاب لسان العرب، مادة (قدس).

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الإنس الجليل، ج١، ص٦.

(٣) انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١ ص٤٧، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج١، ص٥٨.

يذكر اليعقوبي، كما يذكر ابن الأثير، أن داود عليه السلام أراد أن يبنى له معبداً في القدس فأوصى الله إليه أن هذا البيت مقدس، وأنك قد صبغت يدك في الدماء فلست ببانيه، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء[1]. والواضح من هذا أن الله قد أوحى إلى داود وإلى ابنه سليمان أن يبنى بيتاً باسم «القدس». وليس باسم يحمل اسم «هيكل سليمان». ولكن اليهود قد عملوا منذ أقدم العصور التاريخية على طمس اسم القدس واسم بيت المقدس هدفاً لأغراضهم وتحريفاً لتوراتهم.

إن أقدم مسجد لله في القدس وهو «المسجد الأقصى»، والذي ورد اسمه في القرآن الكريم، كما جاء في الآية الكريمة، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

والمسجد الأقصى، هو مسجد بيت المقدس، أما تفسير ما جاء في الآية: «الذي باركنا حوله»، يعني بالأنهار، والأشجار والأثمار. وعن ابن عباس في قوله: «باركنا حوله أي فلسطين، والأردن والأردن هو نهر الشريعة، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. وقال أبو القاسم السهيلي: (الذي باركنا حوله) يعني الشام، والشام بالسريانية، الطيب، وسميت بذلك لطيبها، وخصبها، وقيل: (باركنا حوله) بمقام الأنبياء، وفيه يحشر الناس يوم القيامة. ويسمى الأقصى، لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام. وقيل لبعده عن الأقذار، والخبائث، وروى أنه سمي الأقصى لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص[2]. ونلاحظ من هذه الآية الكريمة أن اسم «المسجد الأقصى» وليس «هيكل سليمان» هو أقدم اسم للدلالة على مدينة القدس. فالقرآن الكريم كتاب سماوي مقدس لم يطرأ عليه أي تحريف أو تغيير، وأن اسم المسجد الأقصى اسم يقابل المسجد الحرام اسم الكعبة المشرفة، اسم بيت الله...

(١) انظر: اليعقوبي، ج١، ص٤٧.

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الإنس الجليل، ج١، ص٥ - ٦.

يقول الفرزدق الشاعر المعروف:

وبيتان بيت الله نحـــن ولاتـــه　　　وقصـر بأعلى إيلياء مشرف[1]

القدس – وإيلياء:

بالإضافة إلى شعر الفرزدق السابق الذكر، فقد ورد في شعر العرب أيضاً اسم «إيليا»...

فلـــو أن طيـــراً كلفـــت　　　إلى واسط من إيلياء لكلـت[2]

وإيليا بكسر أوله، واللام، وياء ممدودة، اسم أطلق أيضاً على مدينة القدس. معناه «بيت الله». ويقول ياقوت في «معجم البلدان» وإن جعلتها من «إيلياء كان من لفظة قولهم من اسم البلد إيله، ومما «جاء» على لفظة من ألفاظ العرب «الإبل» وهو فعل[3]...

وهناك روايتان من سبب التسمية «بإيلياء»:

رواية يذكرها ياقوت في معجم البلدان تقول: وقد سميت باسم بانيها وهو «إيلياء» وهو «إيلياء» بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام»[4]...

أما الرواية الثانية، فيذكرها المسعودي في كتابه «مروج الذهب» وتقول: إن «طيطش» أو «تيطس» (واسپاسيانوس) كانت لهما مع بني إسرائيل حروب عظيمة. وفي عام ٧٠ ميلادية قتل فيها من بني إسرائيل ٣٠٠ ألف، وقد خربا بيت المقدس، وأحرقا الهيكل بالنار، وحرثاه بالبقر، وأزالا رسمه ومحو أثره»[5]. وقد أعاد

---

(١) انظر: ياقوت، معجم البلدان، مادة (إيلياء).

(٢) انظر: ياقوت، معجم البلدان، مادة، إيلياء.

(٣) انظر: نفسه، مادة، إيلياء.

(٤) انظر: نفسه، مادة، إيلياء.

(٥) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٣٤٦.

«أبطوليس» أحد ملوك الروم بناء بيت المقدس وسماه «إيليا»، وهو أول من سماه بهذا الاسم «إيليا»[1].

واليهود - دأبهم في كل زمان، يسرقون، ويحشرون كما تطيب لهم أهوائهم ورغباتهم... فقد اتخذوا - أيضاً - اسم «إيلياء» وحشروه في توراتهم المحرف، ظناً منهم، أن هذا الاسم له أصالته في توراتهم المزيف... فقد وردت إشارة في أواخر سفر الملوك الأول، وأوائل سفر الملوك الثاني اسم «إيلياء»، وهو اسم أحد الملوك العبرانيين[2]... ولكن مع ذلك فإن اليهود لم يفضلوا استعمال هذا الاسم على اسم «أورشليم» أو اسم «صهيون»، ويبدو أن السبب في ذلك تقديس المسيحيين لاسم «إيلياء» من جهة، ومن جهة أخرى أن هذا الاسم قديم يعود إلى أحد أبناء نوح عليه السلام، وكذلك فإن هذا الاسم أطلقه أحد ملوك الروم المسيحيين «أبطوليس» عندما أعاد بناء بيت المقدس، كما أن اسم إيليا» يعرف عند مسيحيي الشرق «يمار إيلياس» وقد أقيم على اسمه أديرة وكنائس في بر الشام وفلسطين[3]...

وكانت القدس - أثناء الفتح الإسلامي لها - صلحاً - تسمى «بإيلياء» أو «بيت المقدس». وليس (بأورشليم) أو (صهيون)... يذكر البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»... أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطى «أهل إيلياء» أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وصلبانهم وسائر ملتها[4]. وقد استمرت القدس تحمل اسمها المقدس منذ الفتح الإسلامي في عام ٦٣٦م حتى عام ١٩٦٧م وهو عام النكسة - أي (أكثر من ثلاثة عشر قرناً).

وإيجازاً لما ذُكر عن الجذور التاريخية لمدينة القدس وعن أسمائها ونعوتها...

---

(١) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٣٤٧.

(٢) انظر: سفر الملوك الأول، ١٧: ١ - ١٨: ١، ودائرة المعارف، البستاني، مادة إيلياء.

(٣) انظر: نفسه، مادة إيلياء.

(٤) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٤٤.

نستطيع أن نقدم تحديداً تاريخياً دقيقاً عن المدة الزمنية التي استطاع اليهود استعمال اسم «أورشليم» واتخاذها قاعدة لهم، وذلك من عهد (داود) أول ملوكهم عام ٩٥٠ ق.م والذي اغتصب هذه المدينة واسمها معاً من الاراميين واليبوسيين الكنعانيين، وحتى سقوطها وتخريبها، وتشتت شمل بني إسرائيل على يد الملك الأشوري «سرجون الثاني» عام ٧٢١ ق.م[١]... أي أن هذه المدة الزمنية تساوي قرنين وربع القرن فقط... أما ما عدا ذلك فليس هناك باسم أورشليم إلا على صفحات الورق، حيث بدأ كيان بني إسرائيل يتصدع ويتلاشى منذ عام ٧٢١ ق.م على يد الأمم التي غزت فلسطين وبيت المقدس. واليوم - ومنذ حرب حزيران من عام ١٩٦٧م، عاد اليهود إلى استعمال اسم «أورشليم» ظناً منهم أن هذه المدينة المقدسة سوف تستمر تحمل هذا الاسم مدة من الزمن أطول... ولكن التاريخ وحده هو الذي ينطق بالحق والحقيقة، وأن إسرائيل سوف تزول من الوجود نهائياً إن عاجلاً أو آجلاً، وأن اسم «القدس» سوف يبقى خالداً أبدياً.

الجذور الدينية والتاريخية للقدس

لقد ذكر الله عز وجل في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وتتفق مصادرنا الأولية إلى أن الملائكة أول من بنت الكعبة، ثم أعاد آدم - عليه السلام - بناءها، ومن بعده أشادها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وإذا علمنا أن «الكعبة» هي أول بيت مقدس لله وضع للناس للعبادة، فإن «بيت المقدس» هو البيت الثاني الذي وضعه الله ليأمه الناس لحجه وعبادته...

وقد روى المحدثون عن أبي ذر أنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟، قال: المسجد الأقصى، قلت:

---

(١) انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الثاني، بغداد ١٩٥١م، ص١٢٠.

كم بينهما؟.. قال: أربعون سنة»[1]. ومن هنا ربط القرآن الكريم بين المسجد الحرام (في الكعبة) وبين المسجد الأقصى (في القدس)، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء][2].

وقد اختلف المؤرخون والعلماء حول أول من بنى مسجد بيت المقدس. فروى بعض العلماء، أن أول من بناه الملائكة بأمر الله تعالى. ويقال إن الذي بناه إسرافيل. ومن العلماء من قال: بنى مسجد بيت المقدس آدم عليه السلام ومنهم من قال: اسمه سام بن نوح على أن بناء داود، وسليمان أباه إنما كان على أساس قديم، لا لأنهما المؤسسان له[3]. هذه هي وجهات النظر الدينية المتعددة في كيان القدس ووجودها... وعلى ضوء هذه الوجهات، فالقدس تكون في أساس وجودها وقدسيتها من الله تعالى أولاً وقبل كل شيء...

إن أقدم جذر تاريخي في بناء إيلياء القدس - إيلياء أحد أسماء القدس - إنما يعود إلى اسم بانيها وهو إيلياء بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام[4]. وإذا أخذنا بوجهة

---

(١) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٧.

(٢) وفي تفسير هذه الآية الكريمة كما جاء في الأحاديث، والروايات: المسجد الأقصى: هو مسجد بيت المقدس. الذي باركنا حوله: يعني بالأنهار والأشجار والأثمار. وعن ابن عباس في قوله: باركنا حوله: فلسطين والأردن: هو نهر الشريعة المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]. وقال أبو القاسم السهيلي: (الذي باركنا حوله) يعني الشام. والشام بالسريانية، الطيب، وسميت بذلك لطيبها وخصبها، وقيل (باركنا حوله) بمقابر الأنبياء، وفيه يحشر الناس يوم القيامة. وسمي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام. وقيل لبعده عن الأقذار، والخبائث. وروي أنه سمي الأقصى لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص.

(٣) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٧-٨.

(٤) انظر: ياقوت، معجم البلدان، مادة «إيلياء».

نظر الشعوب السامية[1]، فإن الكنعانيين كانوا من أقدم هذه الأقوام التي سكنت فلسطين، وكان ذلك في حدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، والكنعانيون يتألفون من عدة قبائل أشهرها «اليبوسيون» الذين حلوا في المنطقة الجبلية التي تعرف الآن بمنطقة القدس. وأقاموا في الكهوف، والمغاور، والبوادي. ثم بنوا مدينة كبيرة لهم سموها «يبوس» وهي «القدس». وكان أحد ملوكهم وهو «مليك صادق» أول من اختطها وبناها - وقد عرف «مليك صادق» بالتقوى، وحب السلام، حتى أطلق عليه «ملك السلام»، ومن هنا جاءه اسم المدينة «سالم» أو «شالم»[2].

وفي رواية أخرى في أمر بناء «القدس» أن: «مليكيصادق» نزل بأرض بيت المقدس، وقطن بكهف من جبالها يتعبد فيه. واشتهر أمره، حتى بلغ ملوك الأرض الذين هم بالقرب من أرض بيت المقدس، والشام وسدوم وغيرها، وعدتهم اثنا عشر ملكاً، فحضروا إليه، فلما رأوه وسمعوا كلامه اعتقدوه وأحبوه حباً شديداً، ودفعوا له مالاً ليعمر به مدينة القدس. فاختطها وعمرها وسميت «بروشليم»، معناه بالعبرانية «بيت السلام» فلما انتهت عمارتها، اتفقت الملوك كلهم أن يكون «مليكيصادق» ملكاً عليها وكنوه بأبي الملوك[3].

ويؤيد هذه الرواية الكاتب التركي المعروف «ضياء ويغور»، في كتابه القيم «جذور الصهيونية» بقوله: «لقد كانت فلسطين ملك العرب قبل أن يطأ بنو إسرائيل على منطقة جبل «صوعر»، وأن اليبوسيين هم الذين بنوا القدس «أورشليم» سنة ٣٠٠٠ ق.م. وكانت تدعى «يبوس» واليبوسيون أصلاً من العرب، من صميم

---

(١) إن أول من أطلق اسم «السامية»، وأذاعها بين العلماء علماً على هذه الشعوب - عالم نمساوي اسمه: «أوغست لودويك شلوتسر» أطلقها عام ١٧٨١م فشاعت منذ ذلك الحين. انظر: الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٢٣.

(٢) انظر: أميل الغوري، كتاب فلسطين، بغداد، ١٩٦٢، ص٥.

(٣) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٨.

الجزيرة، وهم أبناء بطون رحلوا مع الكنعانيين نحو الشرق، واستوطنوا فلسطين»[١]. ويؤكد المسعودي في كتابه «مروج الذهب»: أن الكنعانيين كانوا ممن عمر الشام»[٢]. وأن بلاد الشام كانت هي كنعان. وقد نزل ولد كنعان بن حام، وهم الأغلب من ولد كنعان في بلاد الشام، وهم الكنعانيون[٣]. وأن اليبوسيين قد حصنوا مدينتهم بسور عظيم، وكان لهم الفضل الأكبر في صد هجمات «يوشع» الإسرائيلي وقومه، وبقاء المدينة في يد أصحابها[٤].

ومن السكان الأصليين، والعريقين في القدم ممن استوطنوا بلاد فلسطين، هم البربر. وقد ساهم هؤلاء إلى جانب إخوانهم من اليبوسيين الكنعانيين في تشييد مدينة القدس، وتطويرها، وذلك قبل أن يأتي الدخلاء اليهود من بني إسرائيل إلى هذه المدينة المقدسة بزمن كبير، ويشير المسعودي: «إلى أن أرض البربر خاصة كانت أرض فلسطين من بلاد الشام، وأن ملكهم كان «جالوت»، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم»[٥]. ويذكر المسعودي أيضاً إلى أن الناس قد تنازعوا في بدء أنساب البربر، فمنهم من رأى أنهم من غسان، وقال غيرهم من اليمن، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان»[٦].

ويشير المسعودي في مكان آخر[٧]، وبعد مقتل «جالوت» على يد داود هاجر هؤلاء البرابرة إلى بلاد المغرب، واستوطنوا هناك[٨]. وأن داود اغتصب مدينة

---

(١) انظر: ضياء أويغور، جذور الصهيونية، ترجمة إبراهيم الداقوقي، بغداد، ١٩٦٦، ص٦.
(٢) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٩٥.
(٣) انظر: نفسه، ج٢، ص١٢٣.
(٤) انظر: مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ص٣٩٦.
(٥) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٩٥.
(٦) انظر: نفسه، ج٢، ص١٢٣.
(٧) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية: ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١.
(٨) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٩٥.

اليبوسيين، حسب ما جاء في سفر صموئيل الثاني ٥: ١١، «وانتقى داود حصن أورشليم اليبوسي ليكون عاصمة له، وكان قد انتزعه من أيدي سكانه اليبوسيين».. وفي هذه المدينة أقام داود مقره الملكي. وهو قصر بني بالحجارة، وخشب الأرز من لبنان. وقد بناه معماريون، ونجارون صوريون أرسلهم صديقه الفنيقي الملك حيرام (٨٩١- ٩٤٧ ق.م)[١].

الأصلي الديني في تسمية القدس

التسمية الكنعانية: من المعروف بداهة أن للقدس الشريف عدة تسميات، وهي في كليتها لم تأت من فراغ، وإنما كلها اشتقت وأخذت من أصول دينية وتاريخية، وقد تكرر ذلك على مر حقب تاريخ المدينة المقدسة لدى أتباع الديانات السماوية الثلاث: اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام فحسب، ولدى قدماء العرب من الكنعانيين وفروعهم اليبوسيين، وجميعهم أقوام من العرب الساميين.

ولما شيد العرب الكنعانيون مدينة القدس قبل حوالي خمسين قرناً من الزمان، أطلقوا على المدينة اسم «أوروسالم» أي مدينة الإله سالم، وهو إله الكنعانيين العرب[٢]. وقد حُرّف هذا الاسم عدة مرات فجاء على شكل «بروشالايم» و«روشالايم» وهما اسمان للمدينة وقد وردا في أسفار العهد القديم[٣]. وسماها اليونان في عهد الإسكندر المقدوني «هيروسوليما». وردت أيضاً المسمى «جيروزلم» وغيرها من مسميات أخرى ذات دلالات دينية تدل على قداستها.

هكذا غدت المدينة الكنعانيّة مدينة روحية ومقدسة لدى الكنعانيين

---

(١) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١، ص٢٠٤.

(٢) الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، في بيت المقدس (١)، دار الطليعة، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٥٠.

(٣) راشد، سيد فرج، القدس عربية إسلامية، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٧- ٢٨.

واليبوسيين الذين كانوا يؤمنون بتوحيد الرب سالم، وقد قدم زعيمهم وملكهم (ملكي صادق) الذبائح لهذا الرب على الصخرة الكائنة في المسجد القدسي الشريف، وأصبحت تلك الصخرة مقدسة لديهم. وظل الكنعانيون واليبوسيون يعتزون بحضارتهم وفكرهم الديني الذي ارتكز على الإيمان بتوحيد الرب، ذلك الإيمان الذي هو في جوهره مخالف للمألوف والسائد لدى الجماعات البشريّة الأخرى التي عبدت أوثاناً في ظل الفكر الوثنيّ الكامل، ويظل هذا المعتقد الذي مارسه الكنعانيون قديماً يشكل نمطاً وفكراً توحيدياً جديداً في فهم مبادئ الديانات السماويّة لدى الشعوب التي عاشت في تلك المنطقة.

وتأسيساً عليه فإن الكنعانيين العرب هم أول من قدس مدينة أوروسالم (القدس)، وهم الذين صاغوا اسمها وشكلوه وطبعوه بالطابع الدينيّ المتداول لديهم وقتذاك لأنهم ظلوا يعتزون بقدسيتها ومكانتها، وظلت قدسية المدينة ماثلة منذ فجر التاريخ وحتى أيامنا الحاضرة والمستقبلية، وهو أمر يقدره الجميع ويحترمه. وقد أيدت التوراة[1] تلك القدسيّة التي كانت تتمتع بها المدينة في ظل العهد الكنعانيّ واليبوسيّ كدليل آخر على مدى ما وصلت إليه تلك المدينة من مكانة دينية وقدسيّة شاملة قبل اليهودية بزمن ليس بقصير.

وقد تركز هذا المفهوم الدينيّ ودعم من خلال ما شيده الكنعانيون وأقاموه من أماكن دينيّة في المدينة تخص عبادتهم، ولتكون وسيلة من وسائل الممارسة الدينيّة في مجال التوحيد ودائرته.

التسمية اليهوديّة:لقد تغير اسم المدينة بعدما دخلها النبيّ داود عليه السلام فأطلق عليها اسم مدينة داود نسبة إليه[2]. ونلمس في هذه التسمية دلالة دينيّة واضحة. فكما

---

(١) سفر التكوين ١٤: ١٨. جريس، سمير، القدس: المخططات الصهيونيّة، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨١م، ص٩.

(٢) الدباغ، بلادنا، في بيت المقدس (١)، ص٣٢.

نسبها الكنعانيون إلى إله السلام عندهم، فإن نسبتها إلى النبي داود عليه السلام فيها الدلالة الدينيّة ذاتها، ويكون اليهود بذلك قد عمموا عليها هالة من القدسيّة اعترافاً منهم بقدسية المدينة واحترامها الديني. وقد طبعوها بطابع ديني يتناسب مع معتقداتهم ودينهم، وليكونوا بذلك قد ورثوا الطابع الدينيّ الذي تركه الكنعانيون العرب بعد سقوط دولتهم، وهو في الوقت نفسه يوضح مدى التأثير الحضاريّ الكنعانيّ على اليهود.

ولم يدم اسم مدينة داود طويلاً، فحل محله اسم «أورشليم»، وقد ورد هذا الاسم في العهد القديم في سفر يوشع في الإصحاح العاشر، وكلمة أورشليم ليست جديدة، وإنما هي تحريف لاسم المدينة الأساس وهو «أوروسالم» الاسم الكنعانيّ العربيّ، كما وردت أسماء أخرى محرفة مثل «يروشاليم» وجاء في الموسوعة الفلسطينيّة[1] ما يلي: «وردت كلمة أورشليم التي تلفظ بالعربيّة «يروشالايم» أكثر من (٦٨٠) مرة، وهذه الكلمة مشتقة مباشرة من التسمية الكنعانيّة الأصلية. وتطلق التوراة كذلك على المدينة أسماء أخرى كثيرة هي: «شاليم» و«مدينة الله» و«مدينة القدس» و«مدينة العدل» و«مدينة السلام»، وتذكرها أحياناً يبوس أو مدينة «اليبوسيين»».

التسمية الرومانية: إبان العهد الرومانيّ في المدينة قامت ثورة يهوديّة بزعامة باركوخيا سنة ١٣٢م، فأخمدها الإمبراطور هادريانوس سنة ١٣٥م، وخرَّب المدينة المقدسة، وبنى على أنقاضها مستعمرة رومانيّة وحرم اليهود من دخولها قطعياً، وأطلق الإمبراطور هادريانوس على المدينة الجديدة اسم إيليا كابيتولينا[2]. واسم إيليا

---

(١) الموسوعة الفلسطينيّة، المجلد الثالث، ص٥١٠.

(٢) ورد في الموسوعة الفلسطينية أن إيليا هو اسم هادريان (هادريانوس) الأول، الموسوعة، مجلد ٣، ص٥١١.

وورد في كتاب القدس عربية إسلاميّة لمؤلفه الدكتور سيد فرج راشد أن كلمة الكابتول هي=

أو إلياء هو اسم القدس كما ورد في العهد العمريّة، فيذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن إيليا يعني بيت الله، وهوت اسم رومانيّ يدل على قدسيّة المدينة عند الرومان. وقد وردت في شعر الفرزدق بهذا المعنى فيقول:

وبيتان بيت الله نحن ولاته ومقرٍ بأعلى إيلياء مشرف

وقد أعاد الإمبراطور قسطنطين بعد دخوله في الديانة النصرانيّة اسم أورشليم إلى المدينة، وألغى اسم إيليا كابيتولينا من الوجهة الرسميّة، لكنه لم يستطع أن يلغيها على الصعيد العام في مجال التخاطب بين الناس، وبقي هذا الاسم شائعاً في الاستعمال والتداول ردحاً من الزمن. وقد ورد اسم مدينة إيلياء في العهدة العمريّة، وهي الأمان الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ إلى سكان المدينة بعد الفتح الإسلامي لها، وورد في العهدة المذكورة اسم أهل إيلياء دلالة على سكان المدينة.

الأصل الدينيّ في التسمية الإسلامية:

مما لا شك فيه أن الإسلام الحنيف عني بالقدس عناية فائقة جداً. فوردت في القرآن الكريم عدة أسماء تدل عليها وتعنيها كاملة. فجاء في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾. ووردت ضمناً في سورة البقرة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾﴾. ووردت في سورة التين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾. قال ابن عساكر عن ابن عباس: «إن التين بلاد الشام، والزيتون بلاد المقدس، وطور سنين هو الجبل الذي كلم الله

=اسم معبد جبتر الكبير. انظر الكتاب المذكور في هامش (٢)، ص٢٨.

موسى عليه، وهذا البلد الأمين هو مكة المكرمة»[1]. وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء].

وورد ذكر المدينة نصاً في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال: «أتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم عرج بنا إلى السماء»[2] وروي عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الخلق أولاً دخولاً إلى الجنة يوم القيامة؟ قال: الأنبياء. قال: ثم من؟ قال: الشهداء؟ ثم قال: مؤذنو مسجدي هذا. قال: ثم من؟ قال: سائر المؤذنين على قدر أعمالهم»[3]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض. قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»[4]. وورد في كتاب «الملل والنحل» بخصوص موضع دفن الرسول ﷺ عندما توفي. أراد أهل مكة من المهاجرين دفنه في مكة المكرمة على اعتبارها مسقط رأسه وموطئ قدمه وموطن أهله... إلخ. وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه في المدينة لأنها دار هجرته ودار نصرته، وأراد جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن فيه الأنبياء، ومنه كان معراج الرسول ﷺ إلى السماء. وفي النهاية اتفقوا على دفنه في المدينة المنورة، لما روي عن الرسول أنه قال: «الأنبياء يدفنون حيث يموتون»[5].

وهكذا نرى مدى توافق الروابط الدينيّة والصلة القويّة بين مكة المكرمة

---

(١) الدكتور راشد سيد فرج، القدس، دار المريخ للنشر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٨.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للقاضي عياض، ص١٤٨.

(٤) رواه في كل من البخاريِّ ومسلم والنسائيّ.

(٥) الشهرستانيّ، الملل والنحل، ج١، ص١٥.

وبيت المقدس، وبين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهي روابط توحيدّية كاملة وشاملة، قد أقرها الإسلام الحنيف وركزها وحافظ عليها. وقد تكررت قدسية المدينة واحترامها الدينيِّ عند المسلمين، وانطبق هذا على كل التسميات التي أطلقها المسلمون في كل عهودهم التاريخية المتعاقبة على اسم المدينة. فسموها «بيت المقدس» وتعني اسم للموضع الذي طهر من الذنوب. وقد اشتقت تلك التسمية من كلمة «القدس» وهي لفظة تعني البركة والطهارة والنقاوة، ومعهما يصبح اسم بيت المقدس هو المكان الذي يطهر في الذنوب[1]، وهو في مفهومه الشامل يعني الطهر والطهارة، فمدينة بيت المقدس تعني مدينة مقدسة يطهر فيها الذنوب[2].

وقد أطلق المؤرخون المسلمون، وكذلك الجغرافيون المسلمون على المدينة عدة تسميات في كتاباتهم ومؤلفاتهم، منها اسم بيت المقدس، ويعني التطهر والتطهير، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۝٣٠﴾ [البقرة]. ويكون بذلك البيت المقدس يعني البيت المطهر من الذنوب[3]. ويذكر لنا النويريّ أن المدينة سميت بالمدينة المقدسة لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين[4]. وأطلق القلقشندي على المدينة اسم القدس[5] وهذا الاسم لا

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ص٣٩٧.

(٢) الحنبلي، مجير الدين العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، فيما يخص تسمية بيت المقدس.

النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الأول، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، القاهرة، ص٣٢٥.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جدة، دار صادر، بيروت ١٩٥٥م، ص١٦٦.

(٤) النويري، نهاية، ص٣١٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٦٣م، ص١٠٠.

يختلف في معناه ومفهومه الدينيِّ عن غيره من معاني الأسماء التي سميت بها المدينة المقدسة.

وسميت المدينة أيضاً باسم «القدس». وظلت المدينة المقدسة تسمى بهذا الاسم زمناً طويلاً حتى أصبح اسم القدس اسماً شائعاً ومعروفاً لدى الجميع، وهو الاسم المتداول في وقتنا الحاضر. والقدس في معناها لا تختلف عن معاني الأسماء الأخرى التي سميت بها المدينة المقدسة. والقدس تعني المكان أو الموضع الذي باركه الله تعالى. وقد شاعت تسمية المدينة باسم القدس الشريف طيلة العهد العثمانيّ، وهي أيضاً في معناها لا تختلف عن الأسماء التي وردت في السياق.

وبإجماع شهادات التاريخ في كل مراحله، تلك الشهادات المتأصلة والمؤصلة، فإن مدينة القدس تظل تأتي في قائمة المدن العالمية والدوليّة ذات التاريخ العريق الممتد بجذوره إلى أبعد من (٥٠٠٠) سنة من وقتنا الحاضر، يوم أن عمرها الأراميون ثم الكنعانيون العرب، وسموها «مدينة السلام» نسبة إلى سالم أو «شالم» «إله السلام» عندهم. وقد انتقل هذا الاسم الديني إلى الأمم القديمة وشعوبها عبر الساميين القدماء الذين توطنوا في العراق القديم[1].

وبناء عليه فإن مدينة القدس من أعتق المدن المقدسة، وأن أصالتها التاريخيّة، وجذورها الدينيّة المتأصلة والمتعمقة تمتد بجذورها إلى عهد بعيد، ولدى أمم وشعوب عالمية كثيرة، وديانات مختلفة ومتنوعة، كل هذا أعطى المدينة صفة دينية عالمية ودولية. وأن قدسيتها وثبات منزلتها وقيمتها الدينية التي لم تقتصر على أتباع دين بعينه، وإنما نالت تقديس جميع أتباع الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام، وامتدت قدسيتها قبل ذلك إلى عهد أبعد، وهو عهد سكانها الساميون ابتداء من الآرامية والكنعانية السامية: الكنعانيّة واليبوسيّة وغيرهما. وإن

---

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، في بيت المقدس (١)، ص٥.

أوج عظمة المدينة وتطورها واحترام منزلتها بلغ في العهد الإسلامي في ظل فترات حكمه المتعاقبة على المدينة، وليس هذا من قبيل الصدف ولا مصانعة للتاريخ، وإنما يطلق هذا من عمق المفهوم الإسلامي وتقديره لكل الديانات السماوية وأتباعها، وبما يتحلى به المسلمون بموجب مبادئ الإسلام من صفات مميزة قد لا تتوافر لغيرهم، فهم رسل محبة وسلام لكل شعوب الدنيا، فهم يعترفون بكل الأنبياء والرسل وما جاؤوا به من ديانات بأمر ربهم، وهم يحترمون أتباعها ويحافظون عليهم ويرعون شؤونهم، وتأسيساً عليه فإنهم البشر الذي يحق لهم أن يحكموا المدينة المقدسة، ويشرفوا عليها ويدبروا كل شؤونها السياسيّة والإدارية، لأن هذا احق هو ملك لمن يتحلى بكل تلك الصفات ذات الأساس الديني والتاريخي والإنساني. ولا بد أن يكون مبدأ هذا الحق مبدأ مقراً ومعمولاً به كل تظل المدينة المقدسة ورعاياها المرابطون ينعمون بالأمن والاستقرار، ولكي تنعم كل أمم الأرض في ممارسة واجباتها الدينية بكل حرية واطمئنان، يوم أن تظل المدينة المقدسة بعيدة عن الحروب والصراعات الدوليّة والمحليّة.

ولا غرو فإن بقعة المسجد الأقصى الذي باركه الله تعالى وبارك البقاع من حوله تعد من بين أوسع بقاع الأرض قدسيّة يشترك فيها: الموحدون الأوائل من الكنعانيين وغيرهم، واليهود والنصارى والمسلمين ولا بد للجميع من المحافظة على سلسلة الوصل والربط الدينيّ والحضاريّ والإنسانيّ التي تشد البشر كلهم نحو القدس لتوافق روابط أسس التوحيد الكامل والشامل.

القدس أسماؤها ونعوتها

يقول عارف العارف عن القدس: «لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذي لعبته مدينة القدس في التاريخ، إنها وإن لم تكن من المدن التجارية المهمة، ولا من المدن الزراعية أو الصناعية على الرغم من وقوعها بين البادية في الشرق، والبحر من الغرب، إلا أنها كانت على مرّ الدهور مطمح أنظار الغُزاة

والفاتحين فحوصرت مراراً، وهدمت تكراراً، وهجرت، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة في التاريخ، ولكنها بالرغم من هذا كله ظلت قائمة في هذا الوجود، وظل اسمها مذكوراً في طليعة المدن والبلدان، ذلك لأنها مقدسة في نظر جميع الأديان» ولهذا أيضاً نعتت بأسماء عديدة على مرا لعصور القديمة.

والباحث في تاريخ القدس لا يستطيع أن يقطع بمبدأ هذا التاريخ ويعرف كيف نشأت هذه المدينة أول ما نشأت، وكل ما يمكن التثبت منه هو أن هذه المدينة موغلة في القدم ويرجع ظهورها الأول إلى الآرامية والكنعانية ثم اليبوسية.

أما الأخبار فتقول أن أرض مدينة القدس كانت صحراء قبل أن تبنى وتحصن وهي واقعة بين أودية وجبال ليس فيها بناء أو عمارة، فكان أول من اختطها وبناها ملك اليبوسيين المدعو ملكي صادق، ومعناه بالعبرانية ملك الصدق، وقد قيل أنه اسم لسام بن نوح، وقيل أن أول اسم أطلق على القدس كان «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين، وقيل بل إن أول اسم أطلق عليها كان اسم إيلياء باسم الذي بناها على ما تقول هذه الأخبار وليس ملكي صادق، وأن إيلياء هذا كما يقول ياقوت هو ابن أرم بن سام بن نوح وهو أخو دمشق! وحمص! وأردن! وفلسطين[1] مما لا يخرج عن دائرة الأخبار.

وفي بيت المقدس مكان مقدس منذ القدم: هو الصخرة والمسجد الأقصى ويقال أنه في مدينة القدس، كان ولا يزال أميز مكان مقدس فيها منذ القدم هو الصخرة[2] والمسجد الأقصى (وهو مسجد بيت المقدس).

ويقال لمسجد بيت المقدس «الزيتون»، ولا يقال له الحرم. وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين].

---

(١) معجم البلدان، مادة إيلياء، دار صادق ودار بيروت - بيروت.

(٢) وكانت صخرة بيت المقدس أيام سليمان، ارتفاعها اثنى عشر ذراعاً، وكان ارتفاع القبة التي عليها ثمانية عشر ميلاً. انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٢.

وروي عن أبي هريرة قال: «أقسم ربنا جل جلاله بأربعة أجبل فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، قال: التين طور سيناء مسجد دمشق، والزيتون طور زيتا مسجد المقدس، وطور سنين حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين جبل مكة[1]. وبهذا يكون «بيت المقدس» قد نعت «بالمسجد الأقصى» وبالزيتون.

أما مدينة القدس - ومن ضمنها بيت المقدس - فقد نعتت بأسماء متعددة. مثل (أورشليم) و(صهيون) (إيلياء). أما الاسم الآخر الذي نعت به (بيت المقدس) فهو «إيلياء أو إيليا» - بهمزة مكسورة، ثم ياء آخر الحروف ساكنة، ثم لام مكسورة، ثم ياء آخر الحروف ثم ألف ممدودة - ككبرياء، وحكي فيها «القصر»، ومعناه «بيت الله المقدس»[2]. ويشير ابن خرداذبة في كتابه «المسالك والممالك»: أن من كور فلسطين «إيليا» بدون همزة في الأخير، وهي بيت المقدس[3]...، و«إيلياء» بالألف الممدودة وبالألف المقصورة «إيليا» وبحذف الياء الأول «إليا» ومعناه بيت الله المقدس، وقد سمي البيت المقدس إيلياء على ما جاء في شعر الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاته ... وقصر بأعلى إيلياء مشرف

وهناك من يرى أن اسمها الأول كان «روشلم» وحين تم بناؤها[4] أما أسماؤها الأخرى من أورشليم «أوريسلم» بالسين المهملة و«أويشلوم» بتشديد اللام و«أوراسلم» فهي أسماء عبرانية أطلقت عليها فيما بعد، ومن ضمنها «ضروشلم» التي وردت في كتاب «الأنس الجليل» محرفة على ما نعتقد. وفي حديث عطاء أبشري «أوري شلم» يراكب الحمار يريد بيت المقدس.

---

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٦ - ٧.

(٢) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص٦.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن، ص٧٨.

(٤) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي ج١ ص١٠.

قال الأعشى:

قد طفـــتُ للمـــال آفاقَـــه　　　عمان فحمص، فأوري شلم[١]

وهناك أسماء قديمة أخرى أطلقت على مدينة القدس قبل أن تسمى «بالقدس» ومن ضمن هذه الأسماء اسم «سالم» واسم «شالم» وقد اشتق الاسمان من اسم «ملكيصادق» الباني الأول للقدس، والذي أطلق عليه «ملك السلام»[٢]، على ما تقول الروايات. وكلمة «أور» بالكنعانية تعني «مدينة»[٣]. وعليه يصبح اسم مدينة القدس «مدينة السلام». كذلك كانت القدس تسمى قديماً (يبوس) نسبة إلى سكانها (اليبوسيون) وهم بطن من بطون العرب.

والواقع أن هذه الأسماء المتعددة لا تتعدى عن كونها نابعة، أو صادرة عن اسم لمكان جغرافي... أو اسم لشخص، أو اسم أطلق من قبل ملك معين، أو اقتباس من اسم سابق... وهكذا...، أما اسم «أورشليم» الذي يتمسك به اليهود، والوارد في توراتهم المحرف، فإنه كان معروفاً قبل ذلك. ويؤكد الدكتور فيليب حتي في كتابه «تاريخ سوريا، ولبنان، وفلسطين»: «بأن أصل الاسم من الكنعانية (بأورشالم)». بمعنى «دع شالم يؤمس». وكان «شالم» إله السلام عند الكنعانيين[٤].

كذلك ورد في ألواح «تل العمارنة»[٥]، اسم «أورسلموا» الذي يعود إلى القرن

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ج١، ص٥٠.

(٢) تاريخ القدس، نقلاً عن سفر التكوين، الإصحاح ١٤ العدد ١٨.

(٣) كتاب فلسطين، لأميل الغوري، طبعة بغداد ١٩٦٢، ص٥٥، وكذلك كتاب «الأردن»، إعداد وزارة السياحة الأردنية، عمان ١٩٦٢، ص٥٥.

(٤) انظر: فيليب حتي، تاريخ سورية، ج١، ص٧٣.

(٥) تل العمارنة: من المناطق الأثرية القديمة، تقع في مصر الوسطى، على نهر النيل، شمال مدينة أسيوط.

الرابع عشر قبل الميلاد»[١].

أما اسم «أورشليم» الذي أدخله الإسرائيليون في توراتهم المحرف، فقد ورد أيضاً في نقش مصري قديم يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد[٢]. ويشير مجير الدين إلى أسماء القدس (ورشلم) و(سشلم) ومعناهما بالعبرانية بيت السلام. وعليه فإن اسم «أورشليم» كان معروفاً، وموجوداً قبل أن يغتصب الإسرائيليون هذه المدينة من أيدي أصحابها اليبوسيين الكنعانيين. المستقرين في هذه البلاد في حين كان بنو إسرائيل مشتتين في أرجاء الأرض.

ومن الواضح أيضاً أن اسم «أورشليم» ليس اسماً دينياً، وإنما هو اسم دنيوي، أطلق من قبل أحد الملوك اليبوسيين. وقد أخذه اليهود واقتبسوه - بعد اغتصابهم للمدينة - وحشروه في توراتهم المحرف، لغرض إعطاء الصبغة الدينية[٣]. كما أطلق اليهود على «أورشليم» اسم صهيون[٤]، كما ورد ذلك في سفر أشعيا[٥]، ويرد كذلك اسم صهيون في الأدبين اليهودي والمسيحي[٦].

ومن الواضح أن اسم «صهيون» هو اسم الجبل في فلسطين يقع كغيره من المرتفعات الأخرى في مدينة القدس. وقد سمي هذا الجبل باسم «صهيون» بعد انتزاع بني إسرائيل هذه البقعة المقدسة من أيدي اليبوسيين الكنعانيين، فأدخل اليهود هذا الاسم أيضاً في توراتهم المحرف ليطبعوه بطابع ديني مزيف. وأيضاً سماها الإمبراطور أدريانوس سنة ١٣٩ باسم «إيليا كابتولينا» ولكنها عرفت باسم «إيلياء»

(١) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، بيروت، ص٣٩٦.

(٢) المصدر نفسه، الدباغ، ج١، ص٣٩٦، مجير الدين: الأنس الجليل، ج١، ٦-٧.

(٣) العهد القديم، المزامير: ١٢٨: ٦، ١٤٧: ٢.

(٤) وصهيون، بكسر الصاد المهملة، ويقال لمسجد بيت المقدس، الأنس الجليل، ج١، ص٦-٧.

(٥) سفر أشعيا ١٤: ٣٢، والمزامير ١٢٨١: ٦، ١٤٧: ٢.

(٦) الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٥، مادة «قدس».

أي بيت الله واستمرت هذه التسمية حتى الفتح الإسلامي. حيث استقرت على اسم واحد هو (بيت المقدس)، وسمي مسجدها بالمسجد الأقصى، ثم اقتصر اسمها بعد ذلك على (القدس) وهو من أسماء الله[1]. والقدس هو «البيت المقدس» وقد سمي بذلك في الإسلام لأنه المحل الذي يتطهر فيه من الذنوب أو سمي كذلك للبركة التي فيه، وقال الشاعر:

لا نوم حتى تهبطي أرضَ القُدُسْ وتشربي مـن خيـر ماءٍ بِقُدْسْ

وقد أراد بذلك الأرض المقدسة على ما جاء في تاج العروس ولسان العرب.

والقُدّوس هو الطاهر المنزه من العيوب، ولم يجيء منه إلا «قدّوس» و«سبّوح» و«ذرّوح» وقد تكرر ذلك التقديس في الحديث والمراد به التطهير، ومنه الأرض المقدسة، قيل هي الشام وفلسطين، وسمي «بيت المقدس» لأنه الموضع الذي يتقدس فيه من الذنوب، ويقال «بيت المقدس» و«البيت المقدس» و«بيت القُدُس». ومن الحديث: لا قُدّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها، أي لا طُهّرت[2].

والواضح من استعراض هذه الأسماء المتعددة لمدينة القدس، وبيت المقدس، أنها كانت موجودة ومعروفة، قبل اغتصاب بني إسرائيل لهذه المدينة المقدسة، ولكن اليهود دأبهم في كل زمان ومكان، يسرقون مثل هذه الأسماء، ويحرفونها، ثم يحشرونها حشراً في توراتهم المحرف، لكي يشبعوا رغبة التملك والسيطرة والتوسع على بقعة لا تمت لهم بأية صلة تاريخية أو دينية أو لغوية...

القدس في التوراة

إن التوراة التي يعتمد عليها اليهود - هي في الواقع - ليس بتوراة (موسى بن عمران) عليه السلام - ولم ترد فيها مطلقاً اسم «أورشليم» أو «القدس»... وإنما التوراة

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣ ص٢٣٣- ٢٣٤، مطبعة العثمانية بسوق الزلط بمصر.

(٢) تاريخ القدس، لعارف العارف، ص١١، دار المعارف بمصر.

المحرفة التي كتبت بفترات متقطعة من الزمن على أيدي أحبارهم وكهنتهم، حيث كانوا يكتبون ما تمليه عليهم ميولهم وأهوائهم. ووفق إغراضهم وهو يصور حياة الإسرائيليين، ومآسيهم وسبيهم عبر الأحداث التاريخية، أكثر مما يصور حقيقة المدينة المقدسة، أو القدس الشريف...

هناك روايتان بهذا الخصوص: الأولى: يذكرها اليعقوبي - في كتابه التاريخ العام - وهي: أن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن يكتب العشر الآيات أو «الوصايا العشرة» في لوحي زمرد، فكتبها على ما أمره الله. وأقام أربعين يوماً يكتبه على طور سيناء... وقد استبطأه قومه، وعملوا عجلاً فعبدوه - وبعد رجوع موسى إليهم اشتد غضبه عليهم... فألقى الألواح وكسرها[1]... فهل يا ترى عثر التنقيب الحديث على ذرة واحدة، أو على حرف واحد من هذه الألواح. وعندما ذكر القرآن الكريم قبل زهاء أربعة عشر قرناً أن اليهود قد حرفوا التوراة الأولى[2]... نجد الآن وبعد كل ما سمعنا به ونلمسه من البحث الدقيق، والتقدم العلمي الكبير الذي سهل على علماء الآثار، ثم المؤرخين عملهم أن هذا الكلام هو عين الحقيقة[3]. فهذا (أبا هليل سلفر) العالم اليهودي يقول بالحرف الواحد: (حتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية لم تكن بكمالها، وعلى هيئتها الحالية كالتي أتى بها موسى)[4].

---

(١) انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، النجف، ١٩٦٤، ص٢٨- ٢٩.

(٢) جاء في القرآن الكريم: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣]، والآية الكريمة الأخرى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]. والآية: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة].

(٣) انظر: الدكتور سامي سعيد الأحمد، الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، منشورات الجمعية العراقية للتاريخ والآثار، بغداد، ١٩٦٩، ص٨.

(٤) انظر، نفسه، عن:

.Abba Hillel, Moses and original Torah, (New York, 1961), p. y6

أما الرواية الثانية: فيذكرها المسعودي في كتابه «مروج الذهب، ومعادن الجوهر»: أن السامرة، أو الأسامرة وهم أحد الفرق الإسرائيلية، والذين استوطنوا مدينة «نابلس» منذ القدم، والذين اختلفوا، وانشقوا على سكان «يهوذا» يدعى هؤلاء الأسامرة، أن التوراة الحقيقي «توراة موسى» كان بأيديهم، وهم يعتقدون أنه لا نبي بعد موسى عليه السلام - وفي رأي الأسامرة هؤلاء أن «نابلس» هي «بيت المقدس»[١] وليس القدس الحالية.

هذا فقد حصل الانشقاق النهائي بين الفريقين حوالي ٤٣٢ ق.م بعد عودة عزرا ونحميا من السبي، حيث دافعا عن فكرة النقاوة العنصرية، وطردا من أورشليم حفيد الكاهن الأعلى لزواجه من ابنة الحاكم السامري[٢] ويبدو أن الشاب المطرود أصبح كاهن السامريين، وبنى هيكل لأجله على جبل «جريزيم» لينافس هيكل أورشليم، وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتاب الخمسة فقط، ولذا فإن هذا القسم من العهد القديم ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين. وقد نقلوه في نوع قديم من الحروف العبرية. وجريزيم وليس صهيون هو المكان المقدس الحقيقي بالنسبة لهم[٣]. وقد ازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن، ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً به في أي وقت. هكذا كان الإسرائيليون - بفرقهم المتعددة - يتخبطون ويتصارعون - منذ العصور القديمة - ليس حول توراتهم فحسب، بل حتى حول «مدينة القدس» ومكانها أو موقعها الجغرافي. كان هذا فيما يتعلق بتوراة موسى بن عمران، وتوراة السامرة، أو السامريين... فماذا يا ترى عن بقية التوراة الأخرى؟؟...).

يشير الدكتور جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، إلى

---

(١) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، بيروت، ١٩٦٥، ص٧٢- ٧٤.

(٢) سفر نحميا ١٣: ٢٨.

(٣) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٢١٤.

أن التوراة مجموعة أسفار كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة، كتبوا أكثرها في فلسطين، وأما ما تبقى منها، مثل «حزقيال» و«المزامير» فقد كتب في وادي الفرات أيام السبي. وأقدم أسفار هو سفر عاموس "Amos" ويظن أنه كتب حوالي سنة ٧٥٠ ق.م.

وأما آخر ما كتب منها، فهو سفر دانيال "Daniel" والإصحاحان الرابع والخامس من سفر «المزامير» وقد كتبت هذه في القرن الثاني قبل المسيح...). وبالإضافة إلى التوراة هناك «التلمود» "Talmud" الذي يكمل أحكام التوراة، وهناك نوعان من التلمود: التلمود الفلسطيني، أو التلمود الأورشليمي "Yeruschalmi" كما يسميه العبرانيون اختصاراً. والتلمود البابلي نسبة إلى (بابل) بالعراق، ويعرف عندهم باسم (بابلي) اختصاراً... أما التلمود الفلسطيني، فقد وضع كما يفهم من اسمه في فلسطين. وقد تعاونت على تحبيره المدارس اليهودية "Academies" في الكنائس (الكنيس). وقد كانت هذه مراكز الحركة العلمية عند اليهود في فلسطين وأعظمها مركز (طبرية) "Tiberias" وفي هذا المحل وضع الحبر (رابي يوحنان) "Rabbi Jochanan" التلمود الأورشليمي في أقدم صورة من صوره في أواسط القرن الثالث الميلادي وتلاه بعد ذلك الأحبار الذين جاؤوا بعد (يوحنان) وهم الذين وضعوا شروحاً، وتفاسير عدة تكون منها هذا التلمود الذي اتخذ هيئته النهائية في القرن الرابع الميلادي. المعروف أن التلمود البابلي، بدأ بكتابته - على ما يظهر - الحبر (رابي - أشي) "Rabbi Ashi" المتوفى (٤٣٠م). وأكمله الأحبار من بعده. واشتغلوا به حتى اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد. ولكل تلمود من التلمودين له طابع خاص به، هو طابع البلد الذي وضع فيه، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث. والتلمود البابلي، فيظهر عليه الطابع العراقي المتميز بعمق التفكير والتوسع في الأحكام، والمحاكمات، وغنى في المادة، وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني.

وبالإضافة إلى ما ذكر فهناك أيضاً ما يسمى «بالتوراة اليوناني» فما هو هذا التوراة...؟؟..).

يذكر مجير الدين في كتابه: «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»[1] أنه لما تولى بطليموس الثاني (ملك اليونان) والمسمى عند اليهود تلماي - أرسل رسولاً وهدايا إلى بني إسرائيل المقيمين بالقدس الشريف، وطلب منهم أن يرسلوا له عدة من علماء بني إسرائيل، لنقل التوراة وغيرها إلى اللغة اليونانية، فسارعوا إلى امتثال أمره، ثم إن بني إسرائيل تزاحموا على الرواح إليه، وبقي كل منهم يختار ذلك، واختلفوا، ثم اتفقوا على أن يبعثوا إليه من كل سبط من أسباطهم ستة، فبلغ ذلك من عددهم اثنين وسبعين رجلاً. فلما وصلوا إلى بطليموس المذكور - المسمى عندهم (تلماي) أحسن قيامهم، وصيرهم ستاً وثلاثين فرقة، وخالف بين أسباطهم، وأمرهم فترجموا له ستاً وثلاثين نسخة من التوراة، وقابل بعضها ببعض فوجدها مستوية، وفرق النسخ المذكورة في بلاده.. فنسخة التوراة المنقولة لبطليموس المسمى «تلماي» أصبح نسخ التوراة، هي «التوراة اليونانية».

وأما التوراة العبرانية التي بأيدي اليهود، والتوراة السامرية، فكل واحدة منهما مبدلة لأعمل عليها[2]. وعلى ضوء هذا العرض الشامل، يصبح عندنا أنواع متعددة من التوراة، والتلمود، فمن توراة موسى بن عمران، الذي لا أثر له... والتوراة العبرانية، السامرية، وبالتالي اليونانية المترجمة هذا بالإضافة إلى التلمودين السابقين الذكر - الفلسطيني، والبابلي وما بينهما من التباعد الزمني، والمكاني، والتباين في الفكرة، والأسلوب، والأحداث التاريخية، والأحكام... وغيرها... فكيف والحالة هذه يمكن استخلاص حقائق مسلم بها، والتثبت من واقعيتها، كما

---

(١) انظر مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، النجف، ١٩٦٨، ص١٥٥- ١٥٦.

(٢) انظر: نفسه، ج١، ص١٥٥- ١٥٦.

يحاول اليهود في الوقت الحاضر التصيد في الماء العكر، واستخلاص بعض ما زيف في التوراة لتحقيق أطماعهم الاستعمارية الإحلالية الاستيطانية.

فالقدس إذاً جاء اسمها من الله، من السماء، أما «أورشليم» فقد جاء اسمها من الإنسان، من الأرض، وأن اسم «أورشليم» لم يرد في القرآن الكريم، الكتاب السماوي الأزلي المقدس، بل جاء فيه اسم «الملك القدوس السلام» واسم «الأرض المقدسة» واسم «المسجد الأقصى» وهو أقدم اسم نعت به «بيت المقدس»...). «فالقدوس» اسم من أسماء الله الحسنى، والقدس هي بيت الله، ومن هنا نعتت القدس[1]. هكذا يحرف الإسرائيليون اليوم أعظم حقيقة في تاريخ استعمال اسم هذه المدينة المقدسة. إن محاولة اليهود في الوقت الحاضر في تقديم اسم أورشليم، والتأكيد عليه، إنما هو مجرد تصور اليهود وتخيلهم أن يأتي يوم يطمسون فيه اسم «القدس» ويبقون على استعمال «أورشليم»... ولكن هذا أمر لا يقره المنطق والعلم والتاريخ...).

(١) القدس، والقدوس، اسم من أسماء الله تعالى، وبيت المقدس هو «بيت الله»، انظر: الفصل الخاص: القدس، لغة ومعنى.

الفصل الثاني: الاحتلال العبراني لفلسطين والقدس.

- العهد العبراني.
- النبي يشوع ﷺ.
- عصر القضاة.
- النبي صموئيل – وعهد شاول.
- القدس في عهد العبرانيين – عهد داود ﷺ.
- عهد سليمان ﷺ.
- الغزو الآشوري والبابلي.
- الغزو الفارسي.
- الغزو اليوناني.



العهد العبراني: ٩٦٦ ق. م(١)

النبي يشوع عليه السلام ١٢٦٧ – ١١٥٧ ق. م، يعد (يشوع بن نون) تلميذ موسى وخليفته من بعده، وهو من أنبياء بني إسرائيل بل هو (نبي) بعد وفاة موسى عليه السلام. وقد قام يشوع بأمر من موسى بافتتاح بعض الأراضي الكنعانية. خلال القرن الثاني عشر بعد موت موسى وهارون عليهما السلام. هذا ويبدأ تاريخ بني إسرائيل بالمذابح (بمذبحة أريحا) التي تعرض لها الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والدواب، وأحرقوا المدينة بالنار. لكن أنبياء الله تعالى بعيدون عن الأعمال الإجرامية لسببين: **الأول**: لأن أنبياء الله لا يمكن أن يقوموا بهذه الأعمال الأجرامية. **الثاني**: الحفريات أثبتت أن أريحا دمرت تماماً حوالي سنة (١٥٠٠ ق. م) قبل دخول يوشع إلى أريحا بثلاثمائة عام على الأقل.

كذلك فإن المدن الأخرى التي ذكر أن يشوع دمرها، كانت قد دمرت بثلاثمائة عام على الأقل في أواخر العصر البرونزي المتوسط (١٥٥٠ ق. م). وأحبار اليهود هم الذين اخترعوا هذه المذابح ونسبوها إلى الأنبياء، حتى يبيحوا لأنفسهم ارتكاب الجرائم والمذابح البشعة. وقد ردد هذه التبريرات زعماء يهود في إسرائيل.

عصر القضاة: (١١٥٧ – ١٠٢٠ ق. م) (٢):

توفي يوشع بن نون عليه السلام في حدود (١١٥٧ قبل الميلاد) وبوفاته انقطعت القيادة الجماعية لبني إسرائيل وتفرقت الأسباط إلى مجموعات ترتبط بأحلاف دفاعية

(١) انظر: محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم(١) صفحة ٦٧– ١٠١.

(٢) البار: ٧٢– ٧٣.

واهية. والفترة التي أعقبت وفاة يوشع تعد فترة قلقة مضطربة ضعفت فيها الأسباط وغزتهم القوات الكنعانية والفلستينية.

الفلستينيون: قوم أتوا من كريت وما حولها، واستقروا في سواحل فلسطين في حدود سنة (١٢٠٠ ق. م) وامتزجوا بأهل البلاد الكنعانيين امتزاجاً تاماً ومن اسمهم أطلق على أرض كنعان، اسم فلسطين، وعلى سكانها الفلسطينيين. هذا وقد اختلف في تحديد فترة حكم القضاة بين (٣٤٨ سنة) إلا أن الراجح أن حكم القضاة لم يتجاوز ١٤٠ عام، بل ربما أقل من ذلك. لأن سبب الاختلاف يعود إلى أن شخصاً ما حكم في منطقة، وكان هناك قاضي آخر لسبط آخر من أسباط إسرائيل. وعدد القضاة ستة هم «عتينيئل بن قناز، أهود بن جيرا، باراق بن أبينوعم، جدعون بن يواشن، يفتاح الجلعادي، شمسون بن منوح الداني، والقضاة الصغار ستة».

النبي صموئيل عليه السلام وبداية عصر الملكية ٧٦- ٧٨:

تعين شاؤل ملكاً (١٠٢٠- ١٠١٠ ق. م)، لم يرد اسم صموئيل صريحاً في القرآن أو السنة. لكنه ورد مبهماً في القرآن. لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة]. تولى (صموئيل الكهانة والقضاء) بعد الكاهن (عالي). وقد انهزم بنوا إسرائيل أمام الفلسطينيين واستولوا على تابوت الرب. ثم تم اختيار صموئيل شاول ملكاً في حدود سنة (١٠٢٠ ق. م). وقام شاول بجمع الأسباط والخروج لحرب الفلسطينيين لكنهم انهزموا.

القدس في عهد العبرانيين (داود وسليمان) عليهما السلام

كانت مدينة بيت المقدس حين اغتصبها بنو إسرائيل، عظيمة البناء متسعة العمران، وكانت أكبر من مصر، ومن بغداد على ما يوصف فإن العمارة، والمنازل

كانت متصلة من جهة القبلة إلى القرية المعروفة يومئذ بدير السنة[1].

على ضوء الحقائق الدينية، والتاريخية نستطيع أن نخرج بحقائق ناصعة جليلة واضحة، وهي أن الأسس الأولية، والأزلية في توطيد كيان القدس. وتأكيد وجودها يعود أولاً إلى عناية الله بها، واسباغ قدسيته عليها. كما ساهم في تشييدها، وتطوير أسس بناءها الأول «إيلياء» أحد أبناء نوح عليه السلام. وقد شيد اليبوسيين الكنعانيين، صرح هذه المدينة المقدسة، وحصنوها بالأسوار، وأطلقوا عليها اسم «مدينة السلام»، وكانت تحمل بحق هذا الاسم. كذلك ساهم البربر، الذين كانت أرض فلسطين بلادهم الأصلية أيضاً، إلى جانب اخوانهم الكنعانيين بصورة فعلية في دعم هذه المدينة المقدسة، والذود عنها بوجه الغزاة الإسرائيليين . وأن ملكهم «جالوت» قد ذهب ضحية الإعتداء الإسرائيلي. وقد هجر البربر أرض فلسطين. واستوطنوا بلاد المغرب في شمال إفريقية. وبناء على ذلك على أي أساس – يا ترى – يدعي هؤلاء الصهاينة الغزاة ويستندون باعتبار مدينة القدس مدينتهم. والواقع أن يهود بني إسرائيل كانوا قبل أن يغتصبوا مدينة القدس جماعات مشردة، تائهة، مضطهدة، ومطرودة من بلاد الفراعنة بلاد مصر بقيادة نبيهم موسى بن عمران. وكانت روح المغامرة، والسيطرة، والحقد والاغتصاب متغلغلة في نفوسهم عندما توجهوا لاحتلال أرض فلسطين.

القدس في عهد داود عليه السلام (١٠٠٠- ٩٦٠ ق. م) أو (١٠١٠- ٩٦١ ق.م):

نودي بداود ملكاً على الأسباط الشمالية وكذلك الجنوبية للاتحاد القبلي القديم حوالي (١٠٠٠ ق. م). لكن العداوة بين الإقليميين من جهة ثم تمتع القدس بموقع جغرافي حصين من جهة أخرى. دفعت داود التوجه إلى بيت المقدس. لأنها تتمتع بموقع على خط الحدود بين سبطي (يهوذا وبنيامين). كذلك فإن ارتفاعها

---

(١) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، جـ١، ص١١٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق علي حسن، جـ١، ص١١٧.

الجبلي يحميها من جميع الجهات خاصة من غارات الفلسطينيين من السهل الساحلي. ومن الكيانات المعادية القادمة من هضبة الأردن. ومن الجماعات القبلية من جهة سيناء والنقب.

هذا فقد اجتمع الفلسطينيون بجيوشهم بقيادة (جليات) (جالوت) الذي طلب المبارزة دون أن يخرج إليه أحد. حتى وافق (شاول) على تقديم (داود) عليه السلام للمبارزة. فانتصر داود على جليات، وانهزم الفلسطينيون أمام شاول. لكنه قتل في نهاية المعركة وتم ذلك سنة (١٠١٠). وبذلك انتهت حياة أول ملك في تاريخ بني إسرائيل. وبدأ عهد داود عليه السلام. الذي استطاع توسيع حدود مملكته لتشمل فلسطين والأردن وأجزاء من لبنان. واستولى على أهم مدن فلسطين وهي أورسالم وسماها (داود عليه السلام) أورشليم[١].

وأخيراً غزا العبرانيون القدس، وتمكنوا من احتلالها[٢] على ما تذكر بعض المصادر، واستمر حكم العبرانيين نحو أربعة قرون، اقتبس العبرانيون الشيء الكثير من الحضارة التي عرفت بها القدس فغيرت لهم طريقة معيشتهم، وطورت حياتهم، ونقلتهم من حياة البداوة إلى المدنية، ويذهب المؤرخون إلى أن سيطرة العبرانيين خلال تلك المدة لم تكن سيطرة تامة سالمة من الثورة والتمرد باستثناء عهد داود وعهد سليمان بصورة خاصة، وكان أول من احتل القدس كملك إذ سار بجيش قيل أن عدده كان ثلاثين ألف مقاتل، فاستولى عليها وغير اسمها الكنعاني «أورسالم» وسماها «مدينة داود» ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً، فكان داود أول ملك عبراني سيطر على المدينة بالرغم من الثورات التي قامت في وجهه من قبل أولاد أخيه سليمان. وكان داود قبل أن يزحف بجيشه على القدس يقيم في حبرون (الخليل) فدخل القدس ملكاً عليها ولأول مرة شرع ببناء بيت المقدس أي المسجد.

---

(١) البار: ص٨٠- ٨٨.

(٢) في نحو عام ١٠٤٨ ق. م.

بناء بيت المقدس «المسجد»:

ورد في بعض الأخبار أن داود لم يكن هو الذي شرع ببناء بيت المقدس «المسجد»، ولا سليمان كان أول بانيه كما يقول معظم المؤرخين، وإنما كان أول من بنى بيت المقدس هو يعقوب بن إسحق، فقد رووا أن يعقوب حين لحق أخاه (العيص) بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال «ساعير»، مر «بساحور» فابتنى له بيتاً، ولدوابه ظلالاً، ثم مرّ على أورشليم قرية «شخيم» بن جمّور فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة «شخيم» بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثمة مذبحاً وسماه «إيل إله إسرائيل»، وأمره الله ببنائه ليعيد فيه، وهو «بيت المقدس» اليوم والذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود، وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك.

وهنالك أخبار أخرى تقول أنه لما استقرت يد يوشع بن نون بعد موسى على بيت المقدس، نصب «قبة الزمان» التي كان قد أقامها موسى، وكانت تحمل في التيه كرمز مقدس للعبادة ، لقد نصبها يوشع على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها، فلما بادت وصلوا إلى محلتها وهي الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء[1].

أما الأخبار التي اعتمد عليها معظم المؤرخين فهي أن داود هو الذي بنى المسجد أي – بيت المقدس – وعلى الصخرة قبة في الموضع الذي قدسه الله تعالى في «إيليا»[2]. وأوحى الله إلى داود – على ما تقول هذه الأخبار – لما كثر طغيان بني إسرائيل: إني أقسمت بعزتي لابتلينهم بالقحط سنتين أو أسلط عليهم العدو شهرين، أو الطاعون ثلاثة أيام، فاختار داود الطاعون وأمرهم أن يتجهزوا ويلبسوا أكفانهم، ويخرجوا نساءهم، وإماءهم، وأولادهم أمامهم وهم خلفهم على الصخرة والصعيد الذي بنى عليه بيت المقدس، وهو يومئذ صعيد واحد، ففعلوا وأظهروا هناك

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير القرشي ج١، ص٣٠٨، مطبعة السعادة بمصر.

(٢) ابن الأثير– الكامل في التاريخ، تحقيق علي حسن، ج١/ ١١٧.

مسكنتهم وخرجوا سجداً إلى حين طلوع الصبح، فسلط الله عليهم الطاعون من ذلك الوقت إلى أن زالت الشمس ثم رفعه عنهم(١).

ثم أوحى الله إلى داود أن ارفعوا رؤوسكم فقد شفعتك فيهم فرفع داود رأسه ثم نادى بني إسرائيل أن ارفعوا رؤوسكم فرفعوا رؤوسهم وقد مات منهم مائة ألف، وسبعون ألفاً أصابهم الطاعون وهم سجود(٢) وغير هذا الخبر أخبار أخرى مستقاة من العقيدة الدينية. وجاء في الأخبار أن داود أعدّ لبناء بيت المقدس مائة ألف بدرة ذهباً، وألف ألف بدرة ورقاً، وثلثمإية ألف دينار لطلاء البيت. ويعتبر داود المؤسس الحقيقي لمملكة بني إسرائيل (١٠٠٤- ٩٦٣ ق. م). وهو حامل سلاح «شاؤول» وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين(٣). وقام داود بسلسلة من العمليات الحربية أدت إلى التخليص من نير الفلسطيني(٤). ومن هذا يظهر أن داود قد اغتصب هذه البلاد بالقوة من أيدي أصحابها الشرعيين. في الوقت الذي «لم يكن

---

(١) مخطوط. برهان الدين الضراري، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، بغداد، مكتبة الأوقاف، برقم ٣٨٠٩، ص٧أ.

(٢) كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل – للقاضي مجير الدين الحنبلي، ج١، ص١٠٤.

(٣) وكان الفلسطينيين أقوى المتنافسين الذين كان على العبرانيين أن يقاتلوهم لامتلاك البلاد، والفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين أتوا من منطقة بحر إيجه. وقد سمح وعمسيس الثالث لها أن تنزل بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبي الذي صار يسمى فلسطيا «Philistia» وكانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشر. فقد كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق. م، وأخذوا منهم تابوت العهد وحملوه إلى أشدود. وفي نحو عام ١٠٢٠ ق. م كانوا يقيمون في حاميات في البلاد المرتفعة. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاؤول (توفي نحو ١٠٠٤ ق. م) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان. ولا يمكن أن يعني ذلك إلا أن الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا بالنسبة لبني إسرائيل. انظر بخصوص ذلك: ف. حتى. تاريخ سورية وفلسطين، ج١، ص١٩٦– ١٩٨.

(٤) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٠٣.

عدد اليهود في ذلك الوقت ليتجاوز ستمائة أو سبعمائة ألف نفس»[1].

ويوصف داود – المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل – في التاريخ بوصفه بأنه «رجل حرب»[2]. وأن سليمان نفسه يعترف بأن أباه قد شغل بكثرة الحروب، مما حال دون بناء بيت لله. يذكر اليعقوبي في التاريخ العام على لسان سليمان حيث قال: «إن الله أمر أبي داود أن يبني بيتاً وأن داود شغل بالحروب، فأوصى الله إليه أن ابنك سليمان يبني البيت باسمي»[3]. وانتقى داود حصن أورشليم اليبوسي ليكون عاصمة له، وكان قد انتزعه من أيدي سكانه اليبوسيين. وفي هذه المدينة أقام داود مقره الملكي. وهو قصر بني بالحجارة وخشب الأرز من لبنان. وقد بناه معماروں ونجارون «صوريون» أرسلهم صديقه الفيليقي الملك حيرام. (٩٨١- ٩٤٧ ق. م)[4]. كما شيد داود بالإضافة إلى قصره معبدا للاله «يهوه» في العاصمة الجديدة، وبهذا جعل اليهودية الديانة الرسمية[5]. ويشير اليعقوبي: إن داود نزل «صهيون» وهي «بيت المقدس» وبنى بها منزلاً وتزوج النساء»[6].

هذا كل ما تذكره لنا المصادر عما ابتناه داود في مدينة القدس، قصر، ومعبد. وإن هذا يدلل لنا أن المدينة كانت زاهرة بالعمارة، والبيوت. ويشير لنا مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل أن: «عمارة داود وسليمان لمدينة القدس إنما هي تجديد البناء القديم»[7]. روي عن كعب، قال بنى سليمان بيت المقدس على أساس قديم. كما

---

(١) عن سفر صموئيل الثاني، ٢٤: ٩ قارن هذا مع الوقت الحاضر نسبة سكان اليهود إلى نسبة سكان العرب، خاصة قبل الهجرات اليهودية الأوروبية والأمريكية إلى فلسطين.

(٢) انظر : ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٠٤.

(٣) انظر: اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٤٧.

(٤) عن سفر صموئيل الثاني، ٥: ١١.

(٥) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٠٤.

(٦) انظر: اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٤٧.

(٧) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١١٨.

بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم، والأساس القديم الذي كان لبيت المقدس أسسه سام بن نوح، ثم بناه داود وسليمان على ذلك الأساس[1].

والواضح أن ما شيده داود، ومن بعده ابنه سليمان عليهما السلام لم يكن على أكتاف بني إسرائيل، وإنما كان على أيدي المهرة من اللبنانيين الصوريين، وحتى مواد البناء والإنشاء لم تكن من إنتاجهم. وهذا يقدم لنا دليلاً ناصعاً أن يهود بني إسرائيل – منذ القدم – ليست لهم أية أصالة في الحضارة والمدنية. وإنما هم جماعات قامت على حد السيف والحرب والدماء والاغتصاب. وكان ذلك حتى على أبناء جلدتهم – أسوق هذه القصة المقتبسة من كتاب «الأنس الجليل»، لمجير الدين الحنبلي حيث يقول: «إن داود عليه السلام حينما شرع ببناء بعض الأمكنة في بيت المقدس جاء بعض أصحاب الحق إلى بني إسرائبل وقال لهم: إنكم تريدون أن تبنوا على حقي، وأنا مسكين، وإنه موضع «بيدري» أجمع فيه طعامي، فارتفق بحمله إلى منزلي لقربه. فإن بنيتم عليه أضررتم بي فانظروا في أمري. فقالوا له: كل من بني إسرائيل له مثل حقك، وأنت أبخلهم فإن أعطيته طوعاً وإلا أخذناه منك؟ فقال: أتجدون هذا في حكم داود؟؟. ثم انطلق وشكاهم إليه فدعاهم وقال لهم: تريدون أن تبنوا بيت الله بالظلم؟؟ ما أراكم يا بني إسرائيل تستكينون لله عز وجل، ولا أرى إلا البلاء بضغطكم[2].

وهنالك من الأخبار ما يشير إلى أن مدينة القدس حين بنيت كان محل المسجد في وسطها وهو صعيد واحد والصخرة الشريفة قائمة في وسطه حتى بناء داود.

ويقال لمسجد المقدس «الزيتون» ولا يقال له الحرم على بعض الروايات، كما يقال للزيتون «طورزيتا»، وهو الجبل الذي قام عليه مسجد بيت المقدس، وأقسم الله

---

(١) انظر: برهان الدين الفراري، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس «مخطوط بدائرة الأوقاف ببغداد تحت رقم (٣٨٠٩، ص١١)».

(٢) مجير الدين، ج١/ ١١٥.

في القرآن المجيد «والطور والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين».

يقول أبو هريرة إن التين هو طور سيناء وهو مسجد دمشق، والزيتون هو «طور زيتا» أي مسجد بيت المقدس، وطور سينين حيث كلم الله تعالى نبيه موسى[1] عليه السلام. والواضح أن نزول هذه الآية كان قبل قيام مسجد دمشق فلا يمكن أن يكون المقصود «بالتين» - على حد قول أبي هريرة – هو مسجد دمشق، أما مسجد القدس فقد كان قائماً عند نزول الآية كمسجد توحيد لعبادة الله.

وفي «التين» و«الزيتون» روايات كثيرة، وقد روى الكثير أنهما جبلان وعن ابن عباس: أن التين هو مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون هو بيت المقدس – وهناك من يقول أنه الجبل الذي صلب عليه السيد المسيح ويسمى بجبل سكوبس أيضاً – وعن الضحاك: أن التين هو المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى، وطور سينين يعني الجبل الذي كلم الله عليه موسى وأن سينين وسيناء واحد[2].

يستدل من الأقوال التي تنسب بناء المسجد لداود أول مرة، أن هذا المسجد قد بني على أساس قديم ولم يكن داود المؤسس الأول وإنما كان داود مجدداً إذ هناك من يقول بأن الصخرة التي سمي المسجد باسمها هي الصخرة التي كان يذبح عليها إبراهيم عليه السلام القرابين لله. ومسجد الصخرة هذا هو المسجد الذي أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببنائه سنة ٦٨٥ وتم في نحو سبع سنوات.

وتزيد الأخبار التأكيد بأن باني هيكل المسجد ببيت القدس لم يكن غير داود، وتقول بأن داود قد ابتاع من ارنان اليبوسي أرضه الواقعة على «تل موريا» وهي البقعة التي يقوم عليها الآن الحرم القدسي، وكانت قبل ذلك بيدراً وشرع في بناء

---

(١) كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل – للقاضي مجير الدين الحنبلي، ج١، ص١٠٤.

(٢) مجمع البيان – سورة التين – الآية ١ - ٢.

الهيكل ومات ولم يتممه[1].

النبي سليمان عليه السلام (٩٦١- ٩٢٢ ق. م):

تذكر دائرة المعارف البريطانية[2] أن فترة حكم سليمان امتدت حوالي أربعين سنة. وهي نفس الفترة التي حكمها أبوه داود عليه السلام. وحول وفاة داود عليه السلام وقع تباين بين سنة (٩١٠) وبعضها سنة (٩٠٠) قبل الميلاد. ولا شك أن تحديد أزمنة الأنبياء الأقدمين فيه خلاف كبير، لكنها تتفق في القرن الذي بعث فيه[3].

كان عصر سليمان عليه السلام أزهى العصور بالنسبة لبني إسرائيل، وأن مملكته نعمت بسلام ورخاء لم يسبق له نظير ولا أتى بعده مثيل. وتذكر أسفار بني إسرائيل أن سليمان أمن لعدد كبير من الأمراء والحكام المتجاورين، ومنهم ملك مصر (شيشنق). وقام سليمان ببناء الهيكل (مسكن الرب) واستغرق بناء الهيكل سبع سنوات وقد تم ذلك سنة (٤٨٠) أي بعد الخروج من مصر. ثم قام سليمان ببناء قصر فخم استغرق بناؤه (١٣) عاماً.

موت سليمان وانقسام المملكة:

انقسمت مملكة داود عليه السلام إلى مملكتين صغيرتين متحارتين هما:

(١) مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة أورشليم (نابلس حالياً) ومعبدها على جبل (جزريم) (افرايم). وقد بقيت هذه المملكة إلى أن حطمها الأشوريون سنة (٧٢٢) قبل الميلاد وتتكون من عشرة أسباط من أسباط بني إسرائيل.

(٢) مملكة يهوذا: مكونة من سبطي يهوذا وبنيامين وعاصمتها أورشليم

---

(١) تاريخ القدس – عارف العارف، ص١٦، دار المعارف بمصر.

(٢) دائرة المعارف البريطانية: جـ٢/ ٨٧٩، الطبعة الخامسة، لعام ١٩٨٢.

(٣) البار: ص٨٠- ٨٨.

وحكامها من نسل سليمان بن داود ومعبدها الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام. واستمرت إلى أن حطمها نبوخذ نصر (بختنصر) عام ٥٨٧ ق. م. إن ملك سليمان عليه السلام كما ورد في القرآن من القوة والعظمة ما جعله مضرب المثل، بحيث تخضع له شعوب المنطقة بأسرها إلى اليمن (ملكة سبأ). وامتاز عهد سليمان بالعدل وبدخول شعوب كثيرة في حمكه وبدون تمييز خاص لليهود، وبإسلام مجموعات شتى، وخدمتها في بلاط سليمان عليه السلام. كما امتاز حكمه بالتنظيم الإداري الدقيق[١].

المعروف أن داود أوصى ابنه سليمان بأن يعنى بمدينة القدس ويسعى لإتمام بناء الهيكل، فاستعان سليمان «بحيرام» ملك صور وأمدّه بمهرة الصناعيين الفنيقيين، وكان لدى «حيرام» عدد كبير من مهرة الصناع الذين يحتاج إليهم سليمان لبناء المدينة والهيكل. ويقول جيمس هنري برستيد: ولربما كان الصناع الذين زخرفوا مدينة صور هو الذين اشتغلوا في زخرفة هيكل «أورشليم»[٢].

ويظهر أن هذا الهيكل كان فخماً بحيث أن الخشب المستعمل فيه كان قد استورد من صور أيضاً وأمدّه به «حيرام» الملك، أما الطراز فيذهب المؤرخون إلى أنه كان طرازاً كنعانياً، وقد خص هذا الهيكل بإقامة الطقوس الدينية، وتم بناء الهيكل في سنة ١٠٠٧ ق. م. واتسعت القدس في زمن سليمان فبنى فيها الدور وشيد القصور واتسع ملكه وامتد من الفرات إلى تخوم مصر فعمرت القدس في زمانه بحيث باهت الحواضر والمدن الكبيرة واشتهر الهيكل وقرن اسمه باسم سليمان وسمي بهيكل سليمان.

---

(١) انظر: البار، ص٨٦- ٩١.

(٢) سفر الملوك، ١١/ ٣، موسوعة العتبات المقدسة، ج١/ ٦١- ٦٣. منشورات دار التعارف، بغداد.

الدولة بعد سليمان عليه السلام[1]:

تذكر كتب التاريخ وأسفار العهد القديم أن دولة سليمان ضعفت وتقلصت في شيخوخته، حيث ثار عليه عبده (يربعام بن ناباط). لكن سليمان قضى على هذه الثورة. وهرب يربعام إلى مصر. ولما مات سليمان أرسل ملك مصر يربعام إلى فلسطين مع دعم مادي. فأغرى عشرة أسباط بالانضمام إليه. وأقام دولة سماها دولة إسرائيل. وعاصمتها السامرة (شكيم أو نابلس). وبنى اليهود معبداً ينافس الهيكل على جبل (إفرايم). في المقابل قام رحبعام بن سليمان بتكوين مملكة يهوذا في الجنوب وتكونت من سبطي يهوذا وبنيامين.

تعاون يربعام وملك مصر (شيشنق ملك مصر). وقد قام هذا الأخير بالهجوم على مملكة يهوذا ، وصعد إلى أورشليم وأخذ خزائن الهيكل. وهكذا فرض ملك مصر سيطرته الكاملة على (مملكتي الشمال (إسرائيل) (والجنوب يهوذا)). وكانت دولة إسرائيل أوسع رقعة من دولة يهوذا، ولكن دولة إسرائيل أكثر اضطراباً بسبب كثرة الانقلابات الدموية، بينما كانت يهوذا أكثر استقراراً وهدوءاً. وقد ظل ملوك يهوذا من نسل سليمان بن داود عليهما السلام حتى انتهت هذه المملكة على يد (نبوخذ نصر سنة ٥٨٧ ق. م).

لقد حكم ١٩ ملكاً في كل دولة، رغم أن مملكة إسرائيل انتهت من الوجود سنة ٧٢٢ ق. م، بينما استمرت مملكة يهوذا حتى الغزو البابلي عام ٥٨٧ ق. م. حيث استمر عرش مملكة إسرائيل زهاء مئتي سنة، بينما استمرت مملكة يهوذا لمدة ٣٥٠ عاماً تقريباً.

تشير لنا المصادر أن سليمان بنى قصراً خاصاً، كما شيد معبداً أخذ يعرف بالتاريخ «بهيكل سليمان». وقد بنى قصر سليمان معماريون فينيقيون، واستخدموا في

---

(١) البار: ٩١.

بناءه أخشاب أرزاً من لبنان. واستغرق بناء القصر ثلاث عشرة سنة. وكان الجناح الملكي غنياً بأعمدة الأرز حتى سمي «بيت غابة لبنان»[١].

أما فيما يتعلق ببناء سليمان للهيكل، فقد كان المفروض من سليمان أن يبني بيتاً مقدساً يحمل اسم الله، كما جاء في النص الذي أورده ابن الأثير، واليعقوبي كما ذكر سابقاً وذلك «بإذن الله أوحى إلى داود أن ابنك يبني البيت باسمي». ولكن سليمان بدلاً من ذلك فقد بنى «هيكلا» مذهبا قد حمل اسمه، وصار يعرف في التاريخ باسم «هيكل سليمان».

وقد بني هيكل سليمان في الأصل ليكون معبدا ملكيا ملحقا بالقصر. استغرق بناءه سبع سنوات فقط، ولكنه أصبح فيما بعد مركزا عاما لعبادة العبرانيين. وكان المعماريون، والبناؤون أيضا من الصوريين الذين استخدموا أخشاب أرز لبنان. ولأجل اتمام البناء كان ثلاثون ألفا من رعايا سليمان مسخرين ليشتغلوا «بالنوبة» فيعمل عشرة آلاف منهم شهرا في لبنان مع رجال حيرام، وشهرين في بيوتهم يتابعون أعمالهم المعتادة[٢].

وكانت زخرفة الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة، وطقوس الهيكل وذبائحه تظهر الأساليب المتبعة عند الكنعانيين. وكان عبيد الهيكل من الكنعانيين[٣].

---

(١) See: Kathleen M. Kenyon, Jerusalem Excavating 3000 Years of History, (Thames and Hudson, London, 1967, p .58).

(٢) انظر: نفسه، ٥: ١٣.

(٣) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٠٦، إن أقدم الهياكل الكنعانية المكتشفة ترجع إلى مطلع الألف الثالث، وكانت في أريحا، ومجدو. وكان هذا النموذج القديم يتألف من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متكاملا أكثر بعد منتصف الألف الثاني. وأهم صفات مثل هذا الهيكل كما ظهرت في جزر، وبيت شان، وأوغاريت وغيرها من الأماكن كانت المذبح الصخري،= =والنصب المقدس، والعمود المقدس، والغرف تحت=

يتضح لنا من هذا أن ليس لبني إسرائيل أي يد في تشييد قصر سليمان وهيكله، وإنما كان جل الاعتماد على الفينيقيين والصوريين، والكنعانيين. ففن البناء قام على أكتاف الصوريين، وزخرفة الهيكل وطقوسه اعتمدت على أساليب الكنعانيين وطقوسهم. وحتى كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانية[1]. وكذلك استعارت سورية عددا كبيرا من الكلمات الاكادية بالإضافة إلى الكلمات السومرية. ومن هذه الكلمات «Hekalla» (هيكل) التي أتت مباشرة من السومرية «e-Gal» بمعنى «البيت الكبير» إلى الكنعانية «Kissau» أي كرسي أتت من السومريين بطريق الاكدية[2].

هذا هو الأثر الأساس الذي يعتبره اليهود المكان المقدس لهم في مدينة القدس. وسبق أن ذكر في الفصل السابق، أن هذا الهيكل قد أحرق ودمر مرات عديدة في التاريخ. ولا وجود له في الوقت الحاضر مطلقا، ولا بأس أن أعيد ما سبق أن ذكرته حول تصريح أدلى به الدكتور عيسى سلمان مدير الآثار العراقي العام، المنشور في جريدة الجمهورية البغدادية بقوله: (إن بعثة شيكاغو الأمريكية للآثار التي نقبت في مدينة القدس قد فشلت في العثور على هيكل سليمان[3]. وأود أن أضيف إلى

=الأرض.

انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص١٢٩، عن.

(Alan Bowe, The to Prography and History of Bet-Shan, (Philade phia, 1930).

وليس من شك في الأصل الكنعاني للفن والبناء الديني عند العبرانيين. وهيكل سليمان، وهو البناء الأثري الديني الوحيد عند العبرانيين القدماء لم يشيده معماريون صوريون فحسب بل خطط وفقا لتخطيط معبد كنعاني، واتبعت وخرفته نماذج كنعانية، وكان القصر الملكي في أورشليم أيضا من عمل الصناع الفينيفيين. انظر: ف. حتى، وتاريخ سورية، ج١، ص٢٢٣.

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٢٠٦.

(٢) انظر: نفسه، ج١، ص٢٠٦.

(٣) انظر: جريدة الجمهورية البغدادية، عدد ٣٥٧ تاريخ ٣-٣- ١٩٦٩، ويشير «البرايت في الفصل الخاص عن هيكل سليمان حيث يقول: «وبالرغم من البحوث التي خصصت في مصادرنا=

ما ذكرته، بأن أحد ملوك بني إسرائيل أنفسهم وهو «يوآش» قد هدم سور بيت المقدس بما يساوي أربعين ذراعا وانتهب كل ما كان فيه[١]. ومن آثار سليمان البناء الكائن تحت المسجد الأقصى، وبرك سليمان الواقع إلى الجنوب من بيت لحم[٢]، وقيل إنه لما رفع سليمان يده من البناء بعد الفراغ منه على ما ذكر القاضي مجير الدين الحنبلي وإحكامه الهيكل جمع الناس وأخبرهم إنه مسجد لله تعالى وهو الذي أقره ببنائه، وإن كل شيء فيه لله تعالى وإن داود عهد إليه ببنائه وأوصاه بذلك.

وإضافة إلى كل ذلك فقد أحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهد سليمان وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون إلى جانب الملك في إدارة المملكة كما جاء في «تاريخ الحضارات العام» وقد جاء في التوراة أن سليمان «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة»[٣]. ويقول تاريخ الحضارات العام: «وقد استخدم سليمان ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته أيضاً فأقام على رابية (صهيون) الهيكل و(بيت الملك) الذي أكمله تبصر للمملكة التي قيل عنها أنها أميرة مصرية، ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل إلى إظهار هذا أو ذاك من الأبنية، ولذلك فإن كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد»[٤]. والأمر الذي عده التاريخ من البديهات بعد بناء الهيكل والبرك والقصور الفخمة هو الإسراف الذي بدا في حياة البلاط في عهد سليمان فقد عرفت المدينة فيما عرفت الزخرفة بالذهب المطعم بالعاج والحجارة المنحوتة، وخشب الأرز الذي جهزه الملك حيرام لسليمان، وبناء المراكب التي

=حول هيكل سليمان، ولكن لا تزال العديد من النقاط والمواضيع غامضة عنه».

See: W.F Albright, Archaeology and the religion of Israel. Palestine, 1942, p. .96

(١) انظر: اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٤٧.

(٢) تاريخ القدس، ص١١، دار المعارف بمصر.

(٣) تاريخ الحضارات العام، ج١، ص٢٦٦، منشورات عويدات – بيروت.

(٤) تاريخ الحضارات العام، ج١، ص٢٦٧، منشورات عويدات – بيروت.

استخدمها سليمان في خليج العقبة لتحويل جانب من التجارة مع الجزيرة العربية إلى القدس بعد أن كانت مصر قد احتكرتها لنفسها.

وحين مات سليمان انقسمت البلاد إلى مملكتين: يهودا وعاصمتها «أورشليم» التي التحق بها سبطان فقط، وإسرائيل وعاصمتها «الساحرة» التي التحق بها الأسباط العشرة الأخر. وهناك من المؤرخين من يذهب إلى أن سليمان لم يكن يهودياً وإنما كان آشورياً وهو «شلمناصر» الذي حوّر الإسرائيليون اسمه فسموه سليمان[١] وعرف بعد ذلك بهذا الاسم. وسواء أكان الباني الأول لمسجد بيت المقدس داود أو غير داود فقد أسبغ الأنبياء على القدس صفة الطهارة والقدسية واعتبروها مدينة الله وموضع التوجه إليه سبحانه وتعالى.



(١) أسطورة شعب الله المختار، ترجمة أكرم فاضل، ص٥، وزارة الثقافة والإعلام العراقية.

الخلاصة:

يمكن للدارس المطلع على تاريخ القدس في عهد داود وسليمان عليهما السلام، بيان الحقائق التالية:

(١) لم يشر الكتاب المقدس إلى سكان القدس الأصليين والمقيمين فيها قبل عهد داود وسليمان (عليهما السلام). كذلك لم يشر إلى حصانة القدس ومناعة سورها اليبوسي وملوكهم المشهورين الذين كانوا في القدس قبل قدوم اليهود غزاة.

(٢) غلب الصراع المستمر على السلطة بين حكام بني إسرائيل في هذه الفترة. حيث نشبت بينهم الحروب والنزاعات الكثيرة ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الدينية.

(٣) أظهرت الفترة التاريخية اتجاه الكثير من ملوك بني إسرائيل نحو عبادة الأوثان والأصنام والإلحاد. كما تمثل ذلك عند ملوكهم (يورام واخرايا).

(٤) لم تشر مصادر بني إسرائيل إلى المذابح والتهجير التي تعرض لها اليبوسيون أهل البلاد مثل مذبحة (حيريم). وإحلال اليهود مكانهم. وهذه السياسة أصبحت عقيدة واضحة في دولة الاحتلال الإسرائيلي الحالية.

(٥) ارتكاب عدد من ملوك بني إسرائيل شتى أنواع القبح والفساد والفواحش مثل ملكهم «رحبعام».

(٦) ارتكاب بعض ملكاتهم جرائم القتل والاغتيال. مثل ملكتهم «عنلايا» التي قتلت جميع ولد داود. ما عدا غلام واحد يقال له «يوآش» وقد أظهرت هذه الملكة كل أنواع الفواحش والفساد في البلاد.

(٧) ظل الكهنوت اليبوسي القديم هو المعترف به في هيكل سليمان حتى عدّ استمراراً للعرف الكنعاني القديم. كذلك ظهر استمرار النظام الإداري والعسكري اليبوسي مستمراً في عهد ملوك بني إسرائيل.

(٨) جاء في تلخيص (نبي) فترة السبي حزقيال ١٦: ٣ حول القدس قوله: «مخْرَجُك ومولدك من أرض كنعان أبوك أموري وأمك حثية». وهو بهذا يعني أن مدينة القدس مدينة كنعانية نموذجية، وأن ثقافتها وسكانها نشأوا أساساً في أرض العموريين في شمال شرقي سوريا. وفوق هذا الأساس قام نظام ثقافي وسياسي، يرجع بأصله إلى سوريا الشمالية. لذلك فإن تاريخ القدس بأسره حتى تدميرها على يد الامبراطورية البابلية. ما هو إلا تاريخ صراع مستمر بين تقاليد (اليبوسيين الموحّدين) وبين شرك المدن في القدس. (وكذلك في المدن الكنعانية الأخرى التي دمجت في امبراطورية داود وأصبحت في عهد سليمان نابهة الشأن ثقافياً وسياسياً.

(٩) جاء قيام مملكة داود الواسعة عليه السلام معتمدة على مرحلتين الأولى: استيلاؤه على القدس أولاً، مع دمج معظم ممالك المدن الكنعانية القديمة بالقوة المسلحة في المملكة. وكذلك المدن الفلسطينية والقرى التابعة لها. والثانية تمت عن طريق الدمج لأجزاء كبيرة من شرق الأردن «آدوم – مؤاب – عمون». حتى بلغت هذه المملكة تمام تطورها في عهد سليمان عليه السلام.

(١٠) تميز عهد سليمان عليه السلام بسياسة الهدم من خلال استمرار الحروب وكثرة الضرائب والتحصين والتسليح العسكري، وبناء القصر الملكي والهيكل. لأنها استنفذت خزانة المملكة. حتى أن سليمان لم يكن قادراً على الاحتفاظ بالسيطرة على المملكة المترامية الأطراف التي ورثها. وقد بدأت بانفصال آدوم ومؤاب في أواخر عهده. كذلك كان للسياسة المالية والحكم لابنه وخلفه (رحبعام) التي سارت على نفس النموذج سبباً في نهاية العظمة التي أحاطت امبراطورية داود عليه السلام. حتى أن الأسرة الحاكمة في القدس لم تكن إسرائيلية إلا بقدر ضئيل.

(١١) في عهد داود عليه السلام بلغت المملكة اليهودية أقصى اتساعها من (جبل الكرمل، تل القاضي) إلى جبل الشيخ شمالاً، وإلى حدود مصر ونهر الموجب جنوباً وإلى الصحراء شرقاً لكن الساحل الفلسطيني الممتد من شمالي يافا إلى جنوب غزة كان

تابعاً لمصر، وبالتالي فإن عموم فلسطين لم تقع تحت حكم اليهود في ذروة توسعهم. أيضاً في عهد سليمان عليه السلام فلم يستطع أن يحافظ على أجزاء المملكة التي ورثها عن أبيه. حيث شهد آخر عهده تذمر الناس من كثرة الضرائب المرهقة. وهذا بدوره أدى إلى انقسام اليهود. فكان ذلك إيذانا بأفول عزهم الذي لم يدم أكثر من سبعين سنة.

(١٢) عاشت المملكة الإسرائيلية نحو قرنين (٩٢٣- ٧٢٢ ق. م) وكان القسم الأكبر من أهالي المملكة وملوكها يعبدون الأوثان. وكانت نهاية إسرائيل على يد الآشوريين الذين سبوا نخبة أهلها إلى بلادهم في العراق. أما المملكة اليهودية فقد اشتملت على القسم الجنوبي من فلسطين، وكانت أفقر من أختها في الشمال، ودامت نحو (١٣٦ سنة) بعد خراب المملكة الشمالية. وكانت المملكتان خاضعتين في معظم فترات حياتهما، لنفوذ الدولة القوية المجاورة في العراق ومصر، وكانت نهايتهما على يد (بختنصر) الكلداني الذي فتح القدس فأحرق الهيكل وبيت الملك عام ٥٨٦ ق. م. وسبى زهاء (٥٠ ألف) أسير نقلهم إلى بابل.

(١٣) ذهب معظم المؤرخين إلى القول أن اليهود كانوا أدنى حضارة ورقياً من الكنعانيين أهل البلاد الأصليين. حيث اقتبسوا من هؤلاء الكثير من حضارتهم وثقافتهم وآدابهم وطقوسهم. وإن ما شيد في عهد اليهود من عمران (قصور وهياكل) إنما تم بمساعدة الفنيقيين.

(١٤) ارتكب بعض ملوك مصر بني إسرائيل شتى أنواع الظلم والجور نحو الرعية، كما ظهر ذلك عند ملكهم «يوآش» الذي هدم سور بيت المقدس وانتهب كل ما كان فيه[1].

هكذا كانت سيرة حكام بني إسرائيل في مدينة القدس، فلا غروه أن ينزل

---

(١) انظر: التفاصيل، اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٥٠- ٥١ وراجع كذلك، ضياء اويغور، جذور الصهيونية، ترجمة إبراهيم الداقوقي، بغداد، ١٩٦٦.

لعنة الله عليهم، ويسلط عليهم القتل، والتشريد، والسبي. فهذا «ارميا» أحد ملوكهم يناجي الله على ما عمله بهم بخت نصر إذ يقول:

«اللهم إني لأعلم من عدلك ما لا يعلمه غيري، فعلام سلطت بخت نصر على بني إسرائيل، فأوحى الله إليه أني أنتقم من عبادي إذا عصوني بشرار خلقي»[1].

(١٥) يذهب المؤرخون أن اليهود كانوا أدنى حضارة ورقياً من الكنعانيين، وانهم قد اقتبسوا معه هؤلاء الكثير من حضارتهم وثقافتهم وطقوسهم وآدابهم حتى العمارة فكانت تتم بمساعدة الفنيقيين.

نهاية مملكة إسرائيل من القرن الثامن قبل الميلاد (٧٢٢ ق. م) ويهوذا (٥٨٦ ق. م) على يد الآشوريين:

جاءت نهاية مملكتي إسرائيل والسامرة على يد الآشوريين. وقد احتلت السامرة موقعاً رئيسياً في أحداث القرن الثامن قبل الميلاد في السياسة. في الوقت الذي تبنت فيه الإمبراطورية الآشورية سياسة القوة في الداخل والخارج على السواء. قامت على إخضاع أصقاع الإمبراطورية كلها إلى إدراة ذاتية. وضد القوى الخارجية بالقضاء على هذه القوى. اعتماداً على سياسة التهجير. واستبدال الشعب بشعب آخر. وهذه هي السياسة التي أصبحت نهجاً ثابتاً للبابليين والفرس وحتى ربما لروما من بعد.

حاولت مملكتي دمشق وإسرائيل عمل تحالف بينهما، وطلبتا من مملكة يهوذا الدخول في الحلف المضاد للآشوريين. لهذا قام الآشوري تجلات بلاسر بحملتين الأولى سنة (٧٣٣ق.م).

والثانية في سنة (٧٣٢) ق. م حيث غزا ملك آشور (تجلت بلاسر) مملكة إسرائيل وأخطر ملكها (ماحيم بن جاد) لدفع الجزية، وكان مقدارها ألف وزنة (أي قنطار) من الفضة واستمر حصاره للسامرة. وعلى نموذج هذه السياسة سار الملوك

---

(١) انظر: اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٥٣- ٥٤.

الآشورية. فكانت الحملة الثالثة في سنة (٧٢٧) ق. م حاصر (شلمناصر)الثالث الآشوري على مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة، لأنها توقفت عن دفع الجزية بتحريض مصري أخطر ملكها (هوشع بن أيله) لدفع الجزية وتقديم الهدايا. ولكن لم يكد (شلمناصر) الثالث يعود إلى عاصمته نينوى حتى عاد الإسرائيليون إلى عصيانهم وتمردهم، فزحف عليهم مرة ثانية، وضرب حصاراً شديداً حول السامرة عاصمتهم. ولكنه مات قبل أن يفتحها فَفُكَّ الحصار ونجت السامرة مؤقتاً. ثم كانت الحملة الرابعة في سنة (٧٢١) ق. م قام بها خليفته (سرجون الثاني) الذي غزا دولة إسرائيل وحاصرها حصاراً شديداً، وقد فرض عليها الجزية ودمرها تدميراً كاملاً، وأجلى سكانها وأتى بسكان آخرين. وأقام على البلاد حاكماً آشورياً[١]، ثم أتبعها بغزو ثانية عام ٧٢٠ق.م. حيث دمّر تحالف السامرة مع مدن أخرى في السنة السابعة من حكم سرجون الثاني سنة ٧١٤ق.م قضى فيها على قبائل تامود وإيبادي ومرسيمانو وحيابا والعرب حيث سبيت الأحياء منهم ونقلوا إلى السامرة[٢]. وهكذا انتهت مملكة إسرائيل الشمالية بصورة أكيدة منذ بداية (عُمري) حتى نهاية يوشع ٨٨١-٧٢١ق.م أي بعد حوالي (١٦٠سنة) والتي كانت عدوَّ ليهوذا من الناحية الدينية فقط.

الحملة الخامسة وطَّد (اسرحدون بن سرجون الثاني) الآشوري سيطرته على سوريا الكبرى بعد وفاة أبيه، واضطرت مملكة يهوذا أن تسارع باسترضائه ودفع الجزية والهدايا. وقدم الملك منسّي (الطاغية الصغير والذي نشر بالمنشار النبي أشيعا) فروض الطاعة للملك الآشوري. ثم حاول التمرد والعصيان، فانقض عليه اسرحدون وهزمه وساقه مكبلاً في الأغلال إلى نينوي. وهناك تعهد بالولاء والخضوع فأعاده الملك الآشوري إلى عرشه في حدود سنة (٦٧٧) ق. م.

الحملة السادسة في عهد الملك (يوشيا) الذي قام بإصلاح ديني عام (٦٢٠)

---

(١) نبيلة عبد الحميد: معالم العصر التاريخي في العراق القديم، ص٢٢٠-٢٢١، القاهرة ١٩٨٣.

(٢) نبيلة عبد الحميد: معالم، ص٢٢١.

ق. م. وترك عبادة الأوثان ورجع إلى عبادة الله على يد الكاهن (حلقيا)، قام فرعون مصر (نخو) بالهجوم على فلسطين فتصدى له (يوشيا) فقتله (نخو) في المعركة، وواصل (نخو) زحفه إلى الفرات في حربه ضد الدولة الآشورية.

هكذا وقعت دويلتي إسرائيل ويهوذا منذ البداية بين فكّي كمّاشة: الدولة الآشورية من الشمال الشرقي والدولة المصرية من الجنوب الغربي. وكانت الحروب مستمرة بين هاتين الدولتين القويتين.. وكانت الدويلات الصغيرة مثل يهوذا وإسرائيل تقع تحت سيطرة ونفوذ هذه الدولة أو تلك طوال فترة وجودهما إلى أن مسحتا من الوجود.

الآشوريون والقدس[1]:

استمر دور القدس تجارياً إقليمياً ولم يأخذ الطابع السياسي والعسكري. ولم تأخذ القدس ببعض مظاهر الدولة الإقليمية المسيطرة إلا في الربع الأخير من القرن الثامن. خاصة في النصف الثاني من القرن السابع. حيث بدأ دورها ثانوياً على حافة العالم الآشوري. ولم تأخذ القدس كذلك طابع العاصمة الإقليمية، إلا بعد توجه الخطر الاشوري ضد الجنوب. وقد ضمت القدس خليطاً من المتمدنين من أصحاب الثقافات، وكان الهيكل السياسي الأكبر لإدارة إقليم يهوذا. واستقبلت القدس صفوة الهاربين من المدينتين (السامرة والخنيش). في حين كانت يهوذا الأقل ثقافة وتمدنا من النخبة الحاكمة في القدس. وقد دخلت القدس بالتأثير الآشوري في عبادات جديدة منها: عبادة (الشمس، القمر، الكواكب، النجوم). وبسقوط إسرائيل ودمشق (عدوتا يهوذا). شعرت القدس بإمكانية قيامها بدور إقليمي كانت تلعبه إسرائيل من قبل. وهنا نهض مشروع القدس السياسي بعد دورها الاقتصادي. وهذا الدور ظهر بشكل جيد في عهد حاكم القدس «حزقيا ٧١٥-٧٦٨ق.م». وفي سياق الإعداد لهذا الدور نظم (حزقيا) أمراً بحفر القناة المشهورة من عين جيجون إلى بركة سلوان.

---

(١) طومسون، ص٢٢٩.

وبهذا العمل قاومت القدس الحصار الآشوري. لكن ذلك دفعها إلى عهد جديد حصدت فيه القدس نتائجه بعد فترة من الزمن، على يد البابليين. هكذا إذا لعبت القدس دور دولة عازلة بين قوتين كبيرتين استعماريتين رئيسيتين هما مصر في الجنوب وآشور في الشمال. الأمر الذي فتح المجال لأن تلعب القدس دوراً عنيفاً في القرن التالي.

القرن السابع قبل الميلاد (ظهور دين يهوذا)

قامت القدس تدريجياً في أمرين خطيرين. الأول تجاري حاولت من خلاله جعل نفسها بؤرة مركزية في التجارة الدولية. والثاني سياسي غير محسوب بمحاولتها التصدي للقوة الآشورية بدفع من المصريين القوة الثانية المنافسة. لهذا أصاب القدس هزات عنيفة وغزوات متعاقبة عبر الأحداث التاريخية وكان معظمها رد فعل للسياسات التي ارتكبها ملوك بني إسرائيل، وحكامهم من جور، وظلم وفساد. وقد جلبت هذه الغزوات، والفتوحات، الويل والثبور على بني أسرائيل أنفسهم فقاسوا شتى أنواع القتل، والسبي والتشريد، ولم يقر لهم قرار على أي بقعة من الأرض، كذلك عانت – مدينة القدس بسببهم – كثيرا من الخراب، والتدمير، وأخطر غزو وقع ضد بني إسرائيل (المملكة الشمالية) كان على يد الآشوريين.

حيث حاول في بادئ الأمر «شيلمنصر الخامس» القضاء على يهود السامرة، الذين كانوا يشكلون مملكة بني إسرائيل الشمالية ولكنه مات قبل أن تستلم له. وتولى أمر الفتح بعده، «سرجون الآشوري» فقام بفتحها، وأنهى حياة المملكة الإسرائيلية إلى الأبد. وكان ذلك في حدود سنة ٧٢١ ق. م[١]. وقد سبى أحسن رجال إسرائيل وعددهم ٢٨٠ و٢٧ شخصا إلى ميديا[٢].

---

(١) انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٥٥، ص١٩٠.

(٢) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢١٣، عن سفر الملوك الثاني، ١٧: ٦.

أما المملكة الجنوبية، أو مملكة يهوذا، فقد أصبحت أكثر تعرضا للهجمات المباشرة من قبل الآشوريين، بعد زوال مملكة إسرائيل في ٧٢١ ق. م، وصارت مملكة يهوذا في أوائل حكم «حزقيا» ٧٢١- ٦٩٣ ق. م، تدفع الجزية لآشور. وقد اتبع «حزقيا» سياسة تحد ضد آشور، وبتيجة ذلك قام سرجون، وخلفه سنحاريب (٧٠٥- ٦٨١ ق. م) بسلسلة من الحملات والعمليات الحربية ضد فينيقيه، والمدن الفلسطينية، ويهوذا. وبلغت ذروتها في عام ٧٠١ ق. م في حصار أورشليم. وقد استطاع سنحاريب أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية، سوى مدينة أورشليم، فقبل أن يتمكن من تحول قواته كلها ضد أورشليم «خرج ملاك الرب، وضرب في تلك الليلة مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا من جيش آشور»[1]. وربما كان ذلك أكثر الجيوش الغازية في هذه المنطقة.

لم تسقط أورشليم، غير أن مناطق الريف خربت، وسمح لحزقيا أن يحتفظ بعرشه، ولكنه اضطر أن يدفع الجزية المتأخرة، وأن يرسل بناته، وغيرهن من نساء القصر، والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب إلى نينوى، ويفاخر سنحاريب بأعماله بالكلمات الآتية:

«أما حزقيا اليهودي الذي لم يخضع لسلطتي، فإنني حاصرت ستا وأربعين من مدنه القوية المسورة والمدن التي بجوارها، والتي لا يمكن تعدادها، وفتحها ونهبها، واعتبرها كغنائم، وأما هو فإنني حبسته كعصفور في قفص أورشليم مدينته الملكية. وإن حزقيا هذا قهرته أبهة ملكي المخيفة»[2].

---

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٢١٣، عن سفر الملوك الثاني، ١٩: ٣٥؛ نبيلة عبد الحليم، ص٢٢٤- ٢٢٩.

(٢) انظر: ف. حتى، المفصل في تاريخ العرب، ج١، بيروت، ١٩٦١، ص٥٢، وكتابه تاريخ سورية، ج١، ص٢١٧، عن:

.Redwell in records of the past, vol. VII, London 1876, p. 62

عهد منسِّي (٦٨٧- ٦٤٢)ق.م:

لم يتعظ ملك يهوذا بما حدث لحزقيا، لذلك اتسم عهده «منسّي» في النصف الأول من القرن السابع بأنه أسوأ ملك حكم القدس على الإطلاق. ربما كان ذلك بسبب الصراع على السلطة والانقسامات الداخلية. وبذلك أدخل المدينة بالدماء. لم يشهد عهده إلا محاولة واحدة للثورة على الهيمنة الآشورية، حين أقفل أبواب أورشليم في وجههم بدفع من المصريين. فقام الملك الآشوري (أسرحدون) بحصار القدس، واضطر أسرحدون لإرسال حملتين على مصر لتحريضها أورشليم في الثورة على الآشوريين، وأُخذ منسّي أسيراً إلى بابل، وربما كانت هي القضية التي انقسم حولها العبريون في المدينة.

عهد آمون:

خلف منسّي في الحكم لكنه أُغتيل بعد سنة من حكمه على يد بعض موظفيه.

أدرك حكام القدس من (منسّي حتى يوشيا). أن القدس لا تستطيع أخذ دور دولي، لأنها ليست إلا دولة صغيرة هامشية في الأحداث الكبرى للشرق الأدنى القديم. وأنها بذلك لا تستطيع مواجهة القوة الآشورية الكبري ولو من خلال قيام القدس باللعب على التوازن بين القوتين الأعظم (المصرية والآشورية). لذلك تبددت آماهم في هذه الفترة سواء في الاستقلال أو التوسع. وأدركوا أن أسلم سبيل لذلك هو الخضوع لآشور. بعدما جلبت لهم سياسة حكامهم السابقين الدماء والمآسي والسبي بسبب تقلباتهم السياسية وتعدد ولاءاتهم المزدوجة لأكبر قوتين في تلك الفترة (آشور ومصر).

كذلك لا بد هنا من الإشارة إلى قضية السبي التي استغلها اليهود والصهاينة. فالمعروف أن هذه السياسة لم تكن خاصة في اليهود. بل كانت سياسة متبعة لكل القوى الرئيسية في منطقة الشرق الأدنى القديم وقد بدأت في الألف الثاني قبل الميلاد. مارستها قوة الشرق الأدنى، مصر وبابل والحشين والفرس وروما من بعد.

وقد مارس الآشوريون هذه السياسة في (١٥٧ حالة). لكنها لم تكن خاصة باليهود. بل كانت عامة شملت السامرة وأورشليم وأرجاء الشرق الأدنى القديم، وأرجاء الإمبراطورية الآشورية في عيلام والخليج إلى جبال طوروس والساحل الفينيقي. على عكس منحى الآراء التوراتية التي تحاول نسج أسطورتها العرقية والدينية بطريقة عنصرية متطرفة مبالغ فيها حول (إسرائيل ويهوذا) فقط حسب زعمهم[١]. الأمر الذي يجعل هذه الآراء بعيدة عن المنطق والعقل والعلم وخارج حدود التاريخ.

الإصلاح الديني (إصلاح يوشيا ٦٣٦ق.م)[٢]:

تملك يوشيا ملك يهوذا (٦٤٠-٦٠٩ق.م) بعد إغتيال آمون. وهو صبي (عمره ثماني سنوات) فوضع تحت وصاية عمه حتى بلغ سن الرشد. وكانت يهوذا تخضع تماماً لآشور بعد أن انهارت كل آمال القدس السياسية سواء في الاستقلال أو في أخذ دور دولي. فاتجه إلى سياسة التهدئة مع الآشوريين بعد إدراكه الحقيقة الواقعة.

فبدأ بصرف وجهة شعبه عن الكفاح المسلح إلى إحداث ثورة دينية تكون عامل وحدة لهم بعد اليأس السياسي. وكان أساس هذه الثورة، استحداث قانون إلهي لإله واحد يدعى شعب يهوذا. فنبذ كل الآلهة الأخرى التي كانت تعبد في يهوذا وأورشليم. لغرض ترسيخ حكمه من جهة، وحكم إلهه من جهة أخرى. وقد أطلق على هذا الكتاب اسم (سفر الشريعة). الذي يرى كتبة التوراة أنه (سفر التثنية) الذي كتبه موسى بيده!!. لكن المعروف أن هذه النسبة جاءت لاحقاً. وضع يوشيّا عام ٦٣٦ق.م السفر وقد خبأه في (هيكل الرب). بعد أن أمر بإصلاحه وإعادته إلى سابق عهده بإشراف كبير الكهنة (حِلقيا). وإذا بالأخير أثناء الترميم يعثر على (سفر الشريعة) الأصلي. فقام يوشيا بجمع شيوخ ورجال وكهنة يهوذا وأورشليم، وقرأ

---

(١) انظر طومسون، ص٢٣٤.

(٢) المرجعية الأثرية، الطبعة ١٢، ١١، ١٠؛ انظر خزعل الماجدي، ص١٩٨-٢١٢.

عليهم مضمون السفر الذي يتضمن وصايا الرب وتحذيراته. وهكذا أعلن ثورته الدينية. بعد أن دمّر فيها يوشيا كل الأوثان الأجنبية والساريات. وأصبح (يهوا) لأول مرة في التاريخ الرب الوحيد لأهل أورشليم. وصار ذلك يوم الفصح لأول مرة أيضاً لهذه الثورة. شكل يهوذا ثورة دينية في تاريخ يهوذا والقدس. حيث ظهرت ديانة (يهوذية) وليست يهودية انفلصت عن كل الديانات المحيطة بها سواء الكنعانية أو الفنيقية أو الأمورية أو الآرامية. وأصبحت ثمة شريعة مدونة وشعائرها واضحة جمعت كل اليهود وسُمي شعب يهوذا (يهوذه). وقد وحدت خليط هذا الشعب المتفرق من خلال تجاوز الفروق القبلية والاجتماعية. وأصبح شعب يهوذا ذا محور ديني مكتوب ومعلن منذ عام ٦٣٦ق.م.

ولولا هذا الإصلاح لتفرق شعث اليهود في هذه الفترة خاصة بعد السبي البابلي. وقد أصبح سفر الشريعة جوهر كتاب التوراة بعد عدة قرون. الحقيقة أن يوشيا بدأ إصلاحاته لهدف ديني ثم توحيدي. سعى من خلاله إلى هدف سياسي بدأه بتثبيت سلطته ونفوذه. ومن ثم حاول استغلال هذه الاصلاحات استغلالاً نموذجياً لتقاليد دينية هدفها توطيد سيطرته السياسية، ومن ثم الخروج من نير الحكم الآشوري. مستغلاً سقوط آشور على يد البابليين والميديين عام (٦١١ق.م) حيث اقتسم الطرفان إرث الإمبراطورية البابلية. فحاول يوشيا استغلال ذلك من خلال وقوفه أمام نجدة المصريين للجيش الآشوري. فاعترض الجيش المصري – جيش يوشيا – عند (مجدّو) وقتل يوشيا. فحل محله ابنه (يهود آحاز) عام ٦٠٩ق.م. لكن (نخاو) الملك المصري الثاني أسر (يهود آحاز بعد ثلاثة أشهر وسجنه في مصر. وخضعت القدس تحت النفوذ المصري، وقبل (إلياقيم – يهرياقيم) خصوعه لمصر ودفع الجزية. ثم حدث بعد ذلك مواجهة حاسمة بين المصريين بقيادة (نخاو) والجيش البابلي بقيادة نبوخذ نصر في معركة (كركميش). انتصر فيها البابليون. وأصبحت بذلك مدن وأقاليم الشام بما فيها القدس ويهوذ تحت النفوذ البابلي.

إن المتتبع لتاريخ القدس في العصر الحديدي الثاني، يرى أن القدس لم تخرج عن كونها مدينة عادية مثل مدن الشام الأخرى. ثارت عدة مرات ضد الحكم الآشوري، وحوصرت عدة مرات وتعرضت للتدمير والسبي. وظل طابع القدس مدينة يبوسية لا تشير من قريب أو بعيد إلى ما يشير إلى (داود وسليمان) عليهما السلام، استدلالاً بالآثار المكتشفة حتى اليوم. التي لا توجد قطعة آثار واحدة تدل على ما نراه من تسميات صهيونية مثل (مدينة داود – جبل الهيكل –الميلو...). فكلها اسقاطات عصرية هدفها سياسي وعنصري أولاً وآخراً. وهذا ما أبدته الأحداث اللاحقة عندما دمر البابليون هذا الكيان لأسباب سياسية وليست لأسباب دينية. أما دين يهوذا فبعد إصلاح يوشيا ما زال جينياً صغيراً انفصل عن الديانة الكنعانية اليبوسية التي كانت الديانة العامة لكل المدن الفلسطينية الكنعانية.

القرن السادس قبل الميلاد حتى سقوط بابل

السبي البابلي الأول والثاني – تدمير القدس ونهاية يهوذا

السبي البابلي الأول ٥٩٦ق.م: في عهد الكلدانيين، قام ملكهم «نبوخذ نصر» أو بخت نصر «بحملتين واسعتين على مملكة يهوذا الصغيرة، فتح فيها مدينة أورشليم، وسبى اليهود» وقد سميت الحملة الأولى بالسبي البابلي الأول وسببه تمرد ملك يهوذا بتحريض من مصر تأدية الجزية له، لذلك جرَّد «نبوخذ نصر الثاني ٦٠٤– ٥٦٢ ق. م» حملة تأديبية لم تقو المملكة الصغيرة على مقاومتها، فسقطت العاصمة (أورشليم) في عام ٥٩٦ ق. م وأخطرت لدفع الجزية. وأخذت عنوة ونقل قسما من سكانها أسرى وعددهم سبعة آلاف مسلح، وألف عامل مكبلين بالحديد، ومعهم الملك «يهو ياقين» نفسه إلى بابل وكان هذا هو السبي البابلي الأول[1]. أو النفي الأول

(١) انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ص٢٠٩.

لأهل يهوذا.

يلاحظ على السبي الأول ما يلي: إن السبي لم يستهدف السكان المدنيين العزل. بل شمل نزع سلاح القدس ويهوذا من العسكريين وصناع الأسلحة (الحدادين) ورجال الإدارة والسياسة، والإمكانات الاقتصادية مثل (الخزانة الملكية وكنوز الهيكل) لغرض العقوبة أولاً ولغرض عدم العودة للثورة على الحكم البابلي ثانياً. وقد جاءت وفق سياسة الإمبراطورية الآشورية والبابلية المتبعة في السبي[١].والأولى في ذلك تسمية السبي الأول والثاني تحديداً (لأهل يهوذ – أهل أورشليم) لا سبياً لليهود. لأن اليهودية كدين لم تكون بعد، والراجح أن الدين اليهودي تكون في العصر الحديدي الثالث (٥٣٩-٣٢٣ق.م) خلال النفوذ الفارسي على المشرق الأدنى القديم. أما قبل ذلك – فالموجود هو نواة أولية (لدين يهوذا) – التي بدأت بإصلاحات يوشيا[٢].

السبي البابلي الثاني الكبير ٥٨٦ق.م: لم يؤدب السبي الأول مملكة يهوذا الصغيرة، حيث انضمت هذه المملكة في السنة الثامنة من حكم صدقيا، إلى جملة المدن الثائرة على بابل. فعاجل «نبوخذ نصر» الثائرين، وحاصر عاصمة يهود«أورشليم» عام ٥٨٥ ق. م. وسقطت المدينة في السنة التالية ٥٨٦ ق. م بعد حصار دام مدة سنة ونصف دمر فيها نبوخذ نصر وحرق هيكل سليمان، وسلب خزائن المدينة، ونقلها. وقتل من سكانها خلقاً عظيماً، وأخذ من اليهود (٤٠ ألفا) أسرى إلى بابل. وكان هذا هو الأسر البابلي الثاني المشهور في التاريخ[٣].

---

(١) جورج مندنهول: القدس منذ (١٠٠٠-٦٣ق.م)؛ القدس في التاريخ، ترجمة كامل العسيلي، ص٧٩، عمان ١٩٢٢.

(٢) خزعل الماجدي، ص٢١٣-٢١٦.

(٣) انظر: طه باقر، ج١، ص٢٠٩؛ انظر: العهد القديم: إرميا ٥٢: ٢٨، والملوك الثاني ١٦: ٢٤، في العهد القديم تجعل عدد الأسرى بين ٣٠٢٣-١٠٠٠٠شخص.

ويذكر أنه بعد سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر، هرب الملك الإسرائيلي ورجال حربه تحت جنح الظلام بعد أن ثقب سور القدس ولكنهم تابعوه وأدركوه في سهل أريحا، وعندما أُتي به إلى معسكر نبوخذ نصر في ربله، قتل أبناءه أمامه، ثم سملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يراه ثم قيد بالسلاسل ليسجن في بابل. (عن سفر الملوك الثاني ٢٥: ١- ٧). وهكذا أصبح في بابل ملكين سجينين هما (يهوياكين) عن السبي الأول وعمه (صدقيا) عن السبي الثاني. أما أورشليم فإنها هدمت مع هيكلها، وسبي العظماء من سكان المدينة ومنهم الكاهن الأعظم والضباط العسكريين، وخمسة أعضاء في المجلس الملكي وآخرون من ذوي الرتب العالية في البلاد، ويقدر عددهم بخمسين ألفا. ودمرت كل مدينة مهمة في يهوذا تقريبا وتم ترحيل باقي السكان إلى بابل، وظلت كذلك عدة قرون[١]. وكان هذا هو التدمير الأكبر للقدس حتى لا تعود ثورتها ضد البابليين، ويبدو أن أغلب سكان القدس هُجروا إلى أرض بابل ووضعوا فيما يشبه السور قرب بابل ولم تكن القدس هي المدينة الوحيدة التي عوقبت بل تابع نبوخذ نصر مهاجمته لكل المدن الفنيقية حتى عادت تحت النفوذ ودفعت الجزية[٢] للبابليين.

ويشير اليعقوبي في كتابه (التاريخ العام) عن السبي البابلي بصورة عامة ويقول: «وفي عهد – ابو دانيال – وفي عصره سار «بخت نصر» ملك بابل إلى بيت المقدس فقتل بني إسرائيل، وسباهم وحملهم إلى أرض بابل. وأخذ «بخت نصر» التوراة، وما كان في الهيكل من كتب الأنبياء، وصيرها في بئر وطرح عليها النار وكبسها[٣]. وهناك اشارات أوردها مجير الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل» جديرة بالذكر حول السبي البابلي الأول، والسبي البابلي الثاني. أما السبي البابلي

(١) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٢٠، عن أخبار الأيام الثاني ٣٦: ١٧- ٢١.

(٢) جورج مندنهول، ص٧٩.

(٣) انظر: اليعقوبي، التاريخ العام، ج١، ص٥٣، وانظر: دانيال ١: ٨.

الأول، فكان ذلك في عهد الملك «يهو ياقيم »[1]. فقد سار بخت نصر بالجيوش وغزا بني إسرائيل، لما حصل منهم من التغيير، والتبديل وفعل القبح،فلم يحاربه (يهو ياقيم) ودخل تحت طاعته فأبقاه بخت نصر على ملكه[2].

تدمير القدس:

أما عن الغزو البابلي الثاني، فيشير مجير الدين الحنبلي حيث يقول: «ولما عصا «صدقيا» بخت نصر، قصد بخت نصر بيت المقدس بالجيوش وكان معه ستمائة راية، ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخربت بيت المقدس، وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤه[3].

وفي رواية أخرى منقولة عن الملك المؤيد صاحب حماة: «أن بخت نصر جهز العساكر وبعث الجيش مع وزيره واسمه (نبوز راذان) [4] إلى حصار صدقيا بالقدس فسار الوزير بالجيش وحاصر صدقيا سنتين ونصف أولها عاشر تموز من السنة التاسعة لملك صدقيا[5] وأخذ بعد حصار المدة المذكورة القدس بالسيف، وأخذ

---

(١) ورد اسم «يهو باقين» بالنون في كتاب طه باقر السابق الذكر. وجاء «يهو ياقيم» بالميم في كتاب مجير الدين الحنبلي. ولما كان مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل يعتبر كمصدر أول فتكون تسميته أصح، مما جاء في كتاب الأستاذ طه باقر الذي يعتبر كمرجع ثانوي. أما في التوراة، فيأتي الاسم «يهوياقيم» بالميم متفقا مع مجير الدين الحنبلي، انظر: أخبار الأيام الثاني، ٣٦: ٥. أما اسم «يهوياكين» كما جاء ذلك في التوراة فهو ابن «يهو ياقيم» انظر: أخبار الأيام الثاني، ٣٦: ٨

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٤٨- ١٤٩.

(٣) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٥٠.

(٤) بفتح النون، وضم الباء الموحدة، وسكون الواو، وفتح الزاي والراء المهملة، وسكون الألف وفتح الذال المعجمة، وسكون الألف، وبعد نون.

(٥)ويذكر أن مدة حكم صدقيا كان بين (٥٩٧- ٥٨٦ق. م)، وكان في الحادية والعشرين من عمره. انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٢٠. ويشير مجير الدين الحنبلي أن مدة حكم الملك=

صدقيا أسيراً وأخذ معه جملة كثيرة من بني إسرائيل، وأحرق القدس وخربه، وطرح فيه الجيف، وهدم البيت الذي بناه سليمان وأحرقه، واحتمل منه ثمانين عجلة ذهباً وفضة، وأباد بني إسرائيل قتلاً وتشريداً. وأعانه على خرابه الروم بغضاً لبني إسرائيل[1] وهناك رواية يذكرها برهان الدين الغراري في «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» يوضح فيها الآثار التي ترتبت أيضاً على غزو بخت نصر لبيت المقدس وأخذه «لكرسي سليمان» الذي صنع خصيصاً لجلوس سليمان عليه.«فيروى أن سليمان أمر الشياطين بأن يصنعوا له كرسياً يجلس عليه للقضاء بين بني إسرائيل، وأن يعمل عملاً بديعاً، قال فعملوا له كرسياً من أنياب الفيلة، وفصصوه باليواقيت واللؤلؤ، والزبرجد وأنواع الجواهر... إلخ. ولما توفي سليمان دفن بحايط السور قريب من باب الرحمة على يمين الداخل، وعلى يسار الظاهر منه ووجهه إلى طورزينا، ثم أتى بخت نصر إلى بيت المقدس، وحاصره، وأخذه، وأخربه وقذف فيه الجيف، وأخذ الكرسي وحمله إلى أنطاكية وأراد أن يصعد عليه، ولم يكن له علم بالصعود، فلما وضع رجله على الدرجة دفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة فمات.

وبقي الكرسي بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له «كداس» فهزم خليفة بخت نصر، ورد الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود عليه فوضع تحت الصخرة، فغاب، فلا يعرف له خبر، ولعله رفع إلى السماء والله أعلم» انظر: برهان الدين الغراري، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس.

=صدقيا كان إحدى عشرة سنة، وهو آخر ملوك بني إسرائيل بعد إعادة عمارة بيت المقدس، فإنما كان له الرياسة بيت المقدس فقط فيكون إنقضاء ملوك بني إسرائيل وخراب بيت المقدس على يد بخت نصر سنة عشرين من ولايته تقريباً، وهي السنة التاسعة والتسعون وتسعمائة لوفاة النبي موسى.

انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٥٠.

(١) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٥٠.

مخطوطة بمكتبة الأوقات ببغداد، تحت رقم (٣٨٠٩)، ص٦ب.

وعليه فإذا ما كان في هذه الزاوية من صحة – بالرغم من مسحتها الأسطورية – خاصة فيما يتعلق «بكرسي سليمان» الذي يعتبر كأثر من آثار سليمان فحتى هذا الكرسي قد غاب ولا أثر له مطلقاً. فالمحاولات التي يبذلها اليهود في الوقت الحاضر للبحث عن هذا الكرسي سوف تذهب هباء. كما ذهب هباء تنقيباتهم الأثرية عن هيكل سليمان.

ولعل هذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [1] [الإسراء].

ومن النتائج البعيدة الأثر التي ترتبت على السبي البابلي، هروب العديد من بني إسرائيل إلى مصر، والحجاز، وبهذا لم يبق لبني إسرائيل جماعة، وأقاموا بمصر عند فرعون الأعرج، وأرسل بخت نصر إليه يطلبهم منه، وقال هؤلاء عبيدي، هربوا إليك، فلم يسلمهم فرعون مصر، وقال: ليس هم بعبيدك وإنما هم أحرار، وكان هذا هو السبب لقصد بخت نصر غزو مصر وقتل فرعون[2]. كما هرب من بخت نصر أيضاً جماعة من بني إسرائيل إلى الحجاز، وأقاموا مع العرب[3]. وهناك إشارة إلى هروب جماعة من بني إسرائيل إلى نيسابور في شرقي إيران، بعد سقوط مملكة سامرة الشمالية على يد سرجون الثاني سنة ٧٢٢- ٧٢١ ق. م. فقد أظهر الرحالة بنيامين من بلدة «توديلا» في القرن الثاني عشر مقداراً أكبر من الفهم التاريخي حين كتب أن الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرقي إيران ينحدر أفرادها من المسبيين

---

(١) أي لتفرطن في الظلم والعدوان، سورة الإسراء، آية ٤،٥. وإشارة القرآن الكريم هذه تعود إلى ما أورده مجير الدين الحنبلي في الصفحة السابقة عن غزو بخت نصر لمدينة القدس وتشريد بني إسرائيل وسبيهم وتقتيلهم.

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٥٠؛ فخري، ص٤٥٤.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص١٥١.

الأصليين[1].

الأحداث في القدس بين (٥٨٦-٥٣٩ق.م) جدليا والثورة عليه:

نال القدس دمار كبير وسبي، لكن لم يُسبى كل سكان القدس. فقد بقي منهم قليل نصّب عليهم البابليون رجلاً منهم (جدليا). استقر في المصفاة بعيداً عن القدس لأنها بعد السبي لم تصلح للسكن، وقد أمرهم جدليا بالخضوع لملك بابل. كان من نتيجة السبي حصول فراغ سكاني في القدس، ملئته القبائل الكنعانية والآرامية والأدومية والعربية. فلما عاد بقايا جيش يهوذا لم يكن ذكر في القدس نسبياً (لليهوذيين). وقد عاد مع هذا الجيش أحد المطالبين بالعرش من العائلة المالكة السابقة وهو (إسماعيل بن نشنيا أليشمع)، فهجم على المصفاة وقتل جدليا وبعض البابليين وبعض سكان القدس. وهذا العمل اعتبر إعلان ثورة جديدة على البابليين. لذلك فرّ بعض اليهود إلى مصر خوفاً من الانتقام البابلي القادم. كان من أبرز نتائج السبي زوال مملكة يهوذا وقد زالت معها سيادة صهيون الدينية (مقر الحكم). وقد تحركت باتجاه القدس العشائر الأدومية التي آثرت بعد السبي في تشكيل التقاليد الأدبية[2]. ثم سادت علاقة جيدة بين من تبقى من أهل القدس (يهوذا) والسامرة بعد الخصومة والحرب بينهما، وهذا يفسر علاقة الاحتراب بينهما لا علاقة الاتحاد بين المملكتين. حتى أن أهل السامرة حاولوا تأثير أفكارهم الدينية الكنعانية برمزها (الإله إيل) على بقايا يهوذا القدس. خصوصاً بعد أن صار بالإمكان احتضان (يهوا) وجعله إبناً لـ(إيل). وما (يهوا) إلا شكل من أشكال بعل الذي تعبده السامرة بصفته أنه ابن إيل. وفي ذلك دلالة على علاقة متكافئة ظهرت آثارها بعد عودة أهل السبي.

---

(١) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢١٤. عن: =

= The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Ed. A. Ashar, London, 1840, p. 83.

Tr. p 127.

(٢) المسلي: سقوط أورشليم وأهميته العالمية؛ تاريخ العالم السير جون.أ.هامرتون، المجلد الثالث، الفصل التاسع والستون، ترجمة وزارة المعارف العمومية، القاهرة.

وبهذا يمكن القول أن الغزو البابلي لم يكن بدوافع دينية كما تصورها اليهود. بل جاء الغزو عملاً عسكرياً محضاً هدفه توسعة مجال نفوذ الإمبراطورية البابلية ليس إلا.

التدوين الأولي للمرويات التوراتية في المنفى: وجد أهل يهوذا المنفيين إلى بابل، أن أفضل وسيلة لبقاءهم واستمرارهم ككيان عن طريق التدوين التاريخي. ولو بطريق تدوين أحداث غير موجودة أو هي ليست لهم بجعلها جزءاً من تاريخهم، في وقت عز فيه التدوين واقتصر على فئات محدودة. وقد بالغوا في ذلك التدوين حتى بدأوه بآدم عليه السلام كأول وجود للإنسان على الأرض. وتتبعوا بنسيج خيالي ذريته وأتباعه حتى وصلوه بسلالة نسبهم. وقد ساهم في ذلك العمل التدويني، تداول اللغة الآرامية القريبة من اللغة الكنعانية خاصة في سلاستها ومرونتها. وقد دون أهل السبي الأول مروياتهم بها حيث أصبحت فيما بعد نواة للتوراة عندهم. ضمن تخطيط ذكي يجعل هذه المدونات مركزاً روحياً، تلتف حوله الطائفة الدينية الجديدة. التي بدأت تنتقل من مجتمع قومي خليط (يهوذي) إلى مجتمع ديني متماسك (يهودي) له مركز روحي مدون. خاصة بعد انتقال هذه المرويات من ديانة التقرير إلى ديانة التوحيد. وعلى الرغم مما أصاب هذا التوحيد المشوب حتى عند أهل السبي ثم اليهود من بعد. لكنه أُعتبر اجتهاداً قيماً سعى لأن يكون (يهوا) إله (يهوذا) هو الرب أو الإله الوحيد لليهود. الخالق لعقيدة التوراة الحقيقية.

وجد أتباع يهوذا في السبي ضالتهم لتحقيق ذلك في شخص (يهوياكين) الذي تم إخراجه من السجن البابلي لنبوخذ نصر من قبل (أولمردوخ). وتسميه التوراة (أويل مردوخ). لأن هذا الملك البابلي أفرج عن يهوياكين وأكرمه وجعله مستشاراً له. وربما كان مقتل آمل مردوخ من قبل الكهنة البابليون لإفراجه عن اليهوذي. توفي يهوياكين وبعد لم يكمل مروياته، فعقد أهل السبي أملهم على ابنه (شألتيئيل) الذي سنحت له الفرصة بوجود ملوك بابل الضعفاء (نرجال شاأوصر ثم لباش مردوخ) وهكذا أصبح (شألتيئيل) المسيح المنتظر من وجهة نظرهم. وبه نشأت سلالة ملكية

باطنية جديدة ليهوذا، رفعت ملوكها إلى مستوى المسيح المخلص المنتظر. وظهور سلسلة من تسميهم بالأنبياء. ومؤسسة الكهنة وعلى رأسهم (الصادوقيون) الذين بذلوا جهداً عظيماً بالجمع بين ترشيح الملك المسيح وربطه بالمؤسسة الدينية[1].

عهد أنبياء السبي إرميا – وحزقيال: مما تقدم نرى أن العقيدة الجديدة التي ظهرت في أواخر سني مملكة يهوذا، والتي يمكن تسميتها (اليهوذية) أو (اليهوية). تتمثل في العبادة غير المنتظمة والمرتبكة للإله (يهوا). وعبادة هذا الإله تمت في أحضان عبادة (بعل) الحيثية اليبوسية في أورشليم. وهي في الواقع (مطابقة بعل مع يهوا).

كانت عبادة (يهوا) بداية ضمن صيغة تعددية مع غيره من الآلهة. ثم أصبحت بحكم تكريسها المستمر تفريدية واستمرت كذلك حتى السبي. أما في السبي فقد تعرضت عبادة يهوا إلى تنقلات منتظمة أدت فيما بعد السبي، إلى جعل يهوا إلهاً واحداً للعالم، مع احتفاظهم بفكرة كونه إلهاً خاصاً بهم، عن طريق فكرة الشعب المختار. وأول هذه التحولات أحدثها (إرميا) عندما ألغى ارتباط (يهوا) بمكان عبادته (أورشليم). حيث وجد أهل السبي أنفسهم في حيرة إذ كيف تصير لهم فرصة عبادة يهوا وهم في أرض بابل، بينما معبده وعبادته في أورشليم. لكن إرميا أفتاهم بجواز العبادة في بابل في أي مكان لأنه إله الأرض كلها. والحقيقة أن إرميا هو الذي أسس العمق التراجيدي للتيه اليهوذي. واعترف بأن السبي ودمار أورشليم هو عقاب إلهي. فكان إرميا مؤسساً أول لنواة مأساوية في تاريخ يهوذا. وكانت هذه النواة بداية لخلق ديانة جديدة. بل كانت السبب في تحول الديانة من (اليهوية – اليهوذية) وفيما بعد إلى اليهودية. وهذه المأساة دعت كتبة التوراة في بابل إلى تتبع جذورها الماضية، وربطها بما ليس لهم من مآسي ودمار الشعوب والأمم القديمة وبتاريخ التشرد المزعوم ابتداء من عهد إبراهيم وأبنائه عليهم السلام، وانتشروا في مصر

---

(١) خزعل الماجدي: تاريخ القدس، ص٢١٨-٢٢٠.

وسيناء مع موسى عليه السلام، ومآسيهم مع شاؤول وداود وسليمان عليهم السلام[1].

أما النبي (حزقيال): فقد ساهم في بناء اللاهوت والطقوس الجديدة. فكرّس وحدانية (يهوا)، وفكرة التوبة لأن الإله هو المطهر وهو الذي سيتدبر الخلاص. وقد كرس صورة الانقسام والنزعة الحربية ضد الأمم الأخرى. كذلك ساهم حزقيال بضبط الطقوس والشعائر خاصة (شعائر التطهير وأصول التقديس) وأطلق عليها (الناموس). وبهذا ساهم في تذويب الفوارق بين أهل السبي حيث جمعهم حول دين واحد مميز متفرد عن بقية الشعوب.

تجاوز حزقيال برؤياه خراب أورشليم إلى صنع «أورشليم الخيالية» حتى تصبح جزء من أمل الشعب المسبي. كذلك ساهم في صنع اليهودية كدين، مع أنه لم يذكر أورشليم بالاسم بل سماها (المدينة) وقد وقع في تناقض واضح عند ذكره أنها في أرض إسرائيل وليست ليهوذا.

ورؤيا حزقيال: وصف متكامل للمدينة والطقوس والكهنوت والشعائر. هذه الرؤيا شحذت نفوس أهل السبي بأمل العودة للقدس. لذلك عندما عادوا من السبي كان عملهم الأول هو إعادة بناء الهيكل. من هنا نرى أن أنبياء السبي والمؤسسة الدينية وما تبقى من البيت المالك. قد حوّلوا أهل السبي من عبّاد تقليديين (ليهوا) إلى يهود لهم نواة كتاب مقدس، وأنبياء كبار ولهم مسيح محدّد هو كورش ومسيح منتظر هو (زرُبابل). كذلك خلطوا تراث (بابل وسومر) مع تراثهم الخاص وجعلوه مادة لهم[2]. أيضاً سادت في هذه الفترة عندهم فكرة الشتات. التي بدأت مع السبي البابلي وليس مع السبي الآشوري. لأن السبي البابلي طال حتى عهد يهوذا وأهلها. أما السبي الآشوري فقد طال السامرة عدوة يهوذا.

---

(١) المسلي، ص٦٤٠-٦٤١، العهد القديم إرميا ٣/ ٣٩-٥٠، ٤/ ١٢-١٦، ٥/ ١-٦، حزقيال، ١٦/ ٢٨-٣٤.

(٢) العهد القديم، إرميا ٥١/ ١٧-٢٠؛ المسلي: ص٤٦٣.

كذلك سادت فيما بعد فكرة تدوين التراث الديني السابق (المرويات التوراتية) وتبع ذلك ظهور التراث الديني بظهور الأنبياء. الذين بنوا الأسس الأولى للدين اليهودي (عزرا – نحميا – حجي وزكريا وحزقيال) [1]. إلى جانب ملوك باطنيون مثل (زربابل) الذي اعتبروه المسيح المنتظر. وسلالته تستمر حتى يسوع عليه السلام حسب زعمهم.

وفي الشتات أظهر يهود السبي اجتماعياً ما عرف بـ(غوييم) أي عزل اليهود لأنفسهم وعدم الاختلاط بغيرهم. أو الحي الخالي. ثم تطورت كلمة الشتات لتطلق على كل مجتمع يهودي خارج فلسطين. وبهذا يمكن القول أن القدس بعد تخلصها من أهل السبي لم تعد مدينة للمجتمع اليهودي. بل كان غير اليهود أكثر منهم. ولم تكن مدينة القدس مدينة سياسية واجتماعية لليهود إلا لفترة وجيزة لم تتعدى بين (٦٠-٧٠سنة) [2] على أكبر تقدير.

العصر الحديدي الثالث (٥٣٩-٣٣٣)ق.م

القرن السادس قبل الميلاد – بعد سقوط بابل ٥٣٩ق.م، وبناء هيكل يهوا، الإمبراطورية الفارسية الأخمينية (٥٣٩-٣٣٣)ق.م: نسبت هذه الإمبراطورية إلى «أخمينيس» مؤسس الأسرة الأخمينية. والفرس من أصل آري . أكملوا هجرتهم إلى مشارف إيران، ثم استقروا قرب أرض عيلام. واتخذوا بارسوماش مكاناً لهم وعاصمتهم الأولى «جمشيد». خلف أخمينس ابنه تثبيش الذي استولى على إقليم فارس. ثم خلفه ابنه كورش الذي نصب نفسه ملكاً على ميديا وفارس. ثم فتح مملكة

---

(١) انظر: محمود نعناعة: المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل، ج١/ ٣٢١، طبع القاهرة ١٩٧٢.

(٢) انظر: سيرغي أ.توكاريف: الأديان في تاريخ العالم، ص٣٨٨، ترجمة أحمد م.فاضل، دمشق ١٩٩٨؛ Shiloh, op. cit., 7-9; IBID p. 714-715

ليديا، والسواحل اليونانية والمدن الأيونية في آسيا الغربية. ثم اتجه إلى بابل وأسقطها، ثم إلى الشام ومصر. سقطت بابل عام (٥٣٩ق.م) بيد كورش الذي انتصر على (بل شاصر) أو بلشازار ابن نيونائيد الذي غاب في مهمة مجهولة. داخل جزيرة العرب. وكانت إدارة بلشازار ضعيفة وفاسدة فانتشرت المجاعة وتأزم الوضع السياسي والديني في بلاد بابل. واستغل ذلك أهل السبي، فأقاموا صلة مع كورش الفارسي وأيدوه في حربه ضد بابل. لعلهم يجدوا فيه مخلصاً لهم من الحكم البابلي. وقد انضم كهنة مردوخ في تأييد كورش. وحين دخل هذا أرض بابل. كافأ عملاؤه من الكهنة وأهل السبي. حيث أعاد (الأكتيو) وأمر بترميم معبد مردوخ للكهنة، وأمر بإعادة السبي إلى القدس ويهوذا، وعين حاكماً جديداً على القدس اسمه (شيش بصّر) وأمره بأخذ ما سُبي من القدس وهيكلها وإعادتها إلى مكانها[١].

لما فتح «كورش» الفارسي بابل[٢] (٥٣٩- ٥٣٨ ق. م) وجد هناك الأسرى اليهود على يد (نبوخذ نصر)، أسرى سنة ٥٩٧ ق. م.، وأسرى سنة ٥٨٦ ق. م. فأحسن إليهم. ولا يستبعد أن هؤلاء الأسرى اليهود ساعدوا كورش في فتح مدينة بابل، لهذا أصدر أمره بالسماح لمن أراد منهم الرجوع إلى فلسطين، وسمح لهم بإعادة بناء المعبد[٣].

---

(١) انظر: العهد القديم، عزرا ٦-١٩، إشيعا ٤٥/ ١-٢.

(٢) كان يحكم بابل آنئذ «نابونيدس» (٥٥٦- ٥٣٨ ق. م) الملك المولع بالآثار، الذي بلغ من اهتمامه بمخلفات الماضي حداً جعله يكثر من صور آلهة المدن الأخرى القديمة في عاصمته مما أكسبه كره كهانته ونقمة رعيته.

وقد ترك شؤون الدولة بين يدي ابنه العاجز «بلشاصر». وكان ولي العهد هذا يهتم بحياة البذخ في القصر الملكي المترف الذي بناه نبوخذ نصر، أكثر من الاهتمام باتخاذ التدابير لإصلاح حصون عاصمته.

انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٣٩، عن سفر دانيال، ٥: ٢٨.

(٣) إن أخبار ذلك مدونة بالتفصيل في سفر عزرا، ٦: ٣- ٥، وانظر، طه باقر، مقدمة في تاريخ

ولعل الحافز الذي دفع «كورش» على ذلك هو أن يجعل من هؤلاء اليهود العائدين جماعة بجانب السلطة الفارسية ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصري، وإزاء هذه المعاملة رحب اليهود بكورش، ناعتين إياه بالمخلص الإلهي، أو المسيح المنتظر[1].

لا يمكن أن نحدد بالضبط عدد اليهود الذين استفادوا من هذه الفرصة، ويبدو الرقم (٣٦٠ و٤٢) الذي يعطيه عزرا، ونحميا[2] مبالغا فيه، إذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو (٥٨٠٠٠) نسمة، كما أنه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق الجمع النهائي. ولا بد أن الذين استجابوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة، ومن الذين لم تكن لهم جذور في الأرض الجديدة[3].

وقد فضل أغنياء المسبيين البقاء حيث هم بدليل ورود أسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك العهد، وكانت بعض هذه الأسماء مركبة من أسماء آلهة بابلية[4].

الحضارات، ج٢، ص٢٩٨.

(١) عن سفر أشعيا، ٤٤: ٢٨: ٤٥. وطه باقر، مقدمة ج٢، ص٢٩٨.

(٢) انظر: ف. حتى، تاريخ سورية، ج١، ص٢٤٣، وعزرا ٢: ٦٤. ونحميا ٧: ٦٦.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٢٤٣.

(٤) انظر: نفسه، ج١، ص٢٤٣.

إن هذا يؤكد ما سبق أن ذكرته في مقدمة هذا البحث، بأن اليهود لا يشكلون وحدة قومية، ولم يكن لديهم أي شعور قومي موحد يجمعهم، فهم يخضعون، ويكيفون أنفسهم - بشكل جماعات متفرقة - وفقاً للظروف، والأحوال والأمكنة التي يعيشون فيها.

ومما يؤكد هذه الناحية أيضاً أنهم سرعان ما يفقدون حتى لغتهم - والتي تشكل الأساس في الشعور والوحدة القومية، كما هو واضح في تسمي الكثير منهم بأسماء الأمكنة التي يعيشون فيها - كأسماء بابلية في بابل، وعربية في الحجاز، وآرامية في بلاد الشام. وعليه، فليس لليهود منذ القدم وطن ثابت مستقر وهذا يشكل أيضاً - الأساس في الوحدة والشعور القومي.

زربابل (المسيح المنتظر – وقائد العودة):

اسم زربابل[1] هو (أسير بابل). اعتبره أهل السبي حفيد آخر ملك مسبي وهو (يهوياكين) وذكر في سفر أخبار الأيام الأول يصفه كابن لـ(يكنيا) ابن يهوياقيم. نسبه كتبة التوراة لاحقاً إلى سلالة الملك النبي داود ﵇ ضمن غاية تتعلق بدمج إسرائيل بتراثهم. مما يجعل حسب رأيهم أن داود وسليمان عليهما السلام كونا مملكة متحدة من (إسرائيل ويهوذا). وهذا الأمر لا تؤيده الآثار والمصادر والوقائع.

عدّ زربابل أمل أهل السبي في عودة الملوكية إلى يهوذا. ولما كان ذلك يتعارض في حينه مع الواقع. اعتبروه الملك المنتظر (والمسيح المخلص) ليهوذا كشكل من أشكال الملوكية الباطنية. وقد أيد ذلك النبيان (حجي وزكريا) والكاهن الصادوقي (يوشع بن يهو صادق) الذي يمثل المؤسسة الدينية الداعمة لملوك يهوذا. أما دعوته بالمسيح المخلص فقد جاءت نتيجة تأثر (زرُبابل) ببيئتين. الأولى بابلية ذات تراث شعبي محتشد بفكرة العودة الدورية للإله المخلص (تموز). والثانية فارسية: تؤمن بظهور المخلص (الفاقليط) الذي نشأ مع الأفكار الفارسية (الزردشية) دين الدولة الأخمينية الرسمي. قاد (زرُبابل) نبي الكورة من بابل إلى يهوذا والقدس. وكانت أول أعمالهم هو بناء بيت الرب أو (الهيكل) الذي هو في الحقيقة معبد وليس هيكل إما (معبد إيل) إله إسرائيل القديم، والذي لم يكن موجوداً في القدس، بل في السامرة، أو معبد يهوا الإله الواحد ليهوذا، الذي تبلورت شخصيته قبل السبي وبعده والاحتمال الأقوى هو الأول لما ورد في سفر عزرا[2].

---

(١) سمي بالطريزو وبالعبرانية (عزرا) وهو من ذرية هارون بن عمران، د.سامي سعيد الأحمد: الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، ص٣٧.

(٢) العهد القديم، عزرا ٤ : ١-٣.

يبدو أن من قام ببناء (بيت الرب) في أورشاليم هم زربابل بن شألتيئيل حسب سفر عزرا، ويشوع بن يهوصادق، والكهنة اللاويون. وربما بدأو بتشييد، المذبح، ثم الهيكل. وفي أثناء ذلك كانوا يبنون المدينة وأسوارها، وكانت يهوذا وقتها تابعة لولاية فارسية (عبر النهر). هذا العمل أثار أهل يهوذا وجماعة السامرة، خوفاً من أن يقوم الفرس بمعاقبتهم لأنه ربما يكون عملهم هذا خروجاً على الحكم الفارسي، كذلك قام عدد من أهل السامرة القدماء وأهل ولاية (عبر النهر) من كنعانيين وآراميين، بإرسال رسالة إلى ملك الفرس (أحشمويرس) أو (أرتحشتا) يخبرونه بعمل أهل السبي من بناء المدينة والمعبد. فأمر بوقف عمليات البناء. وبعد أن قاوم أعداء يهوذا هذا الأمر بالتهديد بالعصيان. شن ملك الفرس هجمات على يهوذا. كذلك نتيجة هذا العمل شن الملك جشم ملك قبيلة قيدار العربية هجماته على يهوذا. وأمام ذلك أمر ملوك الفرس وقف عمليات البناء[1] في يهوذا. لكن البناء عاد مرة ثانية ربما في السنة السادسة من حكم الملك الفارسي (دارا الأول) سنة ٥١٥ق.م. وبعد أن اكتمل بناء بيت الرب. واحتفل أهل السبي في يوم اكتماله، ودشنوه بالذبائح، واحتفلوا بعيد الفصح وعيد الفطير. لكن الأسفار لا تذكر مكان البناء في أورشليم. كذلك لم يرد اسم زربابل بين المحتفلين بنهاية البناء. وهذا يفتح باب الاحتمال بين موته أو قتله. لكن سلالته الملوكية تستمر إلى ولده أبيهود.

نبيا العودة حَجِّي وزكريا: ظهر هذان النبيان في عصر (زرُبابل) وهما من أشد أنصاره، ومن أكثر الأنبياء حثاً على بناء أورشليم ثانية حتى ولو بمواد أولية. وكان النبي (حجِّي يبشر بملوكية زربابل وبأنه المسيح المنتظر). أما زكريا فقد أكمل مهمة (حجِّي) في التبشير بنبوة (زربابل). كما أنه بنى أول الصور اليوثوبية المثالية لأورشليم القادمة. ومن ثم بناء المعبد عام ٥١٦ق.م[2].

---

(١) أبو عليان، عزمي، ص٩٥؛ فيليب حتى، ص٢٤٤.

(٢) انظر: المسلي، ص٦٤٤، العهد القديم زكريا ١٢/ ١-٥، ٢٠-٢١، وحجي ٢: ٢٠-٢٣، ومن

من هنا نرى أن الربع الأخير من القرن السادس جاء خالياً من الأحداث باستثناء إكتمال بناء لهيكل (المعبد). وقد غاب عن الأحداث بعد (زربابل) ذكر المطالبة بملوكية يهوذا أو المسيح المنتظر. ربما مرجع ذلك هو انتصار الكهنة الصدوقيون (الحزب الديني) على زربابل وجماعته (الحزب السياسي) وفيه تحولت القدس إلى مدينة دينية سيطر عليها الصدوقيون تحت النفوذ الفارسي سياسياً. وأصبح همّ القدس في رضى الوالي الفارسي.

القرن الخامس والرابع ق.م حتى ظهور الاسكندر المقدوني:

لعل أهم الأحداث التي مرت في هذه الفترة هو نمو القدس وتطورها ونجاح أهل السبي في تطوير الدين اليهوذي إلى الدين اليهودي بعد ابتعادهم عن السياسة والخضوع التام للسلطة الفارسية. وقد استطاع أهل السبي تكوين نواتين أساسيتين لهذا التحول الديني. الأولى: أرضية ببناء المعبد (بيت الرب) أو الهيكل. والثانية سماوية تمثلت في كتابة أسفار التوراة الخمسة. وقد أصبحت القدس بذلك مدينة مركزية في العالم. بعد إتمام بناء المعبد واستمر بناء وإعمار القدس. حيث تصاعدت أهمية الهيكل، وترسخت فكرة الإله الواحد (يهوا) كإله واحد وهيكل واحد. لذلك لم تظهر المعابد والكنس اليهودية إلا في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. كمكان للشعائر والتربية الروحية. لأن الهيكل ظل المسيطر الأول من القرن الخامس حتى القرن الثاني قبل الميلاد[1].

إصلاح النبيان (نحميا وعزرا):

الجدير بالذكر المؤرخ هيردوتس اليوناني عاصر أحداث ما بعد السبي والعودة، وزار بلاد الشام في تلك الفترة. لكنه لم يشير إلى بناء الهيكل المزعوم ولا عودة اليهود إلى أورشليم.

(١) أندريه إيمار- وجانين أوبواوية: الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد م.دانمر وآخرون، ص٢١١، ٢٧٢، بيروت ١٩٨١.

نحميا: بدأ ساقياً عند الملك الفارسي (آرتحثتا)، وقد طلب العون من الملك ليتوجه إلى القدس لبناء أسوارها بمساعدة من والي (عبر النهر). باشر نحميا مع وجهاء المدينة وكهنتها خاصة (الياشيب) رئيس الكهنة ببناء أسوار القدس في حدود عام (٤٤٤ق.م). ولما كان نحميا رجل سياسة أكثر من كونه رجل دين. جعل هدفه الأول إكثار سكان القدس وإداراتها. أُوقفت إصلاحاته عندما عاد إلى فارس، لكنه لما عاد إلى أورشليم عام (٤٣٢ق.م) قام باتخاذ تدابير أكثر صرامة في مواضيع دينه، مثل التشديد على عدم الزواج من الأجانب، وعدم إهمال يوم السبت، وطرد أحد الكهنة (منسي) رئيس الكهنة وصهر حاكم السامرة. وهذا الأمر الأخير حسم العلاقة بين أهل السامرة وأهل السبي فيما بعد[1].

عزرا[2] والتدوين الثاني للمرويات التوراتية (٤٤٥-٤٠٠ق.م): ظهر عزرا الكاهن من بيت صادوق. بعد سيطرة الكهنة الصدوقية على أهل السبي واليهوذيين. وقد هيأته قدرته الدينية والثقافية. للقيام بدور تاريخي كبير في تاريخ الدين اليهودي (التدوين الثاني للمرويات التوراتية). بشكل متسلسل وبتعاون مع فريق من الكهنة اللاويين والكتبة. حيث بدأ بجمع المرويات الشعبية الشائعة في بلاد يهوذا. وتم عرضها بطريقة دينية مركزية. ثم قام الكتبة بتشجيع من الكهنة اللاويين بكتابة (سفر اللاويين) وسفري (العدد والتثنية) في الشريعة. وأما سفر (عزرا). فيُرجح أنه كُتبت لاحقاً بعد عزرا. لأن مضمونه لا يشير إلى عزرا. **ولقد عاد** مع عزرا إلى القدس حوالي (١١٧٢) فرد حسب العهد القديم. فوجد أهل السبي والكهنة، قد اختلطوا بالشعوب الأخرى وتزوجوا من نساء الأقوا م الأخرى المجاورة لهم. فاعتبر ذلك إثماً عظيماً سيعاقب عليه الرب وطلب منهم أن يستغفروا للرب. إن أنبياء اليهود (عزرا ونحميا) يزعمون أنهم شعب خاص بالإله يهوا (شعب مختار). لذا لا يجوز

---

(١) العهد القديم، نحميا ١: ٥؛ المسلي، ص٦٤٦.

(٢)مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص١٥٣؛ العهد القديم (عزرا) ٧: ١.

اختلاطهم بالشعوب الأخرى التي تؤمن بغير إلههم. عاد عزرا إلى بابل واستمر في إعادة كتابة المرويات، بعدما جمع من التراث الكنعاني وما طاب له وقد أدخله مع تراث يهوذا السابق، والتراث البابلي أثناء الأسر حتى يكون نواة للتوراة. مشتقة من الفعل العبري (يرش) الذي له علاقة بالفعل العربي (ورث) الذي يقترب بمعناه من الفعل العربي (رأى) الذي يفيد اليقين والاعتقاد. وجعل أساس التوراة هي الأسفار الخمسة (التكوين، الخروج، اللاويون، العدد، التثنية) ثم أضيفت لها الأسفار الأخرى الذي ازدادت مع الزمن، ويبلغ الحد الأدنى لكل أسفار التوراة (٣٩) سفراً. وتسمى بالعهد القديم الذي يحمل بالعبرية الاسم الحرفي (توراة الأنبياء والكتبة) أي (رشاد الأنبياء والكتبة). وتدوين التوراة مرّ بفترتين الأول: باللغة الكنعانية أثناء السبي في المنفى البابلي. والتدوين الثاني باللغة الآرامية، قام به عزرا في بابل بعد ثلاثة أرباع القرن. وهنا لا بد من الإشارة أن اليهودية كدين لم تكن تسمى بهذا الاسم. لأن التوراة لم تذكر هذه التسمية. بل ذكرت ديانة أهل ما بعد السبي (يهوذا). وربما جاء اشتقاق اليهودية من اسم اليهود باليونانية loudaiol. للدلالة على ديانتهم[1].

وفي عام (٤٤٥ق.م) زار عزرا القدس ثانية. بعد أن أكمل كتابته للشريعة. وجاء بها إلى أهل يهوذا ليهديهم إلى السنة الصحيحة كما ذكرها سفر نحميا. بهذا يمكن القول إن تأسيس الدين اليهوذي لأول مرة أيضا. قبل ذلك بقرنين عندما عثر يوشيا على سفر الشريعة. (الأولى ليوشيا عام ٦٣٦- والثانية عام ٤٤٤ق.م).

شهدت الفترة اللاحقة لظهور (عزرا ونحميا) تزمتاً شديداً في الدين اليهودي. حيث سنوا (شريعة عزرا) لضمان مجتمع يهودي متماسك وقوي. وزاد ترسيخ القدس كمدينة مركزية استأثرت بالعبادة الحقيقية. وتوجب الاحتفال بالأعياد الكبرى (الفصح) على رابية صهيون، وحج دوري سنوي إلى الهيكل.

---

(١) انظر كمال الصليبي: البحث عن يسوع ص٢٥، عمان ١٩٩٩؛ خزعل الماجدي، ص٢٤٢-٢٤٣.

وترسخ أيضاً اعتبار (يهوا) إله وحيد في العالم وللعالم. وبهذا في أجواء مركزية الهيكل والرب والأعياد والشعائر، نشأت الأصولية اليهودية متزمتة مطلقة – ومغلقة على نفسها[1]. ويبدو أن عام (٣٣٠ق.م) شهد فراق نهائي بين يهود أورشليم والسامريين ولا يزال مستمر حتى الآن. وهجرة اليهود الأصوليين إلى مصر والبلدان المجاورة. كذلك تركت اليهودية الأصولية كثيراً من التأثيرات في العادات والأعياد. وفي بداية القرن الرابع قبل الميلاد دبّ الفساد في المؤسسة الكهنوتية، وبدأت طموحات الزعامة تتناهب هذه المؤسسة. وعلى العموم لقد ثبت اليهود أركان ديانتهم قبل ظهور الاسكندر المقدوني. وفصلوها عن الديانات المحيطة بهم وقد تأثروا ببعض العقائد الفارسية القديمة مثل (الزردشية)[2].

القدس في العصر الهيلنستي ٣٣٢-٦٣ق.م:

اليهود في العهد اليوناني: كان ظهور الاسكندر المقدوني في بلاد اليونان، ثم في الشرق القديم إشارة إلى تبدل جوهري في مسرح تاريخ العالم. جرى فيه خلط وتزاوج بين تراث الأمم الشرقية والغربية. وجدت فيه نوع من الاستعمار الاستيطاني هو الأول من نوعه في التاريخ. وحكم فيه الإغريق شعوباً شرقية امتدت إلى الهند وآسيا الصغرى وبلاد الشام حتى شمال إفريقيا. وقد شهدت فيه فلسطين تاريخاً خاصاً ظهرت ملامحه نتيجة اختلاط الثقافتين البطلمية والسلوقية مع الثقافات المحلية الزاخرة بالتنوع. وكانت القدس مسرح قلب الاختلاط حيث أثرت وتأثرت. هذا وقد قسم العلماء العصر الهيلنستي إلى ثلاثة أقسام:

الأول: القدس في عهد الاسكندر المقدوني ٣٣٢-٣٢٣ق.م.

الثاني: القدس في العهد البطلمي ٣٢٣-٢٠٠ق.م.

---

(١) العهد القديم: عزرا ٨: ١-٤، إشيعا ٤٨: ١-٣، نحميا ٨/ح-١١، ١١/ ١-٣؛ خزعل الماجدي، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) انظر: المسلي، ص٦٤٠، ٦٤٨؛ مندنهول، ص٨٥.

الثالث: القدس في العهد السلوقي ٢٠٠-٦٣ق.م.

القدس في عهد الاسكندر المقدوني (٣٣٢-٣٢٣ق.م) [١]:

رغم أن الفرس كانوا متعاطفين جداً مع اليهود، وهم الذين سعوا في إعادتهم إلى أورشليم وساعدوهم في بناء الهيكل.. وحظي اليهود حظوة كبيرة عند ملوك فارس منذ أيام (أحشويروش) ثم (قورش) ثم (دارا) (داريوس) إلاّ أن اليهود سرعان ما خانوا أسيادهم القدامى وعضوا اليد التي أسدت إليهم الجميل... وتحولوا إلى جانب القوة الشابة الجديدة التي ظهرت على يد الإسكندر المقدوني (اليوناني)، وقدم اليهود أنفسهم كعادتهم للسيد الجديد الخدمات وخانوا سادتهم القدامى عندما بزغ في الأفق نجم الإسكندر، وبدأ يعلو نجمه على دارا الثالث الفارسي، خاصة بعد أن استطاع الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٠ قبل الميلاد القضاء على الحكم الفارسي في بلاد الشام بأكملها ومن بينها فلسطين[٢].

وقد عامل الإسكندر المقدوني اليهود معاملة حسنة، لأنهم قدموا له بعض الخدمات، واشتغلوا كعادتهم جواسيس ضد أسيادهم القدامى.. ونقلوا كثيراً من أسرار الدولة الفارسية التي كانت تثق فيهم، وتوليهم كثيراً من مناصبها إلى الاسكندر المقدوني.

وفي سنة (٣٣٢ ق.م) دخل الإسكندر المقدوني الكبير فلسطين عنوة، وخرج اليهود لاستقباله فرحين به، واعتبروه بمثابة المخلص لهم من نير الفرس وطغيانهم[٣]، وهذا الأمر لا يتفق مع المعاملة الحسنة لهم من جانب الفرس، وخاصة

---

(١) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١/ ١٥٣.

(٢) محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة ١٠١-١٠٤.

(٣) Flavius Josephus, The Antiquities of the Jews Translated by William whiston, Book XI, chap. VIII pp 323-325.

عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس، ج١/ ٣٤، القدس ١٩٩١.

من قبل الملك (كورش) الذي اعتبر المسيح المنتظر بنظر اليهود. وحول رواية (يوسيفيوس) بدخول الاسكندر المقدوني القدس يُرى أن الفرس في عهد (داريوس) أقاموا حاكماً على السامرة اسمه (سنبلاط) وقد تزوج من بنات أحد أشراف القدس اسمه (منسة)، لكن اليهود طلبوا إليه التخلي عنها فرفض ذلك فقامت عليه الثورة. تمنى سنبلاط نجاح جيش داريوس في مواجهة تيار اليهود المعادي له ولمنسة.

وفي غمرة ذلك أرسل الاسكندر طلباً إلى الكاهن (يهوياداع) مده بالمتطوعين ضد الفرس فلم يرد جواباً. لكن سنبلاط أجاب الاسكندر لطلبه ومعه سبعة آلاف من رجاله، وقد هرعوا لاستقباله على جبل سكوبس شمال القدس، وقدموا خضوعهم له وطلبوا عفوه. وقام الكاهن يهوياداع بتقديم سفر أثيال (أحد أسفار التوراة) للاسكندر. الذي ورد فيه أن أحد اليونان سيتغلب على الفرس ويقوض عرش الأكاسرة. أجاب الاسكندر أنه رأى في حلمه ذلك. ثم دخل الهيكل وقدم الذبائح هناك. ثم طلب الكاهن من اليهود أن يسموا كل مولود منهم باسم الاسكندر وأن يدعون له كلما دخلوا الهيكل. رحب الاسكندر بخضوع الكاهن وسأله طلبه. فطلب أن يتاح لليهود العمل بقوانين أجدادهم. وأن لا يدفعوا الجزية في السنة السابعة. فأجاب الاسكندر طلبه. وطلب منه أن يتطوع عدد من اليهود في جيشه وأن يرافقوه في حروبه. وطلب رأيه في مواجهة الفرس ورأي الآلهة في ذلك. فقال له اذهب أيها الملك المعظم الله معك، فعين الاسكندر رئيس الكهنة والياً على القدس إضافة لمنصبه الديني[1].

(١) عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص٣٥، القدس ١٩٩١؛ جورج مندنهول، ص٨٥، عمان ١٩٩٢؛ عزمي أبو عليان، ص١٠٠.

القدس في عهد البطالمة ٣٢٠-٢٠٠ق.م (فتح القدس والسبي البطلمي لليهود)

وعندما مات الإسكندر المقدوني سنة (٣٢٣ ق.م) خلَّف إمبراطورية واسعة الأرجاء واقتسمها قوَّاده[١] من بعده. وقد ظهر البطالسة في مصر من عاصمتهم الإسكندرية (التي بناها الإسكندر). فتولى بطليموس الأول حكم مصر وفلسطين، وامتد حكمه من سنة (٣٢٣ ق.م) إلى سنة (٢٨٥ ق.م). وظلت فلسطين في هذه الفترة مسرحاً للاضطرابات في النفوذ بين البطالسة والسلوقيين. وفي عهد بطليوس الأول بدأ اليهود أول تمردهم على اليونان، فقام بطليموس الأول بحملة ضد أورشليم في يوم السبت ودك أسوارها واقتحمها. ثم ساق من سكانها مئة ألف أسارى إلى مصر. بعد أن رفض (لاوحدون) أن يبيع جوف سوريا لبطليموس الأول فأثقل عليهم الضرائب وعاملهم بقسوة. ثم ما لبث أن تراجع عن سياسته، وفي هذه الفترة واصل كهنة اليهود استكمال كتابة أسفارهم الباقية (جزء من سفر زكريا وسفر إرميا وسفر يونان) حوالي ٣٠٠ق.م.

عودة السبي والترجمة السبعونية: تولى الحكم بطليموس الثاني، الذي حكم مصر وفلسطين (٢٨٥- ٢٤٧ ق.م). وقد ظهرت روايتان حول موقفه من اليهود - منها: أنه غزا بني إسرائيل ببلاد فلسطين، وإيلياء من أرض الشام فسباهم وقتل منهم[٢]. ورواية أخرى يذكرها (مجير الدين) [٣] وهي: «لما تولى بطليموس الثاني المسمى عند اليهود (ثلماي) - جمع جماعة من الأسارى منهم نحو ثلاثين ألفاً من اليهود، فأعتقهم كلهم، وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم، ففرحوا بذلك وأكثروا له

(١) فيليب حتي: تاريخ سوريا، ج١، ٢٥٨- ٢٥٩، تاران، ص٢٣٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج١/ ٣٣٤.

(٣) مجير الدين: الأنس ج١/ ١٥٥.

بالدعاء والشكر)... ثم أرسل رسولاً وهدايا إلى بني إسرائيل المقيمين بالقدس الشريف، وطلب منهم أن يرسلوا له عدد من علماء بني إسرائيل لترجمة التوراة، وغيرها إلى اللغة اليونانية فسارعوا إلى امتثال أمره[1].

وقد واجه الدين والثقافة اليهوديان، الحضارة الهيلينية، فكانت ردود فعل مختلفة من قبل اليهود تجاه هذه الحضارة، ومعالمها المختلفة، ومنهم يهود أحبوا الهيلينية وعشقوا مبادئها، وهاموا بها. وفعلاً أضاف ممثل الدولة السلوقية في القدس اسم الملك السلوقي إلى اسم مدينة القدس فصارت تدعى «انتيوخت - أورشليم»[2].

وذكر أن اليهود عرفوا كيف يتقربون إليه، ويقدمون له بعض الخدمات، حتى سمح لمن أراد منهم العودة إلى فلسطين بالعودة إليها، ويقال إن (١٢٠) ألفاً من اليهود المقيمين في مصر، عادوا إلى أورشليم وفلسطين في عهده. أيضاً ذكر في عهده أنه قد تم ترجمة كتب الشريعة والتوراة إلى اللغة اللاتينية بواسطة (٧٢) حبراً من أحبار اليهود. لأنهم طلبوا أن يتحاكموا إلى شريعتهم بدلاً عن القانون اليوناني. فطلب منهم أن يطلع على هذه الشريعة الخاصة بهم، فقاموا بترجمة كتب الشريعة الخمسة إلى اليونانية. ثم ضاع النص العبري وبقي النص اليوناني، وهو الذي أصبح

---

(١) حول الترجمة السبعونية لبعض أسفار التوراة إلى اللغة اليونانية فقد تعددت حولها الروايات منها أن بطليموس الثاني استقدم (٧٢) عالماً من يهود فلسطين وكلف كل واحد منهم بترجمة التوراة إلى اليونانية وبعد (٧٢ يوم) فرغوا من الترجمة وقورنت التراجم بعضها ببعض. وهذا يعني أن ترجمة الكتاب المقدس قد تمت بوحي من الإله حتى لا تختلف كلماته عند الترجمة. بينما يرى (ثورب تارن) أن هذه القصة خرافة. وأن الترجمة امتدت فترة طويلة. (الأسفار الخمسة الأولى في القرن الثالث ق.م). وترجمة إشيعا وإرميا بين (١٧٠-١٣٢) ونقل سفر الأنبياء وسفر المزامر حوالي (١٣٢ق.م) وسفر الجامعة ترجم حوالي (١٠٠)م. ورواية أخرى أن الترجمة تمت على يد اليهود المصريون الذين تأغرقوا وأصبحت اليونانية لغتهم الوحيدة. وكذلك المراسيم الدينية تؤدى باليونانية؛ العبادي، ص٤١، ١١٣؛ تارن، ص٢٢٤، ٢٣٦.

(٢) د. سامي سعيد الأحمد: الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، ص٢٩.

معتمداً فيما بعد مع بعض التعديلات والإضافات[١] البسيطة.

هذا فقد أسس السلوقيون في القدس ملعباً، وصار شبان اليهود يترددون إليه للعب والسمر والتعلم. وترك الكثير منهم عادة الختان، وطفقوا يرسلون الممثلين عنهم لحضور الألعاب الأولمبية التي كانت تعقد في فينيقية عند الآلهة المحلية هناك. وصاروا يأكلون لحم الخنزير ويذبحونه حتى داخل معبدهم الرئيسي. وفريق منهم حافظوا على يهوديتهم، وأرادوا التوفيق بينها وبين الثقافة الهيلينية. ومن هؤلاء الفيلسوف اليهودي الإسكندراني «فايلو» الذي تسلح بالفلسفة اليونانية، واستعمل جدلها ومناقشتها في بحوثه لمبادئ الدين اليهودي، وترجم التوراة إلى اليونانية وسميت بالسبتوخنت "Siptuagint".

ومن قبل أراد الملك السلوقي «أنطيوخس» صهر اليهود تماماً في بوتقة الحضارة الهيلينية كخطوة لتوحيد الإمبراطورية ثقافياً ودينياً، وحملهم على عبادة نفسه، ووضع عقوبة الإعدام لمن يمارس اليهودية سراً أو علناً، وبنى معبداً لزوس على المعبد اليهودي في القدس. وقد جوبهت أعماله هذه من قبل اليهود بثورة عارمة من حزب «الحاسيديم» برئاسة جوداس المكابي»[٢]. ويشكك كثير من الباحثين، ومنهم الرهابنة اليسوعية في مقدمة الكتاب المقدس حول فحوى هذه القصة..) وجعلوها من باب الموضوعات والأساطير.. لأن الترجمة اليونانية تمَّت على مراحل متعددة ولم تتم دفعة واحدة في عهد بطليموس الثاني على يد (٧٢) حبراً وفي (٧٢) يوماً كما يزعمون.

بطليموس الثالث (الحرب السورية الثالثة وجزية القدس): تولى بطليموس الثالث، حكم مصر وفلسطين، (٢٤٧- ٢٢٢ قبل الميلاد). وحاول اليهود في زمنه أن يتملصوا من دفع الجزية. وماطلوا في دفعها لعدة سنوات فأرسل عاملاً جديداً وهددهم بالطرد إن لم يفعلوا بدافع من مصر. فذهب وفد من اليهود وبكوا وناحوا

(١) البار: ١٠٣.

(٢) انظر: د. سامي سعيد الأحمد، الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، ص٢٩.

وادعوا الفقر، ورقَّ لهم قلب بطليموس فعفا عن جزية السنوات الماضية. وتعهدوا بدفع جزية تلك السنة وما بعدها (ومقدارها ٢٠ وزنة أي قنطاراً من الفضة). كانت القدس حتى هذا الوقت بعيدة عن الهلينة، وكانت واقعة تحت تأثير عائلتين رئيسيتين متصارعتين. هما عائلة أويناس وبيدهم وظيفة رئيس الكهنة، وعائلة طوبيا ومعقلهم حشبون في عمون، وربما كانوا من دم عموني وربما لم يكونوا كذلك[١].

بطليموس الرابع (الحرب السورية الرابعة وأهلنة القدس) [٢]: تولى بطليموس الرابع حكم مصر وفلسطين (٢٢٢- ٢٠٢ قبل الميلاد)... وفي تلك الفترة كان السلوقيون الموجودون في سوريا، هم أيضاً من خلفاء الإسكندر، يريدون توسعة حكمهم إلى فلسطين. فجرت عدة حروب بينهم وبين بطليموس الرابع، هذا واستطاع أنطوخيوس الثالث السلوقي الانتصار على بطليموس الرابع في فلسطين. وكان أنطوخيوس هذا مستاءٌ من موقف اليهود منه، لأنهم ناصروا بطليموس الرابع فأذل اليهود. وحول ذلك تعددت الروايات: منها رواية ترى أن بطليموس الرابع زار الهيكل عام ٢١٧ق.م وقد أراد أن يدخل (قدس الأقداس) فمنعه رئيس الكهنة. فاغتاظ منهم وأخذ يضطهد اليهود. وهناك رواية أخرى ترى أن بطليموس غضب على اليهود وحاول هيلنة القدس والدين اليهودي[٣].

بطليموس الخامس (الحرب السورية الخامسة – ونهاية حكم البطالمة للقدس وفلسطين): تولى عرش مصر (٢٠٥-١٨٠ق.م) ثم خلفه (أرستسومينس) الذي بدأت في عهده الحرب السورية الخامسة (٢٠٢-٢٠٠ق.م). وأصبحت الشام تحت

---

(١) انظر: أبو عليان، ص١١١؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٦٠؛ تارن، ص٢٢٤.

(٢) أهلنة القدس: ساد أرض فلسطين والقدس ثلاث تيارات، أولها تيار يحاول أن يتملق (البطالمة). وينزع إلى الهلينسية. وتيار يعمل لصالح السلوقيين وتيار ثالث ضد التيارين البطلمي واليوناني معاً.

(٣) أبو عليان، ص١٠٢؛ تارن، ص٢٢٤.

الحكم السلوقي عام (٢٠٠ق.م) وانتهى بذلك حكم البطالمة لفلسطين والقدس. وتحول اليهود داخل القدس وفلسطين نحو الهلينية الإغريقية في الدين. حتى أصبح البيت الديني الحكم في القدس برئاسة الكاهن الأكبر (أديناس) الذي يميل إلى البطالمة، أما السياسي ويرأسه (طوبيا) فقد مالوا إلى السلوقيين وإلى سياسة الهيلنة.وفي نهاية الصراع البطلمي السلوقي لصالح السلوقيين. بدأ انفتاح اليهود يزداد في القدس على الهيلنة وجاء هذا التحول بسبب تذمر أثرياء القدس من ضخامة الضرائب البطلمية الكبيرة، حتى اضطر اليهود إلى الهجرة عن فلسطين إلى بلاد الشتات. ونتيجة لهذه الأحداث أكمل اليهود سفر (الجامعة) حوالي (٢٠٠ق.م) حيث حمل هذا السفر أثراً هيلينياً واضحاً. وكذلك سفر الأمثال[١].

القدس في عهد السلوقيين ٢٠٠-٦٣ق.م:

أنطيوخس الثالث الكبير (التسامح مع اليهود): كان طموحاً وتولى الحكم (٢٢٣- ١٨٧ق.م) في عهده حارب الرومان وخسر الحرب مع ر وما عام (١٨٨ق.م)، زار القدس وأظهرا تسامحاً مع اليهود. وأطلق لهم حرية معتقدهم وأكمل إصلاحات الهيكل وأعفى اليهود من الضرائب لفترة من الزمن.

سلوقس الرابع ونزاعات اليهود: تولى الحكم ١٨٧-١٧٥ق.م. وبدأت في عهده نزاعات اليهود بين رئيس الكهنة (أونياس الثالث) ورئيس حرس الهيكل (سمعان). ترك هذا النزاع شرخاً في المؤسسة الدينية اليهودية. استطاع السلوقيون من خلالها النفاذ منها لهيلنة اليهود[٢]. وخلال هذه الفترة أسس السامريون هيكلاً في جزريم.

أنطيوخس الرابع (١٧٥-١٦٤ق.م): يعد آخر الملوك السلوقيون الأقوياء. غزا مصر مرتين وأشعل نار الحرب السورية السادسة. بدأ حكمه بشق صفوف كهنة

(١) تارن، ص٢٣٨.

(٢) أبو عليان، ص١٠٤.

اليهود في القدس. وبيعه منصب الكهنوتية (ليشوع) أخ رئيس الكهنة الشرعية. لغرض نشر يشوع هيلنة الدين اليهودي، وغير اسمه إلى (ياسون). وأنشأ لليهود في القدس ملعباً وميداناً للاحتفالات. وعم الفساد الكهنة والعامة. لكن الكاهن الأكبر قام باستعادة منصبه بمبلغ أكبر مما قدمه أخوه يشوع، وسمى نفسه اسماً هيلينياً هو (فيلاوس)[1]. ودخل الأخوين في مواجهة حاول فيها يشوع دخول القدس لكنه لم يستطع احتلالها، فعمت الفوضى مدينة القدس. ولما علم (أنطيوخس) بعد انتصاره في مصر ما حدث في القدس. قدم إليها وعاقب معارضه ونهب الهيكل. وعين لحفظ المدينة قائداً يونانياً يدعى (فيلبس) وإلى جانبه والي وقوة عسكرية، وبذلك انتهى عهد يشوع. وفي عام (١٦٨ق.م) أرسل أنطيوخس الرابع رئيس الجزية (أبولونيوس) إلى القدس ومدن يهوذا وقد قرر القضاء على اليهود نهائياً في المدينة. وحين وصلها تظاهر بالسلام، ثم استغل عطلة السبت اليهودية، فانقض على المدينة وأحرقها وأسر من فيها، حتى بلغ عدد القتلى والأسرى حوالي ٨٤ألفاً، ثم بنى قلعة عسكرية (كقاعدة للقوات السلوقية في «أكرا» لغرض حماية المدينة والسيطرة عليها)[2]. في هذه الفترة بدأت الهيلنة المنظمة لليهود والقدس. حيث أوكل لهذه المهمة والٍ جديد هو (أثينوس). الذي اعتمد مجموعة من الخطوات ساهمت في الهيلنة. من خلال استبدال الإله (يهوا) بالإله زيوس وهيكل ومذبح إغريقي (وزر الأوزار) بدل المذبح المقدس عند اليهود. ومعبد زيوس بدل معبد (يهوا) وقد حرم الختان وربما أباح أكل الخنزير وتقديمه ذبائح إلى الإله زيوس. وأعدم نسخ سفر الشريعة وإعدام من احتفظ بها. ونتيجة لهذه السياسة انقسم اليهود إلى فريقين. فريق استجاب للهيلنة، وفريق قاوم الهيلنة وهم (الناميسون) أو الحدسيم أي المؤمنون الأوفياء الذين قادوا المقاومة ضد السلوقيين والهيلنة. وبذلك تجدد الصراع[3] بين الطرفين.

---

(١) أبو عليان، ص١٠٤؛ المسلي: سقوط أورشليم، ص٦٥٠.

(٢) كامل العسلي: تاريخ القدس، ص٨٦-٨٩.

(٣) كامل العسلي: تاريخ القدس، ص١٨٥-١٨٧.

دولة يهوديّا عام ١٦٤ق.م- ٧٠م (المملكة المكابية)

دولة يهوديّا المكابية (١٤٢-١٠٦ق.م): منذ عام ٢٠٠ق.م إلى ثورة المكابيين. ظل السلوقيون يعاملون اليهود باحتقار وقسوة بعض الأحيان، وزاد في ذلك الاضطهاد الديني الذي اتخذه السلوقيون ضد اليهود في محاولة إدخالهم جبراً في الوثنية الهلينية ديناً وتراثاً.

وبالفعل تحول عدد من اليهود إلى الهلينية الوثنية، وبعضهم تحول ظاهرياً. بسبب زيادة الاضطهاد الديني السلوقي لليهود. حتى اضطر بعض يهود القدس الهرب إلى مدينة (مـوديين) [١]. وقد قادهم رجل يدعى (متيتا) من أسرة تدعى (الحشمونية). وكان لـ(متيتا) خمسة أولاد هم (يوحنا، سمعان، يهوذا، إلعازر ويوناثان) وكان يهوذا يلقب (مكابيوس) أو (المكابي) ومعناه المطرقة[٢]. وبعد وفاة متيتا أسس ابنه يهوذا المكابي دولة يهوديّا التي قدر لها البقاء على الرغم من الانشقاقات والاضطرابات السلوقية والبطلمية والرومانية. مدة تقترب على قرنين ونصف (١٦٤ق.م-٧٠م) ويقسم العلماء تاريخ يهوديّا إلى أربعة عهود وفق الجدول التالي[٣]:

---

(١) موديين: ربما هي مدين التي كان فيها أسر يهودية وتعبد الإله (يهوا) .

(٢) لعل المكابي لقب مشتق من العبرية (مقبة) أي المطرقة إشارة للضربات الساحقة التي نزلت بالدور، أو ربما هو لقب يهوذا ابن (ماتاتياس) من الأسرة الحشمونية. ولفظ (مقابي) يعين المعين من قبل الرب (يهوه). وأصبح لقب الكاهن (متياس). وأصبح اللقب فيما بعد علماً على هذه الثورة ولكل من اشترك فيها. انظر سفر المكابيين ٢: ٤؛ فيليب حتى: تاريخ سورية، جـ١/ ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) انظر: خزعل الماجدي، ص٢٧٨-٢٨٨.

اسم الأسرة	الملك (الحاكم)	صفته	الفترة الزمنية
المكابية	١. يهوذا المكابي	ابن متتيا	١٦٧-١٦١ق.م
	٢. يوناثان	أخ يهوذا	١٦١-١٤٤ق.م
	٣. سمعان	أخ يهوذا	١٤٤-١٣٥ق.م
	٤.يوحنّا (هركانوس الأول)	ابن سمعان	١٣٥-١٠٦ق.م
الحاشمونية	٥.أرسطو بولوس الأول	ابن يوحنّا	١٠٦-١٠٣ق.م
	٦.إسكندرينيوس (حنايوس)	ابن أرسطو بولوس	١٠٣-٧٦ق.م
	٧.إسكندره (سالوم الكزاندار)	أم اسكندرينيوس	٧٦-٦٧ق.م
	٨.أرسطو بولوس	ابن إسكندره	٦٧-٦٣ق.م
	٩.هركانوس الثاني	أخ أرسطوبولوس	٦٣-٤٨ق.م
الهيرودية	١٠.أنتباتر	من أصل آدومي	٤٨-٤٣ق.م
	١١.هيرودس الأكبر		٤٣-٤ق.م
	١٢.تقسيم يهوديّا إلى أربعة أقسام يحكم ثلاثة منها أبناء هيرودس والرابع حامن روماني، وأصبحت قيسارية هي العاصمة بدلاً من القدس	هيرودس + حاكم روماني	٤ق.م-٣٧م
	١٣.هيرودس أغريبا عودة يهوديّا الموحدة وعاصمتها القدس	حفيد هيرودس الأكبر	٣٧-٤٤م
تقسيم يهوديّا	١٤. تقسيم يهوديّا إلى أربعة أقسام وعاصمتها قيسارية، حكم القدس سبع ولاة رومان.		٤٤-٧٠م

يهوذا المكابي (١٦٧-١٦١)ق.م: أقام يهوذا مملكة يهودية بعد ثورته على السلوقيين وبعد وفاة والده (متيتا) عام ١٦٤ق.م حيث دخل القدس باستثناء قلعة «أكرا». أوكل (أنطيوخس الرابع) مهام مملكته أثناء حربه ضد الفريقين إلى (إليسياس) فقام بحملة استطلاعية ضد بلاد يهوذا، ورأى من الأجدى اتباع سياسة سلمية اتجاههم. فأوقف اضطهادهم وحرب القديسين. وفي عهد (أنطيوخس الخامس) كان عليه وصيان هما (ليسياس) وفيليب، وقد وقع بينهما صراع، استغله يهوذا المكابي بهجوم خلال الفترة من ١٦٤-١٦٢. على شرق الأردن وشمال فلسطين، لم ينتج عنه شيء سوى زيادة القتل والتدمير في اليهود. عام ١٦٣ قام (ليسياس) بمحاولة استعادة القدس من يهوذا المكابي. فانتصر على يهوذا وقتل أخاه إلعازر. وتراجع يهوذا إلى القدس. فتقدم ليسياس إليها وحاصرها وضربها بالمنجنيقات لأيام. لكن حدوث اضطرابات في أنطاكيا. جعلته يستعجل الصلح مع المكابي، ويطلق الحرية الدينية لليهود، شريطة أن تبقى القيادة الكهنوتية بيد اليهود الهلينيين أو الحزب الهليني.

وتلى ذلك استبدال مينلاوس[1] ونصب مكانه يهودي هليني هو (الياكيم) وفي عهد (دميتريوس الأول) وبعد اختفاء ليسياس. قام يهوذا المكابي باسترجاع منصبه وعزل (الياكيم). الذي لجأ إلى دميتريوس في أنطاكيا. هذه الأحداث المضطربة أعادت للملك السلوقي الفرصة للتدخل في أمور القدس، فأرسل قائده (بكايدس) ومعه الياكيم. ودخل القدس وأعيد تنصيب (الياكيم) رئيساً للكهنة. وجعل معه جيش ليحميه. وقام الياكيم باضطهاد معارضيه من اليهود. لكن المكابي حاول العودة للقدس بعد مغادرة القائد السلوقي لها. فدخلها وهدد الياكيم. فقام الياكيم بإعلام الملك السلوقي بالأمر، وللرد على ذلك أمر بتجهيز حملة جديدة بقيادة (نكانور) عام ١٦١ق.م. وحدثت المواجهة انتصر فيها يهوذا في (عدسة) من نواحي الرملة وقتل

(١) انظر سفر المكابيين الأول ٦: ٢٨-٦٣؛ خزعل الماجدي، ص٢٨١.

نكانور وقطع رأسه وعُلق على أسوار القدس. وهرب الياكيم ثانية إلى أنطاكيا. علم الملك السلوقي بمحاولة اليهود الاستعانة بالروم ضدهم لذلك أرسل حملة بقيادة (باخيدس ومعه الياكيم) قرب البيرة تم فيها قتل يهوذا المكابي وانهزمت قواته عام ١٦١ق.م. ودخل باخيدس والياكيم القدس. وأعيد الياكيم رئيساً للكهنة بالقوة مرة ثانية[١].

يوناثان (١٦١-١٤٤ق.م): تولى بعد أخيه حكم يهوذا. وقاد تمرداً ضد السلوقيين. حتى تم عقد معاهدة صلح معهم عام (١٥٨ق.م) تعهد فيها السلوقيون بعدم التعرض لليهود، وردَّ أسراهم. وبذلك أصبح يوناثان رئيس دولة وكاهناً يهوديّاً. ومقره في حكماش شمال القدس. وبهذا انتصر حزب القديسين على الحزب اليهودي الهليني. وبدأت دويلة أو إمارة يهودية تسير نحو الاستقلال شيئاً فشيئاً بعد الاضطرابات السياسية في المملكة السلوقية. وأصبح يوناثان رئيس الكهنة في القدس. ثم رَفعَّه (بالاس) بعدما أصابه من النجاح وبعد أن استولى على مدن يافا واشدود وعسقلان إلى مرتبة (قريب الملك) ومنحه مدينة عكبر (إكرون) ملكاً خاصاً له[٢]. ولما مالت الموازين ضد (بالاس)، وقف يوناثان إلى جانب دمتيريوس الثاني الذي انتصر نهائياً على بالاس سنة ١٤٧ق.م. ظل موقف يوناثان يتحدد حسب مصالحه. لكن انتصار (تريفون) دفعه إلى دعوة يوناثان إلى عكا وهناك قتله عام ١٤٤ق.م. وهكذا ذهب يوناثان ضحية نزعته الانتهازية التي تتمثل في اليهود[٣].

سمعان (١٤٤-١٣٥ق.م): تسلم أخ يوناثان (سمعان) قيادة يهوديا. وكرمه

---

(١) سفر المكابيين ٧: ١-٣٠، ٣٠-٥٠؛ خزعل الماجدي، ص٢٨٢-٢٨٣.

(٢) نصحي، ص٢٠٧؛ خزعل الماجدي، ص٢٨٣-٢٨٤؛ كامل العسلي: تاريخ القدس، ص٨٦-٨٩.

(٣) Detcott demark, Berllin, 1937.

دميتريوس الثاني عام (١٤٣ق.م) فجعله رئيساً للكهنة ورئيساً سياسياً في القدس، واعفى اليهود من الجزية، وسمح لهم الدخول في الجيش السلوقي. وصار سمعان أول ملك رسمي لدويلة (يهوديا) وبذلك أقرّ الحكم في نسله من بعده. ودخل سمعان القدس عام ١٤١ق.م بعد حصارها وهدم القلعة ونزع الصخرة حتى لا تصبح برجاً وزاد في قوى أسوار المدينة خاصة التي كانت باتجاه الهيكل. وعندما توِّج (أنطيوخس السابع) أقره ليهوديّا الامتيازات السابقة عام ١٣٩ق.م لكنه عاد وتنكر لاستقلال يهوديا. وجهز حملة لاحتلال القدس وما جاورها. وقاد سمعان وأولاده مهمة صدّ القوات السلوقية. حتى تم اغتيال (سمعان) من قبل زوج ابنته حاكم أريحا عام ١٣٥ق.م.

يوحنا (هركانوس) ١٣٥-١٠٦ق.م: تولى ابن سمعان (يوحنا) حكم يهوديا لمدة (٣٠سنة) وفي عهده استقلت يهوديا عن السيادة السلوقية. وشهدت حرباً بين الأحزاب الدينية. كذلك شهد عهده بداية حملة ثانية قادها السلوقيون على القدس عام ١٣٣ق.م. وبعد حصار شديد، اُضطر يوحنا للصلح والاعتراف بالسيادة السلوقية على القدس. ودفع الجزية. وقبل بهدم أسوار القدس لتبقى مفتوحة أمام الجيش السلوقي[١]. ودفع يوحنا (هركانوس) مبلغ ٥٠٠وزنة من الفضة (لأنطيوخس) ثمناً لرحيله عن القدس، وثبت (هركانوس) رئيساً للكهنة والسلطة في القدس. كذلك وقف (هركانوس) إلى جانب أنطيوخس السابع ضد الفرس. لكن الفرس انتصروا عليه. فاستغل (هركانوس) هذا الموقف. واستقل في يهوديا سنة ١٢٨ق.م عن السلطة السلوقية، واستمر هذا الحال حتى قضى الرومان على السلوقيين عام ٦٣ق.م. ويبدو أن هركانوس قد وسع حدود يهوديا في محاولة لتثبيت أركانها. وفتح السامرة وخرّب جزريم، ثم فتح (آدوم) وأجبر أهلها الدخول في

(١) أبو عليان، ص١١٠.

الدين اليهودي، وهذا يعد عكس أسس التوراة[1]. وفي عهده نشبت حرب بين فرقتين دينيتين (الصدوقيون والفريسيون).

الصدوقيون: فرقة دينية قديمة لها علاقة تاريخية مع المؤسسة الكهنوتية الصادوقية التي قامت بتنظيم اليهود كجماعة دينية أثناء السبي البابلي. أخذوا بحرفية الشريعة في التوراة المدونة في الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام من العهد القديم. وهم وارثو الكهانة اليهودية ورئساتها، وتمتعوا بدعم الطبقة الارستقراطية. ومنهم (الربانيون أو الحسديم).

الفريسيون: فريق انشق عن الربانيين. ورد أول ذكر لهم حوالي ١٢٠ق.م وإن كان ظهروهم قبل ذلك بقليل. نادوا بالحفاظ على التقاليد الشفوية إضافة للشريعة المكتوبة. وهو ما سماه اليهود (التلمود) الذي يتكون من المتن والشرح (الجمارا). لهم طقوس مختلفة عن الصدوقيين. أباحوا العبادة خارج الهيكل في (الكنُس). لم يكونوا من الكهنة بل معلمين من الطبقة العامة. لكن الحقيقة أن اليهودية التي سادت هي يهودية الفريسيين. لأن الصدوقية زالت قبل نهاية القرن الميلادي الأول[2].

يبدو أن عهد (هركانوس) شهد ذروة الصراع بين الطائفتين الصدوقية والفريسية. الصادقيون مثلوا الدولة اليهودية وطبقتها الحاكمة الثرية. والفريسيون مثلوا مظهر المؤمنين الأوفياء والوطنيين، رفضوا الجمع بين رئاسة الكهنة ورئاسة الدولة في ملك واحد. وقد ولدت حالة الصدام بين الطائفتين كثيراً من الأدب اليهودي (سفر الجامعة). تأثروا بالهلنية[3]. حيث ظهر أثر اللاتينية في الأسفار (الامثال، المزامير، دانيال وأيوب) وأسفار أخرى نسخت (أربعة عشر سفراً من التوراة السبعينية). وأغلبها يتحدث عن المسيح المخلص والمنتظر. إن العهد

---

(١) أبو عليان، ص١١١؛ خزعل الماجدي، ص٢٨٥-٢٨٩.

(٢) كمال الصليبي: البحث عن يسوع، ص٤٠-٤١، دار الشروق، عمان ١٩٩٩.

(٣) تارن، ص٢٤٤؛ البار، ص١٠٥-١٠٧.

الهيلينستي خاصة في العهد السلوقي شهد تأليفاً جديداً لبعض أسفار العهد القديم، التي جُمعت مع الأسفار الأولى والأسفار المحذوفة الكثيرة، كما شهد ولادة الأسفار الشفاهية التي تمثل المتن والشرح بما سمي (بالتلمود). وهذه تعد انعطافة جديدة ثالثة في الأسفار اليهودية المقدسة، بعد الثانية في عهد (عزرا) في العهد الفارسي والصدوقية الأولى أثناء السبي البابلي. كذلك في هذا العصر ازدادت قوة اليهود في القدس قياساً إلى يهود مصر الذين كانوا في يد البطالمة.

الأسرة الحشمونية: (أرسطوبولس الأول، يانايوس، سالوم الكساندر، أرسطوبولس الثاني، هيركانوس الثاني).

أرسطوبولس الأول (١٠٦-١٠٣)ق.م: ابن هركانوس. اتخذ اسماً إغريقياً. وتولى منصبي الملك ورئيس الكهنة. واتخذت اليهودية في عهده لقب الإسمونية أو (الحشمونية أو الحشمية) تميزاً عن المكابية الذين لم يسموا ملوكاً[1]. والحقيقة أن لقب الإسمونية (الحشمونية أو الحشيمية) هو اللقب الحقيقي الأول للأسرة المكابية. وأرسطو صاحب نزعة هلينية حيث لقب نفسه بـ(فلهلن) أي المحب للهيلينية. في عهده أصبحت يهوديّا تحتوي على عدة مدن وقرى وقصبات. أغلب سكانها من العرب والكنعانيون. ويذكر أن أرسطو أجبر عرب الجليل الدخول في اليهودية «الإيطوريين».

يانايوس إسكندر ١٠٤-٧٦ق.م: اتسع نطاق دولة يهوديّا في عهده خاصة توسعه نحو مدن الساحل (عكا، صور، غزة). وقف في وجهه (بطليموس التاسع) الذي زحف على الملك اليهودي وأنزل به هزيمة ومذبحة مروعة. واستولى على عكا[2]. ثم تلا ذلك استيلاء كيلوباترا الثالثة على عدة مدن ساحلية فلسطينية وخاصة عكا. وكادت تستدعيه وتقتله. لكن مستشاريها أشاروا عليها عدم فعل ذلك. كي لا

---

(١) أبو عليان، ص١١١.

(٢) نصحي، ص٢٢٩.

يثيروا ويخسروا صداقة اليهود قاطبة. فعمدت إلى عقد معاهدة مع يانايوس باعتباره وكيلها في عكا لحين الفرصة المناسبة. هذه المعاهدة فتحت (ليانايوس إسكندر) الاستيلاء على المدن الساحلية الفلسطينية. مثل جدارا (أم قيس الأردنية) وعسقلان. وفي غزة قام بمجزرة ثم عاد للقدس. وقد صلب (٨٠٠) من الفريسيين واضطهدهم. كذلك وقف يانايوس مع الصدوقيين ضد الفريسيين بعد ثورتهم عليه. فاستنجدوا بالملك السلوقي (أنطيوخس) الذي أرسل حملة هزمت يانايوس فرّ على أثرها إلى الجبال، لكنه عاد للقدس عام ٨٩ق.م. وتوفي في عام ٧٦ق.م أثناء حصاره لأحد الحصون في الأردن.

إسكندره (سالوم الكساندرا) ٧٦-٦٧ق.م: استمر في عهدها الصراع بين ابنيها الأخوين (هيركانوس الثاني، وأرسطوبولس الثاني). والصراع بين الصادوقيون والفريسيين، وقد مالت إلى الفريسيين. في هذه الفترة قام الأرمن باكتساح سوريا كلها عام ٦٩ق.م لكن الرومان عزلوا الحكومة التي أنشأها الأرمن في سوريا. فكان نتيجتها عموم الفوضى في سوريا كلها. وهكذا ظهرت قوة روما الجديدة التي هددت آفاق مصر والشام التابعة للسلطة الهيلنستية المنهارة[1].

أرسطوبولس الثاني (٦٧-٦٣)ق.م: بعد وفاة إسكندره عاد الصراع ثانية بين إبنيها (هيركانوس وأرسطوبولس الثاني). وبعد المواجهة اتفق الاثنان على أن يكون أرسطوبولس الثاني هو الملك، وهيركانوس قائد الجيش، وبعد فترة انهار الاتفاق بينهما. وقد استنجد هركانوس (بالملك الحارث ملك الأنباط) وحاصر القدس لكنه لم يتمكن من احتلالها. بعد أن طال حصارها. ثم تقدم إلى يهوديا القائد الروماني (بومبي) فخطب كل من الأخوين وده وناصر قائد الجيش الروماني (إسكارى) أرسطوبولس بعد أن قدم له رشوة. وأمر هركانوس بالابتعاد عن

---

(١) خزعل الماجدي، ص٢٩٠-٢٩١.

القدس[1] لكن الصراع عاد من جديد بين الأخوين. وتهيأ بومبي الروماني القدوم إلى القدس. واعتقد أرسطوبولوس، أن بومبي سيميل إلى أخيه (هركانوس). فاستعد لمغامرة غير محسوبة في مقاومة قوة الملك الروماني (بومبي) الذي تقدم للقدس عام ٦٣ق.م وقضى على مقاومة أرسطوبولس الذي سلم له المدينة، لكن كهنة اليهود رفضوا التسليم ولاذوا بالهيكل وتحصنوا به. فتقدم بومبي وحاصره وضربه بالمنجنيقات وقصف الأسوار واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر. وقد استغل بومبي يوم السبت عيد اليهود فدخل القدس والهيكل وقتل من كان فيه ونصب (هركانوس) كرئيس للسلطة والكهنة في القدس وعلى يهوديّا.

هيركانوس الثاني (٦٣-٤٨)ق.م: أقام بومبي الروماني في القدس حكماً ثلاثياً فيها، تمثل بهيركانوس، ومعه أنتيباتر، وجعل معه قائداً على رأس الحامية الرومانية، وفرض على اليهود جزية سنوية، ثم غادر إلى روما وأخذ معه أرسطوبولس وأبناءه كأسرى. وبذلك بدأت يهوديا والقدس عهداً جديداً تحت الحكم الروماني، والذي استمر أكثر من سبعة قرون.

حول الأسرة الحشمونية استطاع أحد أبناء (أرسطوبولس) ويدعى اسكندر الهرب من روما والعودة للقدس. وقد استغل غياب هركانوس ومستشاره انتيباتر في حروب القبائل العربية إلى جانب القوة الرومانية. فأغرى يهود القدس حتى نصبوه ملكاً عليهم. ولما عاد (هركانوس وانتيباتر) حاربهم اسكندر وهزمهم. لكن جافينوس والي سوريا الروماني تصدى (لإسكندر) فأسره وأرجع هركانوس رئيساً على يهوديّا. وقسم يهوديا إلى خمسة أقاليم تمتعت بحكم ذاتي، وسلطات قضائية وإدارية في (القدس، أريحا، جازر، الجليل الأعلى، شرق الأردن). وكان هدف (جافينوس) من هذا التقسيم هو إضعاف وحدة اليهود السياسية وقوتهم حتى لا يعودوا إلى الثورة، ومن ثم هدف إلى إعادة الصبغة (الهيلنية) التي كان المكابيون

(١) خزعل الماجدي، ص٢٩٢-٢٩٣.

والحشمونيون قد هودوها بالقوة[1]. لكن ذلك الأمر لم يطل.

حيث عاود أرسطوبولس الهرب ثانية ومعه ابنه الثاني (أنتيغوس) وعادا إلى يهوديا. فنظماها ورمما حصونها واستحكما في القدس، لكن جابينوس عرف بأمرهما وتصدى لهما وأسرهما مرة ثانية ودفع بهما إلى روما في الأسر.

جاء استمرار الصراع في روما بين بومبي ويوليوس قيصر، سبباً في ميل الأخير إلى إطلاق سراح أرسطوبولس وابنه، وأرسل معهما قائدان رومانيان لاحتلال القدس التي كانت تابعة (لبومبي). لكن الأخير مال للتخلص من أرسطوبولوس. فقام بومبي بإرسال مجموعة من اليهود دست السم لأرسطوبولس حتى مات. وعندما انتصر قيصر على بومبي عام ٤٩ق.م وقد انفرد بحكم روما. آثر السيطرة على الشرق التي كانت مصر تخضع لخمصه بومبي. وعلى ذلك تقدم (هركانوس وانتيباتر) على رأس قوة عسكرية وانضما إلى قوات قيصر، فكافأ قيصر انتيباتر حيث عينه كنائب له في يهوديا عام ٤٨ق.م وأبقى هركانوس كبيراً للكهنة ظاهراً. وبتولي (انتيباتر) حكم القدس دخلت القدس مرحلة جديدة خضعت فيها للنفوذ الروماني[2].

أثر العصر الهيلنستي في الدين اليهودي:

١- يمثل العهد العام البابلي النواة الأولى الذي خرجت منه الديانة اليهودية والمرويات التوراتية. كذلك يمثل العهد الفارسي النواة الثانية لصياغة الكتاب المقدس لليهود وإعلان ظهور الديانة لأول مرة.

٢- يعد العالم الهيلنستي النواة الثالثة التي نمت فيه الولادة النهائية للدين اليهودي وفق الترتيب التالي:

أ- الترجمة السبعونية للأسفار اليهودية المقدسة (الكتاب المقدس – كتاب

---

(١) أبو عليان، ص١١٠-١١١؛ خزعل الماجدي، ص٢٩٤.

(٢) خزعل الماجدي، ص٢٩٤-٢٩٥؛ أبو عليان، ص١١٥-١١٦.

الشريعة) وهو يمثل مادة التوراة الأساسية التي ضمت الأسفار الخمسة الأولى بشكل خاص.

ب- كتابة الأسفار الإضافية (دانيال وحزقيال) والأمثال والمزامير والأسفار المحذوفة.

جـ- مثّل سفر الجامعة مرحلة هيلنة اليهود أثناء حكم البطالمة أولاً، ثم السلوقيين ثانياً.

د- أظهرت الكتابات الهيلنستية خصوصية اليهود بجعلهم أصحاب شأن خاص في الدين.

هـ- تم تأليف سفر الرؤيا الذي توقع ظهور المسيح عليه السلام من بيت لاوي وهارون عليه السلام لا من بيت داود.

و- ساهمت المرحلة الهيلنستية بظهور الشكل المزدوج لليهودية (الدين العالمي والدين الخاص) والعقيدة الشمولية والمكبلة بشكل بخصوصية زعمهم أنهم شعب الله المختار وهو الوصف الدقيق لليهودية في هذا الزمن.

ز- يمثل الفيلسوف (فيلون الاسكندري ٢٠ق.م-٥٠م) أوضح صورة للتفاعل بين اليهودية والهيلينة لأنه كان يمثل نتاج التفاعل المذكور في تلك الفترة[١].

ح- شهدت القدس في مرحلة الدين الهلني أنها كانت. أولاً: بؤرة التبدلات وعمليات تكوين الدين والعقيدة، ثانياً: شهدت انتعاشاً عمرانياً دخلت فيه عناصر إغريقية واضحة في الأبنية الدينية والعمرانية على السواء. ثالثاً: اتسع مجال القدس وخرجت عن حدودها اليبوسية القديمة، نحو جبل الأوفل وموريا في الأعلى، وإلى الغرب من المدينة اليبوسية توسع السكن فيها وظهرت المدينة العليا المتاخمة لوادي

(١) تارن، ص٢٤٥، ٢٥٠؛ محمد علي أبو ريان وحربي عباس: دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، ص٢٤٨، القاهرة ١٩٩٩.

هنوم من الأعلى. والمدينة السفلى اللصيقة بمدينة يبوس القديمة. رابعاً: انتعشت القدس أكثر في ظل حكم الأسرة المكابية والحشمونية بعدما أصاب الهيكل (هيكل يهوا) الذي تعرض للتهميش في الفترة البطلمية والسلوقية[1].



(١) خزعل الماجدي، ص٢٩٥-٢٩٨.

الفصل الثالث

القدس تحت الحكم الروماني والبيزنطي
(٦٣ق.م – ٦٣٧م)

الاحتلال الروماني

الاحتلال الفارسي

الاحتلال البيزنطي



القدس تحت حكم روما وبيزنطة(١)

٦٣ق.م- ٦٣٧ ب.م

في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ٦٣ ق. م استولى (بومبي) أول قائد روماني على القدس، وبعد ذلك بما يقارب سبعمائة سنة بالضبط، سنة ٦٣٧، كان على القدس أن تتخلى عن علاقتها بالإمبراطورية الرومانية. إن القدس وروما كلتيهما قد تغيرتا تغيراً كبيراً في سبعة قرون. وفيما يتعلق بالقدس كان وصول بومبي سنة ٦٣ ق. م. بداية لجهد روماني للسيطرة على اليهود انتهى بعد قرنين من الزمان بطرد اليهود من القدس. وشهد القرنان التاليان القدس تحمل اسماً آخر كمستعمرة رومانية عادية في عهد الإمبراطورية الشرقية، وقد حرِّمت اليهودية فيها. واستهلت القرون الثلاثة من ٣٢٤ حتى ٦٣٧ فترة من السيادة المسيحية على القدس.

وروما أيضاً كانت تتغيّر. ففي سنة ٢٧ق. م بلغ الإمبراطور الروماني أوْج قوته، وكان يحكم حتى ذلك الوقت بطريقة أو بأخرى على جميع الخط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط. وكان بالفعل يعبد بوصفه إلهاً، ولا بد أن أحد المعابد الأولى التي بنيت له «المعبد الذي أقامه الملك هيرودس الكبير في سبسطية»(٢). وتعاقب الأباطرة، وكانت تدور المنافسة أحياناً بين اثنين منهم. وبعدئذٍ وفي سنة ٣٣٠ب. م تمَّ تكريس مدينة بيزنطة القديمة كمدينة القطسنطينية الجديدة. وكانت تهدف لأن تصبح «روما الجديدة» وكان لها مجلس شيوخ خاص بها. ومن هنا فعندما سقطت روما في إيطاليا سنة ٤١٠ أمام ألرك القوطي الغربي أصبحت القسطنطينية العاصمة. وهكذا فإن

(١) انظر: كامل العسيلي: تاريخ القدس ٩٥- ١١٧.

(٢) البار: ص١٠٨- ١٠٩، Josephus, war, 1, 4,3.

التغيير في سلطة رومانية خالصة إلى سلطة تستند إلى بيزنطة أو القسطنطينية كان عملية تدريجية. وقد بدأت بإعادة بناء المدينة الجديدة وتكريسها وتمت بأخذ ألَرِك روما.

وحاولت بيزنطة في عهد الإمبراطور جستنيان أن تعيد الإستيلاء على الولايات الرومانية غربي البحر الأبيض المتوسط؛ لكن ثبت أن الجهد كان فوق طاقتها. وبعد مضي سبعين سنة على وفاة جوستنيان، وعندما كانت الجيوش الرومانية قد خاضت معارك طويلة ومريرة ضد الإمبراطورية الفارسية الجديدة، أخذت الإمبراطوريتان كلتاهما تتعرضان لغزو قوة جديدة هي الجيوش الإسلامية من بلاد العرب. وعندما هزمت هذه الجيوش قوات الإمبراطور هرقل في سنة ٦٣٦ في معركة اليرموك قفل الإمبراطور راجعاً إلى القسطنطينية وعلى شفتيه قوله: «الوداع ياسوريا!».

وجرّاء تحبيذ قسطنطين الرسمي للديانة المسيحية أصبحت القدس مدينة مسيحية بسرعة. وهكذا فإن حياة القدس منذ حوالي ٣١٢ وحتى سنة ٦٣٧ عُرِضَت في المصادر المسيحية، بوصفها تاريخ مدينة مُهمّة جداً في تاريخ الكنيسة المبكر. وكانت كذلك في الواقع. وعلى أية حال فإن الوثنية (وهو اسم سنستخدمه للدلالة على ديانة اليونان وروما المبكرة) كانت في أفول في فلسطين ككل. وقد غدا جميع الناس الذين كانوا يمارسونها تقريباً مسيحيين مع نهاية القرن الخامس.

تبعت سوريا مباشرة للحكم الروماني بعد غزو (بومبي) لها ضمن ولاية سورية[1]. التي اعتبرت ذات أهمية مركزية هامة في الممتلكات الآسيوية، حتى أنها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بصفات عسكرية. مع منح حق التجنيد والاشتراك في الحرب. وعهد لها إلى بعض الموظفين الرومان البارزين

(١) فيليب حتى. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١/ ٣٠٩.

جداً. وكان أولهم غابينيوس 55 -57) Aulus Babinius ق. م) وهو مبعوث (بومبي) ذا الكفاءة العالية. لقد سقطت أورشليم سنة ٦٣ ق. م على يد القائد الروماني (بومبي) بعد تدميرها[١]. لم يعمد الرومان إلى حكمها مباشرة بواسطة حاكم روماني. بل فضلوا جعلها مثل كثير من ولاياتهم تحت حكم حاكم محلي[٢].

وقد جعل بومبيوس «هركانوس» حاكماً على أورشليم، وخاصة أنه كان قد جاءه بنفسه يقدم الهدايا والولاء إلى دمشق ليستعين به على أخيه. (أرستوبولس). وقد قام غابينيوس بتجريد الكاهن الأعظم (هيركانوس الثاني) من رتبته الملكية. وفرض ضرائب ثقيلة على السكان، وقسم الدولة إلى خمسة أقاليم لكل منها مجلس. وفي سنة (٥٧) ق. م ثار اسكندر بن أرستوبولس على عمه هركانس انتقاماً لهزيمة أبيه. وانتصر بالفعل على عمه ودخل أورشليم، ففرَّ هركانس إلى حُماتِه في دمشق. وأرسل الرومان حملة تأديبية لهذا الثائر. واستطاع القائد الروماني (غابينيوس) أن يخضع اسكندر بسهولة. حتى طلب اسكندر الأمان فأجابه القائد الروماني إلى طلبه وأخذه معه وأعاد هركانس حاكماً على أورشليم.

استطاع «أرستوبولس» والد إسكندر وأخُ هركانس أن يفرَّ من روما وأن يصل إلى أورشليم سراً وأن يجمع حوله أنصاره، ثم ثار على أخيه هركانس مرّة ثانية، لكن القوات الرومانية أخضعته بسرعة وأرسلته مرة أخرى أسيراً إلى روما.

وفي عام (٤٩) قبل الميلاد حاول أرستوبولس للمرة الثالثة أن يستولي على أورشليم فهزمه القائد الروماني، وأرسله إلى حاكم سوريا الذي أمر بإعدامه[٣].

هذا وقد أعاد (غابينيوس) بناء عدد من المدن اليونانية - السورية التي كان

---

(١) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديقة، ج٢/ ٦١٢. بغداد، ١٩٥٦.

(٢) فيليب: ج١/ ٣١٠.

(٣) البار: ص١٠٨-١٠٩.

المكابيون قد هدموها مثل: السامرة وبيسان وغزة(١). والغالب أن القدس كانت سنة (٦٣ ق. م) عاصمة لدولة يهودية. في ظل حكم الحشمونيين ثلثا سكانها تقريباً من اليهود، والباقي من أنباط بلاد آدوم والمصريين والعرب والفنيقيين، إلى الشمال. خاصة وأن هيرودس الكبير عزى أسباب زيادة اليهود في القدس إلى إرغام الشعوب المغلوبة على قبول الشريعة اليهودية. وهذه السياسة تعد سياسة خاطئة في وجهة نظره.

ولكن عندما جاء بومبي إلى القدس (سنة ٦٣ ق. م). بدأ يعكس هذه العملية فقد سمح لليهود بأن يحكموا الجنوب والجليل، ولغير اليهود حكم بقية المملكة. كذلك أرجع بومبي السكان الأصليين المنفيين زمن المملكة الحشمونية إلى موطنهم. وبذلك عاد التنوع الطبيعي إلى ما كانت عليه سابقاً. وكان بومبي حكيماً في سياسته لأن كثيراً من السامريين فقدوا هيكلهم على جبل جذريم عام (١٢٩ ق. م) ورغبوا في العودة إلى دينهم السابق، وكذلك كان المنفيون من المدن السورية، الذين اعتنق معظمهم نسخاً شرقية من الأديان اليونانية. فقد شعروا بالسعادة والحرية الدينية في عهد (بومبي). وأصبحوا على استعداد لمناصبة اليهود العداء ولو أنهم حاولوا تأكيد سلطتهم على هذه المدينة مرة أخرى.

كان يوليوس قيصر منافس بومبي، وعندما قتل بومبي سنة ٤٨ ق. م أعدّ قيصر ترتيبات إقليمية جديدة. فقد ترك انتيباتر الادومي حاكماً إدارياً على الدولة اليهودية، ومعه أفراد الدولة الحشمونية امراء فيها. وعين انتباتر فصايل حاكماً على القدس، وهيرودس ابنه الآخر حاكماً على الجليل(٢). لكن ترتيبات قيصر الجديدة لم تعمِّر طويلاً. فقد اغتيل في منتصف آذار (مارس) سنة ٤٤ ق. م. وقامت مملكة البارثيين في بلاد ما بين النهرين وما وراءها، بغزو سوريا خلال الفوضى التي أعقبت

---

(١) فيليب: ج١/ ٣١٠.

(٢) libd, 203.

اغتيال قيصر في الإمبراطورية الرومانية.ورحبت الأسرة الحشمونية بالبارثيين. وكان على هيرودس أن ينجو بنفسه. وأول مكان ذهب إليه كان البتراء، عاصمة مملكة الأنباط، لأن أمّه سيبروس Cypro كانت من الأسرة العربية المالكة[1]. ولم يلق ترحيباً من ملكوس الثاني الملك العربي، فذهب إلى كليوباترة في مصر حيث لقي صدًّا للمرة الثانية. وأخيراً ذهب إلى روما حيث ظفر بصداقة «ماركوس أنطونيوس» الذي أهمل الأسرة المكابية ورفع الأسرة اليهوذية مكانها بزعامة هيرودس الذي رؤي أنه الزعيم الذي تنشده روما في جهودها لاستعادة السيطرة على فلسطين[2]. وهكذا فإن مجلس الشيوخ في روما أعلن الملك هيرودس ملكاً على اليهودية، ثم عاد هذا إلى فلسطين ليحارب من أجل لقبه الجديد. كان هيرودس قبل هربه يحكم الجليل، وفي سنة ٣٩ ق.م بدأ حربه هناك. وبعد سنتين فرض حصاراً ناجحاً على القدس[3]. واستمر ماركوس أنطونيوس في مصادقته. وخلال هذا الوقت انتقم هيرودس من الحشمونيين. وفي سنة ٣١ق. م، وعندما هُزم أنطونيوس في معركة أكتيوم، ذهب هيرودس إلى رودس ليقابل المنتصر أوكتافيوس. واستطاع أن يقنعه بأنه كما كان صديقاً لأنطونيوس فيمكنه أن يكون صديقاً لأوكتافيوس أيضاً[4]. وهكذا بدأت صداقة استمرت طوال عهد هيرودس. وكان أوكتافيوس حليفاً قوياً للغاية، لأنه كان قد اكتسب سنة ٢٧ ق.م لقب «أغسطس» وأصبح بذلك أول إمبراطور روماني.

عمّر هيرودس الكبير مدينة أورشليم وجدد بناءها. مع أنه لم يكن له اهتماماً كبيراً بالقضايا الدينية مثل اهتمامه بالعمارة الدينية المدنية، ومع ذلك فقد بنى خارج مملكته هياكل مكرّسة للآلهة اليونانية والرومانية، كما بنى في سبسطية (قرب نابلس)

---

(١) lidb. 181.

(٢) فيليب حتى: ج١/ ٣١١- ٣١٢.

(٣) libd, 349- 53.

(٤) libd, 388- 90.

هيكلاً مكرساً لأغسطُس. وكان آخر تكريم يوناني روماني حصل عليه هو رياسته للألعاب الأولمبية[١]. ومن هنا فإنه عندما أراد أن يضع مخططاً جديداً للقدس كانت فكرته أن ينشئ عاصمة كلاسيكية. وكانت سلطته وثروته من الضخامة بحيث أن بعض مبانيه الضخمة وكثيراً من شوارعه ما تزال تستعمل اليوم.

وفي سنة ٣٥ ق. م عندما كان ما يزال صديقاً لأنطونيوس بنى قلعة دعيت «أنطونيا»[٢]، كانت في الواقع تعديلاً لحصن سابق كان قد أنشأه الحشمونيون. وربما قام هو أو هم ببناء الخندق الذي يبدو أنه كان خندقاً جافاً يسير على امتداد الجدار الشمالي لفناء منطقة الهيكل، وينتهي في البركة المسماة ببركة إسرائيل. لكن الجزء الذي يحيط بالقلعة مباشرة كان فيه ماء، وكان يدعى «ستروثيون» Struthion، وهو الاسم اليوناني لطير «السنونو».

بدأت إعادة بناء القدس بصورة جديةٍ من المجاعة سنة ٢٥ و٢٤ ق. م. واكتسب هيرودس مكانة كبيرة بتخفيفه آثار المجاعة سواء في القدس أو غيرها من أنحاء مملكته، بتقديم الطعام والحبوب للبذار[٣].ولكن هنالك في القدس كثير من الناس الذين دمرتهم المجاعة والوباء الذي رافقها.واختار هيرودس بعض العاطلين من هؤلاء الناس للعمل كبنائين في مشروعاته. واستهل هيرودس أعمال البناء بإنشاء قصر غربيَّ المدينة وكان هناك خندق يحيط بالقصر، على الأقل كما دلت الحفريات التي ترينا انحداراً حاداً عند حافة الأطلال. وفي الداخل كان القصر يتألف من مبنيين كبيرين كان أحدهما يُدعى سيزاريوم Caesareum تكريماً لصداقته مع أوكتافيوس،، أغسطس الآن[٤]. وكان يربط ما بين هذه المباني حدائق تنساب فيها المياه -water

(١) libd, 426- 28.

(٢) Josehpus, Ant, 15, 292.

(٣) libd, 311.

(٤) libd, 318.

gardens. وأنشأ في الطرف الشمالي للقصر ثلاثة أبراج هي فصايل ومريامّه وهيبينكوس، وقد أغناها بالزخارف وأصبحت أقوى نقطة في القصر إبان المعارك[١]. وكان للأبراج قواعد متينة يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة عشر متراً لمقاومة دك الكباش[٢]. ولا تزال قاعدة أحد هذه الأبراج، ربما هيبيكوس، تشكل جزءاً من القلعة.

ويبدو أن هيرودس مدّ أيضاً الشوارع على التل الغربي لمدينة القدس بطريقة جديدة. إن تلك القطعة من الشارع التي تقع إلى الشرق من القصر وفي منتصف الطريق عبر المدينة اكتشفت في الحفريات الأخيرة في حارة اليهود. ولما كانت تقع على زاوية قائمة مع القصر فربما أنشئت هناك شبكة متسامته من الشوارع. إن قطعة الشارع المؤشر حولها بدائرة وبنيت فوق أطلال بيت يهودي كان مسكوناً فترة لا بأس بها امتدت إلى ما بعد بداية عهد هيرودس[٣]. أما المنطقة التي ظهرت فيها الشبكة فهي من قبيل التخمين الذي يستند إلى الوضع الحالي للشوارع على التل الغربي ومقدار مسطّح الفراغ. وفي الجهة الجنوبية الشرقية لا بد أن الشبكة قد أفسحت المجال أمام الشوارع المقامة على خط المناسيب حيث تزداد حدة الإنحدار. وربما سهّل ترتيب نموذج الشبكة حركة المرور في المنطقة، ولكن إحدى مزاياه الرئيسة كانت توفير قطع أرض ذات قيمة متساوية تقريباً.

وبعدئذٍ في سنة ١٩ أو ١٨ ق. م خطط هيرودس لإعادة بناء الهيكل. وقد واجه اعتراضات مختلفة من الكهنة وانتهى الأمر بتدريب آلاف منهم كبنائين

---

(١) Josephus, War, 2.439, 5, 163.

(٢) الكبش: آلة حربية كا يستعملها القدماء لدك أسوار المدن المعادية (المترجم).

(٣) see N Avigad, Dicovering, Jenasalm, Nashville, Tennessee, 1983, 83- 95 and figure 77.

ونجارين[١].

وانتهى العمل في الهيكل نفسه بعد ثمانية عشر شهراً، بيد أن البناء في المنطقة المحيطة به استمر أكثر من ثمانين عاماً. وعندما انجز العمل كان هناك أكثر من ١٨٠٠٠ عامل وصانع يبحثون عن عمل[٢]. وكانت المهمة الرئيسية هي مد فناء الهيكل الذي كان مبنياً على قناطر بحيث يصل تقريباً إلى ارتفاع المنصة العليا التي أنشئ فوقها الهيكل. ويبدو أن أساسات جدران الفناء بقيت حول الفناء من جميع الجهات [مما يجعله في الحرم الشريف]. وعندما أتمَّ هيرودس هذا العمل كان هناك رواق عالٍ يمتد حول ثلاثة من جوانبه[٣]، وأضيف مسطح مغطى على الجانب الجنوبي، يشبه إلى حد بعيد مباني الباسيليكا في الساحة العامة الرومانية Roman Forum، لتوفير مكان للناس قرب الساحة المكشوفة يستطيعون أن يستظلوا فيه في الصيف أو يحتموا من المطر في الشتاء[٤].

كانت أعمال هيرودس هذه تتصل باكساب المدينة حلة جديدة من الفخامة والرواء ولكنه مضى قدماً في توسيع المدينة. كانت هناك ساحة للسوق أحاطها بسور امتد من برج أنطونيا إلى باب في السور الشمالي للمدينة الذي أنشاه الحشمونيون[٥]. وخط هذا السور غير معروف حتى الآن. وربما كان أحد ابوابه، يقع في النهاية الشمالية لطريق الواد، ولكن من المؤكد أنه كان هناك باب في الشرق . وهناك قرب برج أنطونيا قوس روماني عبر طريق باب الأسباط يدعى قوس «ها هو الرجل»] Ecce Hommo]. وقبل عام ١٩٧٩ كان يعتقد أن هذا القوس كان قوس نصر. بيد

---

(١) Josephus, Ant, 15. 388- 90.

(٢) Ibid, 20. 219.

(٣) Josephus, War, 50190- 2.

(٤) Josephus, Ant, 15. 412- 13.

(٥) Jsephus, War, 5. 146.

أن البحث الحديث يدلنا الآن على أنه أشبه كثيراً بباب للمدينة[١]، وهو يشبه باباً من أبواب مدينة نيقية بني في عهد أغسطس. وعلى هذا فإن الباب الشرقي للسور الجديد معروف. وهناك إلى الشرق منه بركة طويلة هي استمرار للخندق المحيط ببرج أنطونيا. وفي أوقات السلم كان هناك جسر خشبي يجعل الشارع يمر عبره. وكان من الممكن إزالة هذا الجسر عند تعرض القدس لخطر الهجوم.

وكان لا بد من زيادة تزويد المدينة بالماء في زمن هيرودس. ويذكر يوسفوس بفخر أن قصر هيرودس – الكائن في أعلى نقطة في القدس – كان مزوداً بالماء بصورة جيدة[٢]. وكان نبع القدس هو النبع الكائن في سلوان في أسفل الزاوية الجنوبية الغربيَّة. أما الجزء العلوي من المدينة فكان يزود لفترة طويلة بالماء من البرك التي كانت تحبس مياه الوديان المجاورة، و التي كان ينقل مخزونها إلى المدينة بواسطة الأقنية. ولا نعرف تواريخ البرك المحيطة بالقدس، ولكن هناك احتمال كبير بأن يكون هيرودس هو الذي بنى البركة المعروفة بماء ملا «الثدي» التي تبعد عن المدينة مسافة قصيرة للغاية إلى جهة الغرب، حوالي نصف كيلو متر، وهي أعلى من قصر هيرودس. وهناك بركة أخرى قد تكون من بناء هيرودس هي البركة الكائنة في «المدينة الجديدة» التي لم يكن السور زمن هيرودس قد أحاط بها بعد. إن بركة بيت حِسْدا Bethesda المزودة الكائنة في هذه الشبكة من الشوارع، والتي لا تزال صافية إلى درجة تلفت النظر اليوم، ترتبط بالشبكة بحكم أنَّ لها أساساً من الصخر البكر يشكل فاصلاً بين البركتين. وهكذا فإن الشوارع والبركة كانت جزءاً من مخطط واحدٍ للمدينة.

وأضاف هيرودس إلى القدس مسرحاً وميداناً لسباق الخيل[٣] مع أن موقعهما

---

(١) see R Blomme, faut-il revenit surlandtation. Je I' Arc-dei "Ecce Hommo" ? ", Revue Billique, 1970, 244- 71.

(٢) Josephus, War, 5. 181.

(٣) Josephus, War, 44 and Ant, 15. 268.

غير معروف حتى الآن. لقد كانت وسائل الترفيه والتسلية هذه غريبة عن اليهود؛ ولكنها كانت إلى حد كبير جزءاً لا يتجزأ من مدينةٍ لها علاقة بالتقاليد الكلاسيكية. ولكن ما إن جاءت السنة العاشرة قبل الميلاد وهي السنة التي تم فيها تكريس الهيكل حتى كان القلق قد استبد بيهرودس أكثر فأكثر حول المنازعات في عائلته وحول من يرثه في السلطة. لقد كان رجلاً على درجة من العزم والقوة بحيث كان يميل إلى اتخاذ القرارات بنفسه ولا يفوِّض أحداً. ومن هنا فلم تكن لديه فكرة حقيقية عمن ينبغي أن يكون وريثه. وفي النهاية وبعد أن كتب وصايا كثيرة وقام بإلغائها ترك معظم مملكته إلى اركيلاوس. وقد فصَلَ الجليل وبيريا Peraea (وهي المدينة التي تقع إلى الشرق من عمان بين وادي اليابس والموقر) وأعطاها إلى هيرودس انتيباس والمناطق الواقعة شمال شرق بحيرة طبريا وأعطاها إلى فيليبُّوس)[1].

مات هيرودس سنة ٤ ق. م. وبعد جنازته مباشرة ذهب أبناؤه الثلاثة جميعاً إلى روما لعرض مطالبهم، وربما لزيادتها. لكن أغسطس أرارد أن يختبر الثلاثة كلهم ولم يكن ليقبل بأن يكونوا أكثر من أمراء. وعاد هيرودس انتيباس وفيليبوس وحكما منطقتيهما بنجاح مدة تتجاوز الثلاثين عاماً. أما اركيلاوس فما إن تسلم السلطة حتى اشتدت قسوته على السامريين واليهود بحيث شكوه إلى روما فنفي إلى فينّا في بلاد الغال. وفي السنة السادسة قبل الميلاد بعث حاكم سوريا كيرينيوس Quirinius برومانيين إلى اليهودية لبيع ممتلكات اركيلاوس وللقيام بإحصاء لمعرفة عدد السكان الذين يتوجب عليهم دفع الضرائب[2]. وهذا هو الإحصاء الذي من أجله ذهب يوسف ومريم إلى بيت لحم حسب ما ورد في إنجيل لوقا[3]. وهناك ولد يسوع المسيح. لكن تاريخ ميلاد يسوع غير مؤكد لأنه، فيما قيل على لسان القديس متى،

---

(١) Josephus, War, Ant, 17. 189.

(٢) Josephus, War, Ant, 17. 355.

(٣) (Luke (2: 1).

تجنب حكم الموت الذي أصدره هيرودس الكبير في حق أطفال بيت لحم[١]. وهذا يعني ضمناً تاريخاً يقع في السنة الرابعة ق. م أو قبلها، وهي السنة التي مات فيها هيرودس. لكن الإحصاء جرى بعد وفاته بعشر سنوات. ولذلك ليس لدينا طريق لمعرفة أيهما كان على صواب القديس لوقا أو القديس متى.

بدأ الحكم الروماني على اليهودية بعدد من الحكام الذين كانوا يحكمون لفترات قصيرة وكانوا يُدعون بالوكلاء procurators. ولكن بعد بعض الوقت بات يعين ولاة prefects لفترات أطول؛ ومنهم على سبيل المثال بونتيوس بيلاطس الذي حكم اليهودية مدة عشر سنوات. وفي فترة حكمه نزل يسوع من الناصرة إلى الأردن حيث قام يوحنا المعمدان بتعميده. وبعدئذ باشر حملته. وانتقل إلى كفرْناحوم على الشاطئ الشمالي لبحيرة طبريا. وختار اثني عشر حواريًّا وجال في البلاد معهم يشفي ويعظ في قرى الجليل وأحياناً خارج الجليل في المناطق المجاورة. ما هو نوع العمل الذي اعتقد الناس أن يسوعاً كان يقوم به؟ إن يسوعاً نفسه ربما كان يقبل تعريف مهمته بأنها إصلاح طاعة اليهود للشريعة. ولكن في الإنجيل الذي كتبه قوم من أتباعه كان نبياً مقدساً، مستعداً للذهاب إلى أبعد مدى في الحياة والموت لإظهار تفانيه في عبادة الله وفي المشاطرة في حب الله لجيرانه. أما حواريوه فقد اعتبروه المسيح (Missiah) الإمام الممسوح بالزيت الذي بعثه الله والذي سيكون في مجيئه الخلاص. وهذه المهمة[٢]، مهما كانت، كان لا بد أن تثير عداء زعماء اليهودية التقليديين؛ ولكنّها أكسبته أتباعاً كثيرين بين قرويي الجليل. وفي نهاية الأمر صعد إلى القدس ليواجه أشرس خصومه. وهناك، فيما يقول الإنجيل، قبضوا عليه وضمنوا صَلْبه. كان موته نتيجة لتفانيه في الله. وموت كهذا لا يمكن أن يكون النهاية. فبعد دفنه بثلاثة أيام بدأ حواريوه يرونه حيًّا مرة ثانية. وبعد أن صعد إلى السماء انتشر حواريوه ليبشِّروا

---

(١) Matthew (2: 18).

(٢) Mark. 8: 29.

بالرسالة التي تقول إن يسوعاً كان الإمام وكان المعلم الذي ينتظر من كل اليهود وغير اليهود على يديه النعمة والخلاص.

ما هي أماكن الحج المقدسة التي ترتبط بيسوع في الواقع في مدينة القدس؟ يبدو أن الحج المسيحي يرجع إلى القرن الثاني، وهكذا فإن الأماكن المقدسة هي أحدث بقرن واحد فقط من الكتاب المقدس نفسه. هناك أربعة من هذه الأماكن حقيقية سواء في الكتاب المقدس أو الحج، وأما الخامس - وهو قصر بيلاطس - فليس حقيقياً. ولكننا سوف نرى أن هناك سبباً بسيطاً جدا لا يجعله كذلك. أما المكانان الأولان فهما بركتان: واحدة في سلوام (سلوان) التي أرسل إليها المسيح الرجل الذي ولد أعمى فارتد بصيراً[١]؛ لكن البركة رُمِّمت في زمن الرومان ولا يمكن أن نعرف شكلها زمن يسوع. أما البركة الثانية فهي بركة بيت حسدا حيث شَفى المسيح الرجل الذي كان مصاباً بالشلل[٢]. والمكان الثالث هو حديقة الجسمانية. وقد اختفت كحديقة منذ حصار الرومان سنة ٧٠ ب. م. لأن الرومان استعملوا جميع الأشجار كدعامات للمتاريس في أثناء الحصار. وفي مرحلة لاحقة من المعركة بعثوا يطلبون المزيد منها على بعد أحد عشر ميلاً[٣]. لكن الموقع العام للجسمانية مؤكد. والمكان الأخير المرتبط بيسوع هو الجمجمة (الجلجثة) حيث صلب. وحسب ما يقول الإنجيل فإن القبر المقدس الذي دفن فيه يسوع «كان قريباً» من هذا المكان[٤]. كان صلب المسيح حَدَثا علنياً. ولذلك فمن المحتمل كلَّ الاحتمال أن البقعة الدقيقة التي تم فيها ذلك ظلت عالقة في الذاكرة. والواقع أنه لم يجْر التفكير في مكان آخر حتى نهاية القرن التاسع عشر.

---

(١) John. 9: 7.

(٢) John. 5: 2.

(٣) Mark, 14: 32, and Josephus, War, 6. 5- 6.

(٤) John, 19: 42.

وبعد أن صعد المسيح إلى السماء بقي بعض أفراد الطائفة المسيحية في القدس. ولم يكن هؤلاء محبوبون لدلا السلطات اليهودية. فاستشهد ثلاثة منهم. ولكن بعض المعلمين اليهود علموا بأن المسيحيين يجب أن يتركوا وشأنهم: «إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسَوْف ينقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه»[١].

وجاء من اليهود ملك آخر كان عضواً في أسرة هيرودس، وهو هيرودس أغريبا، حفيد هيرودس. وقد حكم من سنة ٤١- ٤٤. ثم تولى الحكم ولاةٌ رومانيون آخرون. وفي ولاية فيلكس من ٥٢- ٦٠ انتشر الأشقياء وقطاع الطرق في اليهودية، ومن بينهم أشقياء ذوو نزعة دينية عقدوا العزم على قلب الحكم الروماني[٢]. ونشبت الاضطرابات في قيسارية بين السكان السوريون واليهود. وجاء بعد فيلكس هذا فستوس. وبعدئذ اعترى الإدارة الرومانية تدهور شديد. وقيل إن البينوس، الذي حكم من سنة ٦٠- ٦٢، أخذ الرشاوى من قطاع الطرق الذين حالفوا جميع أولئك الذين كانوا يرغبون في إنهاء الحكم الروماني. وواصل غيسيوس فلوروس، الذي حكم من سنة ٦٤- ٦٦ تلقي الروشاوي من قطاع الطرق. وعندما تجددت الاضطرابات في قيسارية في شهر حزيران (يونية) ذهب إلى القدس[٣]. وأحضر معه كتيبتين من قيسارية، واشتد الخلاف مع اليهود حتى إن الكتبتين اندفعتا نحو الجمهور وقاتلتا معه. ورجع فلوروس إلى قيسارية دون أن يستطيع تهدئة اليهود فبعث يطلب النجدة من حاكم سوريا سيستيوس غالّوس. وأعدّ غالوس العدة للحرب ضد اليهود وزحف إلى القدس، حيث وصل في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر). وذهب مباشرة من جبل سكوبس (جبل المشارف) حيث أقام معسكره إلى بيت حسْدا مما يدل على أن السور الشمالي لم يكن قد بُني بعد. ولكنه ما إن اقترب من المدينة حتى رجع

---

(١) Acts, 5: 32.

(٢) Josephus, Ant. 270, 161, 168, 171.

(٣) Josephus, War, 2. 296.

أدراجه على نحو لا يمكن تفسيره. ولاحقه اليهود في أثناء ترجعه على الطريق المؤدي إلى عمواس. وهُزِمَ الفيلق الثاني عشر والقوات الملحقة به، وقتل اليهود أكثر من خمسة آلاف جندي[١].

وأعد اليهود الآت العدة لحرب أكثر خطورة. وفي هذا الوقت بالذات أتموا بناء السور شمالي المدينة، وهو السور الذي وضع تخطيطه هيرودس أغريبا ولكنه لم يُتمه ، فقام اليهود بإتمام بناءه، مستغلين الفترة التي فيها هُزِم فيه سيستيوس غالّوس ووصول الجيش الروماني بقيادة فسياسيا في فصل الربيع. ومن هنا فلا ندهش إذا وجدنا أنهم استعملوا أية حجارة استطاعوا العثور عليها، ومنها حجارة كثيرة كانت قد صنعت للنصب الحجرية في زمن هيرودس الكبير. وفي أثناء الفترة الحرجة هذه تشاجر الجنود اليهود الذين كانوا يتبعون قاعدة مختلفين. وربما نجح المسيحيون في هذه المرحلة في الهرب إلى بلا Pella (طبقة فَحِل) عبر الأردن. وفي حكم نيرون حدثت ثورة يهودية أولى عام ٦٦- ٧٠٠م قضى عليها الجيش الروماني الرئيسي بقيادة فسباسيان في الجليل لمدة ثلاث سنوات، ثم نودي بفسباسيان إمبراطوراً[٢]. وترك الحملة على اليهودية لابنه تيطس الذي عاد لمحاصرة القدس. ووصل في كانون الثاني (يناير) أو شباط (فبراير) (سنة ٧٠ ق.م). وفي شهر أيار (مايو) أحدث ثغرة في السور الشمالي الجديد، وبعد ذلك بأسبوع، ثُغر السور المحيط بالأسواق الذي بناه هيرودس الكبير. وبعدئذٍ نشب قتال متواصل من أجل الاستيلاء على الهيكل لأن هيرودس الكبير لم يجعله فخماً فحسب، بل جعل الدفاع عنه ميسوراً أيضاً[٣]. استولى الرومان على أكثر النقاط مناعة في فناء الهيكل وهي برج أنطونيا في أواخر تموز (يوليه). ومن هناك هاجموا الهيكل، حيث توقف تقريب القرابين في ٦ آب

---

(١) Ibid, 540.

(٢) Ibid, 4- 588.

(٣) Josephus, Ant., 15. 396.

(أغسطس). ودخل الرومان الهيكل في ٢٨ آب (أغسطس)، ثم قضوا شهراً في تنظيف المدينة العليا والقصر[١].

شهد حكم تيطس الروماني سياسة قامت على ضرب اليهود ضربات موجعة. وقد غيّر الرومان سياستهم حيال أورشليم وما حولها حيث جعلوا لها حاكماً رومانياً مباشراً بدل الحكام المحليين من اليهود بسبب كثرة الفتن والشغب وسوء الإدارة المحلية وكثرة المنازعات بين اليهود أنفسهم إضافة لثورات أورشليم المتكررة.

وأمضى تيطس شهراً آخر في القدس. ودمّر الهيكل تدميراً تاماً وأعطى الأوامر بأن تسوّى بقاياه والمدينة كلها بالأرض سنة ٧٠ م، وهرب عدد من اليهود إلى البلاد العربية المجاورة مثل مصر ولبنان واليمن. والشيء الوحيد الذي استثناه كان السور الواقع غربي المدينة من أجل توفير الحماية للفيلق العاشر الذي أبقاه كحامية للمدينة، والأبراج الثلاثة شمال القصر: فصايل ومريامّه وهيبيكوس[٢]. ويمكننا أن نتبيّن نتيجة الأمر الذي أصدره بتدمير المدينة من بقايا السور الشمالي الذي لم يتبق منه إلا القليل جداً من الأحجار. لكن مدة شهر ليست المدة الكافية لضمان تدمير مدينة كبيرة كالقدس. لقد هُدمت الأسوار ولكن الشكل الإجمالي للمدينة بقي قائماً، مع أن هدم الأسوار جعل المنطقة المحيطة بفناء الهيكل طللاً من الأحجار المطروحة جانباً. وبقي بعض اليهود في القدس لكن المجلس انتقل إلى يامنيا Jamnia (يُبنى). ولم تعد القدس مقراً لرياسة اليهود. لقد هزم اليهود هزيمة تامة، وستمضي ستون سنة أخرى قبل أن يستطيعوا تجميع قوتهم ليقفوا الوقفة الأخيرة ضد روما.

وقد اختطف أحد الجنود الرومان «الشمعدان» ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق، وحمله في موكب النصر الذي كرسوا به عودة تيطسس إلى العاصمة الإمبراطورية. وحتى هذا اليوم لا يزال يحمله أحد الجنود عالياً في القوس المشيد

---

(١) Jos..., war, 6. 374.

(٢) Ibid, 7. 1.

قرب «الفوروم» برومه لذكرى الانتصار العظيم»[1].

لابد من الإشارة هنا إلى حدوث نوع من التعاون بين أحد ملوك الأنباط، وهو مالكو الثاني وطيطس في الهجوم على أورشليم. فقد أرسل مالكو الثاني في عام ٦٧م ١٠٠٠ فارس و٥٠٠ من المشاة لمساعدة طيطس في هجومه على أورشليم[2]. ولكن اليهود قاموا بثورة ثانية من بعد ٦٢ عاماً في عهد «هادريان» حيث ثار «سيمون باركوكبا» "Simon Barboka" ١٣٢-١٣٥م فسحق هادريان العصيان بقسوة، وحول أورشليم إلى مستعمرة رومانية ومبدلاً اسمها إلى «إيليا كابيتولينا» Aelia Capitolina" وأقام في محل الهيكل معبداً للإله «جبيتر»[3]...

وتعلق الكاتبة الروسية جاليتا نيكيتينا «على ثورة اليهود في كتابها «دولة إسرائيل» فتقول: «وبعد أن أخمد الرومان ثورة «ياركوجين» طرد اليهود من فلسطين، ولم تقم لهم قائمة، وفقدوا صلتهم بالبلد، غير أن القبائل العربية الفلسطينية عاشت باستمرار على أرض فلسطين، واختلطت في القرن السابع بالقبائل العربية النازحة من شبه جزيرة العرب وأصبحت فلسطين عربية منذ ذلك الوقت». وأخذ المشرق يبدو أكثر أهمية كخط دفاع شرقي ضد منافسي روما. وكان هؤلاء لا يزالون البارثيين في هذه المرحلة؛ وفي سنة ١٠٦ فتح الإمبراطور تراجان مملكة البتراء التي أصبحت

---

(١) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١ ص٣٧٦ عن يوسيفوس المؤرخ اليهودي. تكاد معظم المراجع الحديثة تعتمد في تدوين تاريخ سورية، وفلسطين في العهد الإمبراطوري الأول على مؤلف يوناني لأحد المؤرخين اليهود، وكان هذا المؤرخ «يوسيفوس» الذي ولد له في أورشليم حوالي ٣٧م. وكتب آثار اليهود، "Antiquities of the Jews" وكتاب الحروب اليهودية " The Jewish Wars" وقد ترجمت مؤلفات يوسيفوس من قبل:
William Whiston, new Ed., (London, 1897), Andre By A. B. Shilleto, 5 Vols, (London 1890)).

(٢) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١ ص٤٢٣.

(٣) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١، ص٤٢٣.

ولاية [العربية] الرومانية[١]. وأقام القلاع على امتداد الحدود. وامتدت العربية شمالاً إلى بُصرى، عاصمتها الجديدة، وعبرت جنوباً وادي عربة وشملت صحراء سيناء جنود بلاد الأدوميين. وأصبح هذا الجزء الجنوبي فيما بعد في سنة ٣٥٧ فلسطين الثالثة Pallastine[٢]. وقام هادريان الذي خلف تراجان بزيارة إلى البلاد العربية، خطط بعض اليهود للقيام بثورة ثانية أخرى ضد روما عام ١٣٢- ١٣٥م وكان قائد الثورة باركوخيا الذي اعتبره البعض المسيح. أما مناسبة الثورة فهي الأنباء التي ترددت بأن هادريان منع الختان وأنه كان ينوي جعل القدس مستعمرة رومانية تدعى إيليا كابيتولينا. وفي سنة ١٣١ أرغم باركوخيا الرومان وغيرهم من غير اليهود على ترك القدس وأعلن الاستقلال. ومن المحتمل أنه أقام الصلوات في موقع الهيكل بقدر الإمكان. لكن قوات بار كوخبا كانت أصغر من أن تبقى على قيد الوجود. فطُرد رجاله من القدس سنة ١٣٥، ومات بار كوخبا نفسه في حصار بتير، على بعد ستة أميال جنوب غرب القدس[٣].

ومضى هادريان قدماً في خطته لجعل القدس مستعمرة رومانية. وقرر الرومان عدم السماح لليهود بالدخول إلى منطقة إيليا كابيتولينا. وكان هذا اسم القدس الجديد؛ وضمت المنطقة أقضية جفنة وهيروديوم والمنطقة الواقعة غرب القدس والتي دعيت أوراينيه، "Oreint" أو البلاد الجبلية. ويبدو أن مرسوم روما بشأن طرد اليهود قد صيغ بالشكل التالي: «يحظر على جميع الأشخاص المختونين أن يدخلوا إلى منطقة إيليا كابيتولينا أو يقيموا فيها. وكل من يخالف هذا الحظر سيعاقب الموت[٤]. وكان القصد من المرسوم منع اليهود من العيش هناك. ومن المحتمل أن

---

(١) Diocasslus, Roman history. 78-14. 5 (Loiep vol. VII, 3891.

(٢) Libinian, letter, 337.

(٣) Tustin mary v, I Apol. (tr. Tb falls, in series fc= Father of the church, 4184, Eusebius hiss, 4.6.

(٤) The late Professor Mmishael AA Vi- yonadsreconsttustion in the jewes of

يكون المسيحيون الذين كانوا مثل اليهود قد منعوا أيضاً. لكن الشعوب السامية كلها تختن ولا بد أنه كانت هناك استثناءات كثيرة من المرسوم. وعلى سبيل المثال فإنّ المحاربين القدماء من رجال الفيلق العاشر، وهم الجنود الذين أمضوا خمساً وعشرين سنة في الخدمة، ربما كان لهم الحق في السكن في المدينة؛ ومعظم هؤلاء كانوا من السوريين والعرب. وهزيمة اليهود كانت تعني أن عددهم قد أنقص من ثلثي السكان إلى ثلثهم.

إن مدينة إيليا كابيتولينا كانت مدينة جديدة، تستند إلى القدس الهيرودسية، ولكنها كانت مقسَّمة بطريقة مختلفة. وقد أُعيد استعمال حجارة قدس هيرودس تكراراً في إيليا، ولذلك فإن وجود الحجارة في نصب ما ليس ضماناً كافياً بأن النصب كان من بناء هيرودس. وهناك نصّان رئيسيان يصفان إيليا. الأول: وهو يثير من الأسئلة أكثر مما يحل وهو وصف المباني التي شاهدها هادريان، وهو جزء مما يدعى بـ الباشال كرونيكل Pashal Chronicle.

أما النص الثاني فهو أقدم وصف وصلنا من حج مسيحي. ومع أنه يتعلق بالدرجة الأولى بالحج بعد اعتلاء قسطنطين العرش بعشر سنوات فيبدو أنه يفسِّر الشيء الكثير عن إيليا[١]. والواقع أن المبنيين المسيحيين الجديدين الوحيدين، هما الكنيستان اللتان بناهما قسطنطين خلال السنوات العشر الأولى من الحكم الروماني المتعاطف مع المسيحيين. وكان الحج المسيحي قد اتخذ شكله من قبل في القرن الثاني. ونحن نعرف عن مغارة كان يؤخذ المسيحيون في بيت لحم لرؤيتها. ولا بد أن الكاتب قد عرفها قبل سنة ١٣٠ ب.م، وهي المغارة التي ولد فيها المسيح عليه السلام. ونحن نسمع عن القبر المقدس لأول مرة عن عظة القيت سنة ١٦٠ وتقول ثلاثاً إن القبر يقع في

Palestine. Oxford, 1976, 9- 132- 3, 222, 241.

(١) Ltineraium Bardiagalense in Corpus Christianorum 175, 13- 21, and English translation in Wilkinson, Egeria's Travels, Warminster, 1981, 63- 153.

وسط القدس[1]. فلا بدّ إذن أن نوعاً من أنواع الحج المسيحي كان قائماً قبل سنة ١٣٠. وهناك احتمال بأن بعض الأماكن التي زارها الحجاج كان أول شهودها ذكريات حواريي المسيح.

كانت الديانة الرسمية لإليا كابيتولينا هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. وهناك دلائل على عبادة سيرابيس Serapis (إله الشفاء المصري اليوناني) في بركة بيت جِسْدا. لكن يبدو أن المسيحيين كانوا من حيث الجنس مثل الناس الآخرين: وكان أسقفان من أساقفة القرن الثالث يحملان اسمي مازابانيس وزبْداس[2]. ويأتي هذان الاسمان من تدمر التي كانت مركزاً عربياً قوياً في ذلك الوقت. بدأ المسيحيون أقلية تعبد في بيت يقع بالضبط جنوب معسكر الفيلق الذي كان يشغل المكان الذي توجد فيه الآن حارة الأرمن التي سمّوها صهيون. ولا شك أنها سميت باسم صهيون السماوية التي ورد ذكرها في العهد الجديد[3]. وعلامةً على أن الكنيسة ترمُز إلى السماء. لكن الكنيسة نمت من أقليةٍ إلى أن أصبحت قوة يعتد بها كل الاعتداد في القرن الثالث. وقد كتب أوسابيوس، الذي ولد في قيسارية البحرية Caesaria Maritima حوالي سنة ٢٦٠ وأصبح فيما بعد أسقفاً لها، كتب تاريخاً كنسياً وصف فيه النمو. لقد حل محل كنائس البيوت مباني كنسيّة أكبر[4]. واتخذ أوريجانس الإسكندري – وهو من أعظم المعلمين المسيحيّين وأكثرهم إثارةً للجدل فيما بعد – مدينة قيسارية سكناً له. وازداد المسيحيون ثقةً ولكنهم كانوا ما يزالون أعضاء في طائفة غير مشروعة. وقضية الإمبراطور فيليبوس مثال جيد على هذه المعضلة. كان

---

(١) Melito of Sardis, on Pasha, ed. S G Hall, 72- 94.

(٢) Eusebius, Eccl. Hist., 4, 6 (tr. McGiffert in series NPNF = Nicene and Post-Nicene Fathers, 177) and Cyril of Jerusalem, Cat., 16. 4 (tr. L P McCaley in FC second vol., 78).

(٣) Hebrews 12: 22.

(٤) Eusebius, Eccl. Hist., 8. 1-2 (tr. 323).

فيليبوس عربياً من قرية شهبا، شرقي بصرى أسكي شام، وكان مسيحياً. ولكنه عندما تولى الحكم كإمبراطور من سنة ٢٤٤ إلى سنة ٢٤٩ ترتب عليه أن يتخلى عن مسيحيته. لقد تعاطف مع المسيحيين، ولكن المهام العامة لإمبراطور روماني منعته من العبادة على الطريقة المسيحية. وكان يعني ذلك أنه ترتب عليه المشاركة في كثير من الطقوس الوثنية[١]. وبعد ذلك بخمسين سنة اتخذ الإمبراطور ديو كليتيانوس وقد شعر بتهديدٍ من المسيحيين، خطوات لكبح جماح قوتهم المتزايدة، فأمر بتطهير الجيش من المسيحيين وأصدر مرسوماً سنة ٣٠٣ بإحراق جميع الكتب المقدسة المسيحية وتدمير جميع مباني الكنائس[٢]. وحظرت المسيحية وترتب على الزعماء المسيحيين أن يقدموا الأضاحي للآلهة الرومانية واستشهد شخصيان من إيليا هما بروكوبيوس وفاليس. واستمر هذا الاضطهاد على فترات لمدة سبع سنوات حتى سنة ٣١٠.

لكن شخصاً آخر كان سيتولى السلطة وشيكاً أبدى استعداده لمعاملة المسيحيين كأصدقاء. ففي سنة ٣١٢ أمر قسطنطين بإعادة بناء الكنائس على نفقة الدولة. وفي سنة ٣٢٤ أصبح يسيطر على الجزء الشرقي من الإمبراطورية. ولم يكن هو نفسه مسيحياً، للسبب عينه الذي لم يكن فيليبوس من أجله كذلك. ولكنه كان قد حلم يوماً برمز مسيحي عليه الكلمات التالية: «بهذه العلامة أغلب!»[٣]، وذلك قبيل إلحاقه الهزيمة بمنافسه عند جسر ميلفيا خارج روما. واستقر في نفسه أن المسيحية يجب أن تزدهر وتتحد. ولما أشرف على نهاية حياته أصبح مسيحياً بالتعميد.

وهكذا حوّلت القدس من مدينة رومانية ذات أهمية ضئيلة للغاية بالنسبة للإمبراطورية إلى مدينة عظيمة الأهمية. وعلى هذا فإن تاريخ القدس يفهم إلى حد بعيد في سياق مسيحيتها وكمركز للحجاج. ولهذا السبب أمر قسطنطين بكشف القبر

---

(١) See F M Abel, Histoire de la Palestine, vol, 2, Paris, 1952, 199.

(٢) Eusebius, Eccl. Hist., 8. 1-2 (tr. 323).

(٣) Eusebius, Lif of Constantine, 1. 27 (tr. McGiffert, NPNF, 489).

المقدس. وعُرف الموضع باسم كنيسة الشهداء Martyrium[١]. وحملت أول كنيسة بناها قسطنطين هذا الاسم. ويرينا (الشكل ٧) مخطط المباني التي شرع فيها قسطنطين في الموقع، ولكنها لم تتم كلها دفعة واحدة. وبعد أن وجد المسيحيون القبر المقدس أرسل قسيس يدعى أوستانيوس Eustathius من القسطنطينية للشروع في بناء الكنيسة. وأُرسل بعد ذلك مهندس يدعى زنويبوس (وهو اسم تدمر آخر[٢]. وقام أسقف القدس بزخرفة القبر أولاً وأضاف إليه رواقاً، ولكن المبنى المستدير لم يكن قد بني حوله بعد. ومضوا قدماً في بناء الصحن والجلجثة (الجمجمة) في أحد أركانه، وكنيسة الشهداء شرقيه، والصحن الذي يدخل فيه الناس من الشارع. أما كنيسة أنسطاسيا، بقدر ما يفيدنا أوسابيوس في كتابه «حياة قسطنطين»[٣]، فلم تكن قد بنيت بعد طيلة تسع سنوات. وأول قيد بإتمامها يأتي من سنة ٣٤٧، أي بعد مضي عشر سنوات على وفاة قسطنطين. وربما كان زنويبوس قد أرسل سنة ٣٣٦ لإتمام الكنيسة ولكنه توقف عند وفاة قسطنطين لنقص الأموال. وبالفعل فإن أحدث العلماء الذين فحصوا كنيسة انسطاسيا يعتقد أن الأعمدة المحيطة بالقبر كانت أعمدة قطعت في الأصل إلى نصف حجمها.

كانت سياسة قسطنطين هي سياسة هدريان نفسها تجاه اليهود. فلم يكن يسمح لهم بالعيش في القدس، ولكنهم كانوا يحجون إلى الحائط الغربي للهيكل، كما كان يسمح لهم مرة في السنة في التاسع من آب بدخول موقع الهيكل للبناء على خرابه[٤]، أما المسيحيون من جهة أخرى فقد انتصروا[١]. وبعد حياة كحياة

---

(١) Zephaniah 3: 9, cited by Cyril of Jerusalem, Cat., 14. 9, PC, 33. 832 (tr. Second vol. 35).

(٢) Philostorgius (ed. J Bidez, fr. 13, GCS 208) Quoted by Theophaners, chronographia, ed. De Boor, 33. 11.

(٣) Eusebius, Life of Constantine, 3. 33- 39 (tr. 529f.).

(٤) Itin. Burd, 591. 5 (16, tr. 197), Exodus R. 2 2.

أوسابيوس رأى فيها الكنائس تنمو، ولكن لتدمَّر سنة ٣٠٣ وشهد فيها بداية فترة طويلة من الاضطهاد بدا التسامح الجديد تجاه الكنيسة كأنه نعمة خاصة من نِعَم الله. وتغير طابع القدس بسرعة. وبعد تولي قسطنطين السلطة بسبعين عاماً امتلأت المدينة بالرهبان والراهبات، وكانت الصلوات العامة بالقدس تقام باللغة اليونانية بحضور ترجمان كان يردد الكلمات بالآرامية(٢). وهكذا كانت الكلمات بلغتي سوريا كلتيهما. ولكن عند مجيء الأجانب، الناطقين باللاتينية مثلاً، كان هناك تراجمة غير رسميين إلى اللاتينية. وكان الزوار الأجانب يفدون إلى القدس بأعداد كبيرة(٣). وبعضهم عاد فاتبعوها لدى عودتهم إلى بلدانهم. وبقي بعض الزوار الأجانب في المدينة وأصبح الكثيرون منهم رهباناً وراهبات. إن حياة الرهبنة بدأت في مصر ولكن سرعان ما اكتسب الرهبان والراهبات في فلسطين سمعة في القداسة، وأصبحت البريّة الكائنة شرق القدس مدرسة للرهبان من مختلف الجنسيات: اللاتين والفرس والهنود والحبش والأرمن. ولما كان الرهبان في الصحراء فقد كان لهم نفوذ كبير على القبائل البدوية. وقد قام القديس أفتيموس، أحد أعاظم رهبان الأرمن، بتنصير أسبيبت Aspebet، وهو عربي منفيّ من بلاد فارس، وجعله أسقفاً لقبيلته. ودعيت الأبرشيه «المعسكر»(٤).

وحدث انقطاع في سلام الكنيسة الحديد سبَّبه حكم يوليانوس. فقد قرر يوليانوس بوصفه الإمبراطور الروماني تشجيع كل الناس على العودة إلى ديانتهم القديمة. ولذلك منح اليهود حق العيش في القدس وفرصة إعادة بناء هيكلهم.

---

(١) Jerome, Comm. Soph., 1. 15 (ed. M Adrian, Corpus Christianorum 76A, 672).

(٢) Egeria's Travels, tr. J Wilkinson, 47. 3- 4, 146.

(٣) Jerome, Ep., 46. 10, 108. 33 (tr. W H Fremantle, NPNF, 211).

(٤) Cyril of Scythopolis, Life of Euthymius, 78 (tr. Festugiere, 24. 17) and 80 (26. 12).

وداخلت بعض اليهود الشكوك فيما إذا كان أمر يصدره إمبراطور روماني هو الطريقة الصحيحة للشروع في إعادة البناء، لأنهم ينتظرون أن تكون علامة ذلك هي عودة المسيح. وبدأ العمل في بناء الهيكل ولكنه توقف بسبب زلزال. وإذْ كان يوليانوس نفسه قد توفي بعد شهرين فإن الإمبراطور الذي خلفه كان مسيحياً أرثوذكسياً، وتم التخلي عن البناء[1].

كان عدد اليهود قد قلّ كثيراً بسبب الحرب اليهودية الثانية، وبعد سنة ١٣٥ هرب كثير منهم إلى سوريا ومصر. وبعد أن كانوا يشكلون حوالي ثلثي السكان، أي الأغلبية في فلسطين، أُنقص عددهم إلى الثلث، كما يقول البروفسور مايكل أفي - يونا.

وتميّز القرنان الأخيران من الحكم البيزنطي في فلسطين بخلاف شديد كان في ظاهره مذهبياً. وقد بدأ الخلاف في مجمع إفيسوس الذي حضره أساقفة الكنيسة كلها، فيما عد الأساقفة السوريون، وممثلو بابا روما. ونجح المجمع في نفي نسطوريوس من بطريركية كنيسة القسطنطينية. وكان من نتائج ذلك أن أتباع نسطوريوس، في شمال سوريا أساساً، شكلوا كنيستهم الخاصة بهم، معارضين بذلك وجهة النظر الرسمية للإمبراطورية. وبعد ذلك بسنتين حصل اتفاق بين ممثل وجهة النظر الروسية والأساقفة السوريّين. ولكنه لم يتم كسب الأساقفة بحيث يتبنون رأي المجمع بدقة ويؤيدونه. والواقع أن هذا الخلاف المذهبي كانت له صلة أيضاً بقضية الاستقلال عن سلطة بيزنطية، وكان من شأنه أن يستمر ليس إلى سنة ٦٣٧ فحسب بل إلى الوقت الحاضر أيضاً.

وفيما يتعلق بالقدس كان الأسقف الذي انتخب سنة ٤٢٨ هو يوفنال، الذي لم يرضى بأن يكون أسقفاً بل أراد أن يكون بطريركاً. وقد عرض مطالبه على مجمع

---

(١) Gregory of Nazianzus, Or. V. contra Julianum, 4 (GCS 35, 688).

أفيسوس ولكن المجمع رفضها. وبعد ذلك، وفي سنة ٤٣٨، حضرت إلى القدس للحج الإمبراطورة أودوكيا التي كان من شأنها أن تغدو خصماً ليوفينال طيلة ثلاثة عشر عاماً. لقد أحبت أودوكيا القدس، وعندما نشب خلاف بينها وبين أسرتها في سنة ٤٤٤، وخصوصاً مع أخت الإمبراطور بُلخيريا Pulcheria، نفيت أودوكيا إلى القدس. ونظراً لرتبتها فقد حكمت فلسطين.

ومنذ البداية، وإلى حد بعيد بسبب خلافها مع بُلخيريا، عارضت الرأي البيزنطي الرسمي في المذهب المتنازع عليه وأيّدت استقلال الحركة التي شملت عدداً كبيراً من الرهبان في جميع أنحاء سوريا وفلسطين. وكانت كريمةً للغاية في معاملتها للمسيحيين وبنت لهم كثيراً من الأديرة والأنزال (الهوسبيسات) والكنائس. ويُرجع لها كثير من العلماء المحدثين أيضاً الفضل في بناء أسوار القدس، ولكن «الأسوار» قد تعني في الواقع المباني الكنسية. ويستند هذا إلى قول مقتبس تداوله بلا شك الناس الذين كانوا يرغبون في الحصول على أموال من أودوكيا. (وأودوكيا) تعني في اليونانية «الرِّضى». ويقول المزمور ٥١: ١٨: «أحسن برضاك (Eudokia) إلى صهيون. ابن أسوار أورشليم[1].

وفي سنة ٤٥١ انعقد مجمع دولي آخر للأساقفة دعت إليه بُلخيريا، في خلقدونية، وكان من منجزاته الصغيرة مطالبة يوفينال بأن يصبح بطريركاً وقد تكللت بالنجاح في ٤٥١. ونشأ اعتقاد بأن البطريرك حديث الانتخاب حصل على بطريركيته عن طريق الخيانة. وبلغ أودوكيا نبأ هزيمة الحزب الذي كانت تؤيده، وأن هذا الحزب، وهم الذين يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح - مونوفيزايْت - كما كانوا يدعون، أسَّس كنائس منفصلة ممثلوها الحديثون هم الأقباط والأحباش واليعاقبة السوريون، الأمر الذي تبين فيه المدى الذي انتشرت فيه المعارضة جغرافياً. وعين في القدس أسقف مونوفيزي - هو الراغب ثيودوسيوس. وعندما عاد يوفينال بوصفه

(١) John Malalas, Chrom, 14 (PG 97 532- 3).

بطريركاً مع حرس من الجند اضطر إلى الاختباء في صحراء روبا Ruba إلى الغرب من قُمْران بالضبط[1].

وعندما توفي الأسقف ثيودوسيوس في سنة ٤٥٧ نظرت أودوكيا إلى الفوضى السائدة في الكنيسة. وهي لم تدري ما تفعل، حتى كتبت إلى أقدس رجل عرفته وهو القديس سيميون ستيليتس St Simeon Stylites الذي كان يعيش فوق عاموده قرب أنطاكية، وطلبت منه معلماً فأجابها القديس سيميون بأن لديها معلماً على مرمى الحجر منها هو الراهب أفتيميوس. وقابلت أفتيميوس وبلغ من تأثيره عليها أنها تصالحت مع البطريرك الأرثوذكسي أنسطاسيوس الذي خلف يوفنال[2]، وآخر عمل قامت به أودوكيا هو بناء كنيسة القديس أسطفان على بعد ٣٥٠ متراً شمال باب العامود. وانتهى العمل في المبنى سنة ٤٦٠، وأودعت فيه بقايا القديس أسطفان، وماتت أودوكيا بعد ذلك بوقت قصير جداً ودفنت أيضاً في الكنيسة[3].

لم تتم استعادة الصلح المذهبي إلى الكنيسة بعد. وتوالت المنازعات في السنوات التسعين التالية. وهدد السلام تصميم السامريين على إعلان دولة مستقلة. وفي سنة ٤٨٤ ثار هؤلاء ونادوا بشخص يدعى يوستوس ملكاً عليهم. والحق بهم الإمبراطور زينون هزيمة قاسية وبنيت كنيسة فوق مذبحهم على جبل جرزيم. وفي سنة ٥٢٩ ثاروا ثانية في عهد الإمبراطور جستنيان. وكانت ثورتهم هذه المرة بقيادة ملك يدعى يوليانوس، وألحقوا أضراراً بالغة بالكنائس. وفي منطقة القدس دمروا الكنائس في عمواس (نيقوبوليس، الآن اللطرون) وبيت لحم. وكان الإمبراطور جستنيان آخر ملك يبني كنيسة في القدس في الفترة البيزنطية[4]. فإلى جانب إعادة بناء

---

(١) Zacharias Rhetor, Hist., 2, 3 (ed. E. W Brooks, CSCO Scr. Syr. 3. 5, 9- 108).

(٢) Cyril of Scythopolis, Life of Euthymius, 3- 102 (3- 49).

(٣) Ibid, 107 (53. 5).

(٤) Codex Lustin. 1, tit. V, 12, 10 and John Malalas, Chrom, 18 (PG 97. 667).

كنيسة في بيت لحم واصل جستنيان بناء كنيسة كان قد خطط لبنائها البطريرك العربي إلياس والقديس سابا ودعيت «الكنيسة الجديدة لوالدة الله». وقد دمرت الكنيسة بفعل زلزال ولكنه تم الكشف عن أساساتها. وضم مجمع الكنيسة مستشفيين يحتويان على مائة سرير للحجاج المرضى ومائة أخرى للسكان المحليين[1].

وهذه هي آخر كنيسة على الخريطة الفسيفسائية للأرض المقدسة، التي عثر عليها فوق أرضية كنيسة بيزنطية في مادبا عبر نهر الأردن. وقد صُنعت هذه الخريطة حوالي ٥٧٥، وهي تظهر في اللوحة رقم ١٠، والجزء العلوي من الخريطة يشير إلى جهة الشرق. ورتبت الأسوار في شكل بيضاوي تنقصه الزاوية اليسرى من الأعلى؛ وربما ضم هذا الجزء برك سلوان وكنيستها. ولا يظهر في الخريطة سوى الحائط الغربي لفناء الهيكل. والشارع الأكثر انخفاضاً بين الشارعين المعمّدين يجتاز كنيسة الشهداء، التي تظهر مقاومة بوصفها المَعْلَم المركزي تحت الشارع السفلي، ثم يمتد إلى «الكنيسة الجديدة لوالدة الله». وينتهي عند سور صهيون. والخط العمودي إلى يمين الكنيسة الجديدة وربما يمثل تتمة الشارع حتى شرقي السور. وعند نهاية الشارع المعمّد العلوي هناك قوس قرب الباب الشمالي ربما كان الباب القديم للسور الذي طوّق به هيرودوس الكبير منطقة السوق. وتستمر الطريق إلى اليمين ولها شعبة تتجه إلى الباب الشرقي، ثم تسير إلى الجسر الذي يحمل الطريق من المدينة العليا إلى منصة فناء الهيكل. ولا يمكن رؤيتها فيما وراء ذلك، ولكنها مُدّت أيضاً كما تظهر الحفريات، إلى ما بعد باب الدِّمنَ Dung Gate الحالي[2]. والكنائس التي يمكن تحديد هويتها هي الكنيسة القائمة عند بيت حسدا قرب الباب الشرقي، وصهيون المقدّس في الزاوية اليُمنى السفلى، وكنيسة إلى أعلى تلي الكَسْر وتلي الجسر. وهذه هي كنيسة الحكمة

---

(١) Procopius of Caesarea. The Buildings of Justinian, 5. 6. 22- 26 (Loeb vol. VII, 347).

(٢) وهو الباب الذي نسميه الآن باب المغاربة - المترجم.

المقدسة، وهي المكان الذي أحيا فيه المسيحيون ذكرى محاكمة المسيح أمام بيلاطس.

دأب البارثيون على مهاجمة روما منذ سنة ٤١ ق.م. ولكن في سنة ٢٢٤ ب. م تغلب أردشير، حفيد ساسان، على البارثيين وأوجد إمبراطورية فارسية ساسانية جديدة. وجدد هذا الهجوم على روما. وفي سنة ٢٦٠ ب.م وقع الإمبراطور فاليريان نفسه في أيدي الفرس. وعقد جستيان معاهدة صلح مدتها خمسون سنة مع بلاد فارس، ويدين كسرى الثاني بمكانه على سُدّة العرش الفارسي بصورة جزئية إلى صداقته مع الإمبراطور البيزنطي موريس. بدأ كسرى يحكم سنة ٥٩١. بيد أن موريس مات سنة ٦٠٢ وغزا كسرى سوريا. وعندما احتل قائده شَهْرَبارز دمشق سنة ٦١٣ عزل فلسطين، وفي سنة ٦١٤ زحف نحو القدس. وكان كسرى صديقاً للسامريين واليهود الذين اضطهدهم أباطرة الرومان. وقد رغب بعض المسيحيين في القدس في التعامل معه، وأجدر هؤلاء بالذكر البطريرك زخريا. ولكن لم يسح له بأن يفاتح كسرى. وقد أدى قتال بين الشبان المسيحيين واليهود إلى تعكير السلام. وبدأ الفرس لذلك في محاصرة القدس، ودخلوا المدينة بعد أربعين يوماً وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها وأحرقوا الكنائس[١]. وأخذ عدد كبير من الأسرى المسيحيين إلى بركة ماملا ويبعوا عبيداً أو ماتوا هناك. وعندما أحصى عدد الموتى كان هناك منهم ٣٣.٨٧٧[٢]. أما الأسرى الذين كانت فيهم فائدة محتملة للفرس فقد أخذوا إلى ستيسفون (المدائن) عاصمتهم، وذهب معهم البطريرك زكريا حاملاً معه البقية التذكارية للصليب من القبر المقدس.

وتركت المدينة تحت سيطرة اليهود بينما واصل الجيش الفارسي سيره. ولكن الفرس أدركوا بعدئذٍ ضعف اليهود في البلاد جميعها. وهكذا أخذوا زمام السيطرة في القدس من أيدي اليهود وطردوهم من المدينة بالقوة، وسمحوا بإعادة ترميم

---

(١) Sebeos, Histaire d'Herclius, (tr. F Macler, Paris, 11904) 24, 64- 70.

(٢) (Strategius, Capture of Jersalem, 9. 5- 6 (ed. And tr. G Garitte, CSCO 203, 16).

الكنائس. وفي سنة ٦٢٨ قام الإمبراطور هرقل بعد حملات عسكرية طويلة بهجوم معاكس ووصل إلى ستيسفون. وجاءت الأنباء بموت كسرى. ولم يكن الجيش الروماني موضع ترحيب على الإطلاق قرب العاصمة الفارسية عندما كان هؤلاء الذين كان من المحتمل أن يرثوا مُلْك فارس يبدأون منافساتهم. ولذلك فإن هرقل نجح في تأمين عودة الولايات البيزنطية التي كان الفرس قد غزوها، وإطلاق سراح الأسرى. وفي سنة ٦٢٩ أعاد الصليب التذكاري إلى القدس.

بينما كان الجيشان الروماني والفارسي يواجهان بعضهما بعضاً ظهر تهديدٌ جديد لكليهما في شبه الجزيرة العربية. وقد دعا هذا الخطر الجيش الإمبراطوري النزول إلى مؤتة على بعد ستة أميال جنوب الكرم. وهزم ثلاثة من القادة كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسلهم. ولم ينجح سوى القائد الذي عينه الجيش بعد قتل الثلاثة، خالد بن الوليد. وبعد ذلك بخمس سنوات عاد المسلمون ووصلوا إلى ضواحي غزة. واتجهوا شمالاً وحاربوا القوات الإمبراطورية عند أجنادين، على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من القدس. وهُزمت القوات الرومانية، وخشي الناس في المدن بقية ذلك العام الخروج من الأسوار خوفاً من تعرضهم للهجوم. بل إنه تعذر على صفرونيوس بطريرك القدس أن يسافر مسافة قصيرة إلى بيت لحم في يوم عيد الميلاد(١).. وحلت هزيمة أخرى بالجيش الروماني عند اليرموك سنة ٦٣٦ وانسحب الجيش أخيراً من سوريا.

وبقيت القدس سليمةً. وظل الأمل يخالج بعض سكانها في عودة الجيش الروماني. وحاصر العرب المدينة سنة ٦٣٧ ولكنهم ترددوا في تشديد الوطأة عليها لأنهم لم يكونوا على إلمام باقتصاد سورية ورغبوا في أن تظل ثروتها بإدارة الناس الذين أداروها من قبل. وفي سنة ٦٣٧ تلقى الخليفة عمر رضي الله عنه رسالة بأن إيليا

---

(١) Sophronius, Orat. 1, On the Birthday of Christ (ed. H Usener, Kleine Schriften 4, Leipzig, 913, 173, 175).

سوف تستسلم ولكن له شخصياً دون سواه، ولذلك فقد انطلق من الجابية قرب بحيرة طبريا، ليتسلم المدينة وشيكاً من البطريرك، وليضمن بالمقابل سلامتها.

القدس والمسيحية

القدس: وظهور المسيحية في ظل الحكم الروماني ٣٢٤- ٦٣٧م:

كان لظهور المسيحية[١]، وانتشارها في ظل الحكم الروماني آثاراً بعيدة على مدينة القدس. فقد ترتب على ظهورها آثاراً سلبية، وإيجابية على مدينة القدس. من الآثار السلبية تمثلت بتخريب بيت المقدس على أيدي الرومان فقد كان هؤلاء ينظرون - حتى القرن الأول للميلاد - إلى المسيحية، وكأنها مذهب يهودي، أو بدعة يهودية غامضة. وقد ترتبت نتيجة ذلك ما لحق بالقدس من دمار، ودمار، وتخريب، وما أصاب اليهود من قتل، وسبي وتشريد، كما حدث على يدي «طيطوس» ٧٠م، وعلى يد «هادريان» ١٣٢- ١٣٤م.

أما الآثار الإيجابية، فقد كان لظهور المسيحية وانتشارها آثاراً بناءة على مدينة القدس. فقد أصابها العمران والازدهار. خاصة في عهد الإمبراطور الروماني «قسطنطين» الأكبر في عام ٣٢٤م، الذي اعتنق المسيحية وكذلك ما أبدته هيلانة من اهتمام كبير تجاه مدينة القدس. وقد انتقل الملك «قسطنطين» من رومة إلى القسطنطينية.

وقد سميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع إمبراطور آخر

---

(١) المسيح "Christ"، كما في اللفظ العبراني «مشيح» بمعنى «الممسوح» أي الممسوح بالزيت، وهو لقب الملوك اليهود بالإشارة إلى أن ملكاً مسيحياً سيظهر بينهم ويعيد مملكة داود.
أما اسم «عيسى» "Jesus" فمأخوذ عن «عيسى» "Jehoshia" «يهوشع» العبراني أي يهوه خلاص، أو إنقاذ.
انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١، ص٣٦٢.

سنة ٣٠٦م، ثم أصبح إمبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤- ٣٢٧م. وكان تأسيسها في موقع بيزنطية القديم حيث تلتقي أوروبا بآسيا.

قبل أن يؤسس قسطنطين عاصمة جديدة للدولة اعترف بديانة رسمية جديدة، فلم يظهر التسامح للمسيحيين في مملكته فحسب بل منحهم عطفه أيضاً[١]... وكذلك حول القدس من مدينة رومانية ضئيلة إلى مدينة عظيمة الأهمية بسبب سياق مسيحيتها وكمزكزها للحجاج. وأهم أعماله هو العناية التي وجهت في عهده نحو مدينة القدس. فقد كانت (هيلانة) والدة قسطنطين مسيحية تقية. وقد قامت بزيارة إلى أورشليم حيث يروى أنها وجدت الصليب الحقيقي في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة. وفي ذلك المكان شيد قسطنطين كنيسة القيامة الأولى. وعملت الطقوس المتصلة بالأماكن المقدسة التي أدخلها الإمبراطور ووالدته على الإسراع في جعل سورية مسيحية. ويشير المسعودي في كتابه مروج الذهب، إلى أن هيلانة خرجت إلى أرض الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح، فلما صارت إليها حلتها بالذهب، والفضة، واتخذ عيد الصليب[٢].

أما مجير الدين الحنبلي فيذكر في كتابه الأنس الجليل أنه (لما جرى ما ذكر من تخريب «طيطوس» بيت المقدس، وما فعله في اليهود تراجع إلى العمارة قليلاً، وترمم شعثه، واستمر عامراً حتى سارت «هيلانة» أم قسطنطين المظفر إلى القدس، وابنها قسطنطين كان ملكاً في رومية، ثم انتقل منها إلى قسطنطينية، وبنى سورها، وتنصر،

---

(١) ويرجح أن تكون قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية من باب الأساطير، وتروي هذه القصة، أنه شاهد في السماء أثناء زحفه على رومة عام ٣١٢ صليباص متألقاً عليه كتابة يونانية تقول: «بهذا ستغلب». والذي نعلمه بالتأكيد هو أن قسطنطين استخدم اللواء الكبير وعليه إشارة الصليب "Labarum" كعلم إمبراطوري، وبواسطته تقدم نحو النصر على منافسه «ماكسنتيوس» "Mazentius". انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج١، ص٣٨٧.

(٢) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٣٥٠.

وكان اسمها البزنطية فسماها القسطنطينية»[1].

وزعمت النصارى أنه بعد ست سنين خلت من ملكه ظهر له من السماء شبه الصليب فأمر بالنصرانية. وكان قبل ذلك هو ومن تقدمه على دين الصابئة، يعبدون أصناماً على أسماء الكواكب السبعة[2]. وبعد إحدى عشرة سنة من ملكه سارت أمه هيلانة المتقدم ذكرها إلى القدس في طلب خشبة المسيح التي يزعم النصارى أن عيسى عليه السلام صلب عليها. ولما وصلت إلى القدس أخرجت خشبة الصليب، وأقامت لذلك «عيد الصليب». وبنت كنيسة «قمامة»[3]. على القبر الذي تزعم النصارى أن عيسى دفن فيه. وبنت المكان المقابل للقمامة المعروف «بالدركارة»، وكنيسة بيت لحم، والكنيسة بطور زيتا، بمصعد سيدنا عيسى عليه السلام، وكنيسة الجيسمانية التي بها قبر مريم عليها السلام وغير ذلك، وخربت هيكل بيت المقدس إلى الأرض وهو الذي كان في المسجد. وأمرت أن يلقى في موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريف مزبلة[4].

سياسة الأباطرة اتجاه اليهود:

كانت سياسة هدريان وقسطنطين سياسة عدائية لليهود. فلم يسمح لهم

---

(١) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص١٧٠.

(٢) انظر: نفسه، ج١ ص١٧٠.

(٣) وكنيسة قمامه، ببيت المقدس، ويقولون أن بها قبر المسيح عليه السلام.
انظر: العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح المقدسي، مصر، تحقيق محمد محمود صبح ص١١٨.

(٤) انظر نفسه، ج١، ص١٧١: قال المشرف عن كعب قال: كانت صخرة بيت المقدس طولها في السماء اثني عشر ميلاً، وكان أهل أريحا وعمواس يستظلون بظلها. وكان عليها ياقوتة تضيء بالليل كضوء الشمس، فإذا كان النهار طمس الله ضوءها، فلم تزل كذلك حتى أتت الروم فغلبوا عليها.

بالإقامة أو العيش في القدس. سوى الحج إلى الحائط الغربي للهيكل مرة في السنة (٩ آب) ودخول موقع الهيكل للبكاء على خرابه. في حين ازدهرت الكنائس في البيت المقدس وامتلأت المدينة بالرهبان والراهبات.

أما حكم يوليانوس: فقد شهد تشجيع كل الناس بالعودة إلى ديانتهم القديمة. ومنح اليهود حق العيش في القدس وفرصة إعادة بناء هيكلهم. وقد داخلت اليهود بعض الشكوك حول ذلك، خاصة وأنهم ينتظرون علامة إعادة بناء الهيكل هي عودة المسيح عليه السلام . ومع ذلك شرعوا في إعادة بناء الهيكل لكنه توقف بسب زلزال أصاب المدينة. إلى جانب وفاة الإمبراطور يوليانوس بعد شهرين من عملية البناء. وقد خلفه إمبراطور متعصب للمسيحية الأرثوذكسية فتم التخلي عن البناء. وحول عدد اليهود في القدس فإن عددهم قد قلّ كثيراً لأسباب منها: الحرب اليهودية الثانية وسياسة الأباطرة الرومان المعادية لليهودية. إلى جانب الاضطرابات الاقتصادية والسياسية التي سادت في القرن الثالث. والتي أدت إلى إنقاص عدد اليهود من الثلث إلى الخمس. إضافة إلى دور المجامع المسيحية والبطارقة في نظرتهم لليهودية كدين معادي للمسيحية. وفي مرحلة العهد الفارسي على القدس عهد كسرى والبطريرك زخريا سُمح بنوع من السلام مع اليهود. لكنه لم يستمر طويلاً بسبب قتال نَشب بين شبان مسيحيين ويهود. فدخل الفرس القدس بعد حصارها لمدة أربعين يوماً وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها وأحرقوا الكنائس وأخذوا عدداً كبيراً من المسيحيين كأسرى وكعبيد. وتركت المدينة تحت سيطرة اليهود. لكن ضعف هؤلاء اليهود في القدس وعدم قدرتهم على إدارة البلاد. أخذ الفرس زمام المبادرة من اليهود وطردوهم من المدينة بالقوة، لكن الإمبراطور هرقل استطاع بعد ذلك إرجاع الولايات البيزنطية التي احتلها الفرس إلى نفوذهم. وبذلك أصبحت القوة الرومانية أمام القوة الإسلامية التي استطاعت إعادة الحكم الإسلامي العربي للقدس.

نهاية صلة اليهود بفلسطين:

وعلى الرغم من المعاملة المميزة التي منحها الرومان لليهود كإعفائهم من عبادة الإمبراطور وخدمة الجيش وبقاء أحكامهم الدينية في يد محاكمهم الخاصة، فقد استمر الاحتكاك بين الطرفين مما أدى في النتيجة إلى ثورة اليهود عام ٦٦م، التي سحقت عام ٧٠م. عللا يد طيطوس الروماني بمساعدة الفرق العربية والسورية والآرامية الموضوعة تحت قيادته. ولكن اليهود ثاروا مرة أخرى بقيادة سمعان المدعو أيضاً بركوكب والذي ادعى أنه المسيح المنتظر. وتم القضاء على هذه الثورة على يد هدربان الذي نكل باليهود أشد تنكيل ومنعهم من دخول القدس والسكن فيها بل الدنو منها. والجدير بالذكر أن ثلاثة أرباع اليهود كانوا يسكنون خارج فلسطين قبل سقوط القدس بمدة طويلة «ولم يكن لجماهير اليهود المبعثرين في الإمبراطورية الإغريقية ثم في الإمبراطورية الرومانية إلا اهتمام ثانوي جداً بالمملكة اليهودية في فلسطين» وبثورة بركوكب انتهت صلة اليهود بفلسطين حتى القرن التاسع عشر وازداد تشتتهم في مختلف أقطار العالم في أوروبا وآسيا وإفريقيا.

وهكذا نجد أن اليهود لم يدخلوا فلسطين إلا في حقبة متأخرة من الزمن ولم يحكموا البلاد إلا مدة قصيرة نسبياً، ناهيك بأنهم لم يحكموا سوى أجزاء من فلسطين حتى في ذروة عزهم. ولقد تميزوا بالتعصب الشديد واستعداء الشعوب الأخرى التي كانت تقطن المنطقة. كذلك يلاحظ أنهم توزعوا في البحر الأبيض المتوسط في وقت مبكر سعياً وراء التجارة والرزق ولم يعد يربطهم بفلسطين سوى الحنين إلى جبل صهيون أي القدس. ومن هنا لخص هـ. ج ولز في كتابه «موجز التاريخ» تاريخ اليهود (العبرانيين) بما يلي:

«كانت حياة العبرانيين (في فلسطين) تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار. ومن البدء حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا ذلك

التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم».

اليهودية ليست عرقا:

من الخطأ النظر إلى اليهود على أنهم عرق أو جنس حتى قبل سقوط القدس. لقد رأينا كيف هوّدوا سكان الجليل بالقوة كما أنهم طردوا من روما عام ١٣٩ق. م لتهويدهم بعض السكان. وتابع اليهود عملية التهويد في العصور اللاحقة «وقد ساهمت عملية تهويد العبيد القسرية، واعتناق الخزر وشعوب أخرى لهذا الدين خلال التشتت الطويل» في جعل اليهود خليطاً عرقياً متنافراً ولم يكن ما اكتسبوه من خصائص مميزة كمجموعة إنسانية إلا بفعل الظروف الاجتماعية والوظيفة الاقتصادية لليهود عبر القرون. لقد ضاعت الوحدة العنصرية لليهود رغم الطابع التقوقعي والقبلي للديانة اليهودية، كما فقدوا اللغة المشتركة (العبرية) فأخذوا يتكلمون لغات ولهجات مختلفة حسب الموقع الجغرافي الذي يقطنونه. وتدل الدراسات الموضوعية العلمية المحضة على صحة ما ذهبنا إليه من أن اليهود الحاليين ليسوا عنصراً متجانساً، وبالتالي فإن الحنين الصهيوني إلى فلسطين، وحق اليهود في العودة إلى صهيون (القدس). إنما هو خرافة ووهم.

الفصل الرابع

القدس الإسلامية

قداستها في القرآن والسنة

القدس في الخلافة الراشدة

الخلافة الأموية

الخلافة العباسية



القدس الإسلامية ١٦هـ-٤٩٢هـ/ ٦٣٧-١٠٩٩م:

الفترة الإسلامية الأولى: (للقدس من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر تبدأ الفترة الأولى من تاريخ فتح القدس (١٦هـ/ ٦٣٧م) حتى احتلال الصليبيين للقدس عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م). وترجع أهمية القدس بالنسبة للمسلمين والعرب إلى اعتبارها من الأراضي المقدسة: لما ورد في ذكرها في نصوص القرآن والأحاديث النبوية والرسالات الثلاث السماوية، وارتباطها بحادثة الإسراء والمعراج. إلى جانب اعتمادها لمدة (١٥ أو ١٦) سنة قبلة للمسلمين قبل تحولها إلى الكعبة المشرفة. ثم اعتبار مسجدها (المسجد الأقصى) ثالث مسجد في الإسلام الذي تشد إليه الرحال. ثم أرضها ملتقى لأنبياء الله تعالى، كذلك اعتمادها ثالث المدن المقدسة في الإسلام.

هذا وقد اختلفت الروايات حول تاريخ فتح القدس وحول الشخصية التي تم استسلام القدس لها. أما سنوات الفتح فتتباين بين سنة ١٥هـ/ ٦٣٦، ١٦هـ/ ٦٣٧ أو ١٨هـ/ ٦٣٩م. والراجح أنها كانت سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م. وحول شخصية القائد الذي تسلم مفاتيح القدس فهي بين الخليفة عمر بن الخطاب على اعتبار أنه الخليفة لغرض إبراز أهمية المدينة وقدسيتها، أو ربما لأن من شروط الاستسلام كان حضور الخليفة بنفسه. والشخصية الأخرى هو أمين الأمة القائد (أبو عبيدة عامر بن الجراح) حيث جرى التسليم بوجوده وإشرافه، وبحضور الخليفة.

القدس الإسلامية ١٥هـ- ١٠٩٩م: تعود جذور التاريخ الإسلامي للقدس من خلال جذورها الدينية الممتدة من بناء الكعبة والمسجد الحرام، وتواصلاً مع تاريخ الأنبياء حتى عهد خاتم الأنبياء (محمد ﷺ) والفتح الإسلامي عام ١٦هـ وامتداداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتعود الجذور العربية للقدس من عهد الأموريين والكنعانيين واليبوسيين. وتواصلاً مع الفتح الإسلامي حتى نهاية الكون.

وقد أصّل هذه القداسة القرآن والأحاديث النبوية وكتب الرسالات السماوية. وعهد رسول الله ﷺ ثم الفتح الإسلامي للقدس.

الصلة الروحية في القرآن والحديث:

وردت إشارات عديدة في القرآن الكريم بخصوص مدينة القدس، منها آيات صريحة واضحة، ومنها ما تفسر بكونها تشير إلى بيت المقدس. وقد تعززت أهمية هذه المدينة لكونها تجمعاً للأنبياء (مدينة الأنبياء) ومركز الديانات السماوية، ومسجدها المسجد الثالث الذي تشد إليه الرحال وحرمها الحرم الثاني بعد المسجد الحرام.

ثالث المدن الإسلامية في نصوص القرآن: وقد رفع القرآن الكريم بآياته هذه مدينة القدس، وجعلها بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، فأصبحت بحق أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. إن الآية الصريحة التي أشار إليها في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ ﴿١﴾﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، آية (١). المسجد الأقصى: هو مسجد بيت المقدس.

الذي باركنا حوله: يعني بالأنهار، والأشجار، والأثمار عن ابن عباس في قوله: باركنا حوله، فلسطين، والأردن.

والأردن: هو نهر الشريعة المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. وقال أبو القاسم السهيلي: «باركنا حوله» يعني الشام، والشام بالسريانية: الطيب، وسميت بذلك لطيبها وخصبها. وقيل: «باركنا حوله» بمقابر الأنبياء، وفيه يحشر الناس يوم القيامة.

وسمي الأقصى: لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وقيل لبعده عن الأقذار والخبائث...

وروي: سمي الأقصى: لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص.

انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٥-٦.

والذي باركنا فيها: قيل بالماء، والشجر، والثمار، وقيل إن كل ماء عذب يخرج من أصل الصخرة التي في بيت المقدس.

انظر: برهان الدين الفزاري، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، مخطوطة بمكتبة=

وهكذا ربط القرآن الكريم بين المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد الأقصى في مدينة القدس. فكان بذلك أكبر واجب وحافز ودافع للمسلمين إلى تحريرها. ومن الآيات القرآنية الأخرى التي تفسر بكونها تشير على مدينة القدس أو بيت المقدس هي:

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون]. قال ابن عباس: هي بيت المقدس. ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق]. المنادي: هو إسرافيل (ع) ينادي من صخرة بيت المقدس بالحشر، وهي وسط الأرض. وروي أن المكان القريب هو صخرة بيت المقدس. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴿٣٦﴾﴾ [النور]. يعني: به بيت المقدس. وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد] يعني بين المؤمنين، والمنافقين، وهو حائط بين الجنة والنار.

وعن ابن العوام قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن بقوله: «فضرب بينهم بسور له باب» هو سور المقدس.

نصوص الأحاديث: أعار الرسول ﷺ أهمية كبرى لمدينة القدس... فقد رويت عنه أحاديث عديدة تشيد بمدينة القدس وعن فضائلها في مختلف نواحي الحياة الدينية والدنيوية. فضائلها في: الصوم والصلاة والحج والزكاة... كما تشيد ببركة هذه المدينة المقدسة ومدى غناها، وثروتها الطبيعية، وما فيها من أثمار وأشجار وينابيع ماء...).

فقد روى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت «قال رسول الله ﷺ، صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة، وتلك النخلة على نهر من أنهار الجنة»[1].

=الأوقاف، بغداد، تحت رقم ٣٨٠٩، ص٦ أ.

(١) انظر: الفزاري، باعث النفوس، مخطوطة، ص٦ ب.

ويروى عن أبي ذر، قال: قلت يا رسول الله أخبرنا عن بيت المقدس: قال: أرض المحشر والمنشر، آتوه فصلوا فيه، فإن الصلاة فيه كألف صلاة»[١]. وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله: من أهل وحج واعتمر من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اختار من المدائن أربعة: مكة وهي البلدة، والمدينة وهي النخلة، وبيت المقدس وهي الزيتونة، ودمشق وهي الينة»[٣]. وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[٤]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى في بيت المقدس غفرت ذنوبه كلها[٥].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس[٦].

ومن الأحاديث المهمة التي تروي عن الرسول ﷺ وهو يبشر المسلمين ببيت المقدس على أيديهم...). وعن معاذ قال: قال رسول الله: «يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم، وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة»[٧].

---

(١) انظر: نفسه، ص ٣ب.

(٢) انظر: نفسه، ص ٤ب.

(٣) انظر: نفسه، ص٨ب.

(٤) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأسس الجليل، ج١، ص٢٣٠- ٢٣١.

(٥) انظر: نفسه، ج١، ص٢٢٨- ٢٢٩.

(٦) انظر: نفسه، ج١، ص٢٣.

(٧) انظر: نفسه، ج١، ص٢٢٨.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال لشداد بن أوس: «إلا أن الشام ستفتح، وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله»(١). وعن عوف قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال لي: يا عوف اعدد ستاً(٢) بين يدي الساعة موتي، ثم فتح بيت المقدس»(٣). ولقد جعل الرسول ﷺ من مدينة القدس، وهو في مكة المكرمة جعلها قبلة المسلمين الأولى في الصلاة.

وقد ازدادت أهمية مدينة القدس الدينية في نظر المسلمين عندما وقع الحادث العظيم للرسول الأعظم وهو حادث «الإسراء والمعراج»، وذلك قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنوات(٤). ففي هذه الفترة كان الإسراء والمعراج.. وكان محمد ﷺ ليلة الإسراء في بيت ابنة عمه «هند» ابنة أبي طالب، وكنيتها «أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه»... وهذا هو الإسراء...). ثم حملته دابة عجيبة هي «البراق» له وجه المرأة، وأجنحة النسر، وذئب الطاووس إلى السماء السابعة، وهذا هو المعراج...

وكانت «المحطة في هذه الرحلة صخرة يعقوب في بيت المقدس... ومن هنا أصبحت مدينة القدس المقدسة حرماً عند المسلمين(٥)...

ويتجلى مدى تقديس المسلمين للصخرة، تلك الاضطرابات الخطيرة التي

---

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٢٤٤.

(٢) ثم إن الست المذكورة قد وقع بعضها. فموته ﷺ وفتح بيت القدس قد وجد، ووقع الطاعون وهم بالجابية، ثم استفاض المال في خلافة عثمان بن عفان وكانت الفتنة، وما وقع بين الناس بالشام والعراق وخراسان من الفرقة والمصيبة.
انظر: نفسه، ج١، ص٢٤٤.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٢٤٤.

(٤) ويرى البعض أن حادث الإسراء والمعراج كان قبل سنة من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

(٥) انظر: ف. حتي، المفصل في تاريخ العرب، ج١، ص٩، وهيكل، حياة محمد، ص١٥٧-١٦٠.

وقعت في آب ١٩٢٩م في فلسطين بشأن حائط المبكى في بيت المقدس، وهو الذي يعتبره المسلمون الصخرة التي ربط إليها محمد ﷺ البراق قبل تعرجه إلى السماء...).

لقد بقيت مدينة القدس قبلة المسلمين الأولى إلى ما بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة[١]. وفي السنة الثانية من الهجرة تحولت قبلة المسلمين إلى الكعبة المشرفة...

يذكر الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك: «كان المسلمون يصلون نحو بيت المقدس، ورسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة. وبعدما هاجر رسول الله إلى المدينة صلى نحو بيت المقدس، ثم تحولت إلى الكعبة، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة، في شهر شعبان على رأس ثمانية عشر، أو ستة عشر من مهاجره. وكان الرسول إذا صلى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمره وكان يصلي قبل بيت المقدس، فنسختها الكعبة»[٢].

فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة]. وبهذا فقد حققت حادثة الإسراء دلالات عظيمة في تاريخ الإسلام عامة وتاريخ القدس خاصة منها: **أولاً**: المعجزة أمدت رسول الله ﷺ بالثقة وعززت في نفسه قوة الإيمان والاستمرار في الرسالة.

---

(١) يذكر الأصفهاني – في كتابه الفتح القسي في الفتح المقدسي. في وصف بيت المقدس فيقول: وهو أولى القبلتين: (يقصد القبلة الأولى للمسلمين، والقبلة الثانية وهي تجاه الكعبة بمكة) استمرت قبلة بيت المقدس مدة ١٣ سنة و١٦ شهر.

وثاني البيتين: (أي البيت المقدس والبيت الحرام بمكة) والمسجد الأقصى بالقدس.

وهو أحد المساجد الثلاثة (أي المسجد الحرام بمكة، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة، والمسجد الأقصى)... ص١٢٢-١٢٣.

(٢) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة بيروت، ج٢، ص٢٦٥.

ثانياً: شاءت قدرة الله تعالى أن تكون فلسطين خط الدفاع الأول عن الإسلام وبلاد المسلمين. فبعث فيها الأنبياء. وأتم قدسيتها بالإسلام وقبل الإسلام الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء] حيث تم الربط بين بيت المقدس ومكة وجعلها ثالث مدينة في الإسلام بعد مكة والمدينة.

ثالثاً: أخبر رسول الله ﷺ بفتح القدس نظرياً قبل الفتح العملي للحديث الذي نقله معاذ عن رسول الله ﷺ. وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو جهاد إلى يوم القيامة[١].

وقد بلغ تقديس المسلمين للمسجد الأقصى درجة عظيمة جعلهم يفكرون في نقل جثمان الرسول الكريم بعد وفاته بجانب المسجد الأقصى. هكذا كانت القدس تستمتع بمكانة سامية بشر رسول الله بضمها لبلاد الإسلام. وجهز لذلك حملتين (غزوتين) كانتا أول اتجاه لضم القدس (مؤتة وتبوك).

صلة الفتح الإسلامي: شرع الرسول الكريم في التمهيد لتطهير بيت المقدس وتأمين ظهر ديار الإسلام، فبعث في جمادى الأول سنة ثماني هجرية أول قوة إسلامية إلى بلاد الشام. ورتب عليه الصلاة والسلام على رأس تلك القوة زيد بن حارثة، وإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. وسارت القوة الإسلامية الأولى وعددها لا يزيد على ثلاثة آلاف للاحتكاك بقوات الروم التي تسيطر على بلاد الشام، ومن جملتها شرقي الأردن وفلسطين (غزوة مؤتة) [٢] والتي تمثل أول مسيرة الفداء الأولى للاشتباك بجيوش الروم. ومن أعظم أحداث التاريخ

(١) المقدسات الإسلامية في فلسطين، القاهرة ١٩٥٠، الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص١٤٦- ١٤٧.

الحربي الإسلامي، ذلك لأن تلك القوة الإسلامية الصغيرة كانت أول عمل حربي للمسلمين خارج الجزيرة العربية، أكدت حقيقة القوة الكافية في الإسلام تلك القوة التي تدفع المسلم إلى الفداء والاستشهاد في سبيل الله. فحينما وصلت قوات زيد بن حارثة إلى معان (جنوب الأردن اليوم) علم المسلمون أن هرقل قد حشد في مؤاب من أرض كنعان مائة ألف من الروم وانضمّ إليهم مثل هذا العدد من قبائل العرب. فأقام المسلمون في معان ليلتين يفكرون في الأمر، واقترح بعضهم أن يكتبوا للرسول ﷺ يطلبون النجدة وأوامر جديدة فانبرى عبد الله بن رواحة يشجع الناس قائلاً: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقابل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة».

وتشجع المسلمون وزحفوا نحو الشمال حتى قابلتهم جموع الروم في مؤتة بالقرب من مدينة الكرك، ودارت رحى معركة فدائية غير متكافئة. فقاتل زيد بن حارثة براية الرسول ﷺ حتى قتل. ثم تسلم الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قطعت يمينه، فحمل الراية بشماله، فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل ثم تسلم الراية عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل. ثم رأى المسلمون أن يتسلم خالد بن الوليد الراية، فنفذ خطة حكيمة للانسحاب، وأنقذ قوات المسلمين من هزيمة محققة وفناء أكيد وعاد خالد بالجيش بعد أن حقق الهدف الرئيسي من بعثه. وحينما دنت القوة من حول المدينة قابلهم الرسول الكريم وجمع المسلمين. وهنا تقع العبرة الخالدة على قوة الروح المعنوية عند المسلمين الذين أخذوا يحثون التراب عن الجيش قائلين: يا فرّار، فررتم في سبيل الله! ويرد الرسول ﷺ قائلاً: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى. فأي إيمان أقوى من ذلك الإيمان وأية شجاعة أعظم من تلك الشجاعة، جيش يعود ناقصاً نخبة من صحابة رسول الله ﷺ، فلا يؤثر في نفوس ذويهم وعشيرتهم، بل يسارعون إلى التنديد بالقوة المنسحبة آخذين عليها أنها لم تقاتل حتى آخر نسمة فيها.

ولقد كانت تلك الموقعة الصغيرة في مؤتة محكاً امتحنت فيه الروح المعنوية لدى المسلمين، وأثبتت استعدادهم للتضحية والفداء في سبيل الله وهما الركن الأساسي في البناء الحربي الإسلامي الخالد، الذي شيده المسلمون خارج الجزيرة العربية. وكانت موقعة مؤتة من عوامل إصرار الرسول الكريم على تأمين حدود ديار الإسلام وتطهيرها من الأعداء المتربصين بالإسلام. إن هذه الغزوة، وإن لم تحقق نجاحاً عسكرياً ميدانياً، لكنها تركت وازعاً عميقاً في نفوس المسلمين، حفزتهم إلى أهمية بلاد الشام والقدس بصورة خاصة.

غزوة تبوك ٩هـ/ ٦٣١م[١]:

يذكر الطبري: أن الرسول ﷺ بعد منصرفه من الطائف، أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم. ففي السنة التاسعة للهجرة اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين، فخرج إليهم الرسول ﷺ بجيشه حتى ترك «تبوك» على حدود الشام وأقام بها، فصالحه أهلها، ثم جاءته وفود القبائل مسلمة. وأرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل ففتحها، وعاد الرسول ﷺ بعد ذلك إلى المدينة.

والملاحظ من هذه الغزوة، أنها قد لاقت نجاحاً عسكرياً ودينياً، كما وسعت رقعة الحدود الإسلامية، وامتدت نحو الحدود الشامية. وأن الحامية الإسلامية التي أقيمت في تبوك، كانت على استعداد لقتال الروم، والزحف نحو فلسطين ومدينة القدس بصورة خاصة[٢]. وقد تحقق ذلك فعلاً على يد الخليفة الثاني عمر بن

(١) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص١٤٦- ١٤٧.

(٢) وبعد غزوة تبوك، تلتها فتح مواطن أخرى، وكان أول هذه المواطن «إيلة» الواقعة في رأس خليج العقبة، وسكانها من النصارى، تليها مقنا الواقعة بين البتراء ومعان ثم الجرباء على مسيرة ساعة من أذرح شمالاً على الطريق الروماني القديم بين بصرى والبحر الأحمر، إن هذه الأماكن كانت المواطن الوحيدة في سورية التي اتصل بها الإسلام في غضون حياة النبي.

إن حملات الرسول ﷺ على هذه المواطن كانت بمثابة قواعد أساسية، ومراكز استراتيجية، للسير قدماً نحو المسجد الأقصى، نحو بيت المقدس الذي حققه خلفاءه من بعده...

الخطاب رضي الله عنه.

كذلك وجدت هناك آثار أخرى تنسب إلى الصحابة والتابعين عكست التعظيم المتزايد لبيت المقدس.

هكذا كانت القدس تتمتع بمكانة سامية رفيعة في نظر المسلمين، عززتها الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة إلى جانب اعتماد الرسول ﷺ غزوتين (مؤتة ٨هـ، وتبوك ٩هـ) كانتا الأساس الأول، والإعداد للمستقبل نحو ضم القدس إلى البلاد الإسلامية. وعززها رسول الله فعلاً في إعداد بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. ثم تابع الصحابة والخلفاء هذه النظرة لبلاد المقدس قولاً وعملاً.

الخلفاء الراشدون والقدس

أراد الرسول ﷺ قبيل وفاته، بعث أسامة بن زيد بن حارثة على راس جيش إلى حدود الشام، ولكن وفاته ﷺ حالت دون ذلك. وقد صمم الخليفة الأول «أبو بكر الصديق» على بعث أسامة بن زيد، بالرغم من معارضة بعض المسلمين لأنها وصية الرسول. وكان غرض هذه الحملة أيضاً بلاد الشام وفلسطين. كذلك بعث أبو بكر الصديق الجيوش الإسلامية نحو هذه الأراضي المقدسة على رأس أشهر القواد المسلمين، أمثال خالد بن الوليد، وعبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان.

يذكر البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: كانت أول واقعة واقعها المسلمون «الروم» في خلافة أبي بكر الصديق، أرض فلسطين، وعلى الناس عمرو بن العاص، ثم إن عمرو بن العاص فتح «غزة» في خلافة أبي بكر، ثم فتح «سبسطية» و«نابلس»...، على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم، وأموالهم، ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم، والخراج على أرضهم، ثم فتح مدينة «لد» وأرضها، ثم فتح «عمواس» و«بيت جبرين» وفتح «يافا» وفتح عمرو «رفح». وقدم عليه أبو عبيدة

بعد أن فتح «قنسرين» ونواحيها، وكان فتحها في سنة ست عشرة. وكان محاصراً «إيلياء» مدينة القدس[1]...

ويعني هذا أن الجيوش الإسلامية في خلافة أبي بكر الصديق قد مهدت الطريق للزحف نحو بيت المقدس حتى تحقق ذلك في خلافة عمر بن الخطاب. وعندما قربت جيوش المسلمين من بيت المقدس: «طار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من به رعبا، وطاشت، وخففت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام...» [2]. كان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد، وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت[3]. ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقدس أربعة اشهر كاملة، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالاً شديداً، والمسلمون صابرون على البرد، والثلج والمطر[4].

ولما حاصر أبو عبيدة «أهل إيليا» أوجب على نفسه أنه غير مقلع عنهم، ولم يجدوا لهم طاقة بحربيه، قالوا: نصالحك على مثل ما وصلح عليه مدن الشام من أداء الجزية والخراج، والدخول فيما دخل فيه نظرائهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه... فقبل أبو عبيدة ذلك[5]. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب: «بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنا أقمنا على أهل إيليا فظنوا أن لهم في مطاولتهم فرجاً فلم يزدهم الله بهذا إلا ضيقاً ونقصاً وهزالاً وذلاً، فلما رأوا ذلك سألوا أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو الموثوق لهم، والكاتب. فخشينا

(١) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، مصر، ١٩٥٩، ص١٤٤- ١٤٥.

(٢) انظر: نفسه، ج١، ص١٥٧.

(٣) انظر: الواقدي، فتوح الشام، ج١، مصر ١٩٣٤، ص١٥٦.

(٤) انظر: نفسه، ج١، ص١٥٧.

(٥) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٤- ١٤٥، ومجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٤٩.

أن يقدم أمير المؤمنين فيغدر القوم ويرجعوا فيكون مسيرك - أصلحك الله - عناء وفضلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم ليقبلهن وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة، ففعلوا. فإن رأيت أن تقدم فافعل، فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً. أتاك الله رشدك ويسر أمرك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1]...).

ودعا عمر بر ؤساء المسلمين إليه، وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة: فقال عثمان بن عفان: «أن الله قد أذل الروم، وأخرجهم من الشام، ونصر المسلمين عليهم، وقد حاصر أصحابنا مدينة (إيليا) وضيقوا عليهم... فإن أنت أقمت، ولم تسر إليهم، رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر، فلا يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية[2].

وقال علي بن طالب: «عندي غير هذا الرأي، وأنا أبديه لك: فقال عمر وما هو يا أبا الحسن: قال: «إن القوم قد سألوك، وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمون جهد عظيم من البرد والقتال، وطول المقام، وإني أرى أنك إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك[3]...» ولما قدم عمر بن الخطاب بيت المقدس نزل على الجبل الشرقي وهو «طورزيتا». وأتى رسول الله - بطريقها إليه[4] بالترحيب وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية، وأن يعطيه الأمان على دمائهم وأموالهم، وكنائسهم، فأنعم له عمر بذلك[5].

---

(١) انظر: الواقدي، فتوح الشام، ج١، ١٥٨، ومجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٤٩- ٢٥٠.

(٢) انظر: الواقدي، فتوح الشام، ج١، ١٥٨، ومجير الدين الحنبلي، ج١، ص٢٤٩- ٢٥٠.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص١٦٣.

(٤) البطريك هو الأمير، والبطرك هو الكاهن، وكان اسم البطرك يوم ذلك «صقريوس» وكان قد أخبر النصارى بفتح بيت المقدس على يد عمر. انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٥٥.

(٥) مجير الدين، ج١، ٢٥٥.

وقد سمى عهد عمر بن الخطاب لأهل إيليا «العهدة العمرية» وهذه نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها. لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود...

وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك كتب وحضر سنة ١٥هـ

خالد بن الوليد عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان عمر بن الخطاب

وعلى هذا الأمان والكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء الراشدين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. وشهد على هذا العهد الخليفة عمر بن الخطاب والصحابة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً[1].

---

(١) الطبري: ١، تاريخ الأمم والملوك ج٣/ ١٠٥.

جاء عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس يوم الاثنين، وأقام فيها بضعة أيام. وهذه الزيارة أحيطت بقصص نصرانية ويهودية، نُسبت إلى هذا الخليفة لخدمة مصالحهم ووجودهم في هذه المدينة منها: رفض عمر ﵁ الصلاة في كنيسة القيامة. أيضاً تضارب الروايات حول وجود شخصية (كعب الأحبار) ومناسبة وجوده ومرافقته للحرم. والأدلة حول ذلك وغيرها من الأمثلة[1]. وكل ذلك يدخل في قضية العلاقة بين المسلمين من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى، وكذلك حول قدسية القدس وحرمتها بالنسبة للأديان الثلاث.

الراجح في معظم الروايات أن القائد أبا عبيدة أرسل في طلب الخليفة عمر بن الخطاب لتسلم مفاتيح بيت المقدس من البطريرك «صفرونيوس». هذا وقد عثر عام ١٩٤٨ على كتاب يوناني مخطوط في دير المصلبة يذكر حادثة مجيء الخليفة عمر بن الخطاب لتسلم بيت المقدس من الروم المنهزمين.

وقد ترجم الأستاذ علي رشدي نص الكلام اليوناني فبدأ مطابقاً في كثير من الوجوه لنصوص التاريخ الأخرى التي أشارت إلى حادثة تسليم بيت المقدس، ومع أن هناك بعض الاختلاف في التفصيلات وعدم الدقة في بعضها إلا أنني أرى من الفائدة ذكر ما قاله الروم عن تلك الحادثة العظيمة.

«ولما اشتد حصار جيوش المسلمين لبيت المقدس ٦٣٦م، أطل البطريرك صفرونيوس على المحاصرين من فوق أسوار المدينة وقال لهم: إنا نريد أن نسلم لكن – بشرط أن يكون التسليم لأميركم. فقدموا له أمير الجيش فقال: لا، إنما نريد الأمير الأكبر، نريد أمير المؤمنين، فكتب أمير الجيش إلى عمر بن الخطاب يقول: إن القوم يريدون تسليم المدينة ولكنهم يشترطون أن يكون ذلك لديك شخصياً.

---

(١) انظر: الأزدي، ٢٥٩، المقدسي، ج٥/ ١٥٥، ابن أكثم، ج١، ٢٩٩- ٣٠٠، ابن البطريق، ج٢، ١٧- ١٨.

فخرج عمر من المدينة قاصداً ومعه راحلة واحدة وغلام، فلما صار في ظاهر المدينة قال لغلامه: نحن اثنان والراحلة واحدة، فإن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك، وإن ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتني، وإن ركبنا الاثنان قصمنا ظهرها، فلنقستم الطريق مثالثة. وأخذ عمر يركب مرحلة ويقود الراحلة مرحلة، والغلام يركب مرحلة ويقود مرحلة، وتمشي الراحلة أمامهما متخففة من حمل أحد مرحلة. وهكذا جبلاً مشرفاً على القدس صادف[1] أن كان ببلوغه قد انتهت مرحلة ركوبه، فكبر من فوق رحل الراحلة[2]. ولما فرغ من تكبيره قال لغلامه: «دورك اركب»، فقال الغلام: «يا أمير المؤمنين لا تنزلن ولا أركبن، فإنا مقبلون على على مدينة فيها مدنيّة وحضارة، وفيها الخيول المطهمة المسرجة والعربات المذهبة. فإن دخلنا على هذه الصورة – أنا راكب على الراحلة وأمير المؤمنين آخذ بمقودها – هزأوا بنا وسخروا من أمرنا، قد يؤثر ذلك على نصرنا». فقال عمر: «دورك... لو كان الدور دوري ما نزلت وما ركبت، أما الدور دورك فوالله لأنزلن ولتركبن». ونزل عمر وركب الغلام الراحلة وأخذ عمر يقودها. فلما بلغ سور القدس وجد نصاراها في استقباله خارج بابها المسمى بباب دمشق وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس، فلما رأوه آخذاً بمقود الراحلة وغلامه فوق راحلتها أكبروه وخروا له ساجدين. فأشاح الغلام عليهم بعصاه من فوق رحلها وصاح فيهم: «ويحكم ارفعوا رؤوسكم فإنه لا ينبغي السجود إلا لله». فلما رفعوا رؤوسهم انتحى البطريرك صفرونيوس ناحية وبكى. فتأثر عمر واقبل عليه يطيب خاطره ويواسيه قائلاً: «لا تحزن هون عليك فالدنيا دواليك يوم لك ويوم عليك». فقال صفرونيوس: أظننتني لضياع الملك بكيت...؟ والله ما لهذا بكيت، إنما يكبت لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية ترق ولا تنقطع... فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين تمر ثم تنقرض

---

(١) لم يذكر الكتاب مرور الخليفة بالجابية حيث استقبله قادة المسلمين.

(٢) وسمي ذلك الجبل من يومئذ بجبل المكبر.

مع السنين.

وخطب عمر في تلك الجموع الحاشدة مستهلاً خطبته بقوله: يا أهل إيلياء لكم ما لنا وعليكم ما علينا. ثم دعاه البطريرك صفرونيوس لتفقد كنيسة القبر المقدس «كنيسة القيامة» فلبى دعوته، وأدركته الصلاة وهو فيها فالتفت إلى البطريريك وقال له أين أصلي... فقال: «مكانك صلّ...» فقال: «ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون هنا صلى عمر ويبنون عليه مسجداً. وابتعد عنها رمية حجر وفرش عباءته وصلى. وجاء المسلمون من بعده وبنوا على مصلاّه مسجداً وهو قائم على رمية حجر من كنيسة القيامة إلى يومنا هذا».

ثم سأل البطريرك صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى فدله على عمود داود وكرسي سليمان «حيث كان المسجد الأقصى» فوجده مغموراً بالقمامة فأخذ يرفعها من مكان المسجد ويلقيها في الأودية، واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهروه تطهيراً... ثم بنى عليه مسجداً»[١]. ويذكر الواقدي في فتوح الشام أن المدة التي أقام بها عمر بن الخطاب في بيت المقدس كانت عشرة أيام[٢].

وقد قام عمر بن الخطاب بإصلاحات واسعة وجذرية في مدينة القدس، فأضفى عليها من البهاء والجمال، والقدسية، ما جعلها أن تكون بحق بيت الله المقدس إلى جانب أختها الكعبة المشرفة، وبهذا أنقذ عمر بن الخطاب هذه المدينة من براثن اليهود والروم وغيرهم الذين لطخوها بالفساد والخراب. ويذكر لنا صاحب كتاب الفتح القسي في الفتح المقدسي، ما قام به عمر من إصلاحات، وما أظهره من الحسنات وما محى من السيئات فيقول: «نصب المنبر، وأظهر المحراب المطهر، ونقض ما أحدثوه (الروم) بين البواري (مخازن للغلال) وفرشوا البسيطة بالبسط الرفيعة.. عرض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل، وحق الحق، وبطلت

---

(١) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ١٤٥، ومجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٥٣.

(٢) انظر: الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٦٣.

الأباطيل، وتلي الفرقان، وعزل الإنجيل وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات وأديت الدعوات، وتجلت البركات وانجلت الكربات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس وحضر المؤذنون، وغلب القسوس»[١].

وعلى أية حال فإن زيارة عمر رضي الله عنه للقدس، جعلت لهذه المدينة قدسية خاصة عند المسلمين، حيث اعتبرت ثالث مدينة إسلامية بعد مكة والمدينة قصد عمر الحرم ونظف الأرض حول الصخرة. وصلى في مكان قريب منها «مسجد عمر» وعين موضع الحرم وخط المحراب وأقام أول مسجد في زمانه، وعين عبادة بن الصامت قاضياً ومعلماً للقدس مثل مراكز الأمصار فقط. كذلك أشارت الروايات إلى عدد من الصحابة الكثر الذين زاروا القدس وتوفي بعضهم فيها[٢].

هذا وقد اختلفت الروايات حول فتح بيت المقدس، من حيث تأريخ الفتح، وحول شخصية الذي تسلم مفاتيح بيت المقدس، وحول شروط الصلح. إن هذا الأمر فيه دلالات تبين أهمية هذه المدينة وخصوصيتها عن باقي فتح مدن الشام عامة وفلسطين خاصة. أما تأريخ فتح بيت المقدس فكان بين سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، ١٦هـ/ ٦٣٧م، ١٧هـ/ ٦٣٨، أو ١٨هـ/ ٦٣٩م. لكن الراجح في ذلك هو سنة ١٦هـ/ ٦٣٧[٣].

كذلك اختلفت الروايات حول شخصية من تسلم القدس بين ابو عبيدة

---

(١) انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح المقدسي، ص١٢٧.

(٢) انظر: الأزدي، فتوح، ص٢٥٩، المطهر المقدس: البدء ٥/ ١٨٥، ٤/ ٨٧، الحميري: الروض المعطار ص٦٩، السيوطي: إتحاف الأخص ج١/ ٢٣٨- ٢٤٠، ابن البطريق ج٢/ ١٨، ابن حجر: الإصابة ج٢/ ١٦، ابن عبد البر: الإصابة ٤٤١- ٤٤٢، أبو زرعة: ٥٩٣، ٦٩٠، ابن عساكر: تاريخ ج١/ ٣١٦- ٣١٧.

(٣) انظر: الطبري ج١/ ٢٤٠٣، ٢٥١١، ٢٥٢١. ابن سعد ج٤/ ٢٣١، خليفة بن خياط ج١/ ١٢٥، البلاذري: فتوح ١٣٨- ١٣٩، أبو زرعة: ١٢٠، ١٧٨، ابن عساكر ج٢/ ٥٥٣- ٥٥٤، اليعقوبي ج٢/ ١٤٦- ١٤٧.

وبين الخليفة عمر رضي الله عنه. وهل جُعل وجود الخليفة شرطاً لتسليم أو أن الصلح أنفذه الخليفة نفسه. نرى أن غالبية الروايات الإسلامية وغير الإسلامية ترى أن إجراء الصلح تم على يد قادة عمر لكن بحضور الخليفة وفي ذلك دلالة على أهمية هذه المدينة وقدسيتها[1].

أما اختلاف الروايات حول شروط صلح القدس وسياق الصلح وحولياته وسكن اليهود فيها. فأغلب الروايات تعطي لهذا الصلح خصوصية لها صلة بحرمة المدينة وكنائسها العظيمة والعلاقة بين المسلمين والنصارى ومن ذكر مساكنة اليهود لهذه المدينة[2].

وحول شروط الصلح وسياقه. جاء الاختلاف بين الروايات بذكر نصوص بعينها. وتوسع في ذكر السياق منها (لا تهدم الكنائس ولا يطرد الرهبان. والعهدة العمرية، وسياق صلح مدن الشام. وأشهرها العهدة العمرية[3].

أما حرمة بيت المقدس خاصة عند النصارى فيدل على تطور العلاقات بين المسلمين والنصارى، ابتداء من عهد عمر (العهدة العمرية) مروراً بعهد عمرو بن عبد العزيز، ثم هارون الرشيد إلى المتوكل إلى الفاطميين. تدل الوقائع على تطور هذا الصلح من خلال التعهدات التي قطعت للنصارى بحيث تضمنت شروطاً ليس لها

---

(١) انظر: الطبري: ج١/ ١٤١٣، ٢٣٩٧- ٢٤٠٢. البلاذري: فتوح ١٣٨- ١٣٩. وأبو زرعة: تاريخ ج١/ ١٧٦، ابن عساكر: تاريخ ج١/ ٥٥٣- ٥٥٤. الأزدي: فتوح ٢٤٢- ٢٩٥، ٢٤٧- ٢٥٢، المقدسي: البدء ج٥/ ١٨٥، اليعقوبي ج٢/ ١٦٠- ١٦١. ابن سعد ج١/ ٢٨٣.

(٢) انظر: الأزدي: فتوح ٢٥٠، البلاذري: ١٣٩، ابن الأعثم: فتوح ج١/ ٢٩١، الطبري: ج١/ ٢٤٠٤، اليعقوبي ج٢/ ١٦٧، ابن عساكر ج١/ ٥٦٣. الحميري: الروض المعطار ٦٩، ابن الجوزي: فضائل القدس ١٢٣- ١٢٤. استشفى اليهود.

(٣) ابن الجوزي: فضائل بيت المقدس ١٢٣- ١٢٤، كتاب البدء والتاريخ ج٥/ ١٨٥، مخطوط فضائل بيت المقدس، الشيخ الشرف بن المرجي ص٢٥٧، ابن عساكر: دمشق ج١/ ٥٦٣- ٥٦٨، الأنس الجليل: ج١/ ٢٥٣- ٢٥٤، ابن أعثم: فتوح ج١/ ١٩٦.

علاقة بنصوص الفتح الأولى. وقد اكتسبت فقهاً ووضعاً تنظيمياً تبعاً لأوضاع تالية[1]. وفي عهد الخليفة عثمان وقف (عين سلوان) على أهل المدينة، فكانت أول أوقاف الإسلامية في هذه المدينة[2].

وفي ظل الإسلام شهدت فلسطين عامة والقدس خاصة الانتعاش والازدهار فكثرت فيها المعاهد العلمية والدينية، وأنجبت العديد من العلماء والمفكرين ورجال الفقه والقضاة والقادة العظام، نذكر منهم القائد العربي العظيم موسى بن نصير فاتح الأندلس وسيد الإنشاء عبد الحميد الكاتب وزير الخليفة الأموي مروان بن محمد، والعالم الكيميائي العربي خالد بن يزيد الأموي، والملك شرف الدين الأيوبي المجاهد ضد جيوش الصليبيين، والمقدسي صاحب «فضائل بيت المقدس»، والإمام الشافعي صاحب المذهب المعروف.

أما قدسية القدس للمسيحيين العرب ففلسطين هي كعبتهم وقبلتهم، ففيها ولد المسيح وفيها عاش طول حياته ومنها انطلقت الديانة المسيحية. ولا شك بأن روابط المسيحيين الشرقيين بالقدس وبكنائس فلسطين له أعمق الأثر في تعلقهم بالأرض المقدسة وفي تعاطفهم مع الأمة العربية وحقها التاريخي في تقرير مصيرها وسيادتها على الوطن بأسره. كذلك تميزت معاملة العرب والمسلمين لليهود بالتسامح، فقد نظر الإسلام نظرة احترام للدين اليهودي واعتبر أنبياء اليهودية من رسل الله إذ ورد ذكرهم عشرات المرات في القرآن الذي أمر بمعاملة اليهود بالعدل والحسنى. وكان من جراء هذه النظرة المتسامحة أن ازدهرت أحوال اليهود في ظل الحكم العربي الإسلامي، فبرز منهم العلماء والكتاب والمترجمون والموسيقيون والماليون، كما كانت الديار الإسلامية ملجأ اليهود الأمين، يقصدونه كلما اشتدت

---

(١) انظر: الكندي: الولاة ٦٢، ابن عبد الحكم: سيرة عمر ١٦٧، ابن الأثير: ٦/ ٢٠٦، الطبري: ج٣/ ١٣٨٤، ١٤١٩، المفصل في تاريخ القدس ٩١- ٩٢.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٧١.

وطأة اضطهاد أوروبا لهم ولا سيما في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر، عندما لجأ يهود إسبانيا وغيرها هرباً من محاكم التفتيش إلى المغرب العربي حيث قوبلوا بالتسامح ولاقوا المعاملة الإنسانية الكريمة.

القدس في عهد الخلافة الأموية

نالت القدس في عهد الأمويين اهتماماً خاصاً لأسباب دينية وسياسية، زاد من قسديتها وحرمتها ومكانتها الإسلامية العظيمة. فأكثر من خليفة من الأمويين أخذت له البيعة في القدس. وتعاهد فيها معاوية وعمرو بن العاص في بيت المقدس. وفي وقت النزاع بين الحسن بن علي ومعاوية تلقى معاوية بيعة الشاميين في بيت المقدس عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م في مسجدها. وأكد معاوية حرمة بيت المقدس لقوله: «ما بين حائطي هذا المسجد أحب إلى الله تعالى من سائر الأرضين». ويبدو أنه توسع كذلك في تحديد وتوسيع الأرض المقدسة لتشمل بلاد الشام وسماها أرض المحشر. اعتماداً على رواية له عن خالد بن معدان (١٠٣/ ٧٢١) عن الرسول ﷺ قال: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من بلاده ويجتبي إليها خيرته من عباده». وفي مناسبة أخرى تحدث عن مجد الله في الأرض المقدسة التي جعلها الله تعالى (مواطن الأنبياء والصالحين من عباده وأسكن فيها أهل الشام)[١].

كذلك استمر في عهد الخلافة الأموية الزيارة والحج إلى بيت المقدس. ابتداءاً من عهدة معاوية. الذي زاد في عهده عدد العرب فيها. وزارها الناس من جنسيات مختلفة. واتسع نشاطها التجاري. واتسع مسجدها[٢].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ١٧١، ابن عساكر: تاريخ ٣١٦- ٣١٧، الطبري ج٢/ ١٥. مجهول: تاريخ الخلفاء ١٢١، المشرف الرجبي: فضائل ١٤٩، البلاذري: أنساب ٤/ قسم١/ ٣٢.

(٢) الوحدي: العرب والأرض في بلاد الشام (المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام عام ١٩٣٤/ ٢٥- ٩٦، الأزدي: فتوح ٢٥٩، ابن أعثم: ج١/ ٢٩٦.

المعروف أن معاوية عين والياً على بلاد الشام وفلسطين منذ خلافة عمر بن الخطاب، وبقي والياً عليها حتى وصوله إلى كرسي الخلافة. وقد نودي بمعاوية خليفة في إيليا (القدس) في أوائل سنة ٦٦١م: ٤٠هـ. ولكنه اختار أن يجعل مدينة دمشق عاصمة لخلافته. فقد كانت القدس أقرب إلى البدو والعرب من عاصمة الآراميين القديمة، والقاعدة الحديثة للحكومة البيزنطية الإقليمية. وكانت المدن الساحلية معرضة للهجوم البحري[١].

وهناك اختلاف بين كل من الطبري، والمسعودي حول السنة التي بويع بها معاوية في مدينة القدس. فيذكر الطبري: «وفي هذه السنة ٤٠هـ بويع لمعاوية بالخلافة «بإيلياء». وكان قبل ذلك يدعى بالشام أميراً، وكان علي رضي الله عنه يدعى بالعراق «أمير المؤمنين» فلما قتل علي رضي الله عنه دعي معاوية «أمير المؤمنين»[٢]. فيما يذكر المسعودي في مروج الذهب: «بويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين في «بيت المقدس»[٣]. وبالرغم من اختلاف هذين المؤرخين في تحديد السنة التي بويع بها معاوية بالخلافة، ولكنهما يتفقان في أن البيعة تمت في إيليا (القدس).

ومن هنا نلاحظ ما كان لمدينة القدس من أهمية سياسية بالإضافة إلى أهميتها الدينية. هذا فقد تابع الخلفاء الأموية سياسة تعظيم مدينة القدس. كما أن ولاة هذه المدينة في الغالب كانوا من الأمراء الأموية مثل: عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك. أو من بين أميز رجال الأموية وخاصيتهم مثل (عمر بن سعيد الأنصاري) على عهد معاوية، وابن مجدل الكلبي خال يزيد الأول على عهد يزيد بن معاوية[٤]. فمثلاً أخذ اثنان من الخلفاء المروانيين الأموية البيعة في بيت المقدس. وفي خلافة عبد الملك بن

---

(١) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية وفلسطين، ج٢، ص٣٥.

(٢) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦ ص٩٢.

(٣) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٣.

(٤) البلاذري: ١٦٤– ١٦٥، انساب رقم ٢٥٩، ٣٥٩.

مروان وصلت القدس أوج عزها وتقدمها، حيث ابتنى فيها «قبة الصخرة» و«المسجد الأقصى». ففي سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م ابتنى عبد الملك بن مروان في بيت المقدس «قبة الصخرة» الفخمة التي يسميها الفرنج – خطأ – مسجد عمر. وكان غرضه أن يحول إليها أفواج الزوار والحجاج عن منافسه مكة التي استقر فيها منافسه عبد الله بن الزبير[١].

ويظهر أن عبد الملك بن مروان قد بدأ في البناء في عام ست وستين للهجرة وقد فرغ من البناء في عام ٧٢- ٧٣هـ. فلما دخلت سنة ست وستين ابتدأ عبد الملك ببناء قبة الصخرة الشريفة، وعمارة المسجد الأقصى الشريف، وذلك لأنه منع الناس عن الحج لئلا يميلوا عن ابن الزبير، فضجوا فقصد أن يشغل الناس بعمارة هذا المسجد عن الحج. فكان ابن الزبير يشنع على عبد الملك[٢]. وهذا غير صحيح لأن نشأة الخليفة عبد الملك نشأة دينية. تتعارض مع هذا التوجه. لأن قطيعة الحج إلى مكة وليس إلى غيرها.

وكان من خبر البناء، أن عبد الملك بن مروان حين حضر إلى بيت المقدس، وأمر ببناء القبة على الصخرة الشريفة، بعث الكتب إلى جميع عماله، وإلى سائر الأمصار أن عبد الملك قد أراد أن يبني قبة على صخرة بيت المقدس تقي المسلمين من الحر والبرد، وأن يبني المسجد، وكره أن يفعل ذلك دون رأي رعيته، فلتكتب الرعية غليه برأيهم وما هم عليه... فوردت الكتب عليه من سائر عمال الأمصار: نرى راي أمير المؤمنين موافقاً رشيداً إن شاء الله يتم له ما نوى من بناء بيته، وصخرته، ومسجده، ويجري ذلك على يديه، ويجعله تذكرة له ولمن مضى من سلفه[٣].

يظهر من هذا النص، أن من الدوافع التي دعت بعبد الملك بن مروان إلى بناء

---

(١) انظر: ف. حتي، تاريخ العرب المطول، ج١، ص٢٨٦.

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٧٢.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٢٧٢.

قبة الصخرة، والمسجد الاقصى، لم يكن ليعزى فقط إلى دافع النزاع السياسي بينه وبين ابن الزبير، بل الدافع الديني هو الأول. إضافة لشعور عبد الملك برعاية المسلمين وحمايتهم من الحر والبرد، كما أن عبد الملك اعتمد في تحقيق هذا البناء على رأي الأمة والأمصار الإسلامية. وتحقيقاً لذلك جمع عبد الملك الصناع لعمله، وأرصد للعمارة، بالقبة الكائنة أمام الصخرة من الشرق بعد أن أمر ببنائها وهي من جهة الزيتون، وجعلها حاصلاً، وشحنها بالأموال ووكل على صرف المال في عمارة المسجد، والقبة، وما يحتاج إليه أبا المقدام، رجاء بن حيوة بن جود الكندي، وكان من العلماء الأعلام ومن جلساء عمر بن عبد العزيز. وضم إليه رجلاً يدعى يزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان من أهل بيت المقدس وولديه[1].

ويقال: إن عبد الملك وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصناع، فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة، التي هي شرقي قبة الصخرة التي يقال قبة السلسلة فأعجبه تكوينها وأمر ببنائها كهيئتها... وأمر رجاء ويزيد بالنفقة عليها والقيام بأمرها، وأن يفرغا المال إفراغاً دون أن ينفقاه إنفاقاً[2].

وأخذوا في البناء والعمارة عند القبة من شرقي المسجد إلى غربيه حتى أكملوا العمل، وفرغ البناء، ولم يبق لمتكلم فيه كلام.. وكان البناء الذي هو في صدر المسجد إلى غربيه من السور الذي عند مهد عيسى إلى المكان المعروف الآن بجامع المغاربة[3]...

وكتب رجاء ويزيد إلى عبد الملك بدمشق: - قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبة صخرة بيت المقدس، والمسجد الأقصى ولم يبق لمتكلم فيه كلام، وقد بقي مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم – مائة ألف دينار –

---

(١) انظر: مجير الدين بن الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٧٣.

(٢) انظر: نفسه، ج١ ص٢٧٣.

(٣) انظر: نفسه، ج١ ص٢٧٣.

فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب. فكتب إليهما أمير المؤمنين: - قد أمرت بها لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك، فكتبا إليه: نحن أولى أن نزيده من حلي نسائنا فضلاً عن أموالنا فاصرفها في أحب الأشياء إليك... فكتب إليهما بأن تسبك ذهباً وتفرغ على القبة والأبواب. فسكبت وفرغت عليها. فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب وهيأ لها جلالاً من لبود وأدم توضع من فوقها، فإذا كان الشتاء ألبستها لتكنها من الأمطار والرياح والثلوج[1]. وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة[2].

وبعد انتقال الخلافة إلى (المنتقم لله) الوليد بن عبد الملك انهدم شرقي المسجد، ولم يكن في بيت المال حاصل، فأمر بضرب ذلك، وإنفاقه على ما انهدم منه[3].

ولما ولي سليمان بن عبد الملك الأموي الخلافة بعد أخيه في سنة ست وتسعين من الهجرة، أتى بيت المقدس، وأتته الوفود بالبيعة فلم يزد وفادة كانت أهنئ من الوفادة إليه... فكان يجلس في قبة في صحن مسجد بيت المقدس مما يلي الصخرة ولعلها القبة المعروفة. بقبة سليمان عند الدويدارية، ويبسط البسط بين يدي قبته عليها النمارق، والكراسي، والوسائد، وإلى جانبه الأموال، وكتاب الدواوين. وقد هم بالإقامة ببيت المقدس، واتخذها منزلاً، وجمع الأموال والناس بها[4]...

ويظهر مدى اهتمام الأمويين في بيت المقدس، وتعلقهم العظيم في بناء المسجد الأقصى، وذلك ما قام به عبد الرحمن الداخل الذي هرب من ملاحقة العباسيين إلى الأندلس، فقد اسس عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م قبل وفاته بعامين

---

(١) انظر: نفسه، ج١ ص٢٧٥.
(٢) انظر: نفسه، ج١ ص٢٧٥.
(٣) انظر: نفسه، ج١ ص٢٣٧.
(٤) انظر: نفسه، ج١ ص٢٨١- ٢٨٢.

جامعه الكبير بقرطبة، مضارعاً به حرمي الإسلام الكبيرين في مكة وبيت المقدس. وقام خلفاءه بعده فوسعوا هذا الجامع، وأصبح قبلة أنظار المسلمين في المغرب[١].

في وصف قبة الصخرة والمسجد الأقصى:

وتتجلى الروعة والعظمة في بناء قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، بما وصل إلينا من أخبار الوصف، والتي سنوردها هنا، مستقاة من المصادر الأولية، وبعض المراجع الثانوية..

فالصخرة نفسها تقع تحت قبة المسجد مباشرة، وطولها من الشمال إلى الجنوب ١٧ متراً و(٧٠) سنتمتراً، وعرضها من الشرق إلى الغرب (١٣) متراً ونصف المتر، وارتفاعها عن الأرض يتراوح بين متر ومترين[٢]. ويتجلى في مسجد الصخرة، جمال الهندسة العربية، والذوق العربي. وقد أجمع المؤرخون على أنه من أجمل الأبنية على وجه البسيطة، كما وصفه بعضهم بأنه من أجمل الآثار التي خلدها التاريخ... وقد أقيم هذا البناء على طراز كاتدرائية بصرى، أما أبوابه البرونزية بصفائح فضية مزخرفة، فهي من أقدم ما بقي لنا من هذا النوع من الزخارف، وهو الفن الذي أتقنه الفنانون البيزنطيون وتميزوا به. ولقد أسرف الفنانون في تزيينه بالفسيفساء والرسوم الكاشانية عند بنائه في الأصل، وعند ترميمه أو تجديده، ويشتمل الطراز الكاشاني على الرصف بقطع البلاط المربعة أو المسدسة الصقيلة، وربما رسمت فيها صور نباتية أو أشكال هندسية[٣].

ويقدم لنا المقدسي في كتابه «أحسن التاقسيم في معرفة الأقاليم» وصفاً دقيقاً ورائعاً لقبة الصخرة، والمسجد الأقصى نقتبس منه ما يأتي: «وعلى الجملة لم أر في الإسلام، ولا سمعت في الشرك مثل هذه القبة... ويدخل إلى المسجد من ثلاث عشر

---

(١) انظر: ف. حتي، تاريخ العرب المطول، ج٢، ص٦٠٠.

(٢) انظر: كتاب الأردن، حقائق ومعلومات ١٩٦٢، ص٥٩.

(٣) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٣٠.

موضعاً بعشرين باب: باب النبي ﷺ، أبواب محراب الهاشميين، باب الوليد، باب إبراهيم، باب أم خالد، باب داود، وفيه من المشاهد، محراب مريم، زكريا، ويعقوب والخضر، ومقام النبي وجبرائيل، وموضع النحل، والنور، والكعبة، والصراط[1]...

وروى مجير الدين الحنبلي عن الحافظ بهاء الدين بن عساكر في تاريخ ابن عساكر وصفاً آخر يكاد يقترب من وصف المقدسي «أنه كان فيه في ذلك الوقت من الخشب المسقف سوى أعمدة خشب ستة آلاف خشبة، وفيه من الأبواب خمسون باباً. قال القرطبي: منها باب داود، وباب سليمان، وباب محمد ﷺ، وباب التوبة الذي تاب الله عز وجل على داود، وفيه باب الرحمة، وأبواب الأسباط ستة أبواب، وباب الوليد، وباب الهاشمي، وباب الخضر وباب السكينة»[2].

وكان فيه من العمد ستمائة عمود من رخام، وفيه من المحاريب سبعة، ومن السلاسل للقناديل أربعمائة سلسلة إلا خمسة عشر، منها مائتان سلسلة وثلاثون سلسلة في المسجد الأقصى، والباقي في قبة الصخرة الشريفة. وذرع السلاسل أربعة آلاف ذراع ووزنها أربعون ألف رطل بالشامي. وفيه من القناديل خمسة آلاف قنديل، وكان يسرج من القناديل ألفا شمعة في ليلة الجمعة، وفي ليلة النصف من رجب وشعبان ورمضان، وفي ليلتي العيدين... وفيه من القباب الرصاص سبعة آلاف سقفة وسبعمائة، ووزن السقفة رجلاً بالشامي، غير الذي على قبة الصخرة... وكان ذلك عمل في أيام عبد الملك بن مروان[3]. وفيه من الصهاريج أربعة وعشرون صهريجاً كباراً. وفيه من المنابر أربعة، ثلاثة منها صف واحد غربي المسجد وواحدة على باب الأسباط[4]...

---

(١) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٧٠.

(٢) انظر: ف. حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٣٠.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٢٨١.

(٤) انظر: نفسه، ج١، ص٢٨١.

وأما عن الخدم الذين كانوا يخدمون في المسجد كما يذكرهم ابن عساكر: ورتب له من الخدم القوام ثلثمائة خادم اشتريت له من خمس بيت المال، كلما مات منهم واحد قام مكانه ولده أو ولد ولده، أو من أهلهم، ويجري عليهم ذلك أبداً ما تناسلوا»[1].

وأما ما كان من الخدم اليهود والنصارى، فيذكر: وكان له من الخدم اليهود الذين لا يؤخذ منهم جزية عشرة رجال، وتوالدوا فصاروا عشرين، لكنس أوساخ المسجد الناشئ في المواسم والشتاء والصيف، ولكنس المظاهر التي حول الجامع. وله من الخدم النصارى عشرة أهل بيت يتوارثون خدمته لعمل الحصر، ولكنس حصر المسجد، وكنس القناة التي يجري فيه الماء إلى الصهاريج وكنس الصهاريج أيضاً وغير ذلك. وله من الخدم اليهود جماعة يعملون الزجاج، والقناديل، والأقداح، والثريات، وغير ذلك لا يؤخذ منهم جزية، عليهم وعلى أولادهم أبداً ما تناسلوا من عهد عبد الملك بن مروان وهلم جرا»[2].

وكانت تقام حفاوة بالغة لقبة الصخرة أثناء صلاة المسلمين فيها ليومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وكان ذلك من عهد عبد الملك بن مروان... «فكان رجاء بن حياة، ويزيد بن سلام قد حفا الصخرة بدرابزين ساسم، ومن خلف الدرابزين ستور الديباج، مرخاة بين العمد. وكان كل يوم اثنين وخميس يأمران بالزعفران، فيدق أو يطحن، ثم يعمل من الليل بالمسك، والعنبر، والماورد الجوري، ويخمر بالليل. يأمر الخدم بالغداة فيدخلون حمام سليمان يغتسلون ويتطهرون ثم يأتون إلى الخزانة التي فيها الخلوق، فيلفون أثوابهم عنهم،ثم يخرجون أثواباً جدداً من الخزانة مروية وهرويه، وشيئاً يقال له العصب، ومناطق محلاة يشدون بها أوساطهم... ثم يأخذون الخلوق ويأتون به إلى الصخرة فيلطخون ما قدروا أن تناله

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٢٨١.

(٢) انظر: نفسه، ج١، ص٢٨١.

أيديهم حتى يغمروه كله.. وما لا تناله أيديهم غسلوا أقدامهم، ثم يصعدون على الصخرة، حتى يلطخوا ما بقي منها. وتفرغ آنية الخلوق، ثم يأتون بمجامر الذهب والفضة، والعود القماري والند مطرى بالمسك، ويدورون حولها حتى يحول البخور بينهم وبين القبة من كثرته، ثم تشمر الستور، فيخرج البخور، ويفوح من كثرته، حتى يبلغ إلى رأس السوق، فيشم الريح من يسر من هناك وينقطع البخور من عندهم، ثم يناد مناد في وصف البزازين وغيرهم: إلا أن الصخرة قد فتحت للناس فمن أراد الصلاة فيها فليأت، فتقبل الناس مبادرين إلى الصلاة في الصخرة، فأكثر الناس من يدرك أن يصلي ركعتين، وأقلهم أربعاً، فمن يشم رائحته قال: هذا ممن دخل الصخرة، ثم تغسل آثار أقدامهم بالماء، وتمسح بالأس الأخضر، وتنشف بالمناديل، وتغلق الأبواب، وعلى كل باب عشرة من الحجبة، ولا تفتح إلا يوم الاثنين ويوم الخميس، ولا يدخلها في غيرها إلا الخدم[1].

وعن أبي بكر بن الحارث قال: كنت أسرجها في خلافة عبد الملك كلها باللبان المديني، والزئبق الرصاصي، قال: وكانت الحجبة يقولون له: يا أبا بكر مر لنا بقنديل ندهن به ونتطيب به، فكان يجيبهم إلى ذلك، وكان بها ذلك في أيام خلافة عبد الملك بن مروان كلها»[2].

قال الوليد: وحدثنا عبد الرحمن بن منصور بن ثابت قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده: كان في السلسلة التي في وسط القبة على الصخرة درة ثمينة. وقرنا كبش إبراهيم، وتاج كسرى، معلقات في أيام عبد الملك بن مروان، فلما صارت الخلافة إلى بني هاشم حولوها إلى الكعبة»[3].

من هذا الوصف الدقيق الرائع، يتجلى لنا مدى عناية الخلفاء الأمويين

---

(١) انظر: نفسه، ج١، ص٢٧٤.

(٢) انظر: نفسه، ج١، ص٢٧٤.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٢٧٥.

ورعايتهم لقبة الصخرة، والمسجد الأقصى... ومدى ما كانوا يغدقون عليها من أموال من بيت المال لتبقى محافظة على بنائها وجمالها ورونقها وخاصة في أوقات الصلاة...

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك. فقد تقبل البيعة في القدس حيث كان يجلس في صحن المسجد الأقصى مما يلي الصخرة ويتقبل التهاني. وعندما أراد الخليفة عمر بن عبد العزيز محاسبة بعض عمال سليمان، أمر أن يحملوا إلى بيت المقدس ويحلفوا عند الصخرة. كذلك كرر عدد من الخلفاء الأموية زيارتهم لبيت المقدس ابتداءاً من معاوية، عبد الملك، الوليد، سليمان، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك. كذلك تمتعت القدس في عهد الأموية بمركز خاص عن بقية المراكز الإدارية. حتى همّ بعض الخلفاء اتخاذها عاصمة أيضاً كان لبيت المقدس مكانة خاصة ووال خاص وقاض خاص يختلف عن بقية المدن الأخرى.

وقد زعم بعض المؤرخين محاولة الخليفة عبد الملك بعد إختطاطه لقبة الصخرة وصراعه مع ابن الزبير بجعل القدس مركزاً للحج بدل مكة، خاصة بعد صراعه مع ابن الزبير[١]. كذلك نشر الأمويون والشاميون الأحاديث والأخبار التي ترفع من شأن القدس لأسباب سياسية. كذلك أشار العباسيون والعلويون إلى بيت المقدس دعماً لقضاياهم، وقرنوا المهدي المنتظر بمدينة القدس[٢].

القدس في عهد الخلافة العباسية

تمتعت القدس في العهد العباسي بنفس الأهمية التي أولاها الخلفاء الراشدون

---

(١) الواسطي: ٨٧، ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٢/ ٤٧٤، البسوي ج٢/ ٣٧٠، اليعقوبي: تاريخ ج٢/ ٣١١.

(٢) انظر: الواسطي ٥٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٤/ ٣٨٦، ذكر أن تقبل روايات سود (عباسية) من قبل خراسان فلا يردهما شيء حتى تنصب بإيلياء تعظيماً لمدينة القدس.

والخلفاء الأموية، من حيث زيارات الخلفاء المتكررة لهذه المدينة والاهتمام بعمارتها ومساجدها وقبة الصخرة وإصلاح أسوارها وما تهدم منها. ثم ظهرت أهمية القدس من خلال السفارات لهذه المدينة. وزادت حولها الأحاديث والروايات الأدبية في فضلها عن باقي المدن. وزيارة التابعين وإقامة الصالحين ووفاتهم وفيها، وعلو مركزها عند العلماء والفقهاء وأصحاب المذاهب والفرق الإسلامية.

وألفت كثير من المؤلفات الأدبية والجغرافية التي أصلت حياتها الثقافية، إلى جانب إقامة المدارس المذهبية فيها وحلقات الدراسة في مسجدها، وقد زارها العديد من الرحالة.

لقد أبدى الخلفاء العباسيون اهتماماً كبيراً نحو مدينة القدس والحرم الشريف... وقد تجلى هذا الاهتمام الكبير بصورة خاصة في عهد الخليفة العباسي الثاني «أبو جعفر المنصور»... يذكر المسعودي في كتابه «مروج الذهب«أنه في سنة إحدى وأربعين ومائة، شخص المنصور إلى «بيت المقدس»، فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف»[1].. وهذا يظهر لنا ما كان لبيت المقدس من أهمية دينية في نظر الخلفاء العباسيين والمسلمين...

ولقد أظهر «أبو جعفر المنصور» أيضاً رعاية تامة للمسجد الأقصى. خاصة بعد أن أصاب هذا المسجد زلزالاً هدم بعض أقسامه، كما ذكر ذلك «المقدسي» في كتابه «أحسن التقاسيم» حيث يقول: «وكان المسجد الأقصى أحسن من «جامع دمشق»، ولكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس، - وكان ذلك في خلافة أبي جعفر المنصور – وقد طرحت هذه الزلزلة «المغطى» إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره... قيل له لا يفي برده إلى ما كان ببيت مال المسلمين... فكتب إلى أمراء الأطراف، وسائر القواد، أن يبني كل واحد منهم رواقاً، فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما

---

(١) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص٣٠٤.

كان[1]، وكان ذلك في سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م.

ومما يذكر عن أبي جعفر المنصور أيضاً في إجراء بعض التغييرات في المسجد الأقصى أنه كانت أبواب المسجد في زمن الأمويين ملبسة بصفائح الذهب، والفضة، ولكن أبا جعفر المنصور أمر بقلعها، وصرفها دنانير تنفق على المسجد[2]. ولقد كانت مدينة القدس محل اهتمام الخليفة العباسي المهدي... فقد كان من سياسته ترضية سكان الأمصار الإسلامية، ومن بينها بلاد الشام.. وفلسطين، فقام بزيارة إلى دمشق، وبيت المقدس، وحاولت تسوية الخلاف بين القبائل العربية في بادية الشام، وفرق المال بينهم[3].

وفي خلافة المهدي أيضاً، كانت الرجفة الثانية (أي الزلزلة) فوقع البناء الذي كان أمر به أبو جعفر المنصور. ثم قدم المهدي من بعده وهو خراب، فرفع إليه فأمر ببنائه وقال: «رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله، وزيدوا من عرضه، فتم البناء في خلافته»[4]. وقال الحافظ بن عساكر: «وطول المسجد الأقصى سبعمائة ذراع وخمسة وخمسون ذراعاً بذلك الملك، وعرضه أربعمائة ذراع وخمسة وستون ذراعاً بذراع الملك..» ولم يتحقق في وصف الذراع[5].

ومما زاد من أهمية القدس، ومكانتها السامية في نظر العالمين الإسلامي والمسيحي، هي تلك العلاقات الدبلوماسية بين الخليفة العباسي «هارون الرشيد» «ورشارلمان» ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكذلك موقف «البابا» الرئيسي الروحي للعالم المسيحي في ذلك الوقت، وعلاقته الروحية مع بطريق مدينة القدس.

---

(١) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٨.

(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٨٢.

(٣) انظر: المدور، جميل نخله، حضارة الإسلام في دار السلام، القاهرة ١٩٠٥، ص١٠٥.

(٤) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٨٣.

(٥) انظر: نفسه، ج١، ص٢٨٣- ٤٨.

وكل هذا يشير، ويؤكد على مدى احترام العالم الإسلامي – والخليفة العباسي «هارون الرشيد» تجاه العالم المسيحي، وذلك بتوكيد الحرية الدينية للمسيحيين، وفسح المجال لرعاياهم في زيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة، والقيام بالحج إلى هذا المكان المقدس.

وقد تمثلت هذه الصلات الدبلوماسية والدينية بين هارون الرشيد، وبين شرلمان، وبطارقة مدينة القدس، بالوفود المتعددة التي تبودلت بيهم. وتؤكد المصادر(١) أن شارلمان هو البادئ بالمراسلة مع الرشيد، وكان شارلمان قد ارسل وفدين إلى الرشيد (سنة ٧٩٧م وسنة ٨٠٢م) ورسولاً إلى بطريق القدس (سنة ٧٩٩م). فأجاب الرشيد بإرسال وفدين (سنة ٨٠١ وسنة ٨٠٧م)، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات إلى شارلمان (سنة ٧٩٩م، وسنة ٨٠٠م، وسنة ٨٠٣م وسنة ٨٠٧م).

وكانت سفارة سنة ٧٩٧م في الشرق، حيث حصل فيها تبادل هدايا، وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان، وكان البادئ بها هو البطريق، إذ أرسل شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية... ولما رجع ذلك الراهب، أرسل شارلمان معه القسيس «زكريا» يحمل هبات إلى الأراضي المقدسة. وفي سنة ٨٠٢م أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة هارون الرشيد، وقد عرض هذا الوفد رغبات سيدهم «شارلمان» على الرشيد فأجابها. وفي أوائل سنة ٨٠٧م وصل بلاط شارلمان رسول عن الخليفة يدعى «عبد الله» وراهبان عن البطريق «توماس». وكان مع رسول الخليفة هدايا نفيسة «صيوان ملون بديع، وأقمشة حريرية، وعطور، وبلسم، وساعة مائية

---

(١) راجع بهذا الخصوص:

Bucker, Harun al – Rashid and, Charles The Great (Massa- chusettes), 1931, p.170 .off

وانظر: مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان، بغداد ١٩٣٩، ص٣٣، وما بعدها...

وانظر: عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، بغداد ١٤٩٥، ص١٤٩– ١٩٥٦.

عجيبة وأواني نحاسية». وقد كان للبابا «الرئيس الروحي للعالم المسيحي» وحليف شارلمان رغبة قوية في تقوية صلاته مع بطارقة الإسكندرية وأنطاكية، والقدس...

والواقع أنه بالرغم من وقوع خلاف في الرأي بين المؤرخين عن مدى هذه العلاقات والصلات بين الرشيد وشارلمان وبطارقة القدس أو البابا، وبالرغم من تعدد الآراء حول أسباب ودوافع هذه العلاقات، ولكن الواضح منها هو إظهار مدى التعاون والعلاقات الروحية الطيبة بين العالمين الإسلامي والمسيحي في ذلك الوقت، وخاصة إظهار مدى الاهتمام والرعاية الكبيرة من جميع هذه الأطراف المعنية تجاه مدينة القدس، واعتبارها المكان المقدس للمسلمين والمسيحيين على حد سواء...

إن الأثر الهندسي العظيم في بناء قبة الصخرة، والتي قلما فاقها أو ضاهاها في الفخامة، والأناقة بناء آخر، هيا لتي دعت بالخليفة «المأمون» بأن يجعل رسامه ونقاشه، أن ينسب بناءها إليه بدلاً من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان...). وليس من شك في أن باني القبة هو عبد الملك بن مروان، ويؤيد ذلك الكتابة الكونية المنقوشة حول القبة...). والظاهرة أن البناء قد تداعى، فرمم على عهد الخليفة العباسي «المأمون» سنة ١٩٨هـ- ٢١٨هـ/ ٨١٤م- ٨٣٣م «فغير الرسام المرمم اسم عبد الملك في النقش، وجعله «عبد الله» وأضاف إليه اسم «المأمون»، إلا أنه سها عن تغيير التاريخ[١]...). وقد سعى الرسام العباسي إلى التقريب بين حروف الاسم الجديد، وحشرها في الفراغ الضيق الذي أحدثه.

وفي عهد الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ) قام ببناء الأبواب الشرقية

(١) هذه الكتابة كما هي الآن: بنى هذه القبة عبد الله عبد (الله الإمام المأمون أ) مير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين، يقبل الله منه ورضي عنه آمين.

انظر: ف. حتي، تاريخ العرب المطول، ج١، ص٢٨٧، وكان دوفوعره أول من اكتشف هذا التزوير. انظر:

.De Vohue, le Temple de Jerusalem Paris, 1861, pp.6- 85

والشمالية للحرم سنة ٢١٦هـ. وقد وضع اسمه مكان اسم عبد الملك، غير أنه لا توجد إشارات على أي بناء قام به هذا الخليفة[١] وتم كذلك إصلاح ما تهدم من المدينة نتيجة الكوارث والزلازل وخاصة الحرم وأسواره. ففي عام ٣٠١هـ أمرت أم الخليفة المقتدر بإصلاح قبة الصخرة وتزويد كل أبوابها بمدخل خشبي[٢].

كذلك زادت قدسية القدس في عهد الخلافة العباسية من خلال: الأحاديث حول شدّ الرحال من قبل التابعين. ثم زادت من هذه الأهمية المؤلفات الجغرافية من القرن الرابع الهجري التي تعظم بيت المقدس وفضائلها وفضل القدس والشام وحرمة الأماكن المقدسة. كذلك فضل زيارة القدس، وفضل المسجد الأقصى والصلاة فيه[٣].

وتلى ذلك إقامة الصالحين ووفاتهم فيها، ووصية بعض الحكام أن يدفنوا في بيت المقدس، واستكمال الحج بزيارة المسجد الأقصى، ثم اهتم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين بهذه المدينة من خلال مؤلفاتهم وتعدد المدارس المذهبية. وحلقات الدرس في المسجد الأقصى والطرق الصوفية. وزيارة غير المسلمين لهذه المدينة المقدسة. وفي عهد السلاجقة أصبحت القدس المدينة الأولى في فلسطين. وزارها الرحالة المسلمون وغيرهم وأصبحت القدس صورة حية للثقافة الإسلامية من خلال ملتقى علماء الإسلام ومن كل الأمصار. وتأصلت في القدس مدارس متخصصة في علم الكلام وأصول الفقه ومسائل الخلاف. لكن العقد الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي فقد شهد اضطراباً واضحاً في أمصار ودول العالم

---

(١) Von Berchem, op. cit., 248- 250.

(٢) نفس المصدر ٢٠٦- ٢٠٧.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٩٤، ابن الأثير ج١٠/ ٥٧، ابن ماجة: السنن ١/ ٤٢٩. الصنعاني: المصنف ٥ رقم ٩١٣١، ٦٣، ٧٣، ابن الفقيه، البلدان ٩٣، المشرّف الرحبي، فضائل ١٢١٦، ٢١٧، ٢٥٤، ٢٩٢، الواسطي: الفضائل ١٥- ٢٣، ٢٨، ٤١، الربعي: فضائل دمشق.

الإسلامي. وفي المقابل كانت أوروبا والغرب عموماً قد اتجهوا إلى الشرق في ظل أحوال البلاد الإسلامية حتى وقعت بلاد الإسلام تحت النفوذ الصليبي، ومن ضمن ذلك سقوط القدس بيد الصليبيين ١٠٩٨م.





الفصل الخامس

الاحتلال الصليبي والتحرير الإسلامي للقدس

القدس في عهد الحمدانيين

القدس في عهد السلاجقة

القدس في عهد الفاطمية (وسقوط القدس)

التحرير الإسلامي في عهد الزنكيين

تحرير القدس في العهد الأيوبي

تحرير القدس في عهد المماليك



الاحتلال الصليبي للقدس:

انتزع العباسيون الملك من بني أمية ١٣٢هـ/ ٧٥٠م مكونين «الدولة العباسية»، واتسعت أملاك هذه الدولة، وعظمت الأمة العربية والإسلامية في عصرها، من جميع النواحي السياسية، والفكرية، والعلمية، والثقافية، والاقتصادية، ولكن خامر هذه الدولة (كما يقول ابن خلدون): ما يخامر الدول عادة من الترف والراحة، فبدأ أمرها في النكوص، وكثر المنازعون للعباسيين في المشرق والمغرب فظهرت دولة العبيديين في المغرب سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، المنتسبين إلى عبد الله المهدي بن محمد بمساعدة من قبائل كتامة، وقبائل البربر، وتمكنوا من الاستيلاء على المغرب ومصر وقد أقاموا فيها الدولة الفاطمية.

ومثل هذا الصراع حدث في المشرق الإسلامي، فغلب البويهيون بقيادة معز الدولة على بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وحجروا على الخليفة العباسي المستكفي بالله واستبدوا في الملك، وبقي الأمر كذلك حتى ظهرت قوة جديدة من الأتراك من بني سلجوق، فتقدموا إلى خراسان بزعامة طغرلبك، فملكوها وملكوا طبرستان، ثم أصبهان وفارس من بني بويه. وأخيراً تقدم طغرلبك سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م إلى بغداد، فغلب عليها من يد بني معز الدولة ابن بويه المستبدين على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، فحجر طغرلبك على الخليفة واستبد بالأمور دونه، ثم امتد سلطانه إلى بلاد البحرين (الخليج) وعُمان، بلاد الشام، وجزء من الأناضول (واستوعب على ممالك الإسلام كلها فأصارها في ملكه).

ويرى ابن خلدون أن النفوذ العربي في الدولة العربية الإسلامية في المشرق الإسلامي، انتهى منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث

تسلم الأتراك السلطة في العراق والشام، وتسلمها من بعدهم أولئك الذين ربوا في كنفهم، وتحت رعايتهم كالزنكيين، والأيوبيين، ثم المماليك، ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله: (وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز، مسلوبة من الملك، كأنه لم يكن لهم فيه نصيب).

أما الجناح الغربي من الأمة العربية الإسلامية، فقد خرج الفرنج على بقايا بني أمية وانتزعوا الملك من أيديهم واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها. وفي المغرب الإسلامي اقتطع ملوك صنهاجة إفريقية، واستقل الملثمون المرابطون بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن بعدهم المصامدة الموحدون، وفي مصر ضيق أتراك السلاجقة على الدولة الفاطمية وأخذوا يزاحمونهم في بلاد الشام، ونشبت الصراعات عنيفة بين الطرفين، واكتوت بأتونها الديار الشامية، فزادتها تمزقاً وتفتتاً، وقضت على مقدراتها الاقتصادية، فأصابها الخور والخذلان. ولم تقو على الصمود أمام أول هجمة فرنجية من الغرب الأوروبي.

القدس في عهد الحمدانيين والسلاجقة

بدأت الخلافة العباسية في الضعف والانحلال بعد سيطرة النفوذ التركي، والبويهي والسلجوقي. وقد مهد هذا الضعف والانحلال إلى ظهور دويلات إسلامية في الشرق، والغرب – الذي يهمنا هنا الدويلات الشرقية –. فقد ظهرت الدولة الحمدانية في حلب والموصل[1]. ثم الدولة الفاطمية في مصر[2] وكما ظهر على المسرح السياسي أيضاً السلاجقة الأتراك في بلاد الشام[3]. وقد شجع ظهور مثل هذه الدويلات الإسلامية بعض الأمراء المحليين في فلسطين إلى القيام ببعض القلاقل

(١) الدولة الحمدانية: ٣٥٦هـ- ٣٩٥هـ/ ٩٤٤م- ١٠٠٣م.

(٢) الدولة الفاطمية: ٢٩٥هـ- ٥٥٦هـ/ ٩٠٩م- ١١٧١م.

(٣) سلاجقة الأتراك في الشام: ٤٧١هـ- ٥١١هـ/ ١٠٧٩م- ١١١٨م.

والاضطرابات، تمثلت بصورة خاصة عند بني الجراح، الذين خاضوا معارك عديدة مع الفاطميين، كانت الغلبة بصورة عامة بجانب الفاطميين[1]. إن ضعف الخلافة العباسية من جهة، وظهور مثل هذه الدويلات من جهة أخرى، قد شجع الروم (الفرنج) على شن حملات عسكرية على بلاد سورية، وفلسطين. ومن ثم التقدم نحو احتلال بيت المقدس. والذي يهمنا هنا هو التركيز على ما أصاب مدينة القدس من أحداث تاريخية في ظل الدويلات الإسلامية من جهة وموقف الروم من جهة أخرى... وكيف مهد السبيل لهم للتقدم واحتلال مدينة القدس.

لقد وقفت الدولة الحمدانية موقفاً حازماً وقوياً في وجه الحملات البيزنطية المتمثلة في شخص الإمبراطور (نقفور). فقد أسس سيف الدولة الحلبي دولة في شمال سوريا دامت حتى سنة ٣٩٥هـ- ١٠٠٣م. وكانت هذه الدولة تنافس الدولة الأخشيدية في مصر. وقد اشتهر سيف الدولة بحروبه مع الروم. وبالرغم من أن أكبر مدن الدولة الحمدانية سقطت بأيدي الروم بعد وفاة سيف الدولة، إلا أن الروم لم يفلحوا بالاستيلاء على بيت المقدس. فامبراطور الروم (ابن شمشقيق ٩٦٩م- ٩٧٦م) قد اتخذ سياسة الحزم في ضبط ما فتحه الروم في كيلكيا، وشمال سورية، وتوطيد الحكم فيه، وجعل نصب عينيه فتح بيت المقدس من يد العرب، وغادر أنطاكيا في شبه حملة صليبية ودخل دمشق ولكنه لم يستطع التوغل في فلسطين[2].

وبعد نزاع مع الفاطميين اضطر سعيد الدولة الحمداني (٣٥٣هـ- ٩٩١م – ٣٩٣هـ/ ١٠٠١م) بعد حين التسليم بسيادة الفاطميين. هذا ولم تكن سيادة الفاطميين على سورية سيادة تامة، فقد ظهر أمامهم منافس شديد هم السلاجقة الأتراك، فقد سيطر السلاجقة الأتراك في أول الأمر على شمال سورية، وسيطر

(١) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق. ابن خلكان، وفيات الأعيان. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ابن عساكر، التاريخ الكبير. ابن تغره بردى، النجوم الزاهرة.

(٢) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨، ص١٢- ١٤.

الفاطميون على جنوبها. وقد بدأ الآن النزاع السياسي والعسكري بين السلاجقة الأتراك في بلاد الشام، وبين الفاطميين في مصر للسيطرة على بلاد فلسطين، وخاصة مدينة القدس...

ففي عهد ألب أرسلان (١٠٦٣- ١٠٧٢م) وعهد ملكشاه ابن ألب أرسلان (١٠٧٢- ١٠٧٩م)، بلغ سلطان السلاجقة أوسع مداه، واستقرت قواعد الملك للسلاجقة واتسعت أنحاءها بحيث امتدت من كاشغر شرقاً، وهي مدينة في أقصى بلاد لاترك – إلى بيت المقدس غرباً، ومن القسطنطينية شمالاً إلى بلاد الخرز جنوباً، وقد ساد الاستقرار جميع هذه الأنحاء في ظل حكمه[١]. وفي سنة ٤٦١هـ/ ١٠٧٠م أغار ألب أرسلان بجيوشه على الدولة المرداسية في شمال سورية، واحتل قائد جيوش ألب أرسلان – وهو تركماني من خوارزم – فلسطين، وانتزع من يد الفاطميين رام الله والقدس وسواهما من المدن[٢].

وقد بقيت مدينة القدس خاضعة لسلطة السلاجقة حتى عام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م، حيث نشأ النزاع بين أبناء (تتش) بن ألب أرسلان وهما (رضوان) الذي كان حاكم حلب، و(دقاق) حاكم دمشق[٣]. بحيث اضطر دقاق إلى الإقرار لأخيه بالسيادة العليا... وكان صهر لتتش يتولى إقطاع القدس، فأجبر سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م على التخلي عنه للفاطميين[٤]... وعندما بلغ الصليبيون الأراضي المقدسة، كانت القدس خاضعة لسلطة الفاطميين.

شهدت المدينة المقدسة بعد احتلال (أتسز بن أوق) الخوارزمي لها سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤، إحياء ثقافياً خاصاً بالدراسات الدينية والفقهية. لم تشهد مثله

---

(١) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، القاهرة ١٢٩٩هـ، ص٥٧٢.

(٢) انظر: ابن الأثير، ج١٠، ص٤٣- ٤٤.

(٣) انظر: ابن خلكان، ج١، ص١٦٨.

(٤) انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٠، ١٣٢، وابن الأثير ج١٠، ص١٦٨.

خلال حكم الدولة الفاطمية الذي امتد من عام (٣٥٨- ٤٦٦هـ/ ٤٨٩- ١٠٧٤م). حيث لا يذكر ابن العربي أي اسم عالم خلال تلك الفترة. بينما يذكر للفترة التركمانية القصيرة عدداً من العلماء البارزين الذين عاشوا في مدينة القدس. وكان من بينهم (أبو الفتح نصر، والطرطوشي، والغزالي، وابن العربي، وغيرهم) [١]. كذلك ظهرت في عهد التركمان ملامح مميزة في الحياة الاجتماعية والتربوية في المدينة. أولها: وجود مدرستين سنتين: إحداهما (للشافعية، والثانية للحنيفية). كما كان يعقد فيهما الحوارات والمناظرات. وثاني الملامح: المحاورات بين الأديان السماوية الثلاث (المسيحية والإسلامية، واليهودية) في كافة الموضوعات. وثالثهما: موقف سكان المدينة من الصراعات الداخلية للطبقة الحاكمة التي انعكست بالاضطرابات المدنية. هذا إلى جانب تعرض المدينة لكوارث طبيعية وكوارث من صنع الإنسان. هذا وفي نهاية الحكم التركماني (السلاجقة) جرى تقسيم أملاكهم بين الفاطميين والبيزنطيين الصليبيين.

القدس في العهد الفاطمي

جدير أن نستعرض هنا وضع القدس وأجوائها في ظل الفاطميين، حتى سقوطها على يد الفرنج سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م. لقد اتبع الخلفاء الفاطميون سياسة حسنة تجاه سكان مدينة القدس من النصارى واليهود. فقد كان هؤلاء على خير حال في ظل الحكم الفاطمي[٢].

---

(١) انظر: إحسان عباس. رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل. مجلة الأبحاث ٢١ قسم ١ ص٥٩، ٦٥، ٨١- ٨٦. الأنس الجليل ج١، ٢٨٧- ٣٠٢.

(٢) وفي أيام ابن المنصور نزار العزيز ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م- ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م خامس خلفاء مصر الفاطميين، فقد عم السلام البلاد وبلغت سلطة الفاطميين ذروتها، ولعل العزيز كان أحكم الخلفاء الفاطميين وأسمحهم يداً. وقد عاش في ترف، وبذخ، فابتنى في القاهرة، وجوارها عدة جوامع وقصور، وأقنية وجسور، وتساهل مع النصارى فمنحهم قسطاً من الحرية لم يعرفوه=

وباستثناء عهد الحاكم بأمر الله (أبو علي المنصور بن عبد العزيز الفاطمي)، الذي فرض قيوداً صارمة على أهل الذمة من النصارى واليهود، ففي سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٩م أوجب على النصارى - متى دخلوا الحمامات العامة، يجعلوا في أعناقهم صلباناً زنة الواحد منها خمسة أرطال (نحو كيلو غرامين) على أن يرسلوها متدلية على صدورهم. ورتب على اليهود - مثل هذا الحال، على أن يجعلوا في أعناقهم إطاراً من الخشب بالوزن نفسه شدت إليه الأجراس المجلجلة، وأرغم اليهود والنصارى على لبس السواد، ومنعهم أن يركبو إلا الحمير.

وفي نفس السنة أمر بهدم الكنائس منها كنيسة القيامة[1]. واضطهاد المسيحيين فيها حد بعضهم إلى الدولة البيزنطية.

ويعلل مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل سياسة الحاكم بأمر الله هذه نحو أهل الذمة حيث يذكر: «إن الحاكم بأمر الله أمر بتخريب كنيسة (القيامة) من بيت المقدس، وأباح للعامة بانتهاب ما كان بها من أموال وأمتعة وغير ذلك. وكان ذلك بسبب ما أنهى إليه من الفعل الذي تتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يحتالون بها بحيث يتوهم الأغمار من جهلتهم أنها تنزل من السماء، وأنها مصبوغة بدهن البيلسان في خيوط الأبريسم، الرقاع المدهونة بالكبريت وغيره بالصنعة اللطيفة التي تروج على العظام منهم والعوام. وهم إلى الآن يستعملونها في القامة (القيامة)، ويسمى ذلك من جهرهم بالكفر، ورفع أصواتهم، يقولون بالدين الصليب وإظهار كتبهم، ورفع الصلبان على رؤوسهم، وغير ذلك من الأمور التي تقشعر منها

=من قبل. وليس من شك في أنه أقدم على هذا بفضل وزيره النصراني عيسى بن نسطور، وبتأثير زوجته الروسية، ووريثه الحاكم، وأخت= =بطريركي الإسكندرية، وأورشليم. انظر: ف. حتي، تاريخ العرب المطول، ج٢، ص٧٢٤- ٧٣٥.

(١) انظر: ابن خلكان، ج٣، ص٥. يحيى بن سعيد: تاريخ ٢١٩٥- ١٩٦، بيروت ١٩٠٩.

الأجساد»[1]...

ومقابل هذا العمل أصبحت قضية كنيسة القيامة عنوان العلاقات بين الفاطميين والدولة البيزنطية. التي مالت إلى الهدوء خاصة بعد أن ألغى (الخليفة) بعض الإجراءات التي اتخذها ضد النصارى. وتبع ذلك استقبال الخليفة الفاطمي للسفراء البيزنطيين في القاهرة. والمعروف أن القدس من هذه الفترة سيطر عليها (آل الجراح) الطائيون لفترة قصيرة. حيث قام أميرهم بتنصيب بطريرك للنصارى في القدس. وساهم أيضاً في إعادة بناء كنيسة القيامة على قدر إمكاناته[2].

ولما تولى الخلافة (المستنصر بالله (أبو تميم معد)، هادن ملك الروم، على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليتمكن من عمارة كنيسة (القيامة) التي كان خربها جده الحاكم في أيام خلافته، فأطلق الأسرى، وأخرج ملك الرومان عليها أموالاً عظيمة. والذي يظهر أن تخريبها لم يكن تخريبها كلياً بل كان في غالبها[3]. وفي سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٥م سقطت القبة الكبيرة التي على صخرة بيت المقدس، والظاهر أن السقوط كان بعضها لا في كلها[4].

تحسنت العلاقات الفاطمية البيزنطية بعد وفاة (الحاكم) وتولى (السلطان الظاهر) الحكم. حيث جرت مفاوضات بين الطرفين، دارت حول عملية إعادة بناء كنيسة القيامة ومساهمة الدولة البيزنطية في إعمارها. وتعين بطريرك للنصارى في القدس. طبق معاهدة ٤١٨/ ١٠٢٧ مقابل إطلاق سراح الأسرى المسلمين. وفي أواخر عام (٤٢٤/ ١٠٣٣) أمر الظاهر بإعادة بناء أسوار القدس وفي عام ٤٢٥هـ/

---

(١) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص٣٠٣.

(٢) الإمارة الطائية: مصطفى الحيارى ص٤٧ - عمان ١٩٧٧. المقريزي: إتعاظ الحنف بأخبار الأئمة الفاطميين مجلد ٢/ ٨١، القاهرة ١٩٧١م.

(٣) انظر: نفسه، ج١، ص٣٠٣.

(٤) انظر مجير، ج١، ص٣٠٤.

١٠٣٤م كثرت الزلازل.

وفي عام ٤٢٧/ ١٠٣٥ تم عقد معاهدة بين الفاطميين والبيزنطيين مدتها عشر سنوات تم فيها إطلاق سراح الأسرى المسلمين (خمسة آلاف)، مقابل السماح للبيزنطيين إعادة بناء كنيسة القيامة. واستمرت العلاقات في تحسن رغم هجوم البيزنطيين على سوريا سنة ٤٣٣/ ١٠٣٧. وفي عام ٤٣٧هـ/ ١٠٤١ تبادل الفاطميون والبيزنطيون السفراء والهدايا. وأعيد خلالها بناء كنيسة القيامة وأسوارها.

ثم عادت العلاقات للتدهور ثانية بعد تسع سنوات[1]. هذا ويمكن بيان بعض الإشارات التي تدلل على تحسن أوضاع القدس في العهد الفاطمي من خلال ما يلي:

أ- وجود وقف خاص لزوار بيت المقدس (نقش مؤرخ سنة ٤٤٥- ١٠٥٣).

ب- وجود مساكن المسلمين إلى جانب المسيحيين ودون تغير.

جـ- تغيرت أحياء السكن بعد إنشاء حي البطرك. فظهر حي خاص بالنصارى.

د- دعم الفاطميون نصارى القدس لتحصين سورها وبدعم من البيزنطيين.

هـ- تمويل البيزنطيين لنصارى القدس بإعمار وتحصين السور المخصص بحي النصارى سنة ١٠٦٣م. ثم وضع الحي كله تحت سلطة البطريرك وعرف باسم (ربع البطرك).

و- أهدى الخليفة الفاطمي المستنصر قبيل العهد التركماني قطعة أرض في

---

(١) انظر: إتعاظ ٢/ ١٦٧، ١٩٤، ١٧٦، ٢٣٠، ناصر خسرو سفرنامة، ٥٥، ٧٤، يحيى: تاريخ، ٢٠١، ٢٤٣- ٢٤٤، ٢٦٩- ٢٧١، إتعاظ: ١٦٧، ١٩٤، ٢٣٠.

حارة النصارى للتجار الأوروبيين.

حـ- بنى التجار الأووبيون دير القديسة (ماري) اللاتينية ودير الراهبات (دير القديسة مريم المجدلية) ومستشفى القديس يوحنا[1].

وفي سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٤ كثرت الزلازل بمصر والشام، فسقط بعض حيطان بيت المقدس، ووقع من محراب داود قطعة كبيرة ومن مسجد إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) قطعة[2].

وفي سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦١م سقط تنور فيه قبة الصخرة ببيت المقدس، وفيه خمسمائة قنديل، فتطير المقيمون به من المسلمين، وقالوا: ليكونن في الإسلام حادث عظيم، فكان أخذ الفرنج له[3].

وفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٩م كانت زلزلة بأرض فلسطين فانشقت صخرة بيت المقدس، ثم عادت فالتأمت بقدرة الله[4].

وفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م في أيام المستنصر بالله العبيدي خليفة مصر استولى على القدس والرملة «استز بن أوق الخوارزمي صاحب دمشق»[5].

وفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م أقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس، وقطعت دعوة الفاطميين، ثم استولى اتسز على دمشق بعد استيلائه على القدس والرملة، وقطع الخطبة العلوية من دمشق، وأقام الخطبة العباسية، فلما قتل اتسز في سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م استولى بعده على دمشق تاج الدولة الأمير «تتش بن السلطان ألب

(١) انظر: وليم الصوري: WT, 704- 708.

(٢) انظر: مجير، ج١، ص٣٠٤.

(٣) انظر: مجير، ج١، ص٣٠٤.

(٤) انظر: مجير، ج١، ص٣٠٥.

(٥) انظر: مجير، ج١، ص٣٠٥.

أرسلان السلجوقي» وكانت القدس من مضافاته، فقلدها للأمير أرتق بن أكسك التركماني جد الملوك أصحاب ماردين. واستمر أرتوق مالكاً لها إلى أن توفي في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

ثم استمر الأمر بعده في القدس لولديه أيلغازي، وسقمان ابني رائق، واستمر على ذلك إلى أن قتل تتش صاحب دمشق في سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، ثم سار الأفضل بن يدر الجمالي أمير الجيوش من مصر بعسكر الخليفة العلوي، وهو المستعلي بأمر الله فاستولى على القدس بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م[(١)] وبقيت القدس في يد المصريين (الفاطميين) حتى سقوطها على يد الفرنج ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م.

الاحتلال الصليبي للقدس ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون الأوروبيون إلى الشرق الإسلامي، ابتداءً من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري (الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي). لغرض الاستيلاء ظاهراً على بيت المقدس من أيدي المسلمين. وتمتاز هذه الحروب بتداخل عواملها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. على الرغم من رفع راية الصليب كعنوان لها حتى جاءت التسمية منسوبة للصليب (الحروب الصليبية) ولهذا تباينت آراء المؤرخين حول أسبابها منها:

١- تعد هذه الحروب استمراراً للصراع الطويل القديم بين الشرق والغرب الذي اتخذ في كل عصر شكلاً معيناً يتلاءم ومقتضيات الظروف وإن اتحدت في الهدف والغاية، لكن حقيقتها النهائية دينية بالدرجة الأولى.

٢- ظهور السلاجقة المسلمون في البلاد التي انتزعوها من الدولة البيزنطية (أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي)، في الأناضول وآسيا

---

(١) انظر: مجير، ج١، ص٣٠٥.

الصغرى، هدد عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية)، ثم جاء انتزاعهم بيت المقدس من الفاطميين عام (٤٧١- ١٠٧٨). الأمر الذي اقتضى وقف قدوم الحجاج المسيحية إلى الأماكن المسيحية المقدسة في الشرق. من هنا ولشدة تعلق الصليبيين بالحج وجهلهم لأمور الدين في العصور الوسطى اعتقدوا أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى الغفران والسعادة الأبدية. وقد اعتبروا أن أعظم الثواب هو قتال المسلمين وتخليص الأماكن المقدسة منهم.

٣- ظهور الروح الحربية في الكنيسة خاصة بعد دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي، ورغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق الإسلامي بل على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة دينية واحدة رئيسها البابا.

٤- نزعة الفرسان والأمراء والأشراف إلى الحروب والدفاع عن الكنيسة إلى جانب رغبتهم تكوين إمارات استعمارية لهم في المشرق، ورغبة الرقيق التخلص من نظام الإقطاع والتزاماته الظالمة.

٥- انتصار البابوية على الإمبراطورية وزيادة نفوذ البابا على غرب أوروبا جعل كلمته مسموعة، على رعاياه المسيحية.

٦- رغبة المدن الإيطالية (البندقية وبيزا وجنوة) نشر وتوسيع تجارتها في ميدان الشرق، خاصة بعد تغلب قرصانها على البحر المتوسط، واحتلال النورمانديين لجنوب إيطاليا وصقلية، الأمر الذي سهل عبور الصليبيين البحر إلى الشرق وفلسطين خاصة.

٧- تعرضت القوى الإسلامية للانقسام والتفكك والصراع خاصة في دولة السلاجقة والدولة الفاطمية فأثبتتا عدم قدرتها على مواجهة الخطر الصليبي.

٨- تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح المجال لتوحيد أوروبا في الشرق والغرب تحت راية الصليب.

محاولة الدولة البيزنطية المحافظة على استقلالها الذاتي بعيداً عن الإمبراطورية الرومانية وعن نفوذ البابا، حيث كرسته من خلال المساعدة وتشجيع الصليبيين للتوجه للمشرق الإسلامي.

الحروب الصليبية: الراجح أن شرارتها بدأت بإعلان البابا (أريان الثاني) وبعد (مجمع كليرمونث) في فرنسا عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م). حيث دعا النصارى إلى السلاح والذود عن الهيكل المقدس. وعلق الصليب الخشب على الذراع الأيمن للمتطوعين. فغدا الصليب شعار الحرب. واستغل هذه الدعوة بطرس الناسك وروج لها حتى اجتمعت له طبقات من الغوغاء الحاقدة بغير نظام، وساروا تحت إمرته يدمرون ويقترفون كل الجرائم البشعة، حتى أدى الأمر إلى وقوف البيزنطيين والمجريين في بلادهم. لذلك حولوا وجهتهم إلى بلاد المسلمين ضمن ثماني حملات، أربع منها اتجهت للأراضي المقدسة في فلسطين (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) والثامنة على شمال إفريقيا.

الحملة الصليبية الأولى عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) قادها تسعة من الأمراء تحت إمرة البابا ولم يشترك فيها ملك فرنسا (فيليب الأول) وهنري الرابع امبراطور ألمانيا (لأنهما مطرودين من رحمة الكنيسة). انتصر فيها الصليبيون وأسسوا أربع تجمعات لاتينية في الشام (بيت المقدس جودفري) أنطاكيا (يوهيمند وابن أخيه تانكرد) لمس (ريمند) والرها (بولدوين).

الحملة الصليبية الثانية: (١١٠٠- ١١٠٤م) قادها ملك فرنسا (لويس السابع) وإمبراطور (كنراد الثالث) وقد تصدت لهم المقاومة الإسلامية بقيادة عماد الدين زنكي (ت==هـ- ١١٤٦م) وأبنائه (سيف الدين ونور الدين) الذي نجح في إعادة دمشق وحلب للولايات اللاتينية في الشام إلى المسلمين.

الحملة الصليبية الثالثة: يدانها مصر (بليبس) (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) تصدى لها

نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي محرر بيت المقدس وانتهت هذه الحملة بصلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م).

الحملة الصليبية الرابعة: (٢٠٢- ١٢٠٤هـ) بدعوة من البابا (أنوسنت الثالث) ورئيس جمهورية البندقية (داندلو) وجهتها الأولى مصر ثم تحولت إلى القسطنطينية فأصابها الدمار والنهب وأقاموا فيها إمبراطورية لاتينية بزعامة بولدوين دوق فلاندرز ثم تبع هذه الحملة حملات أخرى اعتبرت أقل أهمية من سابقتها، لأن توجهها أصبح تجارياً محضاً بعد أن خمدت جذوة الروح الدينية. وبهذا يمكن بيان أسباب فشل الحملات الصليبية منها:

أولاً: حملاتهم غير منظمة وغير محددة الهدف والقيادة وقد طغت عليها المصالح الشخصية والمنافسة مع القادة الآخرين.

ثانياً: انحرفت الحملات عن نزعتها الدينية إلى النزعة القومية ثم إلى الغنم المادي والشخصي.

ثالثاً: أظهرت الحملات النزعة القومية كذلك أظهرت المدن الإيطالية تقديم مصلحتها الاقتصادية على حساب الدعوى الدينية المزيفة.

رابعاً: أظهرت الحملات الصليبية نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة في البلاد التي قامت على أرضها الحروب، وكذلك البلاد التي دعت لهذه الحروب نذكر منها: محافظة الدولة البيزنطية على كيانها، حالت دون إغارة السلاجقة على أوروبا، قوّت دعوة الكنيسة ومراكز البابوية، وحولت نظام الفروسية إلى نظام ثابت ساهم في ظهور جماعات الرهبان والقراصنة الحربيين. وقضت على نظام الإقطاع في أوروبا ليحل محله النظام القومي، وأظهرت الطبقة الوسطى من العمال والأحرار وأتاحت للغرب الإطلاع على معالم الحضارة الإسلامية والتأثر بها، كذلك أثرت في العلاقات الخارجية بين الدول والقارات وخاصة بين آسيا وأوروبا. ودفعت إلى

حركة الاكتشافات الجغرافية في العالم الجديد.

احتلال القدس (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م):

لقد كان لضعف الخلافة في بغداد من جهة، والنزاع والتناقض بين السلاجقة والأتراك في بلاد الشام، والدولة الفاطمية في مصر من جهة أخرى. أثراً بالغاً في ازدياد شوكة الفرنجة وتشجيعهم للإنقاض على المدن الفلسطينية. والقدس خاصة. وحول ذلك يذكر ابن القلانسي حالة الأمة العربية والإسلامية فيقول: «وفي هذه السنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وردت الأخبار بأن أهل خراسان، والعراق والشام عليه من الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد، وخوف بعضهم من بعض، ولاشتغال الولاة عنهم وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة»[1]. من هنا نرى أن الحملات الصليبية بدأ يتفاقم أمرها على سورية وفلسطين. غير أن السلاجقة، ولا العباسيون أبدوا اهتماماً بها. فالحملة الصليبية الأولى حاصرت أنطاكية مدة تسعة شهور، حتى سقطت بأيديهم عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م. وأثناء حصار الصليبية لأنطاكية. نجد أن وزير الدولة الفاطمية (الأفضل بن بدر الجمالي) يرسل سفارة للفرنجة يعرض عليهم إرسال سفارة إلى مصر، وتقسيم بلاد الشام بينهم (الأفضل جنوب بلاد الشام من دمشق إلى غزة) (والفرنجة لهم شمال الشام). لكن الموقف المتخاذل من جانب الحكام المسلمين آنذاك، دفع الفرنجة لنقض الاتفاق. وساروا بعد أنطاكية إلى الجنوب وخاصة بيت المقدس التي تم حصارها[2] خلال الحملات الصليبية؛ التي هزت حروبها جذور الحياة في أوروبا كما يقول ستيفن رنسيمان، الأستاذ في كمبردج وأكسفورد ومؤلف «تاريخ الحروب الصليبية». ويعتبر كتابه من أهم ما صدر للأمانة والعمق والبحث الطويل، الذي صرفه المؤلف في العلاقات بين الشرق والغرب.

---

(١) ابن القلامنسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٠.

(٢) ابن ميسر، ص٦٦؛ مرآة الزمان الورقة (٢٢٨ب)؛ زياد جميل العسلي: تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٠٩٥-١١٢٧، عمان ١٩٩٠.

وسواء اعتبرنا الحروب الصليبية أعنف وأروع ما قام به المسيحيون من مغامرات، أم آخر ما قام به المتبربرون من غارات، فإنها تؤلف حقيقة أساسية في تاريخ العصور الوسطى. فالمعروف أن مركز المدينة الأوروبية كان قبل نشوب الحرب الصليبية يقع في بيزنطة، وفي بلاد الخلافة الإسلامية. غير أن التفوق في المدنية انتقل إلى الغرب، قبل أن ينتهي عصر الحروب الصليبية، ومن ثنايا هذا الانتقال، نبت التاريخ الحديث[١].

احتلال بيت المقدس: دخل الصليبيون فلسطين عن طريق الساحل، فمرّوا بعكا وقيسارية من دون قتال بسبب عدم تعرض هاتين المدينتين لهم، وهرب سكان الرملة فدخلها الصليبيون وهي خالية منهم. أما بيت لحم، فقد استقبلهم سكانها المسيحيون بالترحاب. واستمر الصليبيون في سيرهم نحو بيت المقدس، ووقفوا أمام أسوار المدينة المقدسة مساء السابع من تموز/ يوليو ١٠٩٩م[٢].

استعد افتخار الدولة، حاكم المدينة من قبل الفاطميين، للقتال بكل الوسائل الممكنة؛ فطمر الآبار خارج المدينة، ودعم الأسوار وكانت الأسوار بحالة جيدة إلا أنه دعمها بأكياس القطن والدريس، ووزع عليها حامية المدينة من الجند العرب والسودانيين، وأبقى على اليهود داخل المدينة وأخرج المسيحيين منها. وكان ذلك إجراءاً حكيما كما يقول رنسيمان؛ فالمسيحيون ما كانوا يحملون السلاح، فضلاً عن ضرورة توفير المؤن للمقاتلين. وأحاط الصليبيون بأقرب القطاعات والبوابات، وكان على رأس كل جماعة أمير بقيادة غودفري دي بويون، أمير مقاطعة اللورين.

كان واضحاً أن الزمن في مصلحة العرب المسلمين، وذلك لوفرة المؤن والماء، ولإمكان وصول نجدة جيش مصر. أما الصليبيون، فكانوا يفتقرون إلى الغذاء والماء،

---

(١) ستيفن رنسيمان، الجزء الأول، ص٩.

(٢) فيليب حتى: تاريخ العرب المطول، جـ٢/٧٥٦؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، جـ١/٣٠٧.

إذ كان عليهم المشي ستة أميال للحصول على الماء، وهذا بالإضافة إلى عدم توفر المنجانيق والسلاح الكافي لديهم.

كان الهجوم الأول في ١٢حزيران/ يونيو فاشلاً. وفي ١٧حزيران/ يونيو، جاءتهم نجدة بحرية رست في مدينة يافا المهجورة، تحمل مؤناً وأسلحة وأدوات للحصار.

ابتدأ الخلاف بين أمراء الصليبيين على حكم بيت لحم وعلى حكم القدس[١]. وزادت البلبلة في صفوفهم عندما شاع الخبر عن قدوم جيش ضخم من مصر لإنقاذ المدينة، إلا أن البدعة الدينية التي أطلقها القسيس بطرس ديزيدريوس عززت حماستهم. بادعائه أن الأسقف ادهمير قد ظهر له بعد وفاته، وأنه أمرهم بأن يسيروا حفاة حول أسوار القدس بقلوب طاهرة نقية، فإن فعلوا فسوف يستولون عليها في تسعة أيام. وكان المحاصرون في وضع نفسي يقودهم إلى التصديق، فسار موكبهم يطوف حول المدينة، وساهم الناسك بطرس بخطبه في اذكاء المشاعر الدينية. ونظر المسلمون من وراء الأسوار إلى مسيرة الحفاة مستهزئين بها، لكنهم لم يغدروا بهم أو يقذفوهم بالنار.

تقرر الهجوم في ليلة ١٣-١٤حزيران/ يونيو، وكان الصليبيون قد فرغوا من بناء الأبراج من دون أن تشعر بهم حامية المدينة وكان القتال ضارياً، ونجحت عملية الهجوم من بعض المواقع، على الرغم من القذائف والقوارير الملتهبة لمنع الاقتراب من السور. ولما تأكد للمدافعين انهيارهم، لجأوا إلى الحرم الشريف، المعقل الأخير[٢]. وكان افتخار الدولة ما زال يقاوم من الناحية الأخرى بضراوة، ولما تأكد من حتمية الهزيمة طلب الأمان والصلح والخروج من المدينة مع حرسه ١٥حزيران ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وقبل ريموند ذلك لقاء مبلغ كبير من المال؛ وفعلاً، رافقوهم إلى

---

(١) عبد القادر أحمد اليوسف: العلاقات بين الشرق والغرب، ص٧٠، بيروت ١٩٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٩٠-٤٠٣.

خارج المدينة وقد توجهوا إلى عسقلان[١]. ويقدر عدد الناجين هؤلاء بثلاثمائة فقط[٢]. وفي الخامس عشر من تموز ١٠٩٩م نهار الجمعة شهر شعبان ١٠٩٩م هاجم العدو القدس وأعمل السيف بكل أهلها حتى شوهدت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في شوارع المدينة وطرقها[٣].

أخذ الصليبيون يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، ولم يبقوا على أحد. وفي صباح اليوم التالي، سرقوا ونهبوا كنوز الصخرة المشرفة[٤] واقتحموا المسجد الأقصى، وأجهزوا على جميع اللذين لجأوا إليه. ويجمع المؤرخون من شرقيين وغربيين، مسلمين ومسيحيين[٥]، إجماعاً لا يضاهيه إجماع في كتب التاريخ على المذبحة الوحشية التي تعرض لها سكان المدينة، فقد هلكوا جميعهم مسلمين ويهودا. ومن أسباب هذا الاجماع هذا، أن لا سبيل إلى التخفيف من هول ما جرى، بسبب الفخر والاعتزاز بما حدث، على ألسنة قادة الصليبيين وكتّابهم، والذين نقل عنهم الكتّاب المنصفون المعاصرون؛ وفي هذا يقول رنسيمان: «وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى، لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه». لأن الصليبيون انطلقوا في شوارع المدينة المقدسة يقتلون من وجدوه في الشوراع أو الدور أو المساجد دون تمييز بين رجل أو طفل أو شيخ. وقد استمرت المذبحة طوال اليوم والليل.

وفرّ يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم، بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار

---

(١) Baldwin, op. cit, p. 300 ؛ عبد القادر اليوسف، ص٧٠-٧١.

(٢) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم١، ص١٦٦.

(٣) ابن الأثير،جـ١٠/ ١٩٤. أعتبر يوم ١٥ تموز عيداً وطنياً للاحتلال الصليبي للقدس.

(٤) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، جـ١/ ٣٠٨.

(٥) مجير الدين، جـ١/ ٣٠٧-٣٠٨.

في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين. ولما اعتصم المسلمون في المسجد الأقصى أجهز عليهم الصليبيون جميعاً.

لقد تركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود. بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث. أما المسلمون الذين كانوا وقتذاك مستعدين لأن يقبلوا الفرنج، على أنهم عامل جديد فيما ساد ذلك العصر من سياسات معقدة، فإنهم وطدوا العزم على ضرورة طرد الفرنج، فلم يثر التعصب الإسلامي من جديد، إلا التعصب المسيحي، الذي دل عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء. فلما حدث فيما بعد، أن سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا أساساً، يستطيع أن يقوم عليه التعاون بين المسلمين والمسيحيين، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول إلى اتفاق[1].

ويحدد المؤرخون ضحايا المذبحة بسبعين ألفاً أو خمسة وسبعين ألفاً، ومنهم ابن الأثير الذي يقول: «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبّادهم، وزهّادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف»[2].

ويروي غوستاف لوبون عن ريموند آجيل، كاهن لوبوي: لقد حدث ما هو عجب عندما استولى قومنا الصليبيون على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رؤوس بعض العرب وبقُرت بطون بعضهم من أعلى الأسوار وحُرق بعضهم في

(١) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، ص٤٠٤-٤٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سبق ذكره، المجلد العاشر، ص٢٨٣-٢٨٤.

كان سكان بيت المقدس وحاميتها يزيدون على السبعين ألفاً وفق العديد من المؤرخين، وكل من استطاع اللجوء إلى المسجد الأقصى فعل ذلك. وليس من شك في أن المقصود هنا هو الحرم الشريف بكل مبانيه وساحاته.

النار، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم... ولم يكتف قومنا الصيليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفاً، فأفنوهم عن بكرة في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخا(١).

ويختصر أمين الريحاني أساليب الفرنج الهمجية بقوله: وأولئك الفرنج قد فتحوا القدس «يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت – الكلام للمؤرخ الفرنسي ميشو – ويجعلونهم طعماً للنار. ويخرجونهم من الأقبية، ويجرّونهم في الساحات، ثم يقتلونهم فوق جثث الآدميين. وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ويخربون عمرانه، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره»(٢).

يقول فوشيه دي شارتر مؤرخ الحملة الفرنجية الأولى، وهو شاهد عيان «لقد كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين»، ويذكر مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية عن المذبحة فيقول: «لم تكن لتعرف جنودنا، فقد كانوا ملطخين بالدماء من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين».

لم يكن ممكناً في حالة الضعف والانهيار التي كانت عليها الخلافة العباسية في بغداد، أن يحدث رد على احتلال القدس، المدينة المدمّرة المحترقة. واتفق الصليبيون، من ناحيتهم، على تعيين غودفري دي بويون على المدينة، وكان لقبه حامي القبر المقدس. ولما جاء أخوه بولدوين، بعد عام، كان أول الملوك الافرنج.

المملكة اللاتينية: يعتبر الملك بولدوين (١١٠٠-١١١٨م) المؤسس الفعلي

---

(١) انظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة محمد عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٥، ص٣٥٣-٣٤٥.

w.stevenson, The crusaders The East, Berut, 1968, p. 32-33.

(٢) أمين الريحاني: النكبات، بيروت، مؤسسة دار الريحاني، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦، ص٨٦-٨٧.

للمملكة اللاتينية التي كان مقرها مدينة القدس؛ فقد احتل عدداً من المدن الساحلية، منها أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت، وبنى قلعة الشوبك في محاولة منه للسيطرة على تجارة البحر الأحمر. وعندما توفي كانت حدود مملكته من العقبة حتى بيروت، وكانت في أوج قوتها. غير أنه لم يتمكن، مع ذلك، من احتلال بعض المدن مثل صور أو عسقلان التي أُحتُلّتا بعد ذلك؛ فقد كان اتساع ملكه إلى الداخل برا من جهة شرقي الأردن.

أما بعض المدن الداخلية، فلم تُحتل قط من الصليبيين، وإن دفعت الضرائب أحياناً، ومنها: دمشق، وحماة، وحلب، وحمص، وبعلبك.

امتاز بولدوين بأنه حاول جاهداً نبذ سياسة الحقد الأعمى، فحاول كسب المسيحيين من سكان البلاد، كما تقرب من المسلمين واليهود بعد أن أذن لهم في عدد محدود من المساجد والمعابد، وأعاد للمدينة مكانة مرموقة، وقوّى صلات مملكته بأوروبا[١].

بقيت عسقلان في هذه المرحلة مع الفاطميين، وكانت لها أهمية استراتيجية كبيرة لكونها ميناء تصل إليه الإمدادات من مصر. ودينياً، يذكر أن رأس الحسين بداية دفن فيها ثم نقل إلى القاهرة[٢].

فقد استطاع بولدوين الثالث (١١٤٣م-١١٦٢م) فتح عسقلان المعقل الفاطمي الأخير، وبهذا النصر الكبير اعتبر الصليبيون ذلك دلالة على ثبات أقدامهم. والواقع أن جذور المملكة اللاتينية قد أخذت تهتز بسبب ظهور شرارة الجهاد الإسلامي التي رفعها عماد الدين زنكي ثم استكملها الأيوبيون والمماليك، وعماد الدين تركي حكم أولاً باسم السلجوقيين على الموصل، وقد صمم على توحيد سوريا

(١) اعتبر بولدوين الملك الأول على القدس منذ عهد هيرودس، وقد أطلق العرب عليه اسم بردويل.

(٢) المقريزي: الخطط، المجلد ٢/ ٢٨٣-٢٨٤، مكتبة العرفان، بيروت.

تحت حكمه وتطهيرها من الإفرنج. وكان استرداده للرها بداية المرحلة الصليبية الثانية؛ فقد تحمس الصليبيون من ناحيتهم وأرسلوا الحملة الثانية، فساهموا من حيث لا يدرون في انتشار الجهاد بين المسلمين.

تذكر الحقائق التاريخية حول سقوط القدس أن هناك تقصيراً واضحاً من جانب الفاطمية. لأن الأفضل كان بمقدوره وقف الزحف الصليبي الاستعماري. لأن قوة مصر آنذاك كانت حوالي عشرين ألف مقاتل. أما قوات الفرنجة الصليبية فلم تتجاوز (خمسة آلاف فارس + عشرين ألف من المشاة) معظمهم من العبيد والأقنان الذين لا يحسنون فنون القتال. ويتعجب أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي من قصور الفاطمية في حماية القدس بقوله: «والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من قلة المؤن والقوت. حتى أنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم» ثم يستاءل قائلاً: ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال.

أما ابن الأثير: فيتهم الأفضل بالتواطئ مع الفرنج فيقول: «إن أصحاب مصر العلويين، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها واستيلاؤها على بلاد الشام وغزة...، فخافوا وأرسلوا للفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام. أما المؤرخ اللاتيني (وليم الصوري) فذكر أن حصار الفرنج لأنطاكية قد أثلج صدر الأفضل. وقد حاول الفاطميون عبثاً التوصل إلى تفاهم مع الصليبيين حول سورية والقدس مرتين الأولى أثناء حصارهم لأنطاكيا. حيث عرض عليهم اقتسام سورية، على أن تكون القدس والمناطق الفلسطينية للفاطميين. والثانية أثناء حصار عكا: حيث تعهد الفاطميون منح الصليبيين حرية زيارة القدس وكافة التسهيلات، لقاء عدم تعرضهم للممتلكات الفاطمية وقد رفض الصليبيون كل تلك العروض[١].

---

(١) عبد القادر اليوسف: العلاقات بين الشرق والغرب، ص٧٠.

فكانت الفرحة في الغرب، والندب والبكاء على القدس في بلاد المسلمين. من قتل الخليفة والعلماء والأمراء المسلمين. وقد دعا بعض العلماء للجهاد لكن ذلك لم يفد شيئاً[1]. وحول ذلك الحال قال مظفر الأيبوردي أبياتا منها[2]:

مزجنـا دمـاء بالدمـوع السواجم	فلم يبقـى منـا عرضـة لمزاحم
فإخوانكـم بالشام يضحى قتيلهم	ظهـروا المـذاكي أو بطون القثاعم
تسـومهم الـروم الهـوان وأنتم	تجرون ذيـل الخفـض فعل المسالم

هكذا سقطت القدس بعد تهاون حكام المسلمين. حتى أن الضغط الشعبي في القاهرة، دفع الأفضل إلى إرسال قوة لنجدة أهل الشام والقدس، لكنها كانت استعراضية. وفي ذلك يقول الذهبي أن الأفضل خرج متثائباً متباطئاً أما الخلافة العباسية فلم يكن حالها أقل من ذلك. حيث خرج وفد من علماء دمشق إلى بغداد يطلبون نصرة أهل القدس. أخطر معها الخليفة أبو العباس أحد المستظهر بالله من السلطان السلجوقي ملكشاه (المسيطر على الخلافة) نجدة أهل الشام. فأرسل السلطان قوة رمزية، هُزمت في أول إلقاء مع الصليبية. كذلك عندما حاول سلطان السلاجقة في فارس إرسال حملة للنصرة تحالف ضده أمراء السلاجقة في الشام ودمشق وماردين مع الفرنجة ضد حملة النصرة خشية أن تُنتزع منهم إمارتهم من مثل سلاجقة الفرس. بهذا الاختلاف والتنافس على الحكم بين قادة المسلمين سقطت القدس وسقطت بعض مدن الشام.

هكذا سقطت القدس وظلت تحت سيطرة الاحتلال الصليبي حتى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. حيث حررها صلاح الدين الأيوبي في واقعة حطين الفاصلة.

أما الموقف الشعبي في الساحل الشامي وفلسطين. فقد استبسل أهلها في

---

(١) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، جـ١/ ٣٠٨.

(٢) نفس المصدر، جـ١/ ٣٠٨-٣٠٩.

الدفاع عن القدس وفي ذلك يقول وليم الصوري: «بالغ المواطنون في الدفاع عن مدينتهم وتحصينها، واعتلوا الأسوار والأبراج، وراحوا يراقبون كل حركة من حركات جيشنا». ثم أخذت أهل القدس مقاومة شعبية ظهرت بصور مختلفة منها. رفضهم زراعة الأرض لصالح الفرنجة، هجرة بعض أهلها إلى الجبال ومنهم إلى شرق الأردن وجنوب دمشق. وفي ذلك يقول وليم الصوري: «رفضوا زراعة الأرض حيث يبقوا شعبنا في جوع دائم». كذلك انضم الفلسطينيون إلى كتائب المسلمين في بلاد الشام، وكانوا أدلاء لهم. وحول ذلك يقول وليم الصوري: «كانوا أعداء قساة لشعبنا، وعلموا عدونا كيف يدمرونا، وكانوا قادرين على ذلك، لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا، إذ لا يوجد أكثر دماراً وتأثيراً من وجود عدو داخل أبوابنا، وقد حولوا كل البلاد إلى مقاطعة من الرعب فلم يجرؤ أي شخص الخروج من التحصينات».

أثر الاحتلال الصليبي على القدس[1]: جاء الأثر عاماً شاملاً الإنسان والأرض على السواء.

١- الحرق والتدمير والقتل والمجازر ضد سكانها. وإحلال الفرنجة محل سكانها.

٢- أحدث الصليبيون تغيرات طوبوغرافية بدأت بوضع المخطط المناسب لهم، وأصلحوا الأسوار، وأضافوا (برج تانكرد). وبنو قصر جديد للملك اللاتيني شرق برج داود. وأصبح المجمع الذي بناه تجار (أمالفي). مقراً للفرسان الأسبتارية. وتم إنشاء فنادق ومنازل لإقامة الحجيج. وكنائس وأديرة.

٣- إحداث تغييرات دينية منها تحويل المدرسة الشافعية إلى كنيسة القديس

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠/ ٢٨٣، بيروت ١٩٧٩؛ مجير الدين: الأنس الجليل، جـ١/ ٢٩٨-٢٩٩؛ أبو الفداء: المختصر، جـ٣/ ٨٣، طبع بيروت.

(أبوات حنّة)، وأصبح مسجد قبة الصخرة (هيكل الرب) وغيروا أسماء أبواب القدس.

٤- أحدثوا تغييرات سكانية احتلالية استيطانية. بإحلال سكان من العنصر الفرنجي بدل سكانها المسلمين والعرب، وأقليات أخرى. وغيروا التنظيم الاجتماعي للمدينة ومؤسساتها وحياتها اليومية وأعيادها بحيث شملت التغيرات الإنسان والأرض معاً.

٥- زادوا من عدد الأقليات خاصة من النصارى السوريين وعملوا على زيادة عدد السكان خاصة بعد اعتبار القدس عاصمة للمملكة اللاتينية. إضافة إلى منح استيطانية لعناصر سكانية مختلفة استقرت في القدس من يونان، بلغار، ألمان، إنجليز، مصريون، هنود وكثير غيرهم. وبرزت في المدينة العديد من الأعياد والاحتفالات أهمها (عيد الفصح) (أحد الشعانين).

٦- أحدثوا تغيرات اجتماعية حيث برزت إدارات ومجتمعات جديدة شارك فيها اللاتين بالدرجة الأولى. وفق طبقتين الأولى حاكمة من (البنلاء) والفرسان والبارونات والقوة الرئيسية المقاتلة في المملكة اللاتينية. والطبقة الثانية: الوسطى من الفلاحين. إلى جانب طبقة أخرى جديدة كوّنها «كهنة القبر المقدس» إلى جانب هيئتان عسكريتان هما (الداوية والإستبارية). أما النصارى من سكان القدس فقد عاشوا في أحياء خاصة بهم.

٧- أحدثوا تغيرات سياسية خاصة في الحكم. الملك رئيس الحكومة وينوب عنه في الجانب المدني (الفنيسكونت – الكونت) النائب وهو المسؤول الأول في الإدارة المدنية.

تحرير القدس «الزنكيون والصليبيون»

انطلقت أسرة آل زنكي، بقيادة عماد الدين، من الموصل ثم حلب ودمشق، في

الربع الثاني عشر الميلادي. ولاه السلطان السلجوقي محمد في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) على الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام[١]. ظهرت شخصية عماد الدين زنكي في بداية حياته أتابكاً، أي مؤدباً، للأميرين السلجوقي ألب أرسلان وفروخشاه، فوصف بأنه جندي بارع وسياسي لبق وإداري ممتاز، وقد استفاد من هذه الصفات خلال ممارسته الحكم. وبعد أن ثَبت أقدامه في الجزيرة وشمالي بلاد الشام ضم حلب إلى مناطق نفوذه. ثم وحّد بعض أجزاء العالم الإسلامي.

ولما كان الوجود الفرنجي (الصليبي) يمثل خطراً على بلاد الإسلام، كان لا بد أن يقاوم بعمل جهادي، يكون الجذوة الأولى للعمل الجهادي في مواجهة الخطر الصليبي وتحرير المقدسات. ولكي يحقق هدفه وضع خطة استراتيجية محددة لعمله هذا. بدأها بإيجاد جبهة إسلامية قوية موحدة، أتمها بضم الأمارات الصغيرة شرقي الأناضول، إلى نفوذه وأصبح بذلك مستعداً لإعلان الجهاد. فبادر بمهاجمة إمارة الرها الصليبية بفعل مجاورتها لإمارة الموصل، حيث نجح في دخولها، واستعادتها من الصليبيين في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٣٩هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٤٤م)، محققاً بذلك أهم إنجازاته الجهادية، حتى عُدّ هذا الفتح نصراً كبيراً للإسلام[٢]، لأنه مثل نواة انطلاقة الحركة الجهادية الإسلامية الوحدوية. كذلك حقق تطهير الطرق الممتدة بين الموصل وحلب من الوجود الصليبي وقد غيَّر هذا الفتح موازين القوى في منطقة الشرق العربي الإسلامي، ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي. وشكّل هذا الفتح أيضاً صدمة كبيرة للعالم النصراني الغربي. لكن الحياة لم تطل بهذا السلطان فحدث أن قتل عماد الدين زنكي على يد أحد غلمانه في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤١هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٦م) وهو يحاصر قلعة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٧- ٨.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٩.

(جَعبير) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وكانت في حوزة العقيليين[1].

كان عماد الدين زنكي رؤوفاً برعيته، معيناً بمصالحهم، كما كان محط أنظار الضعفاء لينصرهم على حكامهم المتعسفين. وساد العدل في أيامه، واطمأن الناس إلى سلامتهم الشخصية، وبعد وفاته اقتسم أبناء عماد الدين زنكي وهما: سيف الدين غازي ونور الدين محمود، إرث والدهما، فحكم الأول القسم الشرقي ومقره الموصل، وحكم الثاني القسم الغربي متخذاً من مدينة حلب قاعدة لحكمه[2]. وبهذا فقد ورثا المشتكلتين الكبيرتين اللتين صرف والدهما عماد الدين زنكي معظم أيامه في معالجتها، وهما قضية دمشق التي كان يحكمها البوريون المتعاونين مع الصليبيين، والإمارات اللاتينية المختلفة.

اتسم نور الدين محمود في نظر معاصريه وعند الأجيال اللاحقة، بسمة كبرى هي حميته الدينية الجهادية المتأججة التي استطاع أن يبثها بين المسلمين، حيث حمل لواء الجهاد ضد الفرنج، وصمم إلى جانب هذه الحمية، على إعادة الوحدة الروحية للإسلام وذلك بتعزيز المدارس السنية، وأعلن أن النصر مرهون بوحدة المسلمين السياسية، وهذا معناه عزل الأمراء المتقاعسين عن الجهاد أو المتعاونين مع الصليبيين. وكانت أتابكية دمشق تقف حجر عثرة أمام محاولاته لتحقيق الوحدة الإسلامية. ونجح بعد عدة محاولات في ضم دمشق في عام (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)[3] محققاً بذلك وحدة المسلمين في بلاد الشام تحت زعامته، ومكوناً بذلك أول قوة عربية إسلامية تضم شمال العراق وشرق الأناضول وشمال الشام ووسطه. في مقابل الوجود الاحتلالي الصليبي في الساحل الشامي وإقليم فلسطين ومنطقة جنوب شرق الأردن. هذا وقد عبر ابن الأثير عن مخاوف الصليبية من وحدة المسلمين خاصة بعد أن ضم

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص١٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص١٣- ١٤.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٠٧.

نور الدين دمشق، بقوله: «وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يمتلك نور الدين دمشق، لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلهم... فكيف إذا أخذها وقوي بها». شكل هذا العمل خطورة كبيرة على أوضاع الصليبيين في بيت المقدس بشكل خاص. ثم التفت إلى تصفية الإمارات الصليبية الثانية التي قدمت إلى الشرق نتيجة سقوط إمارة الرها، ففتح عدة مدن في بلاد الشام، وحصر الصليبيين داخل المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب من الأردن والعاصي[١].

ودخل نور الدين محمود في صراع دام مع إمارة بيت المقدس، في الوقت الذي كانت فيه مصر تتخبط، في الفوضى والاضطراب بفعل التنازع على منصب الوزارة وفي ظل ضعف الحكام الفاطميين. هذا الواقع دفع نور الدين محمود إلى تحقيق غايتين: سياسة واقتصادية، الأولى أن ضم مصر إلى بلاد الشام سيتيح له حصار مملكة بيت المقدس من الشمال والجنوب، وفي المقابل فإن وقوعها في أيدي ملك بيت المقدس عموري الأول من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من الجنوب والشمال، مما يشكل تهديداً خطيراً لحركة الوحدة الإسلامية. ثانيا: لم يغب عن تفكيره موقع مصر الاستراتيجي بالنسبة لفلسطين، ثم ثروة مصر الضخمة وميناء الإسكندرية الكبير وحركة التجارة بين الشرق والغرب[٢] التي تمثل الدعم المالي والاستراتيجي له في مواجهة الصليبيين.

في هذه الأثناء برزت في هذا الصراع الأسرة الأيوبية التي عملت في خدمة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وهي عشيرة تركية قدر لها أن تبلغ من القوة ما مكنها من أداء دور مهم في الصراع الصليبي في المشرق العربي على يد أشهر رجالها صلاح الدين، وقد صحبه عمه أسد الدين شيركوه في حملاته على مصر، وكان نور

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٠٧.

(٢) Stevenson: The Cruasers in the east pp185-186. ehrenkreuz, A.S: Saladin .pp17-17. Elisseeff: Nour Addin

الدين محمود قد أرسله إليها لضمها إلى الدولة الزنكية.

نجح أسد الدين شيركوه في السيطرة على مصر وتولى وزارتها، وخلفه صلاح الدين بعد وفاته، فقضى على الدولة الفاطمية بناء على إلحاح نور الدين محمود، وقطع الخطبة للعاضد الفاطمي في أول جمعة من (شهر محرم عام ٥٦٧هـ/ شهر أيلول عام ١١٧١م) وأقامها للخليفة العباسي المستضيء[١].

كان صلاح الدين ذا نزعات استقلالية، فأراد أن ينفرد بحكم مصر، مما أدخله في حالة من الجفاء مع نور الدين محمود الذي عده نائباً عنه في حكم مصر. وتوفي نور الدين محمود في (شهر شوال عام ٥٦٩هـ/ شهر أيار عام ١١٧٤م)، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان قاصراً، فخشي صلاح الدين أن تؤول الأمور إلى الوصي عليه، ورأى أنه الأحق بالوصاية[٢]، لذلك خرج إلى بلاد الشام لضمها إلى مصر منتهجاً سياسة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود في توحيد العالم الإسلامي، دينياً وجهادياً لغرض التصدي للصليبيين، وبهدف إخراجهم من المنطقة، هذا فقد نجح في تحقيق الشق الأول من خطته بعد وفاة الصالح إسماعيل في عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م)[٣]، واتجه إلى تحقيق الشق الثاني. بتخليص البلاد الإسلامية من أيدي الصليبيين.

الأيوبيون وتحرير القدس

قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الضعف والتحلل، الذي أصاب الدولة الفاطمية، التي أسقطها صلاح الدين في مصر (محرم ٥٦٧هـ/ أيلول

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٣٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص١٦٣. ابن تغري بردى: ج٥، ص٣٤١.
(٢) ابن واصل: ج٢/ ٧، ١٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩/ ٤٥٤.

١١٧١م). وقد دعا للخليفة العباسي المستضيئ على منابر مصر والقاهرة. وأصبح صلاح الدين سيد الموقف في مصر والشام وكانت اهتماماته الأولى دينية أكثر منها عسكرية[١]. لذلك اعتمد مشروعاً جهادياً وحدودياً، إقتداء بالدور الذي بدأه عماد الدين وابنه نور الدين من بعده[٢].

اتخذ صلاح الدين استراتيجية عسكرية تجاه الفرنج، تتلخص بإجهاد العدو وضربه في أي وقت وأي مكان، كي يبقى العدو في حالة استنفار دائمة، وبذا يستطيع إنهاكه وتحطيم إرادته القتالية، والتأثير النفسي عليه. فالبناء والإعداد للمشروع الجهادي الوحدوي استمر مدة سبعة عشر عاماً. وهذا المشروع كي تكتب له مقومات النجاح، كان لا بد من قوة عسكرية تحمي مكتسباته وتحقيق طموحاته، واقتصاد كثيف يضمن من موارده الكبيرة استمرار هذا المشروع، فشجع تجارة الشرق الأقصى وجعل من البحر الأحمر بحيرة إسلامية ثم عمل على وحدة الصف العربي

---

(١) انظر: Hillti, op. cit, p.600

(٢) W M de Slane, Ibn Khallikan's Biographical Dictionary Translated from the Arabic, Paris, 1843, II, 635.

كامل جميل العسلي: مخطوطات فضائل بيت المقدس دراسة وببلوغرافيا، عمان، ١٩٨١.

E Sivan, Le caractere sacre de Jerusalem dans I'Islam aux XIIe-XIIIe siecles, Studia Islamica, XVII, 1967, 142-182.

وكذلك

And The Begininnings of the Fada'il al-Quds Literature, Israel Oreiantel Series, 1971, 263-71; Isaac Hasson, Muslim Literature in Praise of Jerusalem: fada'il.

Bayt al-Maqdis', The Jerusalem Cathedre, Jerusalem, 1981, 168-84; KJ Asali, Makhtutat Fada'il.

Bait al-Maqdis': Dirasa wa-Bibliyughrafiya, Amman, 1984.

De slane-poole, saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem teprint, 1964, 235.

والإسلامي والقضاء على كل التناقضات التي يمكن أن تسيء إلى هذا المشروع أو تجهضه من الداخل، هذا بالإضافة إلى توفير القيادة الواعدة الواعية المخلصة لأهداف الأمة وكرامتها وعزتها. ولم يغفل صلاح الدين القوى العالمية من حوله، وقد تمثلت هذه بالقوتين الأعظم آنذاك وهما: الدويلات الإيطالية والدولة البيزنطية. فالدويلات الإيطالية استطاع أن يعقد معها اتفاقيات تجارية نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع دولته، يقول صلاح الدين: «ومن هؤلاء الجنوبيين الذين يسربون الجيوش – البنادقة – البيازنة – الجنوية – كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرّهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة. وتقتصر عنهم يد الحكام المرهوبة. وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويقترب إلينا بإهداء ظرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قررت معه المواصفة، وانتظمت معه المسالمة، على ما نريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون». أما البيزنطيون فعقدوا مع صلاح الدين معاهدة نصت على المسالمة والعلاقات الحسنة بين الطرفين، يقول صلاح الدين: «فمنهم صاحب القسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت... وجرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرية، وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجني خراجاً، ومنها أن يملك فجاجاً... فأخذنا ولله الحمد بكظمه، وأقمناه على قدمه. ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وألقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مناصحة إلى مناصحة». فصلاح الدين والحالة هذه ضمن تحييد أكبر قوتين يمكن أن تتدخلا إلى جانب الفرنج في بلاد الشام. ثم إن الوحدة التي نشدها صلاح الدين أصبحت حقيقة واقعة. فأول عمل قام به صلاح الدين هو تحرير العقبة سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، ليبقى الطريق ميسراً بين دمشق والقاهرة.

وفي العام التالي لقيام الدولة الأيوبية بدأ صلاح الدين الزحف على جنوب

فلسطين، حتى يمهد الطريق البري الذي يصل المشرق بالمغرب، لا خدمة للتجارة وحدها، ولا تأميناً لقوافل الحج فقط، وإنما، أساساً وبالدرجة الأولى، لإقامة طريق الجبهة القتالية الموحدة من حول الصليبيين، وكان حصن «الكرك» الصليبي بجنوب فلسطين، يحكمه «ريجنالد» أشرس وأعتى أمراء الصليبيين وقد تعرض هذا الحصن لأربع غزوات من صلاح الدين.

وقبل الاستيلاء على قلعته في الغزوة الأخيرة كان الأسطول المصري قد حقق انتصاراً بحرياً ضد الأسطول الصليبي في البحر الأحمر سنة ١١٨٢م عندما قاد «حسام الدين لؤلؤة الحاجب» «متولي الأسطول بمصر» هذه المعركة ففك حصار الصليبيين لحصن العقبة «أيله» وميناء «عيذاب» وأجهض محاولة الصليبيين لتدمير الأماكن المقدسة الإسلامية في أرض الحجاز.

ثم ضم اليمن إلى سلطانه ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، حتى يضمن مورداً اقتصادياً يرفد حركة نضاله وجهاده ضد الفرنج في (البحر الأحمر – طريق البخور). وبذلك حقق وحدة مصر والشام وشمال العراق وشمال الأناضول والحجاز واليمن. وقد تهيأ للانتقال إلى المجهود الجهادي. فنقل كل عملياته العسكرية إلى دمشق واتبع في ذلك خطة استراتيجية شرحها في رسالة من إنشاء القاضي الفاضل. حيث استرد دير البلح وغزة وعسقلان، ووصل بجيشه إلى مقربة من نابلس. وطلب منه الملك بولدوين الرابع عقد الهدنة، فوافق صلاح الدين، وكانت الهدنة في أيار/ مايو ١١٨٠م. غير أن الجيش الأيوبي هزم بعد ذلك في تل الصافي[(١)]؛ فقد باغته جيش الإفرنج وتمكن من هزيمته، مما اضطر صلاح الدين إلى العودة إلى مصر مع فلول جيشه، وقد هلك منهم الكثير في الصحارى جوعاً وعطشاً. وفي ذلك يقول: «وعرفنا أن البيت المقدس أن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر أن لم يجرد العزم في قلعه، وإلا ثبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٤٤، ٤٥، ١٤١-١٤٢.

القادرين بالقعود آثمة. وأنا لم نتمكن بمصر منه على المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة، والجموع متيسرة، والأوقات مساعدة». وعندما تمت له الوحدة بانضمام حلب والموصل قال قولته المشهورة «وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعمت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق، وارتفعت الموائع»، وقوله: «أنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم» وهكذا دعا صلاح الدين إلى الجهاد الأعظم.

كان من شروط الهدنة بين الفريقين حرية التجارة ومرور القوافل. غير أن رينالد، حاكم الشوبك والكرك (في شرق الأردن) نقض الهدنة لما انقضّ على قافلة عربية في تيماء. وأرسل صلاح الدين إلى الملك بولدوين الرابع في القدس يذكره بالهدنة، ويطلب التعويض، فرفض الملك الطلب. وكرر رفضه ثانية بردّ البضائع والتعويض في مقابل الأسرى من الحجاج لدى صلاح الدين؛ وكان هؤلاء في طريقهم إلى فلسطين، فقذفت بهم أنواء البحر إلى شواطئ مصر. ولما لم يبق إلا الحرب حلا، توجه صلاح الدين إلى دمشق، وأخذ يستعد للتحرير الشامل.

معركة حطين وتحرير القدس

عبأ صلاح الدين قوته واستعداده تمهيداً للمعركة الفاصلة. كذلك ساهم العلماء والأدباء والمنجمون في التعبأة العامة لحركة الجهاد وتطهير بيت المقدس، فالعلماء دورهم كبير في دعوة الناس للوحدة والجهاد اتجاه بيت المقدس. والشعراء ما انفكوا يذكرون بواجب المسلمين في تحرير القدس، والحديث عن مقدساتها. والمنجمون حولوا صناعاتهم في ذلك العصر إلى عوامل تثير في الحكام الإحساس بالخطر الصليبي وضرورة قهره.

ويأتي موكب المنجمين إلى صلاح الدين ليقولوا له: إن نجمك يخبر أنك

ستدخل القدس، ولكن بعد أن تفقد إحدى عينيك في القتال، فيجيبهم صلاح الدين بقوله: «قد رضيت بأن أعمى وأدخل المدينة». وكذب المنجمون ولو صدقوا.

قبل صلاح الدين التحدي عندما غزا أرناط صاحب الكرك الحجاز وجنوب الجزيرة العربية وكان هدفه محاولة هدم الكعبة ونبش قبر الرسول ﷺ ، فقام ارناط بحملتين من الكرك الأولى سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م والثانية ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ولكن صلاح الدين هزم قوات الفرنج هذه. ثم أن ارناط أسر قافلة تجارية إسلامية متجهة من مصر إلى دمشق وعندما قالوا له أن هناك هدنة بيننا، قال لهم: «قولوا لمحمدكم يخلصكم». قبل صلاح الدين التحدي وأقسم أن يقتله بيده فجمع قواته من جميع أنحاء دولته وحدد الزمان والمكان وكانت معركة حطين في يوم الجمعة ٢٤ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤تموز ١١٨٧م انتصر فيها صلاح الدين على أكبر جيش صليبي ثم دخلت قواته القدس وتمكن من تحريرها في ٢٧رجب٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين أول ١١٨٧م.

خلال الاستعداد للحرب كان صلاح الدين يرسل الغارات على العديد من مدن فلسطين. بينما كان رينالد، من ناحيته، يتعرض للقوافل العربية، واستبد به الغرور حتى حاول التقدم نحو المدينة المنورة، ورفض استقبال مبعوثي صلاح الدين. ولما توجه صلاح الدين نحو فلسطين للمرة الثانية، كان قد أتم إعداد جيشه على أكمل وجه[1].

كانت المعركة الأولى على أبواب طبريا، وقد استردها بعد حصار ستة أيام. وكان استرداد هذه المدينة إيذاناً بهول المعركة القادمة.

تقابل الجيشان في سهل حطين، والتحما في الثالث والرابع من تموز/ يوليو ١١٨٧م. ولما كان الحر شديداً، فقد تغلب على جيش الإفرنج العطشُ والإرهاق من

---

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم١، ص١٨٤-١٨٩.

أسلحته الثقيلة. ولما أُحرقت أمامه الحشائش، زاد لهيب النار في قسوة المعركة[1].

في المقابل كان جيش صلاح الدين خفيف السلاح، وما برح يمطر عدوّه بوابل من السهام حتى تحقق له النصر، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للإفرنج. ومن نجا منهم وقع في الأسر. وكان في مقدمة الأسرى ملك القدس غي دي لوزينيان، وقد عامله صلاح الدين بنبل، وكما يعامل الملوك قائلاً له: «الملك لا يقتل ملكاً». أما معاملته لرينالد، فقد اختلفت تماماً؛ فهذا ما كان ملكاً، ولا راعي حرمة العهود، وقد قتله صلاح الدين بنفسه جزاء صلفه ورعونته[2]. وكانت حطين هي المعركة الفاصلة، وهي بداية النهاية في حكم الإفرنج الصليبيين.

رفض الإفرنج شروط صلاح الدين لتسليم مدينة القدس، وقد عرض عليهم أن يؤمّنهم على أراواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج سالماً. وكان ردهم بأن الموت أيسر عليهم من تسليم المدينة للمسلمين. لكن هذا الموقف لم يكن موقف المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين، إذ أنهم كانوا يشعرون بالحنين إلى ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، وبلغتهم؛ فهم ما برحوا، منذ قدوم الإفرنج الصليبيين، يشهدون طقوساً لاتينية لا يفقهونها. ولما وثق صلاح الدين بالعالِم الأرثوذكسي يوسف بابيط اتخذه مستشاراً، وقد نقل له ترحيب الأرثوذكس العرب بقدومه، واستعدادهم للمساعدة.

في خريف سنة ١١٨٧م، وقف صلاح الدين عند أسوار القدس، وكان ملكها قد أسر في حطين – كما ذكرنا – فحل مكانه في قيادة المدينة باليان بن بيرزان، وهو أحد الأمراء الناجين بعد حطين. وقد استأذن صلاح الدين في زيارة القدس ليلة واحدة ليعود بأهله، فأذن له. لكن سكان المدينة الإفرنج أجبروه على البقاء لتسلم القيادة. وقد تفهم صلاح الدين موقفه هذا فيما بعد، ولم ينتقم منه.

---

(١) Baldwin, op. cit, p. 303.

(٢) Hitti, op. cit, pp. 601-602.

بعد خمسة أيام من الحصار، أمضاها صلاح الدين في دراسة أوضاع السور المنيع، ابتدأ الهجوم بالمنجنيق من جهة باب العامود، وكان قتالاً غاية في الضراوة؛ فكل فريق يرى في القتال واجباً دينياً مقدساً. واستمر القتال أسبوعاً كان خلاله خيالة الإفرنج يخرجون للمبارزة، وكان المجاهدون يقتربون من السور يثقبونه لفتح الثغرات. ولما أيقن الإفرنج بقرب الهزيمة أرسلوا يطلبون الأمان وتسليم المدينة فرفض صلاح الدين، وكان ردهم بأنهم سيقومون بقتل أبناءهم ونسائهم وأسراهم، وكذلك إلى حرق الأموال وهدم الأقصى، وبعدها سوف يقاتلون عن آخرهم.

استشار صلاح الدين من معه، فاتفقوا على وقف الحرب وإعطاء الأمان، كما اتفقوا على فدية الرجل بعشرة دنانير، والمرأة بخمسة، والطفل بدينارين، فمن أدّى ذلك خلال أربعين يوماً نجا، وإلا صار مملوكاً.

دخل صلاح الدين الأيوبي وجيشه بيت المقدس في ٢٧رجب ٥٨٣هـ/ ٢تشرين الأول – أكتوبر – ١١٨٧م. والحكايات التي تروى عن رأفته ورحمته وإبائه لا حصر لها؛ فقد سمح للإفرنج بأن يأخذوا ما يشاؤون من الأموال، وأرسل ملكة القدس إلى زوجها لوزينيان، الملك الأسير في قلعة نابلس، مع مالها وحشمها. ولما خرج البطريرك ومعه من الأموال ما لا حصر له، لم يأخذ منه سوى الدنانير العشرة، الفدية المطلوبة.

وابتدأ صلاح الدين العمران، وكان المسجد الأقصى مملوءا يالأقذار، فقد كان يستعمل اسطبلات للخيول ومستودعات للأسلحة، ومساكن. وبعد أسبوع من العمل، تمكن صلاح الدين من الصلاة في المسجد[1].

إن المفارقة مذهلة بين صلاح الدين في القدس، والإفرنج الصليبيين في القدس قبل ثماني وثمانين سنة. ولننقل عن رنسيمان، لا عن مؤلف عربي، ما قاله في

---

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم١، ص١٩٠-٢٠٠.

هذا الشأن:

الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما الفرنج منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه. إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي أن يلتمس المال لافتدائه. وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء، وقدرها ثلاثون ألف دينار...

ومن المظاهر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات «العادل» إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فأطلق على الفور سراحهم. وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأنه يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقّاء ليعتقهم، فبذل صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير. ثم أعلن صلاح الدين أنه سيطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز. فلما أقبل نساء الإفرنج اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن، أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن. وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته. والواقع أن رحمته وعطفه كانا من نقيض أفعال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى[1].

وبقي في المدينة الأرثوذكس واليعاقبة، فابتاع أغنياؤهم قسماً كبيراً من الأملاك الخالية، وأعفي فقراؤهم من دفع الجزية.

تلاحقت الانتصارات بعد استرداد القدس من حصون الشوبك (في الأردن)

---

(١) ستيفن رنسيمان، الجزء الثاني، ص٧٥٢-٧٥٣.

جنوبا حتى قلعة الشقيف (في لبنان) شمالاً. ومن ناحية ثانية، أدى استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة إلى الحملة الصليبية الشهيرة الثالثة بقيادة الملوك الثلاثة[1]، الذين لم يصل منهم سوى ريتشارد قلب الأسد، ملك انكلترا.

لم يتقابل الملكان – صلاح الدين وريتشارد – قط، غير أنهما تبادلا الهدايا. ولما مرض ريتشارد أرسل له صلاح الدين طبيبه الخاص. وفي سنة ١١٩٢م وقعا صلحا اعترف فيه بسيادة الإفرنج على قسم من الساحل، وبحرية الحج.

رأى بعض المؤرخين والعسكريين أن صلاح الدين ارتكب خطأ بالسماح للفرنج بالخروج من القدس وبقية المدن الفلسطينية من منطلق تسامحه الديني فاجتمعوا في صور وأعادوا احتلال عكا بمساعدة الحملة الثالثة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وبقية مدن الساحل واستمرّ وجودهم نتيجة ذلك الخطأ مئة سنة أخرى، وانتقلت مملكة بيت المقدس من القدس إلى عكا. وقد انتقد المؤرخون المسلمون تصرف صلاح الدين هذا (فابن الأثير يقول: «وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره، حتى عض بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك»). أما سبط ابن الجوزي فيقول: «لقد صنع السلطان الحزم بتسيير الفرنج إلى صور، ولم ينظر في عواقب الأمور، فإن اجتماعهم بصور كان سبباً لأخذهم البلاد وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأخيار الإسلام».

صلح الرملة: وأخيراً وافق صلاح الدين على صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/ أيلول ١١٩٢م وعقد هدنة معهم مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. يقول ابن شداد مؤرخ صلاح الدين: «إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى به العدو». ويذكر سبط ابن الخوري: «أن الناس ملوا الحرب وعلتهم الديون». إذن

---

(١) هم: فريدرك بربروسّا الألماني وأوغسطس الفرنسي وريتشارد قلب الأسد الانكليزي.

فالصلح كان فرصة للإستعداد لمعركة أخرى لتحرير الأرض كاملة ومما تجدر ملاحظته أن صلاح الدين بعد الصلح هذا سمح بتعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة. إلى جانب من كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة.

أما شروط صلح الرملة فقد نصت على ما يلي:

١- أن يستقر بيد الفرنج المنطقة الساحلية من صور إلى يافا وعملها، وقيسارية وعملها، وحيفا وعكا وعملهما، بالإضافة إلى أرسوف.

٢- أن تكون البلاد الجبلية التي فيها قلاع بيد المسلمين.

٣- أن تكون اللد والرملة مناصفة بين الطرفين.

٤- أن تكون عسقلان خراباً.

٥- اشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية (الباطنية) في وسط سوريا في الصلح، وفي المقابل اشترط الفرنج دخول إنطاكية وطرابلس في الصلح.

٦- أن يكون للفرنج والحجاج النصارى حرية الحج إلى بيت المقدس، دون دفع أية ضريبة، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق، فمرض فجأة وتوفي فيها يوم الأربعاء ٢٧صفر ٥٨٩هـ/ ٤آذار ١١٩٣م، وعمره ست وخمسون سنة[1].

استمرّ وجود الإفرنج قرناً من الزمن بعد صلاح الدين، وتلك هي المرحلة الثالثة التي اتسمت بتقلّص نفوذهم في شريط ساحلي ضيق، وبالحروب الصغيرة المتواصلة. وقد انتهت هذه المرحلة نهائياً بخروجهم في عهد المماليك. غير أهم لم يفقدوا الأمل أو المحاولة لاسترداد القدس؛ ففي عهد أبناء صلاح الدين خططوا

(١) ابن الأثير، جـ١/ ٢٤ص-٢٦، ٣١-٣٢، ١١١-١١٢؛ أبو شامة، جـ٢/ ص٢٠٣؛ ابن واصل، جـ٢/ ص٤٠٣-٤٠٤.

لاحتلال الإسكندرية، لمبادلتها بالقدس. وفي عهد الكامل بن العادل، ثم بينه وبين فريدريك الثاني اتفاقية تنص على إعطائه الأماكن المقدسة (القدس، وبيت لحم، والناصرة) مع صيدا في لبنان لمدة عشر سنوات (١٢٢٩م-١٢٣٩م)، ومع هذا بقاء الحرم الشريف مع المسلمين. وقد تنازل الكامل لفريدريك في مقابل مساعدته ضد أعدائه من الأيوبيين!! لكن المسلمين عادوا فاستردوا الأماكن المقدسة بعد ثماني سنوات فقط. وللمرة الثالثة، حكم الإفرنج القدس (١٢٤٤م) لمدة سنة واحدة، وقد استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين بالتعاون مع الخوارزميين الأتراك[١]. وتثبت هذه المرحلة أن الإنقسامات الداخلية كانت صفة مشتركة بين الفريقين.

ساهم وجود الصليبيين في العمران في فلسطين، وقد تأثرت به البلاد إلى مرحلة ما حتى بعد خروجهم؛ فقد اشتهروا ببناء الكنائس وترميم ما تهدم منها، وببناء القلاع والمستشفيات. وبنوا في القدس أسواقاً تجارية وبيوتاً واسعة من الحجر، غير أنهم لابتعادهم عن الاختلاط بالسكان لم يبنوا بيوتاً صغيرة داخل الأحياء الآهلة في المدن. لذا كان عمرانهم، في الدرجة الأولى، من نوع المباني العامة، والتي كانوا يستعملونها للسكن، كذلك. أما قلاعهم فكانت على نمط قلاع القرون الوسطى في أوروبا؛ ومن أهمها في عتليت، وأرسوف، والقسطل، وعسقلان وغيرهما[٢].

تقييم تحرير صلاح الدين للقدس: على الرغم من أن عصر صلاح الدين الأيوبي لم يكن بالعصر الذي علا فيه صوت الفكر القومي والمشاعر القومية، إلى الحد الذي يفوق فيه تأثير المشاعر الدينية والروابط الروحية الخاصة بالإعتقاد والملة. فإن صوت الدين والجهاد كان الأعلى من سياسة صلاح الدين اتجاه أجناس السكان

---

(١) Hitti, op. cit., pp. 604, 606-607.

(٢) Dimitri C. Baramki, The Art and Architecture of Ancient Palestine (Beirut: Palestine Liberation Organization – Research center, 1969), pp. 221-222, 224-225.

الذين التقى بهم في المدن الصليبية وفي القدس بوجه خاص. وقوامه التسامح الإسلامي، حيث وقف موقفاً دينياً قومياً ناضجاً نابعاً عن وعي سياسي يستحق التقدير والإعجاب بين المسلمين وغير المسلمين على السواء. من هذا المنطلق حدد صلاح الدين سياسته وفق ما يلي:

أولاً: حدد المواجهة بين المسلمين من جهة، والفرنجة الصليبيين الغزاة العنصريين الذين حاولوا ستر استعمارهم الاستيطاني خلف أعلام المسيحية والصليب. من جهة أخرى. وبهذا حيّد مسيحيو العرب الشرقيين عن الغزاة الفرنجة الصليبيون.

ثانياً: جاء فتح القدس استجابة سياسية ذكية لواقع كانت تحياه المدينة قبل الفتح، وشعر به صلاح الدين وعايشه سكان القدس. حتى أظهر عدد من مؤرخي الفرنجة أصحاب الوجهة الصليبية، انحياز المسيحيين الشرقيين إلى جانب صلاح الدين في المواجهة، بسبب سياسته الدينية المبنية على التسامح الحقيقي.

ثالثاً: بنى صلاح الدين سياسته على حساب الاستفادة من التناقضات الحادثة بين الأمراء الصليبيين. كمثل العلاقة التي أقامها مع أحد الأمراء الصليبيين في طرابلس من خلال إطلاق سراح أسراه لدى المسلمين. بعد وقوع الخلافات بينهم على عرش الإمارة في الولاية. وحول ذلك ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ: «إن ذلك كان من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنفاذ بيت المقدس منهم».

رابعاً: موقف صلاح الدين القومي ينفي عن العقل العربي والطبيعة العربية، ما يرميها به المغرضون من تهم. حول تقييم الموقف العربي أنه مجرد الفوران الذي يعقبه الخمود والنسيان. بل أكد على القدرة العربية على الصمود النفسي، بل والغليان الدائم والمستمر حتى تتحقق العدالة والنصر في المعارك الهامة والمصيرية.

خامساً: اعتماد صلاح الدين السلوك الإنساني في وقت النصر والهزيمة على

السواء، بدد التصورات الخاطئة والمضللة التي ابتدعها وروج لها البابوات والأمراء الصليبيون في نفوس السذج من الناس، عندما بعثوا بهم إلى الشرق لسفك دماء المسلمين والعرب واستعمارهم تحت دعاوي دينية مزعومة ظاهراً.

سادساً: ركز صلاح الدين على عقيدة المقابل الإسلامي وروحه الجهادية نصرة للحق وأهله، بعيداً عن العنصرية والاستعمار. والنموذج في ذلك ذكره المؤرخ ابن شداد عن المجاهد (عيسى العوام).

سابعاً: انتصار صلاح الدين يمثل انتصار الحق والعدل المنسجم مع سنن الكون وإرادة الحياة وحركة التاريخ، في مواجهة الباطل والظلم والاحتلال والقتل والمجازر وقانون الدمار ليقيموا بواسطتها ملكاً على أنقاض الشرائع والقيم والبشر.

ثامناً: انتصار صلاح الدين جاء انتصاراً للقيم الإنسانية التي جاء بها دين الإسلام. وقد ترك في نفس الأوروبيين والصليبيين انطباعاً إيجابياً. دفعهم أولاً: للاطلاع على تراث الشرق وحضارته وثقافته، ثم دفعهم ثانياً: إلى اعتماد العوامل الأساسية في نهضة أوروبا بما عرف (بعصر النهضة والإحياء).

تاسعاً: انتصار صلاح الدين في القدس شبه بأقدس المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام. وعدّ جهاده حلقة تتويج لجهاد مستمر ضد أعداء الإسلام[١].

عاشراً: حال البلاد الإسلامية شجع الفرنجة الصليبيون على التوجه إلى الشرق، خاصة بعد ظهور الصراع والتنافس بين السلاجقة والفاطمية في ظل عجز دولة الخلافة العباسية وعدم قدرتها ردّ الخطر الصليبي الذي هدد العالم الإسلامي.

أحد عشر: ارتكب الفرنجة مذابح بشعة في بيت المقدس. اعترفت بها المصادر اللاتينية. حيث ذكر فوشيه دي شارتر مؤرخ الحملة الصليبية الأولى وهو

---

(١) Deslane, Ibn Kha Hiran, 37-61.

شاهد عيان بقوله: «لقد كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين». أما وليم الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية بقوله: «لم نكن لنعرف جنودنا فقد كانوا ملطخين بالدماء من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين».

اثنا عشر: أظهرت فترة الحملات الصليبية موق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال الصليبي. حيث يذكر وليم الصوري قوله: «بالغ المواطنون في الدفاع عن مدينتهم وتحصينها ضمن حركة مقاومة شعبية غاية في القوة».

ثالث عشر: اعتمد صلاح الدين خطة عسكرية استراتيجية اتجاه الفرنجة المستعمرين بدأها ترتيباً:

أ- تحقيق مشروع جهادي وحدوي إصلاحي نهضوي استمر سبعة عشر عاماً قبل المعركة الفاصلة.

ب- بناء قوة عسكرية قادرة على المواجهة وفق اقتصاد موجه يضمن بناء القوة من جهة واستمرار المواجهة حتى النصر من جهة أخرى.

جـ- اعتماد سياسة الاستنزاف وإجهاد العدو وفق استعداد مستمر.

د- اتباعه سياسة حكيمة في مواجهة خصومه من الداخل والخارج، ضمن خلالها تحيد أكبر قوتين (الدولة البيزنطية والدويلات الإيطالية). يمكن أن تتدخلا إلى جانب خصومه الفرنجة الصليبيون.

رابع عشر: استخدم صلاح الدين في عملية الدفاع عن المدينة المقدسة، أسرى الفرنجة في حفر خندق عميق، وإعادة بناء الأسوار والأبراج حول الأجزاء غير المحصنة والمعرضة للهجوم.

السلطنة الأيوبية بعد صلاح الدين:

لم ينعم السلطان صلاح الدين بهذا الصلح، فقد توفي بعد بضعة أشهر في

(شهر صفر عام ٥٨٩هـ/ شهر شباط عام ١١٩٣م) [١]. وكان قد قسم دولته قبل وفاته بين أولاده وأخيه العادل. ولم تكد تنقضي سنة واحدة على وفاته حتى دب الخلاف بين هؤلاء الورثة، واستطاع أخوه القضاء على أولاده واحداً بعد آخر. وقدر لذرية صلاح الدين في حلب البقاء حتى الغزو المغولي في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).

ونجح الملك العادل في توحيد معظم أجزاء الإرث الأيوبي[٢]، واستطاع الأيوبيين على الرغم من هذه القلاقل أن يحافظوا على البلاد في حوزتهم من عدوان الصليبيين، وينتهجوا معهم سياسة سلمية. فقد أظهرت الحملات الصليبية اللاحقة قوة مقاومة اللاتين، كذلك تأثر السكان بفوائد العلاقات التجارية السلمية ولئن نقض الصلح أحياناً، فقد كان ذلك بمبادرة من الغرب الأوروبي الذي أراد أن ينتزع بيت المقدس من المسلمين. هذا وانتقل مركز الثقل الإسلامي آنذاك إلى الديار المصرية التي انطلقت منها حملات صلاح الدين ضد الصليبيين، لذلك كانت هدفاً لهؤلاء، وقد أغارت عليها الحملة الصليبية الخامسة في عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م). بقيادة الملك يوحنا بريين، ونزل أفرادها في دمياط، ثم اضطروا إلى الإنسحاب عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م تحت وطأة الضغط العسكري الإسلامي، ومات الملك العادل كمداً، قبل ذلك[٣].

---

(١) ابن الأثير، المصدر نفسه، ص١١٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية؛

Ibn Shaddad, Al-Nawadir al-Sultaniya wa'l-Mahasin al-Yusufiyya, Recueil des historicus des Croisades: Historiens orientaux, Paris, 1884, III, 265.

Humphreys, Saladin, 145.

(٣) Hans L Gottschalk, Al-Malik al-Kamil von Agypten seine Ziet, Wiesbaden, 1958, 48-50; H A R Gibb, The Aiyubids, A History of the Crusades, ed Settron, II, 694-97.

Gottschalk, Al-Kamil, 88.

ورغب الملك الكامل بن العادل الأيوبي في تحقيق السلام، وقد صادفت هذه الفكرة تأييداً من فريدريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا الذي قدم إلى الشرق على رأس حملة عسكرية في عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م). وبلغت هذه الرغبة من القوة أن أعاد الكامل إلى الإمبراطور الألماني بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، وممرين يوصلان إلى كل من يافا، وصيدا ما عدا الكرك والشوبك للرحيل عن مصر مشترطاً مقابل ذلك نزع السلاح فيها، وضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية، وتعهد الصليبيون باحترام ممتلكاته في بلاد الشام[١]، على أن يستمر هذا التدبير ما دامت الهدنة قائمة، أما الحملة السادسة فسببها الصراع والخلاف بين الأخوة الأيوبيين فاستنجد الكامل محمد (بفريدريك الثاني ملك الإمبراطورية الرومانية فسلم له الكامل القدس سنة ٦٢٦هـ).

استفاد الكامل من الصلح الذي دفع ثمنه فلسطين، فانصرف إلى نشر سلطانه في الشمال على حساب دولة سلاجقة الروم التي قامت في الأناضول، فأثار بذلك حفيظة أخيه الملك الأشرف في دمشق[٢]. ولما وصل الكامل إلى أبواب دمشق لمحاربة أخيه توفي الأشرف، ولم يلبث الكامل أن توفي هو الآخر في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) فخلفه ابنه الملك العادل الثاني. ولم تنقض سنتان حتى ثار عليه أخوه الملك الصالح أيوب، وأخرجه من مصر[٣]. ثم إن الملك الصالح استطاع بقوة من الأتراك الخوارزمية الفارين من وجه جنكيز خام أن يستعيد بيت المقدس في عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) من يد ابن عمه الناصر داود ابن الملك المعظم أمير الكرك، وكان هذا قد سيطر عليها بعد انقضاء أجل الهدنة المعقودة مع فريدريك الثاني[٤].

---

(١) المصدر ذاته، ص٤٣٤-٤٣٥.

(٢) ابن تغري بردي، ج٦، ص٢٨٢-٢٨.

(٣) المصدر ذاته، ص٣٠٠؛ أبو شامة: ذيل الروضتين، ص١٦٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٦.

وقدر للملك الصالح أن يوحد من جديد دولة صلاح الدين بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا، وحفل عهده بالصراع الداخلي ضد منافسيه من البيت الأيوبي، وضد منافسيه من الأيوبي، وضد الصليبيين، بالإضافة إلى الخوارزمية المرتزقة. وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصالح يتجهز لمحاربة يوسف الثاني صاحب حلب، جاءته الأنباء بغزو الصليبيين لمصر مرة أخرى بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس، واحتل جنوده دمياط في (شهر ربيع الأول عام ٦٤٧هـ/ شهر تموز عام ١٢٤٩م) [١]. وكان الملك الصالح آنذاك مريضاً حتى إذا توفي. في (شهر شعبان/ شهر تشرين الثاني) كتمت امرأته شجرة الدر خبر وفاته إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة الفراتية، مصطحباً مماليكه، وقد نجح في استرجاع دمياط من الصليبيين وأسر الملك لويس[٢].

أثارت تصرفات توران شاه ومماليكه مماليك مصر، فقتلوه ونصبوا شجرة الدر ملكة على أن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي، الذي لقب المعز، أتابك العساكر، وما لبث أن تزوج شجرة الدر التي بسطت سلطانها المطلق على مصر[٣]. وبذلك زالت الدولة الأيوبية في مصر لأن شجرة الدر حكمت في مرحلة انتقالية سيطر بعدها المماليك الأتراك على مقاليد الأمور.

منشآت صلاح الدين والسلاطين الأيوبيين في القدس: نجح صلاح الدين في إعادة القدس للإسلام وفي تعمير الأماكن المقدسة الإسلامية، وإقامة مؤسسات دينية جديدة، وتسهيل وصول الحجاج المسيحيين واليهود إلى المدينة. إلى جانب تطهير قبة الصخرة والمسجد الأقصى وسائر المقدسات والمساجد الإسلامية، وفق خطة أعادت لهذه المدينة طابعها العربي والإسلامي وقدسيتها الدينية ومكانتها العظيمة في قلوب

---

(١) المصدر ذاته، ص٣٣٤-٣٤٦؛ ابن تغري بردي، ج٦، ص٣٢٩-٣٣٠؛ joinville p90.

(٢) ابن تغري بردي، ج٦، ص٣٦٤-٣٦٧.

(٣) المصدر ذاته، ص٣٧٣-٣٧٥.

أصحاب الديانات في الجانب الإسلامي:

أولاً: طهر قبة الصخرة والمسجد الأقصى من كل التغيرات التي أحدثها الصليبيون[1]. وأنشأ الأسبلة للوضوء والشرب داخل الحرم.

ثانياً: نقل منبر نور الدين إلى وضعه في المسجد الأقصى وفي عهد الملك العادل تم ترميم أروقة الحرم (عبر عنها في عشرة نقوش، وبناء برج القلعة) وفي عهد الملك المعظم عيسى اختط مدرستين الأولى لتدريس الفقه الحنفي، والأخرى لتدريس اللغة العربية.

ثالثاً: إقامة المؤسسات الدينية حملت اسم صلاح الدين منها:

- المدرسة الشافعية (الصلاحية) لتدريس الفقه الشافعي باعتباره المذهب الفقهي السائد في العهد الأيوبي والمملوكي[2].

- المدرسة الأفضلية على المذهب المالكي - ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م - رباط الصوفية/ الخانقاة (الصلاحية) في المقر السابق لبطريرك القدس[3]. ثم مستشفى (البيمارستان الصلاحي)[4]. ثم أسكن عدد من القبائل العربية في القدس وما حولها حفاظاً على إسلامها وعروبتها[5]. هذا إلى جانب اهتمامات أخرى تمت في عهد

---

(١) انظر: مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص٣٣٩، الجزء الأول، عمان ١٩٧٣؛ الأنس الجليل، ج٢/ ص١٠١-١١٨.

(٢) كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، عمان ١٩٨١، ص٦١-٦٣. وهو يعتقد أن صلاح الدين قرر إنشاء المدرسة في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م؛ ولكنها لم تفتح إلا في سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م؛ الأنس الجليل، ٢/ ١٠١-١١٨.

(٣) العسلي: معاهد، ص١١٦-١١٧.

(٤) العسلي: معاهد، ص٢٩٤-٢٩٦.

(٥) في المنشآت انظر: العسلي: وثائق، مجلد١/ ٨٣-١٠٠، معاهد، ص٢٩٤-٢٩٦.

الأيوبيين ظهرت في حسن الإدارة في القدس[١]. والخانقاة الصلاحية[٢]. وفي العلاقة مع اليهود، فقد سمح لهم البقاء في القدس والإقامة فيها[٣]. وفي العلاقة مع المسيحيين، أعاد أهلية كنيسة القيامة إلى الكنيسة الأرثوذكسية.

القدس في العهد المملوكي

٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م

بعد مقتل (توران شاه) سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠. تأسست دولة جديدة على أنقاض الدولة الأيوبية، وهي دولة المماليك البحرية سنة (٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م). والمماليك البرجية سنة (٧٨٤- ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م). وقد اقتضى الأمر حوالي ثلاثة عشر سنة لإدخال الممتلكات السورية الأيوبية في ملك المماليك. وفي هذه الفترة كان وضع القدس غير مستقر.

وفي سنة ١٢٥١م: عرض الناصر يوسف سلطان حلب أن يتخلى عن القدس للصليبين بقيادة لويس التاسع، مقابل حلف يعقد بينهما ضد المماليك. لكن لويس رفض الطلب. وبعد ذلك بسنتين أي في سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، منح الناصر يوسف فلسطين غربي نهر الأردن، بما فيها القدس، إلى السلطان المملوكي أيبك مقابل الإسلام. ولكن فلسطين والقدس أعيدتا إلى الأيوبيين سنة ١٢٥٦، نتيجة ارتداد مماليك منشقين والتحاقهم ببلاطات أيوبية مختلفة في بلاد الشام[٤]. والحدث الحاسم

(١) عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، القدس ١٩٦١، ص١٧٦. ومع الأسف فإن العارف لا يذكر مصدراً لهذا الإدعاء.

(٢) كامل العسلي: وثائق مقدسية، مجلد١/ ٨٣-١٠٠، عمان ١٩٨٣.

(٣) Steven Runciman, A History of the Crusades, London, 1965, I, 467.

(٤) كاملي العسلي: تاريخ القدس ص٢١٤- ٢٢٤.

جهادياً في تاريخ القدس خلال هذه الفترة، كان هزيمة المماليك للجيش المغولي سنة ١٢٦٠ في معركة عين جالوت، قرب الناصرة؛ إذ إن هذه المعركة وطرد المغول إلى ما وراء الفرات هي التي مكنت المماليك من بسط سيادتهم على فلسطين [١].

سياسياً: كانت فاتحة عهد (شجرة الدر) خروج الملك لويس التاسع من مصر بعد مفاوضات مع الصليبيين في دمياط. على عهد توران شاه [٢].

سياسة بيبرس ٦٥٧- ٦٧٦هـ/ ١٢٥٩- ١٢٧٩م: نهج هذا السلطان منهج صلاح الدين الأيوبي جهادياً في مواجهة الصليبيين في بلاد الشام. حيث بدأ بالإستيلاء على معاقلهم تمهيداً لإخراجهم من بلاد المسلمين. ففتح قيسارية وأرسوف، صفد، صافيتا، حمص، الأكراد الضخم، قلعة الشقيف، تبنيل، يافا، وتوج فتحه بفتح أنطاكيا، ثم رأى أن يهادنهم ليتفرغ للخطر المغولي المتجدد.

الأشرف خليل ٦٨٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٣م: استطاع هذا السلطان فتح عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ بعد حصار شديد واصطدامات ضارية مع حاميتها، كذلك حرر بيروت وصيدا وحيفا وجبيل، وحرر الساحل بعد بضعة أشهر، وبذلك تكاملت في عهده الفتوح في جميع البلاد الساحية للعالم الإسلامي الشرقي. وختمت صفحة الحروب الصليبية فيها الشرق الإسلامي باستثناء بعض الدول [٣].

ومن المعروف أن أبرز السلاطين في فترة المماليك البحرية (١٢٦٠- ١٣٨٩) في مجال الجهاد الديني، بيبرس وقلاوون والناصر محمد الذين زاروا القدس. وشارك هؤلاء السلاطين أنفسهم ثلاثة آخرون... هم (كتبغا ولاجين وشعبان) في مجال الجهاد وإجراء ترميمات وتعميرات للأماكن المقدسة خاصة في القدس والخليل،

---

(١) Gibb. The Aiyubids, 713: Mustafa M Ziada. 'The Mamluk Sultans to 1293', A History of the Grusaders, ed. Setton, II, 743.

(٢) المقريزي: السلوك ج١/ ٣٦٣، ابن تغري بردي، النجوز ص٣٦٥.

(٣) رسيمان: ج٣/ ٧١٢، ابن يحيى صالح: تاريخ بيروت، ص٢٤.

وكذلك في إنشاء عمائر جديدة(١). فقد قام السلطان الناصر محمد طبقاً لما تميز به، وهو السلطان الذي اشتهر بأعماله العمرانية بالقاهرة، بشمول القدس أيضاً برعايته، فخصص الحرم بعنايته، وأعاد ترميم قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى، وأتم الأروقة الغربية والمصاطب المحيطة بالصخرة(٢)، وكذلك زار السلاطين البرجيون المدينة أيضاً: منهم برقوق وفرج وقايتباي(٣) وفي الفترة من سنة ١٣٨٢ إلى ١٥١٧ يبرز السلطان قايتباي بأعمال التعمير التي قام بها في المسجد الأقصى خاصة إنشاء مدرسته (العظيمة، الأشرفية)، وكذلك السبيل الذي يحمل اسمه، في الحرم أيضا(٤). وشاطر أمراء المماليك السلاطين حماستهم لتشييد مبانٍ دينية في الحرم. فالأمير تنكز الذي تولى نيابة السلطنة في دمشق مدة طويلة (٧١٢- ٧٤٠/ ١٣١٢- ١٣٤٠) كان مسؤولاً عن إقامة مجمّع فخم غربي ساحة الحرم، وبنى أمراء آخرون مدارس شمالي الساحة(٥). إن مشروعات كهذه غيَّرت طابع الحرم المقدس ومظهره خلال هذه الفترة:

«فبدلاً من أن يكون الحرم مجرد منطقة يحيط بها رواق ويتوصّل إليها من عدد من الأبواب التذكارية بدرجةٍ تقل أو تزيد، أصبح الجانبان الشمالي والغربي للحرم معرضاً لواجهات مبانٍ لم تعد وظيفتها مرتبطة بالحرم؛ بل اكتسبت منه نصيباً من القدْر والجمال» (٦).وإضافةً إلى النصب الأثرية القائمة في الحرم هناك بيانات وثائقية

---

(١) Little, 'Jerusalem and Egypt', 74.

(٢) رشاد الإمام، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣- ١٥١٦م)، تونس ١٩٧٦، ٦٧- ٧٠.

(٣) Little, 'Jerusalem and Egypt', 74.

(٤) العسلي، معاهد، ١٥٨- ٨١.

Christel M Kessler and Michael H Burgoyne. 'The Fountain of Sultan Qaytbay in the Sacred Precint of Jerusalem', Archarology in the Lepant, Essays for Kithleen Kenuom, Warninster, 251- 256.

(٥) العسلي، معاهد، ١١٨- ٣٣.

(٦) Oleg Grabar, 'al-Kuds: Monuments', E1, V.343.

متزايدة حول اهتمام سلاطين المماليك بالحرم. وقد قام الدكتور كامل جميل العسلي مؤخراً بنشر وقفيات لبعض هذه المنشآت أو بتلخيصها[١]. ونحن نجد في وثائق الحرم سبعة مراسيم أصدرها السلاطين بيبرس والناصر محمد، وشعبان وجقمق وإينال وخشقدم وجميعها تتعلق بتأمين موارد كافية لصيانة مبانٍ في الحرم وللانفاق على موظفيها[٢].

وفي خارج الحرم استفادت القدس أيضاً من الرعاية المعمارية للمماليك، وخصوصاً من أمرائهم، الذين كانوا يقومون بأعمال إدارية، وكثيرون أيضاً من الذين اختاروا أن يتقاعدوا في المدينة نظراً لجوها الهادئ ومناخها اللطيف. حتى أصبحت القدس «منفى» حقيقياً خلال الفترة المملوكية: «أهم مكان كان يُنفى إليه الناس في المنطقة، بل في السلطنة المملوكية بأسرها كان بلاد القدس»[٣]. لقربها من مصر وخلوها من التحصينات القوية ومن عددٍ كبير من الجنود الذين يمكن أن يخدموا مصالح الأمراء الساخطين، هذا الواقع زكّاها كمنفى لدى السلاطين. وعلى أية حال فإن كثيراً من الأمراء تولوا بناء عمائر دينية بجوار الحرم، في تجمعات كانت تقوم بصفة رئيسية على امتداد الطرق المؤدية إلى أبوابه. نذكر منها رباطاً اسمه (رباط كرد) بناه سنة ٦٩٥/ ١٢٩٦ أحد مماليك السلطان قلاوون وهو سيف الدين كرد؛ وعبر الطريق من الجهة الأخرى المدرسة الأرغونية التي وقفها وبناها الأمير أرغون الكاملي سنة ٧٨٥/ ١٣٨٥، وبعد ذلك بمسافة قصيرة على امتداد طريق باب الحديد المدرسة الحنبلية التي أنشأها للفقهاء الحنابلة الأمير بيدمر الخوارزمي، نائب دمشق سنة

(١) معاهد، ٦٢- ١٥٩، ٦٩- ١٦٨، ٣١٩.

(٢) Little, Catalogue, 24- 35.

نقل العسلي بعض هذه الوثائق من خطوطها القديمة ونشرها في وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الأول، ١٧٧- ١٨٦، ١٨٩- ١٩١.

(٣) David Ayalon, 'Discharges from Service, Banishments and Imprisonments in Mamluk Society'. Israel Oriental Studies, 1972, II. 1972, 34.

٧٨١/ ١٣٧٩[١].

العمائر الخاصة في العهد المملوكي: لم يكن السلاطين والأمراء وحدهم هم الذين شادوا عمائر دينية للقدس في فترة المماليك. فعلى الطريق نفسها، وفي البيت الملاصق، وفوق رباط كرد، قام خَصِيٌّ كان مسؤولاً عن حريم السلطان خشقدم، وهو جوهر القنقباي[٢] ببناء مدرسة دعيت المدرسة الجوهرية سنة ٨٤٤/ ١٤٤٠[٣]. وفي الجهة الأخرى من الطريق (أي الجهة الجنوبية/ المترجم) أشار صاحب ديوان الإنشاء[٤] في عهد قايتباي ببناء المدرسة المزهرية[٥]، وفي أماكن أخرى في المدينة قام مواطنون عاديون بتمويل إنشاء مبانٍ لأغراض دينية. فالمدرسة السلامية مثلاً التي بنيت خارج باب العتم بعد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م أنشأها التاجر الشهير والوكيل الدبلوماسي لدى المماليك، الخواجا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل السلامي[٦]. كما قامت نساء ثريات ذوات أصل أجنبي إخترن القدس مكاناً للإقامة برعاية المعاهد. وعلى سبيل المثال وقفت الست الحاجة سُفرة خاتون، ويفترض أنها من زوجات وبنات التجار، المدرسة البارودية سنة ٧٦٨/ ١٣٦٧؛ وتولت سيدة من بلاد الشرق هي أغل خاتون القازانية البغدادية، بناء المدرسة الخاتونية سنة ٧٨٢/ ١٣٨٠؛ وبنت أميرة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون المدرسة العثمانية سنة ٨٤٠/ ١٤٣٧

---

(١) العسلي، معاهد، ١٨٨، ٢٠٠- ٢٠١، ٣٢٠.

(٢) كان مما تولاه جوهر منصب يدعى «زمام الآدر الشريفة» والمقصود المسؤول عن الحريم، ولكن أعتقد أنه تولى هذا المنصب زمن السلطان الظاهر جقمق وليس زمن خشقدم لأن جوهر توفي سنة ٨٤٤ بينما تولّى خشقدم الحكم سنة ٨٦٥ - ملاحظة للمترجم.

(٣) المصدر نفسه، ٩٩- ١٩٦، ٩٤- ١٩٣.

(٤) زين الدين أبو بكر بن مُزهر (المترجم).

(٥) الإنس، مجلد ٢، ٤٢.

Van Berchem, Materians, II, 222- 223 .

(٦) الأنس، مجلد ٢، ٤٣.

(في فترة المماليك البرجية)، وهي ملاصقة للحرم، وتقع جنوب الخاتونية خارج باب المظهرة[1].

إن هذه الأمثلة القليلة وغيرها تكفي لإثبات أن القدس الإسلامية تمتعت بفترة من النمو الكبير والثابت في العهد المملوكي، مقابل التقدم المتقطِّع في عهد الأيوبيين. ولكن بغض النظر عن التحول في مظهر المدينة، ما هو الأثر الذي تركه كل هذا الإنشاء في حياتها؟ من الواضح أن الأبنية عكست إعادة الطابع الإسلامي إلى المدينة وأسهمت فيه بعد أن قضى المماليك على الصليبيين المحتلين لها. ومع أنه ليست هناك دراسات ديموغرافية يركن إليها لهذه الفترة، فلا بد أن عدد السكان المسلمين قد ازداد ولا بد أن البنايات الجديدة قد أقيمت لاستيعاب الحضور الإسلامي المتزايد. وفي الاتجاه ذاته فإنّ تعمير مكانيّ العبادة الكبيرين في الحرم وتزيينهما، وكذلك إضافة مبانٍ فرعية قد ساعد بلا شك على استعادة المدينة لمكانتها كمركز للحج بالنسبة للمسلمين. وخدمت الفورة التي شهدتها المدينة في بناء الأربطة لإسكان الزوار للهدف ذاته. ومن بين الأربطة السبعة التي نعرف عن وجودها في القدس يمكن تحديد خمسة منها بأنها مبانٍ مملوكية، ومن ضمنها الرباط المنصوري الذي وقفه السلطان قلاوون في سنة ٦٨١/ ١٢٨٢[2]. أما المباني المملوكية الأخرى التي عكست حاجات العدد المتزايد من السكان، سواء أكانت دائمة أم عابرة، فقد شملت عدة أسواق وحمامات وسبل وقنوات أنشئت خلال هذه الفترة[3]. وإضافة إلى الإنشاءات التي تركزت في الحرم كانت هناك مبانٍ كثيرة خدمت أهدافاً دينية أخرى، وبشكل رئيسي الهدفين التاليين وهما: (١) تدريس الفقه وموضوعات

---

(١) العسلي، معاهد، ٨٦- ١٨٢، ٨١- ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢٠- ٣١٥.

(٣) الإمام، مدينة القدس، ١٤٨- ١٥٣.

.Lutfi, A Study, II, 413

الأنس، مجلد ٢، ٣٥، ٩٠، ٩٤، ٩٩، ٢٨٤، ٣٠٤، العسلي، معاهد، ١٢٦.

الدراسة الإسلامية المتصلة به و(٢) رعاية الحياة الصوفية. ومع أن هذين الهدفين كثيراً ما تحققا في بنايةٍ واحدة فإنَّ المدارس كان يقصد منها في الدرجة الأولى تحقيق الهدف الأول. أما الخوانق والزوايا فكانت لتحقيق الهدف الثاني. وقد رأينا من قل أن أحد الأعمال الأولى التي قام بها صلاح الدين بعد فتح القدس كان تأسيس مدرسة للفقه وخانقاه للصوفية. وازدهر هذان النوعان من المؤسسات في عصر المماليك. ونعرف ما لا يقل عن سبع وعشرين مدرسة جرى تأسيسها في عصر المماليك: ثماني عشرة منها خلال فترة المماليك البحرية، وتسع في فترة المماليك البرجية[1].

وفيما يتعلق بالقاضي شرف الدين عيسى بن غانم الأنصاري الخزرجي (ت٧٩٧/ ١٣٩٥) فإنه يتضح من لقبه الإضافي، ناظر الأوقاف المبرورة في القدس الشريف، والمعروف أن المسؤولية عن أوقاف القدس وأماكن العبادة فيها كانت مقسّمة بين موظفين آخرين، وبصفة رئيسية من أمراء المماليك، كان يعهد إليهم، بنظارة الحرم. وربما كان تقسيم المسؤولية هذا يرجع جزئياً إلى النمو الهائل في إنشاء المباني التذكارية الدينية، وترميمها وصيانتها في القدس برعاية المماليك. وفي هذه الفترة أغدق السلاطين والأمراء والعلماء والتجار والأتقياء وغالبية النساء القواعد معظم ثرواتهم على تزيين المدينة ضماناً لتخليد أسمائهم في هالة قدسيتها. كذلك اشتهر السلاطين بمنجزاتهم المعمارية خارج بلاد فلسطين إلى القاهرة ودمشق وطرابلس وغيرها من المدن الكبيرة في إمبراطوريتهم. ومع أن القدس لم تلعب دوراً كبيراً في اعتباراتهم السياسية والعسكرية فإن أهميتها بالنسبة لهم كمكان إسلامي مقدس موثقة توثيقاً جيداً.

الحركة الثقافية: أصبحت القدس مع وجود هذه المرافق مركزاً لدراسة الفقه والحديث. حيث عجت صفحات تاريخ مجير الدين الحنبلي بتراجم العلماء، الذين درسوا وعلمُوا في المدينة. ومع أن الشافعية حافظوا على مركز الصدارة بسبب دعم

---

(١) الأنس، مجلد ٢، ٣٤- ٤٨، قارن العسلي، معاهد.

صلاح الدين لهم فإن المذاهب الفقهية الأخرى لم تهمل. بدليل وجود مدرسة تخصصت في الفقه الحنبلي. كذلك كان للأحناف والمالكية أيضاً مؤسساتهم الخاصة بهم[1]. إن هذا التنوّع في الدراسات الفقهية يعكس الطابع المتنوع للسكان؛ كما يعكس سياسة المماليك التي بدأها السلطان بيبرس لإضفاءشكل مؤسَّسي قائم على مذاهب الفقه الأربعة في النظام القضائي. وهكذا، ففي سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ نصّب السلطان برقوق قاضياً حنفياً في القدس لينضم إلى القاضي الشافعي، وفي سنة ٨٠٢/ ١٣٩٩- ١٤٠٠ وسنة ٨٠٢-٨٠٤/ ١٤٠١- ١٤٠٢ انضم إليهما قاض مالكي وقاض حنبلي على التوالي[2].

إن التشويش في استخدام مصطلحات مثل خانقاه ورباط وزاوية يجعل من الصعب علينا أن نقدر بدقة عدد المؤسسات الصوفية التي أسست في هذا الوقت. وفضلاً عن ذلك فإننا نعرف أن كثيراً من المدارس التي توصف بأنها مدارس فقه كانت تضم مرافق لإقامة الصوفية. فالمدرسة التنكزية مثلاً ضمَّت خانقاه خصصت لخمسة عشر صوفياً. وتذكر وقفيتا المدرسة الأشرفية المؤرختان في ٨٨١/ ١٤٧٦ و٨٩٥/ ١٤٩٠أن ستين صوفياً كانوا يتقاضون مخصصات من ربع أوقافها. أما المدرسة / الخانقاه الدوادارية التي وقفها سنة ٦٩٥/ ١٢٩٦ أحد أمراء المماليك، فكان يسكن فيها ثلاثون صوفياً: عشرون من العزاب وعشرة من المتزوجين[3]. وإضافة إلى المدارس / والخوانق فإن كثيراً من الزوايا التي أسست في فترة المماليك كانت تقدم أيضاً تسهيلات للصوفية ولو على نطاق أصغر عادة. وتشمل الزوايا المرتبطة بطرق صوفية معينة والتي يعرف بأنها ازدهرت في هذه الفترة مثل الزاوية البسطامية (حوالي ٧٧٠/ ١٣٦٩)، والوفائية (٧٨٢/ ١٣٨٠)، والنقشبندية (القرن

---

(١) العسلي، معاهد، ١١٦، ١٢٧، ١٧٩.

(٢) Little, ‘Jerusalem and Egypt’, 76.

(٣) العسلي، معاهد، ١٢٨، ١٦٢، ١٦٨، ٣٣٨.

الثامن/ القرن الخامس عشر)[١]. ويتضح من مباني الصوفية وكذلك من معطيات التراجم في المصادر الأدبية والوثائقية أن الصوفية انتعشت في القدس في هذه الحقبة. وكما كانت الحال في أماكن أخرى في العالم الإسلامي، فإن الصوفية كانوا قد اندمجوا اندماجاً جيداً في طبقة العلماء حتى إن الفقهاء الذين احتلوا مناصب مُهمّة في جهاز القضاء كانوا في كثير من الأحيان من الصوفية البارزين، منهم القاضي شرف الدين عيسى بن غانم الأنصارى الشافعي هو مثال على ذلك، إضافةً إلى وظيفته كقاضي القدس الشافعي وناظر الأوقاف المبرورة، وكان أيضاً شيخ الخانقاه الصلاحية التي ربما كانت أعلى المؤسسات الصوفية مقاماً في القدس المملوكية[٢]. هذا وبفضل وثائق الحرم توفرت معلومات كثيرة عن عالم صوفي مقدسي هو برهان الدين إبراهيم الناصري (ت٧٨٩/ ١٣٨٧)، الذي لا يبدو أنه كان بارزاً بما فيه الكفاية ليذكر في قائمة تراجم مجير الدين. وإذْ تحدِّد عدة وثائق هوية برهان الدين بأنه «صوفي في الخانقاه الصلاحية» فهو يوصف في وثائق أخرى بأنه قارئ قرآن، وحديث وفقه وتفسير في المسجد الأقصى وقبة الصخرة والتربة الطازيّة والتربة الأوحدية وأماكن أخرى في القدس[٣]. وحسب ذكر مجير الدين وغيره من المصادر بأن الصوفية الفقهاء في القدس المملوكية... كمجموعة... كانوا ميالين للتنقل بحيث لم يكونوا يدرسون ويعلمون في القدس وحدها، بل في القاهرة ودمشق أيضاً، وكان في استطاعتهم، على هذا الوجه، أن يُسبغوا عنصراً من العالمية على الحياة الثقافية في المدينة[٤]، وفي هذا

---

(١) المصدر نفسه، ٤٦- ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) لكن هناك أيضاً أدلة على علاقات متناقضة بين الصوفية والفقهاء في القدس المملوكية. انظر:
S.D. Goitein, 'al-kuds', E1, V.333.
Little, Catalogue, 26, 27, 28, 208, 220, 232, 247.

(٣) نشرت بعض الوثائق المتعلقة بتعيين برهان الدين في كتاب العسلي، وثائق مقدسية، المجلد الأول، ١٩٧- ٢١٤.

(٤) Goitein, 'al-kuds', 332, Little, 'Jerusalem and Egypt', 76.

الشأن يشير نعي لشمس الدين الديري قاضي القدس (ت١٢٢٤) إلى ارتباطه بكثير من علماء مصر والشام «لأن بيت المقدس محط رحالهم وغاية مقاصدهم وآمالهم»[١].

المؤلفات الخاصة بالقدس: تحولت القدس إلى مركز ديني مزدهر تحت حماية المماليك ورعايتهم، فتكاثرت غزارة المؤلفات التي تمتدح فضائلها. ويمكن أن ينسب إلى هذه الفترة ما لا يقل عن ثلاثين كتاباً من كتب الفضائل[٢]. بيد أنه ساد بعض الأوساط شعور بأن الحماسة للمدينة جاوزت الحدّ، فإن المصلح الحنبلي الشهير من رجال القرن الرابع عشر، ابن تيمية، مع اعترافه بالطابع المقدس الذي أضفاه إسراء النبي محمد ﷺ على المدينة، هاجم الإجلال الشعبي للمدينة الذي تضمنته، مثلاً، أدلة الحج المعاصرة مثل: كتاب «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس». وقد رفض ابن تيمية الأحاديث والمعتقدات الشعبية التي تمجد الصخرة وغيرها من المواقع باعتبارها منحولة، ورفض كذلك رفع الزيارات إلى المدينة إلى مصاف الحج إلى مكة والمدينة[٣]. ومع هذا فعلى الرغم من تأثير ابن تيمية الكبير والشهرة الفائقة التي اكتسبها بين كثير من معاصريه، لتنديده بالإساءة إلى أصول الإسلام وتشويهه، فإن آراءه كانت أكثر تطرفاً مما كان يمكن احتماله في المؤسسة المملوكية. ومات في السجن بسبب الدعوة إليها. وليس هنالك من دليل على أن محاولته لكبح جماح حماسة المسلمين لزيارة القدس، كان لها أي تأثير عملي على واقع قدسية المدينة.

---

(١) Shosan, ‘Egypt and Palestine’, 100.

والجوهري، علي بن داود الخطيب، ت٢٨٥٠، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، القاهرة، ١٩٧٠ – ١٩٧٣، مجلد ٣، ص٦١.

(٢) Goitein, ‘al-kuds’, 332; Sivan, ‘Le caractere sacree’, 181.

(٣) Mohammad Umar - Memon, Ibn Taimiya’s Struggle against Popular Religion. The Hague, 1976, 72- 78, Charles D Marchews, ‘A Muslim Iconoclast (Ibn Taymiya and the ‘Meries’ of Jerusalem and Palestine’, Journal of the American Oricutal Society. LViIC, 1936, 1- 21.

العلاقة مع المسيحيين واليهود: إن عودة القدس الإسلامية على أيدي المماليك، لم تكبح حماسة المسيحيين لزيارة المدينة المقدسة. وهناك أدلة وافرة على الوجود المسيحي طوال الفترة المملوكية سواء في شكل حجاج أوروبيين أو مقيمين محليين. والقيود الخاصة برحلات الحج المسيحية قيود غنية بشكل خاصة بالنسبة للقرن الخامس عشر، أي قبل أن يؤدي ظهور البروتستانتية في أوروبا الشمالية والاعتبارات الجغرافية السياسية إلى تخفيض حركة الحجيج للقدس. ومع أن كتب الرحلات التي كتبها الحجاج تتضمن معلومات مقَوْلبة stereotyped في أكثرها فإنها تبين لنا أن الحج إلى القدس كان خاضعاً لرقابة السلطات المملوكية وجهازها الوظيفي وإشرافها. وإمعاناً في تشجيع الحجيج المسحيحي للقدس فقد زوّد المماليك الحجاج بالتراجمة والأدلاء لإرشادهم وحمايتهم، مقابل رسوم محددة يدفعونها لقاء السفر المأمون وضرائب أخرى، صحيح أنهم كانوا كثيراً ما يتعرضون للمضايقات والابتزاز من جانب مضيفيهم؛ ولكن ذلك لم يكن أسوأ مما كانوا يعانونه من قباطنة السفن البنادقة الذين كانوا يزودونهم بوسائل النقل إلى الأرض المقدسة ومنها. والنقطة المتعلقة بالموضوع التي نود توكيدها هي أن المماليك جعلوا الأماكن المسيحية في متناول الحجاج. وفيما يتعلق بالمسيحيين المقيمين في المدينة فنحن نعرف أكثر ما نعرف عن الفرنسيين (الفرانسيسكان)، وذلك بفضل القيود التي تتصل بتعاملهم مع السلطات المملوكية والملاحظات الواردة في قصص الحجاج. إن وجود الرهبان في دير على جبل صهيون، بني حوالي سنة ١٣٣٠، كان مصدراً لإعانة الحجاج خصوصاً حين لم يكن هناك قناصل أجانب في المدينة. ويرجع أول دليل على وجود قنصل أجنبي - من البندقية - إلى سنة ٨١٨- ١٤١٥. وفي سنة ٨٣٥/ ١٤٣١ حتى خلت المدينة من أي تمثيل أوروبي رسمي. وقد عمل الأب رئيس الدير الفرنسي بصفة رسمية كحامٍ للحجّاج الأوروبيين. وتشهد الوثائق الكثيرة الباقية على منح سلاطين المماليك حق الحماية والإذن بعمارية مبانيهم، خاصة منهم الفرنسسكان الذين كانوا يتمتعون بعطف السلطات المملوكية في أكثر الأحيان. وتعكس بعض القيود المعمارية

الصراع الذي ترتب على الرهبان أن يخوضوه ضد محاولات المسلمين لتحويل أملاكهم على جبل صهيون إلى مسجد، وهو صراع كان يقترن بالنجاح في بعض الأحيان(١).

وتشير البحوث الأخيرة إلى أن الطوائف المسيحية الأخرى كانت تخضع لتقلبات مماثلة في علاقاتها مع المماليك وأعيان القدس المسلمين. فالسلطان الناصر محمد أعاد للكرج (أهل جورجيا) مثلاً ديرهم المعروف بدير المصلّبة سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥. وصدرت مراسيم تالية أصدرها سلاطين المماليك للسلطات في القدس بأن يعامل أهل الكرج معاملة أهل الذمة. ومهما يكن الأمر فإن المماليك لم يترددوا في التضييق على المسيحيين إذا برزت ظروف سياسية، خاصة أثناء الحملات الصليبية. وهكذا فإن كنيسة القبر المقدس أغلقت سنة ١٣٦٥ انتقاماً لهجمات الفرنجة على الإسكندرية. وفي سنة ١٤٧٦ أرسل الفرنسيون في القدس وبيت لحم إلى القاهرة كرهائن بعد أعمال قرصنة قام بها المسيحيون في الميناء نفسه.

ويبدو أن الطائفة اليهودية الصغيرة في القدس كانت تتمتع أيضاً بوضع أهل الذمة الذي يمنحها إياه الشرع الإسلامي. وإذ كانت هناك في حالة اليهود، كما في حالة المسيحيين، بلا شك أمثلة على النزاع مع المسلمين، حول الأماكن المقدسة بصفة رئيسية، فإن اليهود «لم يشكلوا خطراً على الطابع الإسلامي للمدينة، وقد عاشوا بسلام مع جيرانهم، وفيما خلا حوادث قليلة أثير فيها غضب المسلمين المؤمنين ضد اليهود». ونحن نعلم من وثائق الحرم أن اليهود كان بوسعهم التملك في المدينة

---

(١) بشأن الحجاج المسيحيين إلى القدس انظر:

H F M Prescott, Jerusalem Journey. Pilgrimage to the Holy Land in the Hifeenth Grmany, London, 1954, and

وأيضاً:

R J Michell, The Spring Voyage: The Jerusalem Pilgrimage in 1458, London, .1964

والقيام بالأعمال التجارية. وإضافة إلى ذلك، ففي مناسبة واحدة على الأقل تدخل شيخ المغاربة لمصلحتهم ضد الإساءات الحكومية.

نجح المماليك في إعادة الصبغة الإسلامية إلى القدس مع توفير الحقوق والامتيازات للأقليات الدينية والأجنبية، وترسيخ الاستقرار السياسي فيها، وتدعيم مواردها الاقتصادية، حيث وردت تلميحات إلى ذلك من قبل. من خلال تقديم الخدمات للحجاج من أتباع الأديان جميعاً، حيث كان هذا العمل بلا شك عملاً رئيسياً في القدس المملوكية. فحقق مورداً للدخل عن طريق تدفق الزوار والحجيج الذين كانوا يحتاجون إلى الطعام والسكن والأدلاء والنقل والهدايا التذكارية، مقابل ما يدفعون رسوماً وضرائب أثناء إقامتهم. ومما يتصل أيضاً بوضع المدينة الديني في الرعاية التي كانت تقدم للأماكن المقدسة. وأهم ما في هذا الشأن بالطبع الأوقاف التي وقفها السلاطين والأمراء والمواطنون المسلمون الأغنياء على العمائر الإسلامية، التي تراوحت بين قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، وبين أكثر الزوايا تواضعاً. هذه المباني وفرت فرص العمل لا للبوابين والقوام فحسب بل للعلماء والخطباء وقراء القرآن والحديث والصوفية أيضاً. ومن أجل تزويد الحرم بالماء، رعى مختلف السلاطين والأمراء إنشاء قنوات الماء وتعميرها. ولا بد أن أمراء المماليك المنفيين كانوا أيضاً من عوامل تشجيع الحياة الاقتصادية كما نلمس ذلك في المباني التي أشادوها. إن هذه العمائر والخدمات جميعاً كانت مهمة بالنسبة لرخاء القدس التي لم تكن تقع على طريق تجاري رئيسي، ولم تكن تنتج كميات كبيرة من الصادرات. ومن جهة أخرى تقدم لنا وثائق الحرم أدلة على وجود تجار أجانب من الشرق في القدس.

كانت إيرادات القدس في عصر الأيوبيين قليلة بالنسبة إلى إيرادات غيرها من مدن فلسطين. ويصدق الأمر نفسه على الفترة العثمانية، عندما كانت ضرائبها تناهز ربع الضرائب التي كانت تدفعها الأقضية الأخرى. ورغم عدم توافر أرقام للمقارنة في الفترة الفاصلة بين الفترتين فإن وثائق الحرم تثبت المدى الذي كان يذهب إليه

ديوان المواريث الحصرية، هو والمحكمة الشافعية، لمصادرة بقايا التركات التي كان يعوزها الورثة الممكن الوصول إليهم من أجل زيادة دخل الدولة.

وفي أواخر القرن الخامس عشر تدهور الوضع السياسي والاقتصادي والديني في القدس، شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى في الإمبراطورية المملوكية. وطيلة العشر سنوات في الأولى في القرن السادس عشر لم يتمكن الحجاج المسلمون من مكة زيارة القدس بسبب الفوضى التي سببها البدو، جنوب المدينة. ويعكس هذا الصعوبة التي كان يعانيها المماليك في السيطرة على البدو العرب في أفضل الأوقات واستحالتها التامة، لدى انهيار الحكومة المركزية نتيجة للمشكلات الاقتصادية التي يتعذر التغلب عليها، وللطاعون والغارات العثمانية وانحطاط النظام المملوكي نفسه. حتى خسر المماليك القدس للعثمانيين في وقت ما بين معركة مرج دابق في شمال سوريا سنة ١٥١٦، وسقوط القاهرة في السنة التالية.

أهمية القدس في العهد المملوكي:

١- احتفظت مدينة القدس في عهد المماليك بأهميتها كمدينة إسلامية مقدسة. واستمرت بصورة راسخة بعد صلاح الدين في أيدي إسلامية، خاصة بعد طرد آخر الصليبيين في الأرض المقدسة، وانتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت.

٢- تحرر وضع القدس الإسلامي منذ عهد صلاح الدين والمماليك، بحيث لم تدخل هذه المدينة ضمن تقدمها كقيمة في النزاعات السياسية والعسكرية والدبلوماسية خاصة بعد سقوط عكا بيد الأشرف خليل سنة ٦٩٠/ ١٢٩١م.

٣- لم تعد القدس هدفاً للعدوان الأوروبي الصليبي لأنهم لم يكونوا على درجة من القوة بحيث يشكلون تهديداً كبيراً لنفوذ ومصالح المماليك في فلسطين عامة والقدس خاصة.

٤- تحقق في العهد المملوكي الاستقرار والأمن الإسلامي والسيادة على هذه

المدينة المقدسة. لذلك لم يروا سبباً لإعادة ترميم وبناء أسوار المدينة طوال حكمهم لهذه البلاد مدة (قرنين ونصف قرن)، بحيث لم تتعرض لتهديد أو حملات سواء من المغول أو الصليبيين.

٥- في الموازنة بين مرحلة القدس في العهد الأيوبي، ومرحلة القدس في العهد المملوكي. فإننا نجد العهد المملوكي أقوى وأفضل حكماً وأكثر مركزية وأكثر عمارة.

٦- إدارياً[١] انخفضت الأهمية السياسية للقدس من خلال وضعها الإداري ضمن الدولة المملوكية. خاصة وأن خليل بن شاهين الظاهري (ت٧٣٣- ١٤٦٨) لم يذكر القدس بين أسماء الممالك العثمانية التي قسمت إليها بلاد الشام. وحول ذلك يذكر القلقشندي أن القدس عام (٨٢١/ ١٤١٨) كانت أولاً ولاية (محافظة) ثم نيابة تابعة لسلطنة دمشق. وولاتها من الجنود وليسوا من الضباط، وبعض الولاة كانوا قضاة. وحكامها عرفوا بلقب ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) أو نائب السلطنة. وفي عهد الناصر جمع المنصبان في شخص واحد. وفي بعض الأحيان كان يعهد للعلماء وظيفة ناظر الحرمين والشؤون المدنية، ونائب السلطان. كذلك ظهر منصب قاضي القضاة الشافعي المشرف على الأمور الدينية وقد يعمل مستقلاً عن النائب، أو مع الناظر أو بالاتفاق معهما.

---

(١) انظر: باريس، ص٣٥- ١٣١.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩- ١٩١٣، المجلد الرابع، ١٩٧، ١٩٩، المجلد الثاني عشر، ١٠٤- ١٠٥.

Donald P Little, 'Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period', ed. Ammon Cohers and Gabriel Baer, New York, 1984, 75- 76, Boaz Shoshan, 'On the .Relations between Egypt and Palestine: 517- 1382 AD', Egypt and Palesting, 97

العارف، المفصل، ٢٢١- ٢٣٢.



الفصل السادس

القدس في العهد العثماني ١٥١٦ - ١٨٣١

المرحلة التاريخية

المنشآت العثمانية

موقف العثمانيين من التسلل الصهيوني للقدس



المرحلة التاريخية

من المعروف أن الموطن الأصلي للعثمانيين هو مناطق القرغيز والسهوب في قارة آسيا[1]، ومن هناك توجهوا صوب مناطق آسيا الصغرى (شبه جزيرة الأناضول). وعليه فإن حضارة الجماعات العثمانية كانت في أصولها الأولى حضارة بدائية، ومن ثم كان لزاماً على العثمانيين أن يتفاعلوا ويتجابوا مع حضارة بني دينهم في بلاد الشام والعراق ومصر، على أساس أن الحضارة الراقية هي التي تعطي الحضارة البدائية وتزودها بالمكاسب الحضارية والقدرات والإمكانات الضرورية للتقدم الحضاري وتطوره، خاصة وأن العثمانيين قد تسلموا زمام المبادرة الدينية والسياسية في العالم الإسلامي في العصر الحديث، بعد أن تمكنوا من حمل عبء المسؤولية الدينية والسياسية في العالم الإسلامي كله في أعقاب سقوط الخلافة المملوكية على اعتبار ذلك من مستلزمات الخلافة الإسلامية.

ومن المعروف أيضاً أن الخلافة العثمانية قامت على أساس دينيّ، وعدت دولة ذات سمة دينيّة، وطبعت تشريعاتها بالطابع الإسلاميّ، وكان للهيئة الإسلاميّة فيها مركز خاص ووضع اجتماعيّ خاص، ومن خلال هذا الأمر يأتي اهتمام الخلافة العثمانية بأمر المقدسات الإسلامية التي كان على عليها واجب الاعتناء بها وحمايتها، باعتبارها وقفاً إسلامياً لكل المسلمين لأنها مكان إسلامي مقدس. وتمثل بلاد الشام التي تشكل القدس منها رقعة كبيرة وواسعة ذات أهمية كبيرة بين الولايات العربية العثمانية. وقد اعتنى السلاطين العثمانيون كثيراً بأمر المقدسات الإسلامية والشؤون الدينيّة في العالم الإسلاميّ المنضوي تحت السيادة العثمانية. ومن خلال هذا المبدأ اهتم

---

(١) Toyembee, A rmold, A study of History (London, 1945), Vol, III, pp.23- 28.
كوبرلي، قيام الدولة العثمانيّة، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٦٧م.

سلاطين بني عثمان بأمر إعمار وترميم المقدسات الإسلامية، وإنشاء الجوامع والمساجد الإسلامية[1] بشكل كبير وواضح، وغدا ذلك مظهراً معمارياً دينياً يدعم هذا الاتجاه ويعززه. وقد أخذ هذا الفن الإسلامي العثمانيّ نمطاً معمارياً مميزاً جسده الفن المعماريّ العثمانيّ في أوج نشاطه وتطوره. والذي انتشرت معالمه الحضاريّة ذات الطابع الدينيّ في معظم الولايات العثمانيّة خاصة في بلاد الشام ومصر والحجاز.

وقد تعزز هذا الجهد الإسلاميّ العثمانيّ وقتذاك من خلال المتطلبات الإسلاميّة، ومن خلال قدرة الدولة الإسلاميّة العثمانية على تثبيت وجودها في مناطق الشرق الإسلاميّ بخاصة والعالم الإسلاميّ كله بعامة، كأسلوب من أساليب الجهد الإسلاميّ، وكأسلوب فاعل في إقناع المسلمين في كل ديارهم بأن الدولة العثمانية هي خير وريث دينيّ وسياسيّ للدول الإسلاميّة التي تعاقبت على حكم المسلمين، وكان آخرها الدولة المملوكيّة التي أولت المقدسات الإسلاميذة عناية خاصة[2]، وهو أمر لا بد من وجوده بالنسبة للدولة العثمانية، بعد أن حملت عبء المهمة الإسلاميّة بكامل مفهومها وواجباتها تجاه المقدسات والعالم الإسلامي آنذاك، وهو أمر تميز به العثمانيون، ودفعهم للعمل وزيادة جهدهم في مجال دائرة العمل الإسلامي والدفاع عن الأمة الإسلاميّة في كل مكان، وهي أيضاً ميزة حميدة تقدر دائماً للخلافة العثمانية،

---

(١) بروكلمان، كارل، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٩م، ص٧١- ٧٢.

انظر أيضاً: الشناوي، عبد العزيز محمد، الدولة العثمانيّة دولة إسلاميّة مفترى عليها، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٥٤، ٥٥.

(٢) اهتم المماليك بأمر مدينة القدس، فبنوا الكثير من المساجد والمدارس والأسبلة والمقامات والمقابر وغيرها من الفنون المعماريّة الأخرى. وقد غالوا في ذلك، ولكن فيهم جاء آية في الفن المعماريّ، واتخذ كل واحد من سلاطين المماليك شعاراً لأعماله العمرانية، عرف بالرنك كان ينقشه على أعماله العمرانية.

انظر: العابدي، محمود، قدسنا، معهد البحوث العربيّة، القاهرة، ص٩٨.

وتبعدها عن دائرة الجهد القوميّ والفكر القوميّ، الضيف مقارنة بالإطار الإسلامي لواسع الذي صهر القوميات المسلمة في إطار الأمة الإسلامية الواحدة خاصة في المجالين: الدينيّ والسياسيّ، حيث انتظمت فيه القوميات المسلمة في منظومة الإسلام والدولة الإسلامية الواحدة، على الرغم من وجود بعض عوامل الطرد المضادة.

والجدير بالذكر هنا أن العثمانيين سموا المدينة المقدسة باسم «القدس الشريف» ولفظة قدس تعني البركة والطهارة. وسماها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون باسم «بيت المقدس» أي المكان الذي تطهر فيه الذنوب، ومنه أيضاً من سماها «بالبيت المقدس» ونجد هذا المعنى في الآية القرآنية: ﴿ونحن نسبح لك ونقدس لك﴾. ثم سميت المدينة المقدسة «بالقدس» وأصبح هذا الاسم هو الاسم الشائع والمعروف لدى الجميع حتى أيامنا الحاضرة[١].

لقد ارتبط تاريخ فلسطين خاصة والشام عامة، بانتصار السلطان سليم الأول في موقعة (مرج دابق) شمال سوريا في ٢٣ آب (سنة ١٥١٦)، ودخوله القدس يوم ٢٨/ كانون أول/ ١٥١٦/ الرابع من ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ، ودامت زيارته لها يومين: قدم فيهما العلماء له مفاتيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم قدّم السلطان الهدايا لأعيان بيت المقدس عامة وأعفاهم من الضرائب وثبتهم في وظائفهم.

في عهده تم ترميم وتجديد سور القدس لكن وفاته المبكرة حالت دون ذلك،

---

(١) انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، ج٥، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥م، ص١٦٦.

- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة (بدون)، ص٢١٢.
- القلقشنديّ، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٦٢م، ص١٠٠.
- الحنبليّ، مجير الدين العليمي، كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، دار الجليل، بيروت (بدون)، ص٢٦٠.

هذا وقد تمتعت القدس طيلة العهد العثماني باحترام خاص، ولكونها ثالث المدن الإسلامية، وحرمها ثاني الحرمين، ومسجدها ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وأرض الإسراء والمعراج؛ وباعتبارها مستلزم من مستلزمات دولة الخلافة العثمانية الإسلامية لقداسة بيت المقدس عامة والقدس خاصة[1].

هذا وقد اقتفى ابن السلطان سليم (سليمان المعروف بالقانوني) بالشهرة الأكبر في باب العمارة الإسلامية من بين الخلفاء العثمانيين. ففي عهد السلطان سليمان الذي امتد حكمه من (١٥٢٠- ١٥٦٦) نعمت القدس بأزهى أيامها خلال العهد العثماني. خاصة في باب العمارة الدينية، بحيث فاقت الأيام المجيدة في العصر الأموي وذروة الاهتمام والعمارة في العهد المملوكي، وقد بدأت بزخرفة وإعمار وبترميم شامل لقبة الصخرة، وسور القدس الحالي خاصة بعدما شهدت هذه المدينة عملياً دون أسوار لمدة تجاوزت الثلاثمائة سنة. ولم تعمر منذ أن دمر الملك المعظم (عيسى الأيوبي أسوارها سنة ١٢١٩). إلا في عهد السلطان سليمان القانوني الذي أعاد بناء الأسوار من جديد.

وقد استمر بناء السور خمس سنوات (١٥٣٦- ١٥٤٠). اشتمل على (٣٤) برجاً وسبعة أبواب أشهرها باب العمود ثم باب الخليل، باب النبي داود، باب المغاربة، و(باب الأسباط)، وباب الساهرة. وهناك أيضاً عدد من الأبواب المغلقة منها (باب الرحمة أو الباب الذهبي) والباب المفرد والباب المزدوج والباب الثلاثي.

كذلك اهتم السلطان سليمان القانوني بحل مشكلة المياه المزمنة في القدس، من خلال اهتمامه بالمنشآت المائية وإصلاحها وصيانتها كالقنوات والبرك والأسبلة والحمامات (بركة السلطان - والسبيل) وستة أسبلة أخرى. إضافة إلى المؤسسات الخيرية (التكايا) - وتضم مسجد وخان، رباط، ومدرسة، ومطبخ، ثم وظّف

---

(١) انظر: أحمد فريدون: منشآت السلاطين، ج١/ ٤٨٣، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥/ ١٣٦.

إيرادات الأوقاف لغرض الإنفاق على المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والدينية. وأهم أوقافه سنة ١٥٥١م (وقفي خاصكي) زوجة السلطان الروسية الأصل ووقف السلطان سليمان إضافة إلى أوقاف أخرى.

حال القدس في العهد العثماني: أواخر القرن السادس عشر والسابع عشر. تراجعت فيه قوة الدولة العثمانية، وظهرت فيها تصدعات خطيرة وتراجع استمر أكثر من قرنين. وقد تعمق الانحطاط في أواخر القرن السابع عشر وزادت حدته في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وذلك لأسباب كثيرة منها: اكتشاف أمريكا ورأس الرجاء الصالح وتعرض نظام الأقطاع للتغير نحو الاهتمام بالأرض واستغلال الفلاحين. وانهزام العثمانيين في موقعة (ليبانتو) ١٥٧١، وإنتفاضة الفلاحين في الأناضول ١٥٩٨- ١٦٠٥، والحروب مع النمسا، وقد توالت الهزائم العثمانية في هذا الميدان والميدان الروسي كذلك. كل هذه الأحداث انعكست سلباً على الخلافة العثمانية عامة وعلى مدينة القدس خاصة وبلاد المسلمين عامة، فتدهور الأمن العام، وزادت تعديات البدو وهجماتهم على قوافل الحجيج في بيت المقدس، ولمواجهة ذلك لجأت الدولة العثمانية إلى تعيين شيوخ البدو كأفراد سناجق، وأنشأت مستوطنات للبدو الرحل، وبنى السلطان مراد الرابع (١٦٢٢- ١٦٣٩) قلعة كبيرة عند برك سليمان لحماية الينابيع والبرك من التخريب. هذا فقد أظهر هذا التعيين تخوف أهل القدس فقابلوه بالسخط والاعتراض. اضطر معه السلطان العثماني إلغاء هذا التعيين. وفي عام ١٥٩٧ و١٥٩٨ صدرت أوامر بتفتيش الأديرة لأنها كانت تستخدم كمخازن للأسلحة. وفي عام ١٦٧٣ نجحت فرنسا في تجديد الامتيازات الأجنبية وتأكيد دورها كحامية للكاثوليك، وفي عام ١٦٤٢ حصلت النمسا على حق رعاية اللاتين[١]، وحصلت بولندة على حق إعادة (الفرنسيسكان) إلى القبر المقدس،

---

(١) Hexd, Op. cit, 28, 43-44, 23, 28.

العارف: المسيحية في القدس ص٢٥٠، العارف المفصل ٣٦٣.

وحصلت النمسا عام ١٦٩٩ على حق تمثيل المصالح المسيحية في القدس. هذا إلى جانب تحمل العثمانيين صعوبات جمة في محاولتهم حل التناقضات والتنازعات بين الطوائف المسيحية وخصوصاً بين اللاتين والروم والأرمن.

لقد كان القرن السابع عشر قرن مرحلة انتقال بين رخاء القرن السادس عشر وانحدار القرن الثامن عشر. وهكذا كان بالنسبة للقدس حيث فقدت فيها المدارس والرباطات والزوايا والبيمارستان حيويتها. فكانت الإضافات والتعميرات قليلة. منها ترميم السبيل الأيوبي، وجامع الحنابلة، وترميم قبة الصخرة والحرم القدسي، ومقامات الأنبياء، والأولياء[1].

القدس في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر: شهدت هذه المرحلة تورط الدولة العثمانية في عدة حروب مع روسيا والنمسا والفرس والروس والبندقية. حيث ظهرت فيها روسيا العدو الرئيس للخلافة العثمانية. وقد انعكست هذه الأحداث على كل أقطار الخلافة العثمانية عامة وعلى القدس والمقدسات وعلى السكان خاصة، لأسباب متعددة: إدارية واقتصادية واجتماعية. منها: في عام ١٦٦٠ لوحظ خلو مدينة بيت لحم من السكان بسبب ظلم واستبداد حكام القدس.

- وفي عام ١٧٠٣ شهدت القدس انتفاضة ضد حاكم القدس (جورجبي محمد باشا). بسبب كثرة الضرائب. ولما عجزت الدولة العثمانية عن إخماد الانتفاضة لجأت إلى وسيلتين: أولهما: تعيين عدد من الأعيان الفلسطينيين من ذوي النفوذ حكاماً للقدس وعلى بعض قرى فلسطين الأخرى. ثانيهما: زادت في القدس مكانة العائلات وأعيانها في السلطة (من العائلات طوقان وعائلة النمر، العسلي) وشهد حكم عمر النمر تأمين طرائق الحج وعمارة سور القدس قرب باب الأسباط، ومقام

---

(١) انظر:

.Tschelebles travels Palestine, Tr. St H Stephan, VIII, 150, 149

المقدسي: فتح الطيب، ج١/ ص٣٣، العارف المفصل ٢٦٧- ٢٦٩.

الشيخ محمد العلمي في جبل الطور. وهذا الأمر زاد من سلطة عائلات القدس خاصة الحسيني، والخالدي وأبو اللطف، حتى أصبحوا أهم أدوات الحكم. هذا فقد شهد أواسط القرن رفعت القدس لفترة وجيزة إلى مستوى إيالة يحكمها (متصرف).

هذا وعلى الرغم من اعتماد الخلافة العثمانية للأسلوبيين السابقين، إلا أن ذلك لم يحقق هدف الدولة من حل مشكلة الأمن والطرق وغزوات البدو. حيث كانت تضطر أحياناً لإسناد هذه المهمات لوالي دمشق(١). وعلى الرغم من هذه الأحوال، إلا أن الدراسات أظهرت لهذه الفترة ناحية مشرقة للثقافة في مدينة القدس في القرن الثامن عشر. تمثلت بوجود عدد كبير من المكتبات الخاصة لعلماء المدينة، وزيادة في عدد علماء بيت المقدس. في حين كانت المدارس في حالة انهيار والطلاب يطلبون العلم العالي في الخارج. ولعل انحلال المدارس ودورها يعود إلى انقراض أوقافها بسبب عوامل الفساد. حتى بلغ انقراض الأوقاف ذروته في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث جزئت وانتقلت ملكيتها إلى آخرين عن طريق الإجارة أو الاستبدال النقدي أو الخلو. كذلك أُهملت مناطق كثيرة في القدس. على الرغم من ظهور مباني فخمة في عدد من القصور والدور. كذلك شهدت هذه الفترة أيضاً أعمال ترميم لمنطقة الحرم خاصة في عهد السلطان أحمد الثالث، ومحمود الأول، وعبد الحميد الأول، حيث جرت أعمال إعمار وترميم للصخرة في السنوات ١٧٠٥، ١٧٣٥، ١٧٥٢، ١٧٨٠، ١٧١٧، ١٨١٨.

وفي عام ١٨٢١ زاد عدد سكان القدس المسلمون.. وزاد عدد اليهود خاصة في عام ١٨٠٩ بعد وصول (٢٠) عائلة إشكنازية واستقرارها في القدس.

---

(١) الميني: الإعلام بفضائل الشام ص٤٦. السجل ١٦٧/ ٢٧٧ و١٠٣٧.
حسن عبد اللطيف الحسيني: تراجم أهل القدس، السجل ٢٠٣ ص٤٤، والسجل ٢٧٠، ٢٧٢، ص٢١، ٢٥.
مناع: أعلام فلسطين، ص١٥٠- ١٥١، ١١٩- ١٢٠.

ونظراً لقداسة القدس فقد اعتمد أهلها على الإيرادات الوقفية والمؤسسات الداخلية، إلى جانب مساعدات مالية نقدية خاصة من قبل الحكومتين العثمانية والمصرية. هذا إلى جانب مصادر ثانوية أُعتمدت كإيرادات أخرى من زيارة الحجاج وخاصة المسيحيين. مع أن عددهم نقص بشكل كبير في القرن الثامن عشر، بسبب ظهور روح العلمانية في أوروبا[١]. ونقص عدد الحجيج المسيحي إلى بيت المقدس.

شكل ضعف الدولة العثمانية عاملاً سلبياً، دفع الدول الأوروبية إلى الحصول على حق حماية المسيحيين في بيت المقدس. فمثلاً روسيا نجحت في حمايتها للروم الأرثوذكس. وفرنسا حامية للكاثوليك. فكان من نتائجهازيادة المشاحنات بين الطوائف المسيحية أعنفها عام ١٧٥٧ بين اللاتين والروم، إلى جانب فتح باب التدخل الأجنبي في شئون الدولة العثمانية. وقد انعكس سلباً على بلاد الشام وخاصة القدس تحت ذريعة حق حماية الرعايا المسيحيين.

القدس في أوائل القرن التاسع عشر وأوائل العشرين[٢]: واجهت الدولة العثمانية خطرين رئيسيين أحدهما في الشرق، حيث غزا نابليون مصر وزحف إلى سوريا وفشل أمام عكا. والثاني في البلقان. (الثورة ضد الحكم العثماني).

غزو نابليون لمصر والشام: استطاع نابليون بونابرت، أن يغزو مصر، ويوطد حكمه بعد معارك كبيرة بين الجيش الفرنسي والجيش العربي في مصر، ثم بدأ يتجه شمالاً إلى فلسطين، وذلك في عام ١٧٩٩م، واجتاز صحراء سيناء وتقدم إلى غزة ويافا والرملة، وقبل أن يدخل هذه المدن كان يبث إلى الناس منشورات باطلة تطالبهم بالتسليم «لأنهم لم يكونوا» المقصودين وتدعوهم لعدم المقاومة لأنه حسب زعمه جاء لتحرير البلاد من المماليك، وإنه لن يمس الدين الإسلامي ولا علماء

---

(١) مجير الدين: الأنس الجليل، مجلة ٢ ص٤٢، البوريني: تراجم الاعيان ج٢/ ١٢٨. العارف: تاريخ قبة الصخرة ص٩١، ٩٢.

(٢) العسلي: وثائق مجلد ٢/ ٢٣٥- ٢٨٠، العورة: تاريخ ص٨٨، ٨٩، ٧٠، ٧٣، ٨٠- ٨١.

المسلمين، ولا المساجد الإسلامية، ولا الأماكن المقدسة بشيء.

وكان نابليون يعتقد أنه إذا كان يريد للوجود الفرنسي في مصر الأمان، فلا بد أن يقوم باحتلال فلسطين لكي تكون خط الدفاع الأول عن وجوده في مصر، والحقيقة أن خطة نابليون تهدف في المقام الأول إلى وقف النفوذ البريطاني الذي تسلط على هذه البلاد. كذلك تمثل امتداداً للصراع الاستعماري بين الدولتين على هذه البلاد الإسلامية. هذا وقد بدأ تقدم نابليون عام ١٧٩٩م نحو البلاد المقدسة، واستطاع أن يحتل العريش وخان يونس ويافا والرملة. واستعد أهل القدس لملاقاة نابليون بونابرت، لأنه إذا احتل الرملة، فلا بد أن يتجه إلى بيت المقدس، وفعلاً كتب إلى سكان القدس كتاباً طويلاً يطالبهم فيه بالتسليم، ولكن سكان القدس أرسلوا له أنهم تابعون لولاية «عكا» ومن يستطع احتلال «عكا» فإنه يستطيع أن يصدر الأوامر إلى أهالي القدس. وقالوا له: «إنهم لا يرغبون في الحرب، لأن بلدهم مقدسة، وبها أماكن مقدسة إسلامية ومسيحية، وهم لا يرغبون في الحرب حتى تسلم هذه الأماكن المقدسة من التدمير».

ويبدو أن نابليون قد تحقق من أهمية وجهة النظر هذه، لذلك اتجه إلى حيفا واحتلها. وفي ١٩ آذار من نفس العام ١٧٩٩، وصل إلى عكا، وكان جيش الجزار محصناً بداخلها، واستمر حصار نابليون على عكا شهرين، لم يتمكن خلالها أن ينال منها شيئاً. حتى ساءت حالة الجنود الفرنسيين خارج أسوار عكا، وانتشر الطاعون انتشاراً كبيراً بين الجنود، ومات الكثير منهم، ثم كانت أحداث باريس تجذبه ليجلس على عرش فرنسا. فاضطر إلى فك الحصار والتراجع لتحقيق هدفه في فرنسا حيث سافر لها. وانسحب جيشه إلى مصر، تاركاً عكا وأسوارها. ولو سقطت عكا في أيدي الفرنسيين لكانت القدس عاشت في ظل الحكم الفرنسي زمناً طويلاً، ذلك أن الفرنسيين ظلوا فترة غير وجيزة من الزمن يحكمون مصر. وذلك بسبب انتصار أحمد باشا الجزار الذي قاد الجيش العثماني وقاوم نابليون في عكا.

هذا ويمثل عام ١٨٠٨- ١٨٣١ نهاية الفترة الأولى من الحكم العثماني، وقد عاشت القدس فيه بسلسلة من الاضطرابات والثورات. وتعرضت المدينة للتخريب خاصة في سنة (١٨٠٨) حيث أصابها حريق دمّر الجزء الغربي من كنيسة القيامة (القبر المقدس). وسنة ١٨٠٩ حدثت فيها ثورة وتمرد ثم فيه طرد متسلم القلعة. وفي سنة ١٨٢١ وبعد حدوث الثورة اليونانية على العثمانيين، تعاطف مسيحيو القدس مع هذه الثورة. فأصدر العثمانيون على أثرها أمراً بجمع السلاح من المسيحيين، وفي سنة ١٨٢٤، شهدت القدس ثورة مشابهة للثورة السابقة، تباينت حولها الأسباب والدوافع خاصة في باب تزايد عبأ الضرائب على أهل القدس واستبداد الحكام بهم. وفي سنة (١٨٢٥) حدث تمرد واستئناف للثورة السابقة تم فيها احتلال أهل القدس للقلعة وقد خربوا أبوابها، لكن العثمانيين أخمدوها بالقوة. وبعد ذلك بست سنوات خضعت القدس للحكم المصري (إبراهيم باشا).

الحكم المصري في القدس: استطاع محمد علي باشا أن يسيطر على مصر في وقت ضعف الحكم العثماني. وقد تطلع إلى بناء إمبراطورية عربية قاعدتها مصر والشام. فأعد لذلك جيشاً كبيراً بقيادة ابنه إبراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام. في ظل معارضة الخلافة العثمانية في عهد السلطان (محمود الثاني). لكن محمد علي أصر على تحقيق هذا الهدف حيث وصل الجيش المصري أوائل عام ١٨٣١ نحو الشام وخاصة فلسطين والقدس، لأهميتها الدينية والاستراتيجية بالنسبة لمصر ولطموحه. وفي نفس العام وقعت أول معركة بين الجيش المصري والجيش العثماني على أرض فلسطين انتصر فيها الجيش المصري. ثم تقدم بعدها لفتح غزة والرملة ويافا وحيفا والقدس. وقد تجمعت فلول الجيش العثماني في حصن عكا، (نفس الحصن الذي لم يتمكن نابليون اجتيازه بالجيش المصري). وظل الجيش المصري محاصراً لعكا مدة ستة أشهر كاملة، حتى انهارت حالة الجنود العثمانيين، حينها تقدم الجيش المصري فدك حصون عكا واستولى عليها، وأخرج منها الجيش العثماني. وأصبحت فلسطين تحت الحكم

المصري. ثم تقدم إبراهيم باشا يواصل انتصاراته، فقام بفتح جميع المدن السورية، واتجه إلى تركيا، ثم عبر الجيش المصري الأناضول متجهاً إلى الأستانة بعد أن تمكن من أسر رشيد باشا قائد الجيش التركي العام.

هذا وفي الوقت الذي شعرت فيه بريطانيا، أن المصريين تمكنوا من إحراز انتصارات لم تكن في حساب المملكة المتحدة، تلقى القنصل البريطاني في القاهرة رسالة تهديد من حكومته، لإبلاغها لمحمد علي باشا تعتبر هذا العمل موجه ضد بريطانيا ومصالحها ومناطق نفوذها جاء فيه:

«إننا نكفلك بأن تبلغ باشا مصر، بأن حكومة جلال الملك، تلقت التقارير عن تحركات الجنود المصريين في سورية، وبلاد العرب، وهذه التحركات تدل على أن مصر تريد أن تبسط نفوذها إلى جهة الخليج وولاية بغداد، فأبلغ الباشا أن الحكومة الإنجليزية لا تستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ مثل هذه المشروعات».

ولم يهتم أحد بهذا التهديد البريطاني، وكانت بريطانيا لا تستطيع مواجهة الجيش المصري، وبدأت تعمل لتجميع قوى دولية لوقف النشاط المصري بقيادة إبراهيم باشا، وتمكنت في ذلك الوقت من تجميع القوى المتحفزة على الانقضاض على أملاك العثمانية خاصة الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الروسية والإمبراطورية النمساوية وفرنسا. وتقدم الجميع للقائد إبراهيم باشا بطلب الجلاء فوراً عن سورية وفلسطين وإعادتها إلى السلطان العثماني. وشعر إبراهيم باشا أن القوة أكبر منه. فوافق على الصلح مع الوالي العثماني، وبموجبه تُرك «للولاية المصرية» حكم فلسطين. وعلى هذا بدأ حكمه في فلسطين والقدس، وحاول أن يحكمها باللين، لكن والده محمد علي كان يأمره بتجنيد الناس، وإثقال الناس بالضرائب، وقد ادت هذه السياسة إلى تذمر الأهالي من القوانين الجديدة الصادرة من محمد علي باشا والتي يقوم بتنفيذها إبراهيم باشا، وفي نفس الوقت كان الأتراك والبريطانيون يحرضون الناس على الثورة ضد الحاكم المصري. وقد بدأت الثورة في غزوة ثم شملت جميع المدن الفلسطينية، ما عدا

القدس التي دبت فيها الفوضى. وكان إبراهيم باشا في يافا، عندما تحولت الفوضى في القدس إلى ثورة، واستطاع بعدها أن يقود قوة نحو القدس، فدخلها وطارد الثوار، لكن الثوار عادوا مرة أخرى وكادت ثورتهم تنهي حكم إبراهيم باشا لفلسطين، لولا وصول نجدة عسكرية بقيادة والده إلى يافا، فذهب إبراهيم باشا لاستقبالها وضمها إلى قواته. وصمم على إعادة القدس، بعد أن اتفق مع الثوار على ذلك، فرحبوا به هذه المرة.

كان إبراهيم باشا متسامحاً مع اليهود، ولا يعرف ما يدبرونه له في الخفاء، فجاء بعض منهم وعاش في القدس، وهؤلاء قد جاءوا بمرض الكوليرا معهم، ولأن اليهود في كل مجتمع منعزلون، تفشى فيهم المرض ولم يتجاوزهم، وذلك في بداية الأمر، ثم ابتدأ ينتشر في سكان القدس المسلمين، فأغلقت المدينة أبوابها خوفاً من انتشار العدوى في جميع أنحاء فلسطين، ومع هذا الإحكام فإن هذا المرض اللعين قد انتشر في جميع أنحاء فلسطين وتوفي عدد كثير بسببه. وأخيراً عاد إبراهيم باشا إلى مصر بعد أن أقام في القدس ومدن فلسطين عشرة أعوام. وهناك طلب بعض الجنود البقاء في البلاد التي عاشوا فيها وألفوا الحياة بها طوال هذه الأعوام العشرة فوافقهم على ذلك، وظلت هذه الأسر المصرية تعيش حتى يومنا هذا في فلسطين المحتلة والأردن وسورية.

إن المتتبع لتاريخ القدس أثناء الحكم المصري والغزو النابوليوني. يرى أن واقع الغزو النابوليوني العابر لفلسطين سنة ١٧٩٩، لم يترك آثاراً واقعة في هذه المدينة، لأن القدس لم تكن مركزاً من مراكز السلطة المحلية أو العثمانية. على عكس دخول القوات المصرية لبلاد الشام عام ١٨٣١. فقد أحدثت واقعاً مهماً في القدس وبلاد الشام من حيث إقامة المصريين إدارة مركزية عاصمتها مدينة دمشق. وأقامت في هذه البلاد سياسة الباب المفتوح خاصة في باب فتح القنصليات الأوروبية في القدس، وفتح باب التغلغل الديني التبشيري على أعلى مستوى تمثل بإقامة

(الأسقفيات) البروتستانية والإنجليزية والروسية، وبطريركية اللاتين، وأسقف روسيا ووجود بطرك مقيم في القدس بدل التبعية للقسطنطينية[1].

وقد شهدت مدينة القدس بعض المنشآت العمرانية. منها كنتين للجنود داخل الأسوار وطاحونتين هوائيتين خارجها، وقامت الطائفتان المسيحية واليهودية ببعض أعمال الترميم والبناء في الأماكن الدينية الخاصة بها. وأماكن نزول الحجاج. وكذلك أقام البروتسنت الإنجليز والألمان مباني جديدة داخل القدس وخارجها. وأهمها كنيسة المسيح وهي المعروفة (بالكاتدرائية البروتستانية) سنة ١٨٤٩م. وفي عام ١٨٥٣- ١٨٥٦. تم بتنفيذ (٢٤) مشروع داخل السور وخارجه، منها: المجمع الروسي في منطقة الميدان، وبناء كنائس وأديرة وكنس ومساجد ومدارس ودور أيتام ونزل حجيج ومستشفيات، ومدارس إسلامية ومسيحية. أيضاً شهدت القدس عمارة بيوت وأحياء سكنية خاصة لليهود في الشمال العربي للقدس إضافة لوجود جمعيات مختلفة، وزاد عدد الجالية اليهودية في القدس.

القدس في القرن التاسع عشر (الحكم المصري - والعودة العثمانية):

برز تاريخ القدس في القرن التاسع عشر كمزكز إداري كبير في بلاد الشام، وعلى نحو ما كعاصمة لفلسطين. خلافاً للمدن الداخلية في التقسيم الإداري العثماني. وهذا مرجعه ارتباط هذه المدينة بالمصالح الدينية والسياسية المتزايد، خاصة في باب المصالح الإسلامية والمسيحية واليهودية من جهة، والأوروبية والعثمانية من جهة أخرى.

إن المتتبع لمراحل نهوض القدس ونموها وتطورها السكاني والاجتماعي

(١) العسلي: تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦- ١٨٨٢. عارف العارف: المعضل في تاريخ القدس ١٩٦١، ص٢٧٧- ٢٩١. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، مجلد ١٠/ ٢، بيروت ١٩٧٦.

والاقتصادي والسياسي والإداري، يرى أنها كانت تتفق وترتبط بالتطور التاريخي والسياسي بصورة عامة. والمعروف أن قوى التغير الكبرى التي فعلت فعلتها في فلسطين كانت أثناء الحكم المصري المؤقت (١٨٣١- ١٨٤٠). وسياسة التنظيمات العثمانية والتغلغل الديني الثقافي والاقتصادي الأوروبي. بما في ذلك الهجرة اليهودية التي مهدت للاستيطان الاستعماري اليهودي. والدمج المتزايد للبلاد في الاقتصاد العالمي منذ أواسط القرن. وردود الفعل المحلية على هذه التحديات. لهذا كان تطور القدس منغرساً في هذا السياق الأوسع الذي شكل الإطار التاريخي لنهوض المدينة. وبعد إخراج المصريين من بلاد الشام حاولت الدول الأوروبية خلق «مسألة القدس». وبرزت مشروعات عدة دعت إلى تدويل القدس أو إقامة كيان مسيحي إداري فيها تحت السيطرة الأوروبية، لكن عودة السيادة العثمانية إلى الشام أفشلت هذه المشاريع.

هذا فقد اتسمت السياسة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى حول أوضاع القدس، بين إيقاع التفاعل للسياسة العثمانية والتغلغل الأوروبي وردود الفعل الإقليمية. أما الواقع العثماني فتمثل في مراسيم الإصلاح سنة ١٨٣٩، ١٨٥٦، ودستور سنة ١٨٧٦، وقيام حكم تركيا الفتاة. في حين جاء التغلغل الأوروبي في القدس على مستويين متصلين ببعضهما البعض. الأولى على مستوى الدولة المتعلق بدبلوماسية القوى العظمى، والمصالح السياسية التجارية، وسياسة ما عرف بحماية الأقليات الدينية في القدس. والثاني على مستوى ظهور النشاط المتزايد للكنائس والجمعيات والأرساليات التبشيرية المحمل بالروح الصليبية الاستعمارية، تمهيداً لمرحلة سلمية تضمن إعادة الأرض المقدسة للمسيحيين، وإعادة اليهود مشفوعاً بتنصيرهم. أو استرداد الأرض المقدسة بطريق الاستعمار (إقامة المستعمرات) أو إعادة اليهود إلى أرض ما يزعم بأرض إسرائيل الذي يمثل آمال ومطامع اليهود السابقة للحركة الصهونية.

هكذا نرى أن وضع فلسطين عامة والقدس خاصة قد وقع زمن الحكم المصري في دوامة المنافسات الأوروبية (المسألة الشرقية). ولما كان اتفاق الدول الاستعمارية لتقسيم أملاك العثمانيين لم يحن بعد، بسبب التنافس بين هذه الدول. لذلك لم تجهد هذه الدول لبسط سيطرتها الإقليمية على فلسطين، بل سعت إلى بسط نفوذها عن طريق ما عرف بحق حماية الرعايا المسيحيين في البلاد المقدسة. ولهذا التغلغل الثقافي والديني المزعوم أصبحت القدس حلبة الصراع والمنافسة بين الدول الأوروبية وضمن دائرة الصراع. وقد تحولت القدس من مدينة صغيرة إلى أكبر مدينة في فلسطين، إلى جانب اعتبارها المركز السياسي والثقافي لكل فلسطين عشية الحرب العالمية الأولى. لذلك جعل الجنرال اللنبي هدفه الرئيسي إلى فلسطين هو القدس التي دخلها سنة ١٩١٧[(١)].

المركز الإداري للقدس: يمكن القول أن أهم التطورات الإدارية في القرن التاسع عشر، هو بروز الكيان السياسي الإداري لفلسطين عامة والقدس خاصة. وهذا التطور تمثل في خطان. الأول محاولة توحيد السناجق الفلسطينية الثلاثة (القدس، نابلس وعكا) تحت سلطة حاكم واحد. والثاني الجهود التي أدت إلى ظهور مدينة القدس كسنجق ذا وضعٍ خاص. وفي سنة ١٨٣٠ وخلال الاحتلال المصري للشام وحّد الباب العالي السناجق الفلسطينية الثلاث تحت سلطة حاكم عكا.

وفي سنة ١٨٧٢. تم توحيد السناجق الثلاث مرة أخرى، أصبحت فيه القدس عاصمة منطقية (ولاية فلسطين). ضمت جميع الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية واليهودية. وقد رحبت الدول الأوروبية بهذا الاتجاه لكي يتغلغلوا في فلسطين، ولهذا السبب ألغى الباب العالي هذا الإجراء الإداري، وشدد سيطرته على فلسطين وجعل حاكم القدس يخضع مباشرة للباب العالي (لفترة قصيرة)، لأن سنجق القدس عام ١٨٧٤ أصبح مستقلاً مرة أخرى. وجعل حاكم القدس مسؤولاً

---

(١) عارف العارف: المفصل ٢٧١- ٢٧٤، ٣٧٤- ٣٨٤.

أمام القسطنطينية مباشرة. واحتفظت القدس وجنوب فلسطين بهذا الوضع الخاص حتى الاحتلال البريطاني[1]. لهذا يمكن القول أن السلطات العثمانية علقت أهمية متزايدة على فلسطين خلال القرن التاسع عشر. حيث كانت تحاول تعزيز وجودها الإداري تجاه مصر من ناحية. واتجاه أوروبا من ناحية أخرى. وهذا بدوره يعني بروز القدس كعاصمة لولاية ذات وضع متميز وخاص.

الخلاصة: ثمة مفترق طرق في تاريخ القدس في القرن التاسع عشر ظهر في الستينات والسبعينيات. تمثل في التحول الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإداري الحاكم، الذي شهدته فلسطين كلها خلال تلك العقود في ظل سياسة الإصلاح العثماني والتغلغل الأوروبي. كذلك كان للإرتباط بين الاحتلال البريطاني لمصر وبداية موجة الهجرة اليهودية الأولى. لسنة ١٨٨٢. البداية الأولى لإلتقاء النظرة الاستعمارية البريطانية من جهة، والصهيونية من جهة أخرى، تحرك كل منهما اتجاه الآخر والتقيا حول هدف مشترك خلال الحرب العالمية الأولى. فكانت النتيجة صدور وعد بلفور في أثني تشرين الثاني ١٩١٧، ومن ثم دخول الجنرال البريطاني القدس في ١١ كانون الأول ١٩١٧[2].

التنظيم الإداري للقدس في العهد العثماني: تبعت القدس منذ الفتح العثماني لولاية (دمشق). وهي إحدى ثلاث ولايات تألفت منها بلاد الشام في ذلك الوقت. وقد قسمت كل ولاية إلى عدد من السناجق (الألوية). وكان للقدس سنجقاً خاصاً ضم الخليل والقرى المجاورة لها. وكان على رأس الإدارة حاكم اللواء (سنجق بك أميرلوا). وهو مقصور على العثمانيين. وهو رجل عسكري عُرف اختصاصه في قيادة الجيش في الحرب والمحافظة على النظام العام والإشراف على الإقطاعات العسكرية

---

(١) scholch, palastine in unbruch 1856- 1882.

وسشولس «تحولات جذرية في فلسطين» ترجمة كامل العسلي (القسم الأول).

(٢) محمود العابدي: قدسنا ص١٣٤، طبع القاهرة ١٩٧٢، الدباغ: المجلد ١/ ٢ ص٣٦٢- ٣٦٩.

وجباية الضرائب. وإقطاعاته من أكبر الإقطاعات في السنجق بعد أراضي السلطان. وحددت مدة الحكم له سنة قابلة للتجديد.

يساعد الحاكم نائب يدعى (الكيخيا) وكاتب (يازجي) وعدد من التراجمة والجامعة من الباهية ومن الجنود الآخرين، وقوامها الرئيس من الانكشارية ويرأسهم (أغا). أما الإدارة المدنية فكان على رأسها القاضي «حنفي» تبعاً لمذهب الخلافة العثمانية. وسلطة القاضي شملت القدس وعدد من المدن الأخرى. وله نائب (نائب الشرع) يقوم بمهمة القضاء. وإلى جانب القاضي. المحتسب. وإلى جانب القاضي كذلك شخصيات دينية ثلاث (المفتي، نقيب الإشراف، وشيخ الحرم).

سكان القدس في العهد العثماني[1]: تباين أعداد سكان القدس بين الزيادة والنقصان في العهد العثماني. حيث لم يتجاوز عدد السكان أربعة عشر ألفاً طيلة القرن السادس عشر وقد بلغ أوجه في أواسط القرن ثم تناقص إلى حد كبير سنة ١٥٩٦. وقد تألفت الأكثرية الساحقة لمدينة القدس من أهل المدينة العرب المسلمون إلى جانب جاليات إسلامية أخرى من أقطار إسلامية وعربية وعدة أقطار من آسيا الوسطى. أما المسيحيون يمثلون عدة طوائف الأكثرية منهم الروم الأرثوذكس العرب. وقد زاد عدد اليهود في القدس خلال القرن السادس عشر، بسبب سماح السلطة العثمانية ليهود الأندلس الذين طردوا سنة ١٤٩٢ بالعيش في فلسطين. وقد بلغ عددهم بين (٥٠٠) أو (٦٠٠) فرد في تلك الفترة.

اليهود في العهد العثماني: زاد عدد اليهود في القرن السادس عشر وذلك بعد أن سمحت السلطات العثمانية ليهود الأندلس الذين طردوا سنة ١٤٩٢ بسبب محاكم التفتيش بالعيش في فلسطين. وقد منح هؤلاء ملجأ لهم في كل من القدس وصفد. وقد علق دافيد دي روسي (David dei rossi) وهو يهودي إيطالي بقوله: «نحن هنا

---

(١) انظر: مجلة القدس الشريف، رقم ٨، تشرين الأول ١٩٨٥، ص٤٠-٥٠.

لسنا بالمنفى كما نحن في بلادنا ذاتها (إيطاليا) - هنا... المعيَّنون على الجمارك والمكوس كانوا من اليهود وليست هناك ضرائب خاصة مفروضة على اليهود[1]. ويؤكد الأستاذ (آمنون كوهين): أن اليهود تمتعوا بمواقف إيجابية في العهد العثماني، حيث إن الجزية المفروضة على اليهود كانت تأخذ في الحد الأدنى ولم تكن مفروضة على الفئة الدنيا من اليهود.

وغالباً الأحكام تميل لصالح اليهود[2]. وتسيطر بأن حكام المسلمين شجعوا قيام حياة يهودية في القدس والسبط عليها الحماية.

المنشآت العثمانية في القدس

تعددت وتنوعت المنشآت العثمانية في القدس، وكذلك تعددت أغراضها. وذلك راجع إلى اعتبار الخلافة العثمانية امتداداً للخلافة العباسية الإسلامية، وسلسلة مستمرة من تاريخ الإسلام الكلي. كذلك تعددت دوافع وأغراض هذه المنشآت، لكن ظل الدافع الديني هو الدافع الأول، إلى جانب دوافع أخرى مكملة ومرتبطة به من جهادية واجتماعية وعلمية. أهمها المنشآت الدينية، ثم المنشآت الأخرى المكملة لهذا الغرض خاصة العسكري لحماية القدس وحماية مقدساتها ممثلة في (المنشآت الأمنية والدفاعية والحربية)، والمنشآت الاجتماعية والخيرية والعلمية، معتمدين في ذلك على بيان دور وفضل كل خليفة من الخلفاء العثمانية في هذه المنشآت، التي لا تزال شاهدة على تعظيم العثمانيين للحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وكذلك لحرمي بيت المقدس والخليل خاصة وسائر العمائر الإسلامية في كل بلاد الإسلام عامة.

أولاً: المنشآت الدينية: اهتمت الدولة العثمانية بأمر العمارة الدينية في القدس

---

(١) السجل: رقم ٥٥ ص٢٠٧، Peters, Jerusalem, 499 وسجلات المحكمة الشرعية.

(٢) Cohen, Jewish life under Islam, 223-225, 119

الشريف، خاصة المنشآت الدينية التي تخص المسلمين والنصارى واليهود على حد سواء، دلالة على عناية الإسلام والمسلمين بأمر المقدسات لدى أتباع الديانات السماوية الثلاث: التي لها صلة بالمدينة المقدسة وفلسطين. وما دام أن الإسلام يحفظ حرية كل الأديان وأتباعها دون تفريق أو تمييز، وكأمر رباني لا نقاش فيه، وعليه فإن رعاية القدس والاهتمام بها وبسكانها في صورة طبيعية وواقعية أمر منوط بالمسلمين[1].

فمنذ مطلع العهد العثماني اهتم الخلفاء العثمانيّة بالعمارة الدينيّة في المدينة المقدسة، بخاصة في عهد السلطان سليمان القانونيّ الذي أمر عام ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م بإصلاح عمارة الصخرة المشرفة، فأصلحت قبة الصخرة من الخارج، ورممت طبقة الفسيفساء التي كانت تغطي القبة من الخارج بالخزف المزخرف. وبلطت فيه الصخرة من الداخل بالرخام الأبيض في نصفها السفلي، والقاشانيّ الأزرق في نصفها العلوي، وكتب في هذا النصف سورة يس بالأبيض[2]، وعمر الباب الغربي للقبة.

وأمر السلطان القانونيّ بتعمير جدران المسجد القدسيّ الشريف وأبوابه وأغلق الباب الذهبيّ للمسجد، وفتح باب (ستنا مريم) عوضاً عن الباب الذي أغلقه[3]، ونالت عمارة الصخرة المشرفة عنايته واهتمامه، وغدت مظهراً عمرانياً رائعاً في الجمال من الداخل والخارج. كذلك أمر القانونيّ بناء مسجد الطّور فوق جبل الزيتون عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، قرب كنيسة الصعود، وحوّل مقام النبي داود إلى مسجد، وبنى عام ١٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م محراب النبيّ غربيّ الصخرة المشرفة من جهة

(١) د. عبد الفتاح أبو علية، ود. عبد الحليم عويس، بيت المقدس، دار المريخ، ١٩٨١م، ص٨٥؛ ابن إياس: دوافع الزهور ج٥/ ١٣٦، أحمد فريدون: منشآت السلاطين ج١/ ٤٨٢، ٤٥٢- ٤٥٦.

(٢) العابدي، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، من موضوع قبة الصخرة.

(٣) الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج١، القسم الثاني، بيت المقدس، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٦م، ص٨.

الشمال بينها وبين قبة المعراج(١) واهتم بأمر حائط البراق، فأمر برفع الأوساخ والقمامة والأتربة من أسفله. ورفع الحائط ستة مداميك من الحجارة الصغيرة بنيت فوق الحائط القديم قبل الإضافة العثمانيّة. هذا ويرجع بناء الحائط القديم إلى عهد هيرودس في القرن الأول الميلادي، وإليه يعود بناء سور القدس القديم أيضاً(٢). ولا بد لنا من الإشارة إلى أن عهد السلطان القانونيّ قد تميز عن غيره من الخلفاء من باب اهتمامه الأكبر بشؤون المدينة المقدسة، وقد خلفه عدد من السلاطين لم يولوا القدس عنايتهم الخاصة(٣)، نذكر منهم السلطان سليم خان الثاني ابن السلطان القانونيّ من زوجته الروسية روكسلانة، وابنه مراد خان الثالث، والسلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد الثالث، وابنه السلطان أحمد خان الأول، والسلطان مصطفى خان الأول أخو السلطان أحمد الثالث، وعثمان خان الثاني ابن السلطان أحمد الأول(٤) إذ المتتبع لأعمال هؤلاء السلاطين لم يجد مشروعات عمرانيّة أو حتى أعمال إضافة أو ترميم أو تجديد لهم في القدس الشريف. وربما يعود ذلك إلى:

١- الإنشاءات العمرانية الكثيرة في القدس في عهد السلطان القانونيّ التي حققت للمدينة المقدسة جانباً من معظم مستلزماتها العمرانيّة، الحربية، والدينية والاجتماعة وقد غطت مساحات زمنية واسعة.

٢- انشغال عدد من السلاطين العثمانيين في الأمور العامة والخاصة.

---

(١) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ١٩٦١، ص٣٠٧.

(٢) راشد، سيد فرج، القدس: عربية إسلامية، دار المريخ للنشر، الرياض ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٦٢.

(٣) كرد علي، محمد، خطط الشام، ج٢، دمشق، ١٣٤٣هـ.

(٤) انظر ذلك في كتاب:

- خلاصة تاريخ الكنيسة لمؤلفيه شحادة الخوري ونقولا.

- العورة، إبراهيم، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، صيدا ١٩٣٦، ص٨٨- ٨٩.

٣- تعرض مدينة القدس للعديد من الثورات والفوضى في عهد كل من السلطان مصطفى الثالث كالخلافات القائمة بين النصارى الأرثوذكس والنصارى اللاتين الكاثوليك، وعهد السلطان محمود الثاني الذي تميز بكثرة ثورات الانكشارية وتمردهم ضد السلطة، وحركات الفوضى التي كانت تنتاب المدينة المقدسة بين الحين والآخر، وما يقوم به بعض البدو والأفراد من قطع الطرق والاعتداء على منابع المياه دلالة من باب عدم الرضى على السلطة العثمانية المحلية، أو دلالة على سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المدينة في تلك الفترة.

وبالرغم من ذلك بنى العثمانيون جامعاً كبيراً في المدينة المقدسة سمي (بجامع الحنابلة)، وقد بني هذا الجامع الكبير في عهد السلطان أحمد خان الأول وهو من بين السلاطين الذين لم يركزوا اهتمامهم الكبير على شؤون المدينة المقدسة، إذ يأتي هذا العمل الديني استجابة لمطلب اجتماعي وآخر خيري. وفي عهد السلطان محمد الرابع أنشيئ المصلى الواقع إلى جانب السبيل المسمى سبيل شعلان في ساحة الحرم القدسيّ الشريف عام ١٠٦٢هـ/ ١٦٥١م. وأنشئت المئذنة الواقعة في داخل قلعة القدس عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م، والقلعة التي رممت في عهد السلطان سليمان خان القانونيّ[١]. أن مثل هذه العمارة ذات الطابع الدينيّ تدل على مدى اهتمام السلاطين بالمسائل ذات الطابع الديني لقدسية مدينة القدس الشريف، لما روي عن ابن عباس قوله: «أن البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، وما فيه موضع شبر إلا وقد وصل فيه نبي

---

(١) العارف، تاريخ القدس، ص١٠٥، ١٠٦، انظر: وصف القدس للرحلة التركي أوليا، عام ١٠٨١/ ٦٧م حيث ألف أوليا جلبي كتاباً عن رحلته سماه: أوليا جلبي سياحتنامه سي، وتوجد نسخة مصورة من هذا المخطوط في مكتبة المتحف الوطني الفلسطيني في مدينة القدس، ونسخة أخرى باللغة الإنجليزية كان قد ترجمها وضبط حواشيها الأستاذ اصطفان حنا اصطفان. انظر: السائح، عبد الحميد، القدس: تاريخاً وحضارة ومستقبلاً، بحيث قدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» في ١٩- ٢٤ نيسان ١٩٨٠م/ الموافق ٤- ٩ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ، ص٧٨.

أو أقام فيه ملك». وهي أيضاً فيها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

وفي عهد السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان الثاني جددت عمارة مسجد القلعة عام ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م. وجدير بالذكر هنا أن أوضاع القدس وقتذاك كانت تتأرجح بين الهدوء النسبيّ وبين حالات من الفوضى والقلاقل في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلاديّ، كثورة نقيب الأشراف السيد محمد عام ١١٦٤هـ/ ١٧٠٥. في عهد السلطان أحمد خان الثالث التي أخمدها والي دمشق، وفتنة القدس عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م، التي وقعت بين النصارى من الروم الأرثوذكس والنصارى الإفرنج اللاتين[١] وغيرهما من الحوادث التي كانت عاملاً قوياً من عوامل عدم الاستقرار والأمن في بيت المقدس. وقد تكررت تلك الأوضاع في القرن التاسع عشر الميلاديّ في العشرينات منه[٢].

وعلى الرغم من ثورة أهالي مدينة القدس عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م ضد المسؤولين العثمانيين بسبب الضرائب الباهظة التي كانوا يفرضونها على أهالي القدس، وتمرد جماعة الجند الانكشاريّ، بعد أن أمر السلطان محمود الثاني بحل فرقهم وبناء جيش عثمانيّ جديد على نمط التنظيمات العسكرية الغربية الحديثة، فعلى الرغم من هذا كله فقد أحدث العثمانيون إصلاحات عمرانية في القدس الشريف في عهد السلطان محمود الثاني، فرمم سليمان باشا والي إيالة صيدا وطرابلس الشام المسجد الأقصى، وقد دفع جزءاً كبيراً من تكلفة الترميم من جيبه الخاص. كذلك ساهم أصحاب الجند مثل سليمان باشا الذي زار القدس عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م، واستأذن

---

(١) انظر: العارف تاريخ القدس، ص١٠٦؛ الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس، ج٢، ص٩؛ ميخائيل بيك الدمشقيّ: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ١٧٨٢ - ١٨٤١م، نشرة الأب لويس معلوف، بيروت ١٩١٢م، ص٦١ وما بعدها.

(٢) يقول الرحالة الإنجليزي بكنجهام الذي زار القدس عام ١٨١٦م: «إن المدينة لم تكن مركزاً تجارياً مهماً،والسكان فقراء، والبضائع قليلة، وكان من نتيجة ذلك أن مستلزمات المعيشة هنا مرتفعة الثمن. ارجع إلى: سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين، مترجم، ص٢٠، ٢١.

من السلطان محمود بعمل الترميمات اللازمة على نفقته شخصياً. وكان سليمان باشا يرجو من السلطان أن يساعده في هذا الأمر لأن تكاليف الترميم عالية وهي فوق مقدوره، ولكن السلطان لم يفعل ذلك، واكتفى بإصدار أوامره بالموافقة على طلب سليمان باشا. وتضمن الفرمان السلطاني المديح والثناء على سليمان باشا، «ولأجل حسن صداقته صار معتمد السلطنة السنية، وتوكل من طرف ملوكانيته لعمل هذه الخيريّة الجسيمة، وهي عمار وترميم محلات عرش الله الأدنى وتنظيمها كالواجب»[١].

وقد رمم جميع الخراب، وغير سقوف المسجد الثلاثة، والرفوف، وسقوف الأروقة كلها، وغير الرصاص الكائن على جميع الأسطح الذي تخرب من طول المدة، وغير القاشانيّ كله، وجددت كل الدرابزينات، وغير ذلك من الإصلاحات العمرانيّة الضرورية للمسجد الأقصى. واستخدمت أخشاب لبنان لهذه الغاية. وأنشئ معمل خاص للقاشانيّ في القدس، وجلب له الصناع المهرة من الشام وغيرها، وذلك لإنجاز مشروع التجديد وتسهيل المهمة. ونقش على القاشانيّ المثبتة كتابات جميلة، فورد نص مكتوب بخط الثلث: «بسم الله الرحمن الرحيم، جدد ترميم هذه القبة الشريفة مولانا سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين، وهذا المسجد الأقصى أولى القبلتين، المجاهد في سبيل الله تعالى المحفوف بعناية الله المعبود مولانا السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان خلد الله ملكه مدى الزمان، وذلك على يد الوزير صاحب الخيرات والتدبير سعادة الحاج سليمان باشا والي إيالة صيدا وطرابلس الشام أدام الله دولته وإجلاله، وذلك سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم، بقلم الضعيف مصطفى علي أفندي المأمور من جانب الدستور»[٢]. كذلك رمم سليمان باشا مقام

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس، ج٢، ص١٣.

(٢) الدباغ، المرجع السابق، ص١٤.

النبي داود، ونقشت على زاوية بابه العبارة التالية: «جدد تعمير هذا المكان الشريف والبناء الساطع المنيف مع ترخيم الروضة بالرخام اللطيف مولانا السلطان الأعظم محمود خان خلد الله ملكه وسلطته وزاد بالتوفيق أيامه وأحكامه، وذلك على يد سعادة الدستور صاحب الحسنات والخيرات الحاج سليمان باشا بلغه الله ما شاء والي صيدا. بمباشرة مصطفى علي أفندي المأمور، وذلك في سنة ١٢٣٣هـ»[١]. وتجدر الإشارة هنا أن اموالاً كثيرة أنفقت في سبيل تلك العمليات التعميرية والترميمية التي قام بها الوالي سليمان باشا في عهد السلطان محمود خان الثاني، وقد بلغت تلك النفقات في حدود أربعة آلاف كيس من النقود العثمانية، واستغرقت تلك العملية في حدود سنة وتسعة أشهر[٢] وسمح السلطان محمود الثاني للنصارى اللاتين بناء عدة غرف في ديرهم في بيت المقدس.

ولم تحظ المدينة المقدسة بعناية محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، لأن عهد محمد علي وسيادته على بلاد الشام كان عهد تثبيت للحكم ومحاولة إيجاد نوع من الأمن والاستقرار في عهد جديد منفصل عن الدولة العثمانية، بعد حركة الانفصال التي قام بها محمد علي باشا ضد السيادة العثمانية. ومما زاد في تعقيد الأمر حدوث ثورة عنيفة في القدس وأرجاء فلسطين منها عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م ضد إبراهيم باشا الحاكم العام في بلاد الشام، وضد سيادة محمد علي، ويعود سببها إلى: صدور الأوامر الخاصة بجمع جميع السلاح من الأهالي مهما كان نوعه، وفرض عوائد مالية ورسوم جديدة على السكان. وإعلان التجنيد الإجباريّ وفرضه على الأهالي وما نتج عنه من نتائج اقتصاديّة واجتماعيّة ذات أثر سيئ على السكان، وشدة إبراهيم باشا في تطبيق الأوامر والقرارات، وتحريض السلطة العثمانية على الثورة، كل هذا أجج الثورة

(١) الدباغ، نفسه، ص١٤.

(٢) الدباغ، نفسه، ص١٤.

الأهليّة في القدس ومدن فلسطين وقراها[1]. ومما زاد في متاعب أهالي القدس وغيرهم ما حل ببلادهم من مرض الكوليرا الذي أخذ بشراً كثيراً بين عام ١٢٥٤-١٢٥٥هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٣٩م، وكلها أمور حدثت في عهد سيادة محمد علي.

وعلى الرغم من هذا الوضع القائم في القدس في عهد محمد علي باشا، إلا أنه اضطلع ببعض المسؤوليات والمشروعات العمرانيّة في القدس ذات الصفة الدينيّة مثل: تصريحه لليهود بترميم كنيسهم في بيت المقدس على شرط ألا يزيدوا شيئاً على المباني القديمة فيه[2]. ورفض محمد علي طلب اليهود بتبليط حائط البراق (المبكى)، فأصدر أمره القاطع إلى ابنه إبراهيم باشا في ٢٢ محرم ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م: «بوجوب منع اليهود من تبليط البراق في القدس، وعن رفع أصواتهم فيه، وإبقاء القديم على قدمه عملاً بنصوص الشرع الشريف[3]، وكان (الحاج محمد) شيخ المغاربة بالقدس الشريف قد وجه عريضة إلى إسماعيل عاصم بيك حكمدار حلب يطلب فيها منع اليهود من تبليط حائط البراق وإحداث أي جديد فيه، وقد أيد هذا الطلب مجلس شورى القدس[4]. وهو أمر مشهود إلى إدارة محمد علي وحكمه في فلسطين.

ومن محاسن حكم محمد علي في فلسطين خاصة بالنسبة للمدينة المقدسة، فقد وافق على إنشاء مجلس شورى للمدينة المقدسة يتعاون مع مديرها للنظر في الأمور الخاصة بها ومعالجة بعض مشكلاتها العمومية، ومن محاسن حكم محمد علي باشا في القدس أنه صادق على قرار مجلس الشورى برفض السماح لليهود بشراء الأملاك والأراضي بالمقدينة المقدسة، ومنعهم من شراء الأراضي الزراعية وممارسة الزراعة

(١) د. رافق عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦- ١٩١٦م، دمشق، ١٩٧٤م، ص٤٠٨، المعارف، تاريخ القدس، ص١١١- ١١٥.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس، ج٢، ص٢٠.

(٣) من وثائق المخطوطات الملكية المصرية، حوادث عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م، محفوظات، ج٤، ص٣٠٩، نقلاً عن الدباغ، المرجع السابق، ص٣١.

(٤) من الوثائق نفسها، ص٢٨- ٣١.

والحراثة وبيع الأغنام والمواشي والأبقار، وسمح لليهود بالعمل في التجارة فقط. وصدر قرار من محمد علي بعدم السماح «ببيع الأراضي في القدس الشريف ونواحيها إلى اليهود الأجانب نظراً لعدم وجود مسوغ شرعي لهذا العمل»[1].

ويتضح لنا أن العثمانيين زادوا من اهتمامهم بشؤون المقدسات الدينيّة في مدينة القدس في أعقاب حكم محمد علي باشا لبلاد الشام، ومرد ذلك يعود لأسباب منها:

تبني الدولة العثمانية استراتيجية جديدة تجاه الولايات العربية بعد معاهدة لندن عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م غرضها تغيير الصورة القديمة في كل ولايات بلاد الشام بأن السيادة العثمانيّة سيادة ضعيفة، وأن حماية الدولة لهم ليست بالقدر المؤمل منه. فجاءت سياستهم الجديدة تحمل كل الاحترام والاهتمام بالمسلمين بعامة وبأمور مقدساتهم والمحافظة عليها كوسيلة دعائيّة إعلاميّة من أجل إرضاء العالم الإسلامي، وإقناعه بأن الدولة العثمانية ما زالت على نهجها الإسلامي». وعليه فقد عني السلطان عبد المجيد خان بالمقدسات الإسلامية في القدس، فأمر بترميم قبة الصخرة المشرفة تحت إشراف مهندس أرمنيّ خبير ببناء القباب اسمه (فره بت)، وتقوية القبة المشرفة وترميمها، وترميم جميع التزيينات والنقوش فيها، ودام هذا الترميم والإصلاح في القبة المشرفة بضع سنين[2]، وعدّ هذا الترميم من أكبر المشروعات العمرانيّة وأوسعها التي شملت عمران القبة في عهد السلاطين العثمانيين.

وعني السلطان عبد العزيز خان الذي خلف أخاه السلطان عبد المجيد بأمر المقدسات الإسلامية في القدس، ففي عهده أنشئت مباني كثيرة في الحرم القدسي الشريف، فأنفق في سبيل ذلك حوالي عشرين ألف ليرة عثمانية. وأنفق السلطان عبد العزيز مبلغ ثلاثين ألف ليرة ذهبية عثمانية. في سبيل إعمار المسجد القدسيّ الشريف

---

(١) الدباغ، نفسه، ص٢٢.

(٢) العارف، تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، القدس، ١٩٥٠م، ص٩٤، ٩٥.

(المسجد الأقصى) بترميمه وزخرفته. يقول الأستاذ عارف العارف في هذا الصدد: «وقصارى القول إن العمارتين اللتين أجريتا في زمن السلطان عبد المجيد ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، والسلطان عبد العزيز ١٨٧٤م، كانتا من أضخم العمارات التي تمت في مسجد الصخرة بعد أن بناه عبد الملك بن مروان. وقد استمرتا عدداً من السنين، وشملتا بناء الصخرة الأساسي ونقوشها الداخلية لاسيما العمارة التي تمت في زمن السلطان عبد العزيز، يقول الخبيرون: إن هذه العمارة كلفت خزانة الدولة مقادير كبيرة من الذهب الخالص (عيار ٢٤)، وأن عمله اعتبر إسرافاً وكان من جملة الأسباب التي أدت إلى خلعه»[١].

وفي عهد السلطان عبد العزيز بني مسجد المغاربة[٢] عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧١م نسبة للسكان المسلمين من المغاربة الذين جاوروا وعاشوا في مدينة القدس[٣] حيث إن كل رعايا الدولة العثمانية يحق لهم التنقل والإقامة في أي مكان يشاؤون، إذ لا توجد حدود رسمية بين الولايات العثمانية، وعليه وجد حي في القدس سمي بحي المغاربة.

وفي عهده أيضاً رمم المسجد العمري الكائن على مقربة من كنيسة القيامة[٤]، وعلى المكان الذي يعتقد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى فيه عندما حان وقت الصلاة، وهو موجود في داخل كنيسة القيامة، فأبى أمير المؤمنين أن يصلي داخل الكنيسة، بل أدى الصلاة بالقرب منها محافظة منه على الأماكن المقدسة للنصارى، ورعاية منه لأمورهم العامة. وفي عهد هذا السلطان حدث اختلاط كبير بين الأتراك

---

(١) العارف، تاريخ قبة الصخرة، ص٩٥.

(٢) العارف، تاريخ القدس، ص١١٩.

(٣) لمزيد من المعلومات عن الجالية المغربية في القدس، ارجع إلى: د. رشاد الإمام، مدينة القدس= =في العصر الوسيط، تونس، ١٣٩٦هـ.

(٤) السائح، عبد الحميد، القدس ص١١٩.

العارف، تاريخ القدس، ص١١٨، ١١٩.

العثمانيين وبين إخوانهم سكان القدس نتيجة قيام الأتراك منذ عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م بزيارة المسجد الشريف والاختلاط بأهلها، مما ساد العلاقات التركيّة العربيّة جو من التفاعل والامتزاج والتعاون والمحبة، حتى أن أهالي القدس أخذوا عن العثمانيين عادة ليس الطربوش لباس الرأس الذي قيل إن العثمانيين نقلوه عن اليونانيين وكان اليونانيون بدورهم قد أخذوه عن سكان مدينة فاس المراكشية[١]. وجدير بالذكر هنا أن إدارة شؤون المدينة المقدسة انفصلت عن تبعيتها للشام، وأصبحت في عهد السلطان عبد العزيز خان متصرفيّة مستقلة ترتبط مباشرة بالباب العالي عن طريق نظارة الداخلية في استانبول[٢].

وفي عهد السلطان عبد العزيز زار الأمير فردريك ولي عهد مملكة بروسيا المدينة المقدسة عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، فأهداه السلطان قطعة أرض كانت تشكل جزءاً من المستشفى الإصلاحيّ، فبنى البروسيون عليها كنيسة سميت بكنيسة الدباغة أو كنيسة المخلص التي دشنها الإمبراطور غليوم الثاني يوم زيارته للقدس عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، وقد هدم له السور بالقرب من باب الخليل ليدخل إلى المدينة وهو راكب على حصانه[٣]. وفي عهده عبد العزيز أيضاً منح اليهود قطعة أرض

---

(١) العارف، تاريخ القدس، ص١١٨- ١١٩.

- يذكر الأستاذ العارف أن أصل كلمة طربوش هي «سربوش» هي كلمة فارسية تعني لباس الرأس. وتنقل الطربوش إلى تركيا من بلاد اليونان الذين كانوا بدورهم قد نقلوه عن أهل فاس المغربيّة.

انظر: العارف، تاريخ القدس، ص١١٩.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس، ج٢، ص٤٢.

- العارف، تاريخ ا لقدس، ص١١٨.

(٣) الدباغ، المرجع السابق، ص٤٢.

- جريدة فلسطين الصادرة في يافا، عدد ٢ أكتوبر ١٩١٢م، نقلاً عن الدباغ، المرجع السابق، ص٤٢.

أقيمت عليها مدرسة نيتر الزراعية بالقرب من يافا عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م. وفي عهد سابقه السلطان عبد المجيد امتلك اليهود أول أرض في المدن الفلسطينية عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م، وهي القطعة التي أقيم عليها حي يهوديّ اسمه (حي مونتيفيوري) في بيت المقدس نسبة لليهودي الإنجليزي مونتيفيوري الذي زار فلسطين عدة مرات، وكان هذا من مشجعي فكرة الاستيطان اليهوديّ في فلسطين، ونشر التعليم الزراعي بين أبناء قومه في فلسطين[١] كمقدمة للطموح الصهيوني.

ويلحظ من الفرمان السلطان الخاص بافتتاح مدرسة شارل نيتر أن الهدف منها ترقية الزراعة وتطويرها في البلاد الفلسطينية، فجاء في الفرمان السلطانيّ المؤرخ في ٤ محرم ١٢٨٧هـ/ ٥ أبريل ١٨٧٠م والموجه إلى الفرنسيّ شارل نيتر. «سيفتتح المكتب المذكور لتعليم فن الزراعة والفلاحة المرغوبة وترقيته في بلاد دولتي العلية.. ويكون تابعاً لقوانين الدولة العليا تحت نظارة المعارف وتحت حمايتي السنية»[٢]. ولا يخفى على الجميع أن هدف اليهود من وراء كل تلك المحاولات هو استيطان فلسطين، وتثبيت الكيان اليهودي فيها.

وتابع السلاطين العثمانيون مسيرة الاهتمام بالشؤون الدينيّة في القدس، ففي عهد السلطان عبد الحميد الثاني زود مسجد الصخرة والمسجد الأقصى بعدد كبير من الثريات الثمينة التي علقت في المسجدين الشريفين. وفرش المسجدين بالسجاد الفاخر. وكتبت سورة يسن بخط الثلث في مسجد الصخرة المشرفة. ووضع هلال فوق قبتها. وقد أنفق السلطان عبد الحميد الثاني على تعمير المسجد القدسيّ (المسجد

---

(١) الدباغ، نفسه، ص٤٠، ٤٢.

(٢) جريدة فلسطين الصادرة في يافا، عدد ٢ أكتوبر ١٩١٢م، نقلاً عن الدباغ، المرجع السابق، ص٤٢.

- لمزيد من المعلومات ارجع إلى: خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨- ١٩١٨، مركز أبحاث منظمة التحرير، بيروت ١٩٧٣م، ص١٤.

الأقصى ومسجد الصخرة) وزخرفته ثلاثين ألف ليرة ذهبية عثمانية[١] عدا السجاد الذي كلف في حدود عشرة آلاف ليرة ذهبية عثمانية[٢].

وبالنسبة للقضية الدينية وأمر المقدسات الإسلامية في فلسطين، فإن السلطان عبد الحميد الثاني رفض أموال اليهود التي قدّمت له مقابل السماح لهم بإنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ في فلسطين، حين أرسل إلى هرتزل وهو الذي عرض الأموال على السلطان رسالة يذكر فيها: «... أنا لست مستعد أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد (فلسطين) لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكي، بل هي ملك شعبي، وشعبي روى تربتها بدمائه، فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب» وعليه فإن السلطان عبد الحميد يعد سلطاناً عثمانياً مناوئاً للحركة الصهيونية ومخططاتها الاستعماريّة. وهذا حدث تاريخيّ يسجل للسلطان عبد الحميد بكل فخر واعتزاز.

ثانياً: المنشآت الأجنبية والدفاعية والحربية: يعرف جلياً مدى اهتمام أسوار المدن بالنسبة للدفاع عن المدن وسكانها، فالأسوار حي حصون طبيعية للمدينة، وحصانة أمنية للسكان من أخطار الاعتداءات الخارجية والمحلية: كاعتداءات البدو على المدن، فكانت الأسوار سداً منيعاً أمام هذه الاعتداءات، خاصة الاعتداءات ذات الصفة المحليّة.

وقد تعرضت مدينة القدس لاعتداءات خارجية قوية، هدمت فيها أسوارها،

---

(١) العارف، تاريخ قبة الصخرة، ص٩٥.

(٢) مذكرات هرتزل، تل أبيب ١٩٣٤م، وقد نشرت مترجمة إلى اللغة العربية في بيروت ١٩٧٣م.
حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٨٧- ١٩٠٩م، بيروت ١٩٧٨م.

Neville Manded, turks, Arab and Jewish Immigration into Palestine, (Oxford, .(1965

العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، ص١٥١- ١٥٢.

بالإضافة إلى ما فعلته عوامل الطقس من تآكل وتخريب لها، وغدت أسوار المدينة خربة ومدمرة في العهد المملوكي، وأصبحت تلك الأسوار بحاجة ماسة إلى ترميم وإعادة بناء في جوانب كثيرة منها. وحيث إن الدولة العثمانية دولة عسكرية في المقام الأول، والقدس مدينة مقدسة للديانات الثلاث السماوية جاء اهتمام السلاطين العثمانيين بها ابتداء بالسلطان سليم الأول ثم السلطان العثماني سليمان القانونيّ الذي رمم أسوار المدينة وتعميرها كظاهرة جهادية دفاعيّة أمنيّة، وهوأمر تمليه الحاجة، وتفرضه ظروف كيان الدولة العثمانية، بالإضافة إلى تشجيع كبار البنائين والمهندسين له على القيام بتلك المهمة الجسيمة والمكلفة، ولكي يتناسب هذا العمل مع سمعة السلطان القانونيّ وشهرته وقوته، وكي يتناسب أيضاً مع دوره في تنظيم الدولة العثمانية، وبناء كيانها الإداريّ بعد الفتوحات العثمانية الموفقة خاصة في المشرق العربي الإسلاميّ، وزوال الخلافة المملوكية من خريطة العالم الإسلامي السياسية قبيل العشرينات من القرن السادس عشر الميلاديّ.

فقد أولى السلطان القانونيّ شؤون مدينة القدس الشريف عناية فائقة في خطته الإصلاحية، والتنظيمية، خاصة الجوانب الحربية والدفاعية، بعد التجربة المريرة التي انتابت العالم الإسلامي من جراء ظاهرة الحروب الصليبية، وما ترتب عليها من مصائب وويلات خاصة وما حل بمدينة القدس وسكانها من المسلمين. فأمر السلطان القانوني أمير اللواء لالا مصطفى[1] أن يرمم أسوار المدينة ويجددها خاصة وأن أسوار القدس ظلت دون إعمار مدة ٣٠٠ سنة بعد أن دمر الملك المعظم عيسى

---

(١) قسم العثمانيون إدارة بلاد الشام إلى ثلاث ولايات: دمشق وحلب وطرابلس، كما كان الوضع ومن الحكم المملوكي، وكانت ولاية الشام تصل في حدودها إلى العريش. وقد أعاد العثمانيون النظر ثانية في أمر ولاية الشام بعد ثورة الغزالي، فقلصت حدود الولاية حتى لا يستغل الثائرون على الدولة اتساعها، وقسمت الولاية إلى سناجق هي: دمشق أو الشام، مركز الولاية ثم القدس وغزة وصفد ونابلس وعجلون واللجون وتدمر.

انظر: رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤م، ص٩٥، ٩٦.

الأيوبي أسوارها عام ١٢١٩[1]. وقد نفذ أمير لواء سنجق القدس أوامر السلطان. فرمم أسوار المدينة المقدسة وجددها مستخدماً أحجاماً مختلفة من الحجارة، ووصل علو الأسوار في بعض الجوانب إلى (٤٠) قدماً، وفي بعض الجوانب الأخرى إلى (٥٠) قدماً، وتخلل الأسوار عدة أبواب منها باب المغاربة وهو باب صغير كتب عليه العبارة التالية:

«أمر بإنشاء هذا الباب في أيام السلطان الأعظم سليمان خان ابن سليمان خان ابن سليم خان، بتاريخ سنة تسع وأربعين وتسعماية» هذا وقد استمر بناء السور خمس سنوات من عام ١٥٣٦- ١٥٤٠.

هذا فقد تميز بناء السور العثماني بنوع جديد من الزينات: كالأعمدة الصغيرة ذات الجمال الفني، وهي تفيد أيضاً في تقوية السور. وظهرت في البناء مجموعة كثيرة من النتوءات والطبز البارزة، وأنشئ فيه مجموعة كبيرة من الطلاقات المضلعة التي يراقب منها العدو، واستفاد البناؤون من الحجارة الضخمة التي يتألف منها السور القديم، فنقشوها وأعادوا بناءها في السور الجديد[2]، وزيادة في التحصين أقيمت الخنادق التي تحيط بالسور كخط دفاعي أول عن المدينة المقدسة وذلك زيادة في الحيطة. وهكذا فقد ظل سور القدس الجديد والمرمم معلماً عمرانياً خلد اسم القانونيّ، وأصبح دلالة مميزة من الدلالات التي تثبت وتبرهن على مدى اعتناء بعض السلاطين العثمانيين بأمر المدينة المقدسة، واهتمامهم بشؤونها، ويعدّ عهد السلطان سليمان القانوني من أهم عهود العمران في القدس الشريف.

وتجدر الإشارة هنا أن السلطان العثماني سليم الأول والد السلطان سليمان

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦/ ٢٤٥، رشاد الإمام، مدينة القدس، ص١٦٤.

(٢) لمزيد من المعلومات الفنيّة والمعماريّة عن سور القدس في العهد العثمانيّ، ارجع إلى: العابدي، محمود، قدسنا، قسم البحوث والدراسات الإلاسمية، طبع ونشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (بدون)، ص١٠٧- ١١٠.

القانوني هو أول من فكر في إعادة تجديد وترميم سور القدس الشريف، إلا أنه توفي قبل أن يشرع في هذا المشروع العمرانيّ الضخم الذي كلف أموالاً طائلة، واستغرق العمل فيه في حدود خمسة أعوام ابتدأت ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م[1] وانتهت بنهاية عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م. وقد رمم السلطان القانونيّ قلعة القدس الواقعة خارج أسوار المدينة بين باب الخليل وباب النبي داود، وهي تشرف على المناطق الغربيّة والجنوبيّة المحيطة بالمدينة المقدسة. والقلعة التي رممها السلطان القانوني، ويعود بناؤها إلى عهد الملك الأيوبيّ عيسى بن الملك العادل. ويستدل على ذلك من خلال ما وجد عليها من كتابة، إذ كتب عليها العبارة الآتية: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله، من (أمين): أسس بنائه على تقوى نصر من الله وفتح قريب. وعمل هذا البرج المبارك مولانا المعظم شرف الدنيا والدين عيسى بن الملك العادل بن يوسف ابن أبي بكر بن محمد بن أيوب بن شادي خلد الله دولته وتولى عمارته عزالدين وعمر عمارته بأرض فلسطين في شهور سنة عشر وستماية وإلى فضل العالمين»[2].

ولم يكتف السلطان القانوني بعملية الترميم والتجديد، وإنما أمر بإضافة عمران جديد إليها، تناول إنشاء المساكن ومئذنة مستديرة في مسجد القلعة. وجدير بالذكر هنا أن ترميم القلعة جاء قبل ترميم السور وتجديده، وكان ترميمها في عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م. وترميم القلعة هذه يدل على مدى اهتمام الدولة العثمانية بوسائل الدفاع عن المدينة المقدسة، بالإضافة إلى كونها منشأ أميناً استراتيجياً يقيم فيه الجند العثمانيّ كخطة أمنيّة وإداريّة تتطلبها الإدارة العثمانية في المنطقة. كذلك أنشأ السلطان القانوني برجاً للمراقبة قرب باب الخليل سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، وهو يقع على يمين

---

(١) العارف، عارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر، ١٩٥١، ص١٠٤. سجلات المحكمة الشرعية بالقدس سجل ٤٤ صفحة ٥٧٧، سجل ١٠ صفحة ١٦ (عام ٩٤٥هـ).

(٢) العابديّ، قدسنا، ص١١٠، ١١١.

من يدخل من باب الخليل أحد أبواب القدس الشريف[1]، وهو أمر يظهر مدى اهتمام الدولة العثمانية بالأمور الحربية والمنشآت المعمارية ذات الطابع العسكري، وهو أمر تهتم به الدولة كثيراً.

وأنشأ العثمانيون قلعة حربية جديدة بالقرب من القدس عام ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م، أنشأها السلطان العثماني مراد الرابع، وسميت باسمه، وعرفت لدى الجميع باسم قلعة مراد، وعمرها العثمانيون عند برك سليمان الواقعة على طريق مدينة الخليل، وهي البرك التي تزود بيت المقدس بالمياه الصالحة للشرب، وذلك بعد أن قام متمردون أشقياء بقطع الطريق، وتخريب منابع المياه التي يشرب منها السكان في المنطقة. وأنشئ في داخل القلعة المراديّة مسجد وخمسون غرفة لإقامة الجند العثمانيّ المرابط بالقلعة لحماية الأمن في المنطقة، ولحراسة مصادر المياه التي يشرب منها سكان المدينة المقدسة. وتذكر المصادر أن حراس القلعة المراديّة كانوا في حدود أربعين عسكرياً تحت رئاسة دزدار، ومعهم أسلحتهم التقليدية إلى جانب عدد من المدافع[2].

---

(١) العارف، تاريخ القدس، ص١٠٤. انظر أيضاً:
د. عبد الفتاح أبو علية، بيت المقدس في العهد الإسلامي، ضمن موضوعات عن القدس في كتاب: تاريخ مدينة القدس لمؤلفيه الأستاذ رفيق النتشة والدكتور إسماعيل ياغي والدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية، دار الكرمل، بيروت، ١٩٨٤، ص٤٣ وما بعدها.

(٢) العارف، تاريخ القدس، ص١٠٥.
- يذكر الرحالة الإنجليزي ج. س. بكنجهام الذي زار القدس وبيت لحم عام ١٨١٦م، أنه شاهد قلعة إسلاميّة قديمة قرب برك سليمان، وهي قلعة ضخمة وفي أسوارها فتحات لإطلاق النار وكتابات عربيّة فوق بابها. وذكر أنه على الأغلب أنها من منشآت المسلمين الذين فتحوا هذه البلاد. والصواب أنها تعود إلى العهد العثماني.
انظر: سليمان موسى، رحلات، ص٢٢.
- ترجم الأستاذ سليمان موسى ما يهم القارئ العربيّ من رحلات ج. س. بكنجهام الإنجليزي الذي نشرها مؤلفها تحت عنوان:
J.S. Backingham. Travels in Palestine, through the Countries of Bashan and Glead

وجدير بالذكر هنا أن بناء القلعة لم يكن الغرض منه أمن برك سليمان فحسب، وإنما كان الهدف منه أيضاً حفظ الأمن والاستقرار على طول الطريق الواصل بين القدس والخليل والمناطق المجاورة للمدينة المقدسة، فهي قلعة حربيّة أمنيّة هدفها المحافظة على الاستقرار والهدوء، ولتكون محطة استراتيجية من محطات الدولة العثمانية ذات الأغراض الحربية والأمنية، ولتكون نقطة ارتكاز عسكري تحيط بالمدينة المقدسة من أجل حمايتها والمحافظة على الأمن فيها.

ثالثاً: المنشآت الاجتماعية: وهي تعني تلك المؤسسات العمرانيّة ذات الصفة الاجتماعية، المتصلة بحياة الناس، وتشمل الأسبلة والبرك والقنوات. ثم المنشآت ذات الصلة الجهادية وتشمل مشاريع المياه الدينية والجندية وتشمل التكايا والزوايا والأربطة والأوقاف أو المنشآت الخدمية والمرافق: مدارس، مستشفيات، حمامات.

أ- المنشآت الاجتماعية الخاصة بالمياه: عني العثمانيون بالمنشآت الاجتماعيّة الخاصة بالمياه التي يشرب منها أهالي القدس والزوار الذين يفدون إلى المدينة من أجل التقديس وزيارة الأماكن المقدسة الخاصة بكل من المسلمين والنصارى واليهود لأن القدس بلد مفتومح لكل أتباع الديانات السماوية الثلاث[1]. لذلك عمر العثمانيون القنوات والبرك والأسبلة والحمامات.

وبناء عليه فقد أولى السلاطين العثمانيون المياه في القدس عناية خاصة، لأنها تمثل المشكلة الأولى لهذه المدينة، لذلك قام السلطان سليمان القانون بترميم بركة

(East of the River of Jordan (London, 1821.

وترجم ما يهم القارئ العربي من كتاب المنصر الإنجليزي د. م. تومسون، وعنوانه:

(Rev. W. M Themson. The Land and the Book (London, 1879.

وترجم أيضاً ما يهم القارئ العربي عن كتاب وليم دكسون، وموضوعه:

(Wiliam hipworth Dixon, the Holy Land, vol. 1 (Leipzig, 1865.

(١) مجير الدين، الأنس الجليل، ج٢/ ٩٩.

السلطان الموجودة على طريق المحطة إلى الجنوب من باب الخليل. ورمم السبيل الكائن أمام باب بركة السلطان. والسبيل الواقع في طريق الواد، والسبل الواقعة في ساحة المسجد القدسيّ الشريف، مثل السبيل الكائن إلى الشمال من باب شرف الأنبياء، والسبيل الواقع في ملتقى الطريق المؤدية إلى طلعة التكيّة، وباب الناظر أحد أبواب الأسباط، والسبيل الواقع عند باب السلسلة أمام المدرسة التنكزيّة[1]. ومعروف أنه يوجد عدد غير قليل من السبل في مدينة القدس التي يشرب منها الناس[2]، وقد أفادت هذه المشروعات العمرانيّة الاجتماعيّة الناس كثيراً لأنها تأتي في المقام الأول بالنسبة للمشروعات التي تهم السكان أهمية مباشرة. فوجود القنوات والسبل التي تيسر الماء للسكان التي تخفف عنهم عناء جلب الماء ومشقته من أماكن بعيدة.

وفي عهد السلطان محمد الثاني عمر متسلم القدس الشريف (كنج أحمد آغا) عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م قناة السبيل التي كانت تسيل فيها المياه المجلوبة إلى القدس من برك سليمان وما جاورها من عيون، ومن المياه الموجودة في منطقة العروب ليشرب منها أهالي المدينة. وكثيراً ما كانت تخرب هذه القناة مع مرور الزمن، وقد عمرت عدة مرات[3] في أزمان مختلفة.

وفي عهد السلطان العثماني عبد الحميد خان الثاني جددت عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م عمارة السبيل الكبير الذي بناه السلطان المملوكيّ قايتباي. ويعدّ السلطان قايتباي من أشهر وأكثر السلاطين المماليك أبنية في القدس الشريف. فبنى سبيل

---

(١) الدباغ، بلادنا، بيت المقدس، ج٢، ص٨.
السائح، القدس، ورقة ٧٦.

(٢) الأسيلة الخمسة: (السلسلة، الواد، باب الناظر، ستنا مريم، وسليمان) بنيت في عهد السلطان سليمان نقش عليها اسمه عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦.

(٣) الدباغ، نفسه، ص١١.

القايتباي في ساحة المسجد القدسيّ، وباب القطانين، وهو بناء مربع الشكل فوقه قبة، وتحته صهريج تتجمع فيه مياه الأمطار أو ما يصب في هذا السبيل من ماء يصله من برك سليمان الواقعة إلى الجنوب من القدس، ومن عين قارة[1] وأنشأ في المدينة سبيلاً جديداً قرب برج القدس.

ب- المنشآت الاجتماعية: خادمة لأغراض دينية (التكايا والأربطة والزوايا والأوقاف): أنشأ العثمانيون عدداً من التكايا في بيت المقدس بغرض إطعام الفقراء والمساكين وإيوائهم. ومن أشهر تلك التكايا التي أنشئت في العهد العثمانيّ: تكيّة الخاصكي سلطان التي أنشئت في عهد السلطان سليمان القانونيّ، وكانت زوجته الروسية روكسلانة هي التي أمرت بإنشائها في مكان عقبة المفتي بالقدس الشريف، وكان ذلك عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م. ولا تزال هذه التكية قائمة تحت إشراف دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس، وهي تزود مئات الأنفار من الناس الفقراء والمساكين ببعض أنواع الأغذية والاحتياجات اليوميّة الأخرى. وتكيّة خاصكي سلطان ليست مهمة في مجال إطعام الفقراء والمحتاجين فحسب، وإنما هي معلم أثريّ عثمانيّ بالقدس الشريف. وأن ما ينفق على هذه التكية يدفع من ريع الأوقاف التي وقفتها لها روكسلانة[2]. حيث كانت الأوقاف تمثل المصدر الرئيسي للإنفاق على المؤسسات الاجتماعية والدينية.

وقد أنشأت (خاصكي سلطانة) الزوجة الروسية للسلطان سليمان القانوني. وقفاً ضخماً باسمها. لغرض الإنفاق على تكيتها. ضم الوقف عدة قرى ومزارع، في أربعة سناجق «ألوية» في سوريا وفلسطين. ومعظمها بجوار مدينة الرملة. وهذا

---

(١) العابدي، قدسنا، ص٩٩.

(٢) العارف، تاريخ القدس، ص٣٠٧. واسم هذه التكية (أوخرم) سنة ١٥٥١. انظر: وقفية خاصكي سلطانة، السجل ٢٧٠، صفحة ١٨- ٤٩، وصفحة ٥٠، والسجل ٣/ ٤٢٨، ١٢/ ١٥٤٠، ١٥/ ١٥٤٢.

العمل ضمن لهذه المؤسسة حياة طويلة آمنت الإنفاق لفترة طويلة. كذلك وقف السلطان سليمان عليها بعد وفاة زوجته، أربع قرى ومزارع في ناحية صيدا، كذلك اهتم العثمانيون بأوقاف الأيوبيين والمماليك التي اعتمد وقفها على مصالح المساجد والمدارس والزوايا والمستشفيات وغيرها من الأعمال الخيرية. وقد زاد عددها حين ذكر أن عدد الأوقاف في بداية العهد العثماني أول ثلاثين سنة من حكمهم ثلاثة عشر إدخالاً لأوقاف مختلفة بين عامة وخاصة. ثم وقفها على (مؤسسات، مكاتب، كتاتيب، أربطة، ومساجد، وترب). ومنها أوقاف على أشخاص من (ذرية الواقف، وقراء القرآن، وأرباب الطرق الصوفية، أو الفقراء بوجه عام). وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أنشئت عدة أوقاف هامة إضافة إلى وقف خاصكي سلطانة ووقف السلطان سليمان، ثم اعتمادها لمصالح قناة السبيل. وكانت تضم عدة قرى في منطقة الخليل[١].

كذلك أنشئ في عهد السلطان سليمان الرباط المسمى برباط (بايرم جاويش) في طريق الواد مقابل الطريق المؤدي إلى المسجد القدسيّ الشريف وباب الناظر، وقد أنشأ الأمير بايرم جاويش عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م[٢]، وجميعها مسائل خيرية الهدف منها إقامة المشروعات الخيرية الاجتماعيّة ذات المردود الطيب على الفقراء من سكان القدس والمحتاجين منهم. وكانت مثل تلك المشروعات الخيريّة تخصص عادة للمقيمين في بت المقدس وزوارها.

وقد أنشئت الزاوية الإبراهيميّة إلى الشمال من ضريح النبي داود، وهي نسبة

(١) انظر: دفاتر الطابو ذوات الأرقام: ٥٢٢، ٣٤٢، ٦٠٢، ٤٢٧، ١٣١، ١١٥، ٢٨٩، ٣٤٦، ٥٩٠. محمد سليم اليعقوب: رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٦، في ناحية القدس الشريف ص٢٤- ٧١.

(٢) من تقرير أعده مركز توثيق وصيانة الآثار، من مقال نشر في جريدة الشرق الأوسط، العدد ٤٧٧٤، الصادر يوم الثلاثاء في ٤/ ١٢/ ١٩٩١م.

إلى إبراهيم باشا، وقد أنشأها إبراهيم باشا في عهد سيادة محمد علي باشا أثناء حقبة انفصاله عن الدولة العثمانية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلاديّ. وقد أعيد بناء زاوية المغاربة التي تقع بالقرب من حائط البراق، وهي في الأصل ترجع إلى العصر الأيوبيّ نسبة إلى المتصوف المغربيّ أبو مدين بن شعيب بن الحسين الصوفيّ، وكان ذلك عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م في عهد السلطان العثماني محمود خان الثاني[١].

جـ- منشآت اجتماعية خدمية (مرافق - مدارس - مستشفيات - حمامات وطرق): لقد أنشأ العثمانيون المدارس، والمستشفيات، والحمامات التركية، والطرق في بيت المقدس تحسيناً لحاله. فأنشئت المدرسة الرصاصيّة في حارة الواد عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني[٢]، وأنشئت المدرسة الرشيديّة عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م نسبة إلى رشيد بيك متصرف القدس[٣]. وقد عملت تلك المدارس على تطوير التعليم في مدينة القدس، وقد أفاد منها السكان كثيراً.

وأنشأ العثمانيون عدداً من المستشفيات الحكومية التي تصرف عليها الدولة، ومن أشهر هذه المستشفيات المستشفى البلديّ الذي أنشئ في حي الشيخ بدر، ومعروف اليوم باسم مستشفى روميما، وهو يقع في غربيّ مدينة القدس، وقد عمر هذا المستشفى في عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م، في عهد السلطان عبد الحميد خان الثاني.

وتكثر الحمامات التركيّة العامّة في القدس منها: حمام ستنا مريم، وحمام العين، وحمام حمزة، وحمام الشفا، وحمام البطرك. وأنشأ السلطان عبد العزيز خان طرقاً تربط المدينة المقدسة بالمدن الفلسطينيّة المهمة. فأنشئت طريق القدس - يافا عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وطريق القدس - نابلس عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠، ورصفت شوارع مدينة

---

(١) من التقرير السابق.

(٢) العارف، تاريخ القدس، ص١٠٤.

(٣) الدباغ، بلادنا، القدس، ج٢، ص٤٦.

القدس وأسواقها بالحجارة[١]. وقد أفادت هذه الطرق السكان في فلسطين، خاصة سكان المدينة المقدسة لأنها طورت الحياة الاقتصادية في المدينة بعد أن ربطت المدينة المقدسة بطرق مواصلات سهلت العملية التجارية، وسهلت أيضاً حركة النقل والتنقل، وسمح محمد علي باشا لقنصل نابولي بإصلاح الطريق بين القدس ويافا على نفقته الخاصة، ومدت لأول مرة في فلسطين سكة حديد تربط القدس بمدينة يافا على ساحل البحر المتوسط، وذلك في عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وقد أنعش هذا الخط الحديدي مدينة القدس والمنطقة المحيطة بها، كما أنعش البلدان والقرى الفلسطينيّة التي يمر بها هذا الخط. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني انتشر البناء خارج سور المدينة، فراح الأهالي يبنون البيوت السكنيّة خارج سور المدينة إيذاناً باتساعها، وتطورها بعد أن ظل السكان يتقيدون بالبناء داخل أسوار المدينة. وهذا مؤشر واضح على الأمن الذي استتب خارج أسوار المدينة بعد أن ظل أشبه بمعدوم في فترات الحكم العثماني المتعاقبة. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني استعمل اللاسلكي في المدينة المقدسة[٢].

ويعد كل من مشروعي: سكة حديد القدس - يافا، واستعمال اللاسلكي في المدينة المقدسة من أهم المشروعات الاجتماعيّة المتطوّرة التي عملت على تحسين ظروف المعيشة لسكان القدس، وعملت أيضاً على تطوير المدينة المقدسة عندما أخذ سكان القدس يستفيدون من الوسائل الحضارية المتقدمة ذات النفع الاجتماعي. وقد توازى هذا الجهد مع حركة العمران الجديدة والمتطورة التي قام بها بعض سكان المدينة المقدسة خارج أسوار المدينة كعملية جديدة من عمليات تطوير المدينة وتوسيعها ليتوازى هذا الجهد مع مكانتها الدينيّة وحجمها الاجتماعي.

ولأهمية بيت المقدس لدى العثمانيين، وأهميتها لدى المسلمين في أنحاء العالم،

---

(١) الدباغ، نفسه، ص٤٢.

(٢) الدباغ، بلادنا، القدس، ج٢، ص٤٥. السائح، القدس، ورقة ٩٠.

كان للمدينة المقدسة دور كبير في مجال تحفيز الهمم الإسلاميّة ضد النصارى الإنجليز وحلفائهم في الحرب العالمية الأولى حين أعلن السلطان محمد رشاد الخامس بوصفه خليفة المسلمين الجهاد الإسلاميّ ضد الحلفاء. ونتيجة لهذا الإعلان جرى احتفال عثمانيّ كبير في المدينة المنورة عند قبر الرسول الكريم محمد ﷺ، وأخرجت راية النبي بما يليق بها من احترام وتبجيل. ونقلت إلى دمشق بالقطار في ١٣٣٣/ ١٥ ديسمبر ١٩١٤م، ثم نقلت منها إلى بيت المقدس، أقدس مدينة عند المسلمين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووصلت راية النبي ﷺ إلى القدس الشريف في ١٣٣٣هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٩١٤م، فأقيم حفل كبير لاستقبال الراية في ساحة المسجد القدسيّ الشريف، وختم هذا الحفل الكبير الذي أقيم لتلك المناسبة ذات الطابع الديني بإقامة الصلاة في المسجد الأقصى. وكان الهدف من هذا التجمع الإسلامي الكبير في بيت المقدس هو حث الهمم الإسلامية بخاصة الجند العثماني ضد دول الوفاق، حيث إن الدولة العثمانية كانت قد دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوسط، الكتلة الدولية المعادية لدول الوفاق[1].

موقف العثمانيين من التسلل الصهيوني للقدس

ترتبط دراسة الموقف العثماني من خلال مبادرة الحركة الصهيونية الاتصال بزعماء الدول الأوروبية الاستعمارية لتحقيق غرضين: الأول: حل مشكلة اليهود في أوروبا، بعد أن أصبحت معادلة هامة، والثاني ربط المصالح الصهيونية بالمصالح الاستعمارية عبر إيجاد دولة تكون قاعدة متقدمة للدول الاستعمارية، من خلال إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لذلك اعتمدت الحركة الصهيونية، الاتصال المباشر مع زعماء ألمانيا وروسيا ثم بريطانيا وفرنسا، للضغط على الدولة العثمانية التي بدأت

(١) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، بيروت ١٩٦٦م، ص٢٩٩ وما بعدها؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (١)، ص١٥٦-١٥٧.

فيها مرحلة الضعف والانهيار، بالسماح لهجرة اليهود في فلسطين كمرحلة أولية لإقامة وطن قومي لهم. ثم انتقلت الحركة الصهيونية إلى الاتصال المباشر مع الدولة العثمانية لتحقيق أهدافها. ومع ذلك فإن الدولة العثمانية ظلت على موقفها الإسلامي حتى مجئ حركة الاتحاد والترقي التي التقت أهدافها ومصالحها مع مصالح الحركة الصهيونية.

كثفَّت الحركة الصهيونية من اتصالاتها مع الدول الكبرى، وقد وضعت نصب عينيها القيام باتصالات مكثفة ومع كل الدول الاستعمارية من أجل تحقيق أهدافها، وبسبب العلاقات الألمانية المتميزة مع الدولة العثمانية التي كانت بين القيصر الألماني وليام الثاني (German Kaieser William II) والسلطان عبد الحميد الثاني إلى جانب ميول هرتزل الألمانية، لذلك فقد أبرق هرتزل برقية إلى دوق بادن الأكبر (Grand Duke of Baden) طالباً منه التوسط لدى القيصر الألماني وليام الثاني حيث رحب الأخير بالفكرة، ووعد هرتزل ببذل جهوده حول ذلك. وقد حصل هرتزل على أول نجاح له في ٩ تشرين الأول ١٨٩٨ إذ أبلغه دوق بادن بأن وليم الثاني قد أبدى تحمسه للمشروع الصهيوني، لذلك سافر هرتزل على رأس وفد في ١٤ تشرين أول إلى استانبول لمقابلة الإمبراطور وليم الثاني وضمّ الوفد التاجر دافيد ولفسون (David Wolfsohn) وأستاذ القانون ماكس بودنهايمر (Max Boden Heimer)، والمهندس «جوزيف زايديز» (Joseph Seidener)، والطبيب موسى شيزر (Moses Schnirer)، وقد سافر الوفد في ١٤ تشرين أول ١٨٩٨ إلى العاصمة العثمانية. وفي ١٨ تشرين تمت مقابلة الوفد الصهيوني القيصر الألماني في استانبول ووجه القيصر كلامه لهرتزل قائلاً: «قل لي بكلمة موجزة ماذا يجب أن أطلب من السلطان؟ فأجابه «هرتزل» شركة ذات امتياز تحت الحماية الألمانية».

حاول فون بولو (Von Bolow) أحد الأمراء الذين كانوا يعرفون بعدائهم لليهود، الضغط على القيصر الألماني، بأن يجعله متحفظاً مع هرتزل - محاولاً إقناعه

بأن الصهيونية تعتبر تهديداً لسيادة الدولة العثمانية -، وأن تأييد ألمانيا لخطة هرتزل لا تتفق مع سياستها التقليدية في المحافظة على وحدة الإمبراطورية العثمانية، إلا أن الإمبراطور آثر السير في مسعاه هذا.

في الاجتماع الذي تم بين القيصر والسلطان عبد الحميد، عرض القيصر أفكار الحركة الصهيونية، فكان الرد سلبياً جداً من جانب السلطان، وبعد فترة أبلغ هرتزل برد القيصر الألماني، ثم أبلغ برغبة القيصر مقابلته في الأراضي المقدسة، وذلك عن طريق «فيليب إبلبزغ» (Philp Eulcnoburg). وتم ذلك الأمر في «القدس» في ٢ تشرين ثاني ١٨٩٨، حيث كان القيصر الألماني يمتطي جواده بزهو وأمامه هرتزل وأعضاء الوفد يقفون في ذلة وخشوع، وقد أدلى القيصر الألماني بتصريح جاء فيه أن الإمبراطور يؤيد الجهود التي يبذلها اليهود للنهوض بالزراعة في فلسطين من أجل رفاهية الدولة العثمانية وتقدمها، طالما كان اليهود يحترمون السيادة العثمانية، ويدينون بالولاء للسلطان العثماني. ولقد علق هرتزل على نتائج هذه المقابلة بقوله: «لم يقل نعم ولم يقل لا ويظهر أن قضيتنا خسرت بعض الأسهم...»، وربما يرجع موقف القيصر الألماني من الحركة الصهيونية إلى ما يلي:

١- أن ألمانيا لا تريد معاداة الدولة العثمانية، أو فقدان صداقتها الحميمة بسبب أمر لن يعود عليها بالفائدة الكبيرة.

٢- تبين أن مطالب الحركة الصهيونية تتجاوز قدرة ألمانيا وصلاحياتها وموقفها.

٣- الضغوط التي تعرض لها القيصر الألماني من مستشاريه، الذين أوضحوا أن هذا الأمر من شأنه إثارة المشاكل مع «فرنسا»، و«إنجلترا»، و«روسيا»، حيث سيفسرون الحماية الألمانية للشركة ذات الامتياز على أنه محاولة للتدخل والسيطرة على الأراضي العثمانية من جانب ألمانيا الأمر الذي يثير حفيظة الدول الاستعمارية الأخرى. هذا وعلى الرغم من صعوبة موقف ثيودور هرتزل، إلا أنه لاقى ما يثلج

قلبه، بعد الاستقبال الحار من جانب المستوطنين اليهود في المستعمرات اليهودية مثل «مكفيه إسرائيل» (Mikveh Israel) وريشون لتيسيون (Rishon Lezion) ونيس زيوتا (Nes Ziyyonah) ورحوفوت (Rohovot). اعتقد هرتزل أن فشله مع القيصر الألماني يعود إلى أنه لم يقم مباشرة بمفاوضة أصحاب الشأن والحكام الفعليين على فلسطين، وهي الدولة العثمانية ممثلة بسلطانها عبد الحميد الثاني، لذلك فقد بدأ فعلياً بالقيام بالاتصالات، ولهذا الهدف زار هرتزل استانبول من ١٨٩٦- ١٩٠٢ خمس مرات نجح في إحداهما لمقابلة السلطان.

ثم اتصل هرتزل بصديقه اليهودي النمساوي نيولنسكي (Newlinski) الذي كان في الوقت نفسه صديقاً للسلطان عبد الحميد، وكان رد السلطان - كما سجل هرتزل في يومياته على لسان صديقه (نيولنسكي) -: «بأن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي، ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم وقد غذوها فيها بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا، قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، لقد حاربت كتيبتنا في سورية، وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في بلفنه لأن أحداً منهم لم يرض بالتسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال، الإمبراطورية العثمانية ليست لي، وإنما للشعب العثماني، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلايينهم فإذا قسمت الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، وإنما لن نقسم إلا على جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي عرض كان.

ومع أن هذا الرد كان كافياً لهرتزل ليتراجع عن آماله التي تحذوه تجاه السلطان عبد الحميد، إلا أنه لم يفقد الأمل في تحقيق حلمه، وحلم الحركة الصهيونية إذ أراد أن يغري السلطان عبد الحميد مجدداً في عروضه فأضاف اقتراح إعادة جزيرة قبرص من إنجلترا إلى السيادة العثمانية، إضافة إلى بذل الجهود لحل قضية الأرمن، بحيث يحشد جهود الصحافة اليهودية في أوروبا، لتوجيه المشاعر عن الموقف

الأوروبي تجاه قضية الأرمن، كما عرض التوسط لإقامة هدنة بين الدولة العثمانية واللجان الثورية الأرمنية، لهذا فقد اجتمع هرتزل فعلياً مع نزاريك (Nazarieck) - أحد قادة هذه الجمعية - في لندن، وحاول أن يقنعه بتسوية نزاعهم مع الباب العالي بالطرق السلمية، لكن زعيم الهنشاك (Hintchak) كان يرتاب في دوافع هرتزل، فظنوا أن العثمانيين والحركة الصهيونية قد أقنعوا الدول العظمى، بتأجيل الإصلاحات في أرمينيا، مقابل إقامة دولة يهودية ذات حكم ذاتي في فلسطين، بل وصل الأمر بالمنظمات الأرمنية الثورية أن هاجمت اليهود لمغازلتهم السلطان عبد الحميد.

نجح هرتزل في تحديد موعد آخر بواسطة صديقه المستشرق المجري أرمينيوس فامبري (Armenius Vamery) الذي كان صديقاً شخصياً للسلطان، لذلك سافر هرتزل إلى استانبول، وهي الزيارة الثالثة له، وقد نبهه صديقه فامبري إلى أن السلطان سيستقبله، ولكن كصحفي متنفذ يعمل في صحيفة «نيو فراي برس» وليس كزعيم للمنظمة الصهيونية العالمية. وعلى هذا قُرر اللقاء الفعلي بينهما في ١٨ أيار ١٩٠١، حيث قابل هرتزل السلطان لمدة ساعتين، واقتراح خلالها تقديم مقترحات لتحسين الوضع المالي للدولة، وكان المبلغ الذي عرضه هرتزل هو (٠٠٠، ٥٠٠، ١ جنيه استرليني) يتلقاها السلطان عبد الحميد حال موافقته على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وتسهيل الهجرة إليها.

ويذكر مصطفى طوران بعضاً من الحوار الذي دار بين هرتزل والحاخام موشي ليفي، حيث بادر هرتزل بالقول: «مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان، لقد وكلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء، وعبيدكم المخلصون اليهود، يقبلون التراب الذي تدوسونه، ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة، ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية». وحيث أن السلطان عبد الحميد كان مطلعاً بشكل جيد على قرارات المؤتمرات

الصهيونية فقد رفض بشدة العرض الصهيوني وقام بطرد وفدهم، في الوقت الذي كان فيه هرتزل يعي جيداً أنه لا وزن له ولا لليهود عند السلطان عبد الحميد.

ولقد أكد السلطان عبد الحميد في مذكراته على الخطر الذي قد تشكله الحركة الصهيونية فقال: «لليهود قوة في أوروبا أكثر من قوتهم في الشرق، لهذا فإن أكثر الدول الأوروبية تحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين لتتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيراً، لكن لدينا عدد كافٍ من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً: علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين... لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره... إنه يسعى لتأمين أرض لإخوانه اليهود الصهاينة بممارسة الزراعة في فلسطين».

ولقد كتب حسام الدين أرتورك عن صديقه ملازم أول خياله زنون دبره لي» أن السلطان عبد الحميد حدثه - أثناء خلعه في قصر بكلربكي - بقوله: «جاءني في أحد الأيام ثيودور هرتزل مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية مع رئيس الحاخاميين، وذلك من أجل غاية صهيونية، وقبلت الزيارة للاستماع إليهم لمعرفة مقاصدهم، فكان طلبهم هو وطن لليهود وكانوا يقترحون القدس لذلك، حتى أن ثيودور قال بلا خجل أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالاً من أجل القدس، وشعرت بأن الدم يطفر إلى رأسي... تأمل لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين إلى عرض الرشوة في مقام سلطتنا وصرخت بهما، أخرجا من هنا حالاً، إن الوطن لا يباع بمال، وعندما دخل رجال القصر، أمرتهم بإخراجهما، ومنذ ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء».

ظل هرتزل يحاول الاتصال من جديد مع السلطان عبد الحميد بواسطة السفراء، وموظفي الدولة العثمانية، حيث دعى هرتزل فيما بعد في شباط ١٩٠٢، وهذه المرة ضيفاً على السلطان مع أنه لم يلتقيه، وقد عرض عليه السلطان عبر مستشاريه، استيطان اليهود في بلاد ما بين النهرين (العراق) مقابل تعزيز الموقف المالي

للدولة، وقد تم استثناء فلسطين بشكل خاص من العرض، وبشرط أن لا يقيم اليهود معاً، بحيث يتفرقوا في أماكن مناسبة تحددها لهم الحكومة العثمانية، التي ستقوم بمنحهم سلطات التصرف، وحيث أن هذا العرض لا يحقق آمال هرتزل فقد تم رفضه. وكانت الزيارة الأخيرة لهرتزل في ١٩٠٢/٧/٢٥، حيث قرر السلطان أن يلعب بورقة هرتزل المالية، لأنه كان على وشك الدخول في مفاوضات مالية مع فرنسا، وفيها عرض هرتزل استيطان العراق مضافاً إليها حيفا وضواحيها، ثم عرض هرتزل مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال، وهذا المبلغ بشكل طبيعي لن يكون أقل مما عرضه هرتزل أول مرة.

ورغم ذلك لم يقطع السلطان وعداً بأي شيء غير ما أشار إليه، وأكد عليه في المرة السابقة، حيث تم إحالة هرتزل إلى حاشيته التي أجابته بمثل ما أجابه السلطان، بأنه يمكن للإسرائيليين أن يستقروا في الدولة العثمانية، شرط أن يكونوا متفرقين في أماكن تعينها الحكومة، وبشرط تحديد عددهم مسبقاً مع منحهم الجنسية العثمانية، ويسألون عن جميع الضرائب المدنية، بما فيها الخدمة العسكرية، كما أنهم سيكونون خاضعين لجميع القوانين كما بقية مواطني الدولة العثمانية تماماً. ولقد رفض هرتزل عرض السلطان عبد الحميد، لكن السلطان عبد الحميد أنعم على هرتزل بالنيشان المجيدي، وذلك بناء على التماس من هرتزل ليمنحه ذلك النيشان الذي يعتبر من مرتبة رفيعة، وذلك ليخدع المتصلين به فقال: «إذا رفض السلطان أن يستقبلني فليعطني على الأقل دليلاً مرئياً على أنه بعد أن استمع إلى مقترحاتي ورفضه، فإنه لا يزال يريد أن يبقي على نوع من العلاقة بيننا مثلاً وساماً من رتبة عالية ليبرهن على ذلك... إني لم أهتم يوماً بالأوسمة، ولا أهتم بها الآن ولكني أريد شاهداً أمام من أتعامل معهم في لندن، على أنني حزت قبولاً لدى السلطان».

هذا ويمكن إجمال ما دار بين هرتزل والسلطان عبد الحميد، بما قاله تحسين باشا رئيس أمناء القصر السلطاني في مذكراته حيث جاء: «أنه جاءت شخصية

صهيونية يهودية كبيرة نمساوية إلى استانبول وطلبت إقامة وطن يهودي في سنجق القدس، وقالت هذه الشخصية أنها تتحدث في هذا باسم الصهيونية، وأن روتشيلد المصرفي المشهور وراء هذا الأمر.. ورأى السلطان مجموعة موانع في هذا، ففلسطين بمقاماتها المباركة تشكل أرضاً للمطامع والطموحات السياسية، وعاد الصهيوني النمسوي إلى بلاده صفر اليدين.

٢- **الهجرة اليهودية إلى فلسطين**: زعم اليهود أن مهاجريهم لا يبغون من سكنهم في هذه الأراضي المقدسة إلا ممارسة طقوسهم الدينية، وإحياء تقاليدهم الروحية، وذكرياتهم التاريخية لذلك فقد قوبلوا من قبل السلطات العثمانية ومن سكان فلسطين بروح التسامح والود والعطف وعدم الاكتراث بأي خطر قد ينشأ عن هؤلاء المهاجرين.

واستمرت الهجرة غير المنظمة من القرن التاسع عشر على شكل جماعات لم تكن لتأخذ شكلاً سياسياً منتظماً، بل امتازت بالعفوية، لكنها كانت فيها بعد اللبنات الأولى في سبيل هجرة منتظمة ودائمة، حيث قام هؤلاء اليهود باستملاك الأراضي؛ لأن قانون الأرض العثماني الصادر عام ١٨٦٧ كان متحرراً لدرجة لا تكفي لمنع اليهود من اكتساب الممتلكات في فلسطين، وكان نص القانون يؤكد على أن رعايا الحكومات الأجنبية يسمح لهم بميزة تملك الممتلكات في فلسطين، وكان نص القانون يؤكد على أن رعايا الحكومات الأجنبية يسمح لهم بمزية تملك الممتلكات في داخل وخارج المدن في كل جزء من الدولة العثمانية باستثناء أرض الحجاز، ويكون لهم هذا الحق بدرجة متساوية مع الرعايا العثمانيين.

وقد استغل المهاجرون اليهود هذا الأمر بشكل فعلي، حيث أن معظم هؤلاء الذين وصلوا فلسطين، قاموا بطلب الحماية الأجنبية وكانت إنجلترا هي أول من وضع اليهود تحت جناح حمايتها، وتقريراً للواقع فإن دعاوى إنجلترا في حماية المهاجرين اليهود ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر حينما أعلن بالمرستون، في عام

١٨٤٧ أنه حيثما يوجد نمساوي أو روسي أو فرنسي، أو أي يهودي آخر يعاني من الاضطهاد أو الظلم، وتبرأت منه بلده ورفض قنصله أن يعطيه الحماية، فإن القنصل البريطاني في فلسطين مخول بأن يتدخل لصالح اليهود بصفة عامة.

وفيما بعد فقد منع الباب العالي في ١٩ حزيران ١٨٦٩ تجنس الرعايا العثمانيين بجنسية أجنبية تحت حماية حكومات أجنبية، ومعنى هذا أن الرعايا العثمانيين الذين يحصلون على الجنسية من أي مكان لن يمنحوا حقوق الامتيازات الأجنبية، إذا أرادوا أن يعيشوا في الدولة العثمانية، لذلك فقد ناقشت السلطات الحكومية أنه بما أن المهاجرين الجدد بقدر ما يدعون أنهم تجنسوا بجنسيات أخرى أوروبية وأمريكية، فإنهم بذلك قرروا العيش والاستقرار في الدولة وبهذا يكونوا خاضعين لقوانين البلد في ظل النظام المالي.

ولقد هيأ كبار رجالات اليهود الظروف فيما بعد لجعل الهجرة وشراء الأراضي أكثر تنظيماً، لذلك فقد أنشأوا أجهزة ومؤسسات تنظم الهجرة وشراء الأراضي، وكان من بين تلك الأجهزة التي تسللت إلى فلسطين «منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين»، وقد أنشأها المليونير أدموند دي روتشيلد سنة ١٨٨٢، وكانت تعمل على تقديم الأموال لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي وإنشاء المستعمرات عليها. ولقد حدثت موجات من الهجرة المنظمة، كانت الأولى عام ١٨٨٢ واستمرت حتى عام ١٩٠٤ وذلك عقب المذابح التي تعرض لها اليهود بسبب مشاركتهم في اغتيال القيصر الروسي الإسكندر الثاني. ورغم أن جمعية «أحياء صهيون» قد حصرت شؤون عملها في الهجرة، إلا أن الأرقام تثبت ضآلة عملها وذلك بأن معظم العشرين ألف يهودي الذين كانوا قد تركوا روسيا بسبب تلك المذابح قد توجهوا إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، أما نسبة الذين توجهوا إلى فلسطين فلم يتجاوز ٢٪.

وكانت حركة «أحياء صهيون» قد طلبت في نيسان ١٨٨٢ من القنصل

العثماني العام في أودسا في روسيا، منح الزائرين اليهود تأشيرات دخول إلى الدولة بغرض الاستيطان في فلسطين، لكن العدد الهائل من المهاجرين أثار انتباه القنصل العثماني فأبرق إلى الباب العالي بطلب أن يزوده بالتعليمات اللازمة، فردت عليه الحكومة العثمانية في ٢٨ نيسان ١٨٨٢ بعدم السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين، لذلك فقد منعت السلطات العثمانية المهاجرين من دخول فلسطين باستثناء الحجاج الذين جاؤوا لزيارة الأماكن المقدسة، ولم يمض وقت طويل حتى وجد اليهود طرقاً عديدة للتحايل على القوانين العثمانية، حيث دخلوا كحجاج ثم أطالوا فترة الزيارة وطلبوا الحماية الأجنبية.

وفي ٥ آذار ١٨٨٣ صدر قانون آخر، في محاولة لوضع حد لحصول المهاجرين اليهود الذين حصلوا على جنيسات الدول الأخرى من استملاك الأراضي في فلسطين، ينص القانون على أن الأشخاص الذين غيروا جنسياتهم والذين ألغيت جنسيتهم العثمانية، يحرمون من حقوق امتلاك الأراضي في الدولة العثمانية. وكان رؤوف باشا (Rauf Pasha) – متصرف القدس – (Mutassarif) 1876- 1888)، وهو رجل مستقيم لم تؤثر عليه الرشوة «البقشيش» عندما علم أن القوانين العثمانية يتم التحايل عليها، وأن هذا لا يتفق مع الغرض الحقيقي للدولة، أرسل إلى استانبول يطلب المشهورة ولقد جاءه الرد عام ١٨٨٤، حيث تقرر أن اليهود الحجاج يمكنهم دخول فلسطين فقط إذا كان بحوزتهم جوازاتهم مؤشراً عليها من السفارات العثمانية من الخارج، وعند دخولهم يدفعون تأميناً لضمان رحيلهم بعد ثلاثين يوماً، وفي سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، صدرت ثلاث فرمانات سلطانية أصدرها السلطان عبد الحميد الأول: في ٢١ ذي القعدة ١٣٠٨هـ، ويقضي برد المهاجرين وطردهم إلى أمريكا لأنه من شأن ذلك إعادة إنشاء حكومة يهودية في القدس مستقبلاً. وأما الفرمان الثاني: فقد صدر في ٢٨ ذي القعدة ١٣٠٨هـ، وهو يطلب عدم قبول اليهود لأن إسكانهم في فلسطين أمر ضار. والفرمان الثالث: فقد صدر في ٢٩ من ذي القعدة ١٣٠٨هـ،

ويؤكد على ما ورد في الفرمانين السابقين، مؤكداً على أن اليهود ينوون بهجرتهم التدريجية والعمل بالزراعة إقامة دولة يهودية والإضرار بمصالح السكان الفلسطينيين. وفي تشرين ثاني ١٨٩٢ صدرت الأوامر لمتصرف القدس إبراهيم حاجي باشا من إدارة تسجيل الأراضي أن يوقف بيع الأرض الميري (Arazi - I Miri) – وهي أراضي الدولة التي يتطلب نقل ملكيتها الحصول على تصريح رسمي – إلى اليهود حتى لو كانوا رعايا عثمانيين.

وفيما يختص بالأراضي الخاصة التي يملكها الأفراد كان من الصعب أن لم يكن من المستحيل وضع ضرائب على نقل الملكية، حيث أخبر مدير لجنة نقل ملكية الأراضي كمال الدين السلطان عبد الحميد، أن اليهود يدفعون للعرب ثلاثة أضعاف الثمن الحقيقي ليحصلوا على هذه الأراضي للاستيطان ولكي يوقف السلطان عبد الحميد هذا؛ بدأ بشراء الأراضي المهددة بالبيع في فلسطين من جيبه الخاص. وفي ٢١ تشرين ثاني ١٩٠٠ لم تعد الدولة تأخذ تأميناً نقدياً كضمان لرحيل الزوار اليهود، وبدلاً من ذلك كان على كل اليهود بمن فيهم الرعايا العثمانيين أن يسلموا أوراقهم عند دخول فلسطين، وفي المقابل يتسلمون تصريحاً للإقامة فيها لمدة ثلاثة شهور، وبسبب لون هذا التصريح أصبح اسمه «التذكرة الحمراء» حيث يسلم الزوار الحجاج هذا التصريح عند الرحيل، وهكذا يمكن مراقبة المهاجرين الذين يزورون فلسطين، وعليه تقوم السلطات العثمانية بتجميع البيانات مفصلة عن كل شيء، لتتمكن من طرد الحجاج الذين أنهوا مدة إقامتهم، وكان الموظفون الذين يفشلون في تطبيق القرارات بهذا الشأن يعاقبون بشدة. ولقد عبر السلطان عبد الحميد في مذكراته عن رفضه الهجرة اليهودية بقوله: «لكي نعمل على إسكان الأراضي الخالية من إمبراطوريتنا يتوجب تنظيم الهجرة بشكل مناسب، لكن لا يمكن القول بأن الهجرة اليهودية شكل مناسب، لقد مضى عهد دخول أتباع الأديان الأجنبية إلى مجتمعنا كما تدخل الشوكة في أجسادنا، ليس لنا أن نقبل في أراضينا إلا من كان من أمتنا، ومن

شاركنا في معتقداتنا. وعلى كل فقد سارت الأمور نحو ثلاث اتجاهات هي:

١- استمرار الهجرات اليهودية والإقامة غير الشرعية، وتجاهل القوانين العثمانية، وذلك عن طريق التغاضي عن تسجيل المهاجرين في كشوف القادمين من قبل القائمين على منع الهجرة.

٢- استمرا السلطان عبد الحميد بإصدار القوانين، مما يؤكد مقاومته العنيفة لحركة الهجرة، وإن كانت الأمور تخرج من بين يديه بسبب فساد الكثير من رجاله في فلسطين.

٣- قيام الأجانب بدور هام في دعم الهجرة والمساعدة في نقل ملكية الأراضي، بسبب ما مارسوه من فرض للحماية على المهاجرين، مستغلين بذلك نظام الامتيازات الذي يتمتعون به.

وفي القدس أعلن أحمد رشيد بك متصرف القدس (١٩٠٤- ١٩٠٦) تأييده الهجرة اليهودية بشكل علني غير عابئ بالقوانين العثمانية واستنكار السكان المحليين لهذه السياسة، حيث تم استبداله عام ١٩٠٦ تحت الضغط الشعبي الفلسطيني بمتصرف آخر ملتزم هو «أكرم بك» فحمل على تطبيق القوانين العثمانية بكل أمانة، بخصوص الهجرة لكنه لم يبق في منصبه طويلاً حيث نقل إلى بيروت فيما بعد. ويمكن تلخيص إجراءاته بما يلي:

١- عرقلة بناء المؤسسات ويتمثل ذلك في زيادة إجراءات الروتين.

٢- خلق مشاكل متواصلة مع القنصليات الأجنبية وفي مقدمتها القنصلية الإنجليزية والفرنسية صاحبتا منح الحماية لليهود والجنسيات الأخرى.

٣- مداهمة بعض بيوت اليهود والتفتيش عن مهاجرين غير شرعيين.

٤- وضع جواسيس على اليهود.

٥- إقامة العقوبات الكبيرة على المرتشين.

وظل الموقف الرسمي العثماني هو الترحيب باليهود المهاجرين لكن ليس إلى فلسطين، التي يحظر الاستيطان فيها، مقابل التنازل عن جنسياتهم وتحولهم إلى رعايا عثمانيين واحجامهم عن السعي وراء امتيازات خاصة مثل فرض الحماية الأجنبية عليهم، وأن يبقوا خاضعين للقوانين السارية. لأن السلطان عبد الحميد لا يرغب مطلقاً بإضافة المسألة اليهودية إلى قائمة مشكلات الدولة، من حيث التنافس والمشاكل العرقية والدينية والمذهبية، التي توجد داخل الدولة أو إلى مزيد من القوميات الأجنبية الساعية وراء الامتيازات.



الفصل السابع

القدس تحت الاحتلال البريطاني

(١٩١٧ - ١٩٤٨)



القدس تحت الاحتلال البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨[١]:

ظلت القدس دائماً مطمعاً للطامعين بسبب وضعها الجغرافي في قلب المشرق العربي. إضافة لوضعها الديني وكونها مهداً لرسالات سماوية ثلاثة. وكونها ثالث المدن الإسلامية المقدسة. وأرضها موطن وملاذ الأنبياء.

المعروف أن القدس بعد تحريرها على يد المجاهد صلاح الدين من الصليبية الاستعمارية. وبعد حكم أحفاده جيلاً بعد جيل حكمها بعدهم المماليك. وقد حدثت في عهدهم كارثة كبيرة في سنة ١٩٤٨. تمثلت بانتشار وباء الطاعون الذي استمر أربعة شهور تقريباً. وقد أتى هذا الوباء على القلة القليلة من اليهود التي كانت موجودة في القدس. حتى أضحت القدس خالية منهم تقريباً.

تبع ذلك زحف الأتراك العثمانيون على بلاد الشام سنة ١٧١٥م، ودخولهم القدس في عهد السلطان سليم الأول، الذي زارها وعظم مقدساتها وأخذ البيعة في باحة قبة الصخرة. وبذلك خضعت الشام ومعظم البلاد العربية للخلافة الإسلامية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.باستثناء حملة نابليون على مصر والشام ١٧٩٩، ومن ثم حكم محمد علي على مصر والشام عام ١٨٣١ حتى عادت هذه البلاد للسيادة الإسلامية العثمانية مرة أخرى، واستمرت حتى مرحلة الاستعمار الأوروبي على الأقطار العربية.

كانت سنة ١٩١٧ سنة مصيرية بالنسبة لأهل فلسطين والقدس خاصة وبلاد الإسلام عامة. لأنها أنهت أكثر من ١٢٠٠ سنة من الحكم الإسلامي العربي، وما تخلله من فترة انقطاع قصيرة زمن الاحتلال الصليبي. إن دخو ل الجنرال الإنجليزي اللنبي الاستعماري الاستيطاني إلى القدس في (٩ كانون الأول/ ١٩١٧) شهد بالتأكيد التحول الذي لم تشهده في أي فترة من فترات تاريخها الحافل بالأحداث، لأنه

---

(١) انظر: كامل العسيلي، القدس في التاريخ، ٣٠٧- ٣٣٣.

أحدث تحولاً مزدوجاً: الأول على المستوى السياسي: تمثل بالإحلال الكامل لحكم المهاجرين الجدد (الصهيونيين اليهود)، محل الحكم الإسلامي العربي. الثاني على المستوى الاجتماعي: تمثل بإقامة مدينة عصرية طوّقت وطمست بمظاهرها المادية وثورتها (الديموغرافية) الطابع الإسلامي العربي للمدينة وغطت عليه وحاولت طمسه نهائياً تقريباً. إن الطابع العربي للقدس في الثمانينيات من هذا القرن، هو ظل لما كان عليه سنة ١٩١٧، ١٩٤٨، ١٩٦٧، وما بعدهما من تهويد كامل لبلاد فلسطين المفروض على السكان والأرض معاً. ومن سخرية الأحداث أن فترة ضياع القدس تتطابق مع الفترة التي خرج فيها العالم العربي من عهد الاستعمار إلى عهد الاستقلال السياسي. بحيث لم تقدر فلسطين أن تكون كمثيلاتها العربيات دولة مستقلة إسلامية عربية. وبدلاً من ذلك استطاعت الحركة الاستعمارية الصهيونية بدعم الاستعمار الأوروبي، وفي ظل الانتداب البريطاني أن تتولد في فلسطين دولة صهيونية استعمارية استيطانية وصفها الأدب الصهيوني بأنه انجاز أقل بقليل من المعجزة.

هذا الأمر الجلل يمكن تفسيره وإرجاعه إلى عوامل داخلية وخارجية ساهمت في إخراجه منها: التفكك والانقسام الداخلي والتنافسات التنظيمية عند المسلمين العرب. على مستوى القيادات. كذلك المهارات التنظيمية وقاعدة الموارد الاقتصادية للحركة الصهيونية. أيضاً التفكك العربي النسبي والضعف في السياسة العربية في ذلك الوقت.

خاصة وأن الحركة الوطنية العربية التي جهدت نفسها للتفاهم مع الفوضى التي نشأت بعد رحيل الأتراك، ومجيء المرحلة الاستعمارية البريطانية. كانت تفتقر إلى وحدة الهدف ووحدة الصف. اللتين كان يلزم توافرهما حتى تقوم الحركة على مواجهة الهجمة الاستعمارية في الوطن العربي عامة وفي فلسطين بشكل خاص، لمواجهة الأطماع الاستعمارية الصهيونية. إضافة إلى عجز زعماء فلسطين أنفسهم الذين لم يصعدوا المقاومة المناسبة والقادرة على مواجهة الخطر الصهيوني. هذا إلى

جانب وجود توافق واضح بين مصلحة الصهيونية العالمية والدول الاستعمارية الكبري الاستراتيجية، التي بدأت أولاً مع فرنسا وبريطانيا، ثم بعد ذلك مع أمريكا. خاصة بعد أن سحقت بريطانيا بكل قوة المقاومة العربية الفلسطينية في ظل الانتداب، ممهدة لقيام الدولة الصهيونية على حساب شعب ودولة فلسطين العربية.

الاحتلال البريطاني للقدس: مرّ تاريخ القدس تحت الاحتلال البريطاني بمرحلتين: الأولى ١٩١٧- ١٩٢٠ تحت الإدارة العسكرية. والمرحلة الثانية من ١٩٢٠- ١٩٤٨ (الانتداب البريطاني).

المرحلة الأولى: ١٩١٧- ١٩٢٠ (الإدارة العسكرية): بدأت بعد هزيمة الأتراك في معركة (غزة ٧/ ١١/ ١٩١٧) ودخول القوة البريطانية القدس في يوم ١١/ ١٢/ ١٩١٧. حيث قرر قائد اللواء العثماني (علي فؤاد) تسليم المدينة بعد عجزه عن الدفاع عنها أمام الحصار البريطاني الذي أقامه الجنرال اللنبي على المدينة المقدسة. وفي اليوم الثامن من ديسمبر عام ١٩١٧م، ترك عزت بك المتصرف العثماني مدينة القدس بعد أن عهد إلى كل من كامل الحسيني مفتي القدس وحسين سليم الحسيني رئيس بلديتها بتسليم المدينة للبريطانيين[١]. وفي اليوم التاسع من الشهر نفسه خرج حسين سليم الحسيني وتوفيق صالح الحسيني ومفتشا الأمن عبد القادر العلمي وأحمد شريف وعدد من الشباب هم محمد المهتدي وجواد إسماعيل الحسيني وحنا اسكندر اللحام حاملين العلم الأبيض إشارة إلى التسليم[٢] للقائد البريطاني «جن شي». وهكذا استسلمت المدينة المقدسة للبريطانيين المستعمرين تحت ضغط القوة العسكرية وظروف الحرب العالمية الأولى.

دخل البريطانيون بيت المقدس بقيادة الجنرال اللنبي Allenby في ١١ ديسمبر ١٩١٧م/ ١٣٣٦هـ وأعلن الأحكام العرفية وخاطب اللنبي Allenby

---

(١) طوطح وبولس، تاريخ القدس ودليلها، القدس، ١٩٣٠م، ص٣٥.
(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (٢)، ص١٧٢.

السكان مبيناً أهمية بيت المقدس وقدسيّتها قائلاً: «وفضلاً عن ذلك بما أن مدينتكم محترمة في نظر أتباع الديانات الثلاث الكبرى، وترابها مقدس في نظر الحجاج والمتعبدين الكثيرين من أبناء الطوائف الثلاثة المذكورة منذ قرون وأجيال، أود أن أحيطكم بأن لكل بناء مقدس أو معبد، أو أي مكان مخصص للعبادة من أي شكل وإلى أي طائفة من الطوائف الثلاثة، سيصان ويحتفظ به عملاً بالعادات المرعيّة وبالنسبة إلى تقاليد الطائفة التي تملكه»[1].

وخلال هذه الأحداث وفي خضم التصريحات البريطانية المطمئنة للعرب والمسلمين، والمعترفة بمكانة القدس الدينيّة وحماية الأماكن المقدسة فيها، يأتي وعد بلفور المشؤوم المضاد للوجود العربي الإسلامي في فلسطين، الوعد الذي صممه السياسيون الإنجليز بالتعاون الكامل مع الدوائر الصهيونية العالمية ومع القوى الاستعمارية الأخرى.

وجاء رد أهالي مدينة القدس في احتفال أقامه أدباء مدينة القدس في ليلة الحادي والعشرين من أبريل ١٩١٨م/ ١٣٣٧هـ، فنصبوا في قاعة الحفل خريطة مجسمة لفلسطين كتب فوقها عبارة: «هذه يا قوم فلسطين مقبرة أجداد العرب العظام». وكتب تحتها عدد من أبيات الشعر[2].

أرض فلسطين التي بوركت ... أرض الميـامين بنـي يعرب

يـا خير أرض الله لا تيأسـي ... ما لي عن حبك من مذهب

إنــا سنفديــك بـأرواحـنـا ... ونـرتقي متعصب الـركب

حتى ترى كالشمس في خدرها ... تضيء من المشرق والمغرب

وضع اللنبي فلسطين تحت الإدارة العسكرية باسم «إدارة بلاد العدو المحتلة

(١) العارف، المفصل، ص٣٨٤.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، القدس (٣)، ص٢٣٠- ٢٣١.

الجنوبية» في الفترة ما بين ٩/ ١٢/ ١٩١٧ وحتى ١/ تموز/ ١٩٢٠. وكان أول من تولى هذه الإدارة العسكرية الجنرال جلبرت كلايتون Gilbert Clayton (9/12/1917- 28/2/1918)، ثم خلفه الجنرال موني (Money) (1/3/1918- 30/7/1919) فالجنرال واتسن (Watson)، (١/ ٨/ ١٩١٩- ٣١/ ١٢/ ١٩١٩)، فالجنرال بولز (Bols)، (١/ ١/ ١٩٢٠- ٣٠/ ٦/ ١٩٢٠)، وكانت هذه الإدارة العسكرية ترتبط بالجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في القاهرة[١].

أما أول حاكم عسكري على مدينة القدس، فكان رونالد ستورس (Ronald Stross) ولم تراع الإدارة العسكرية القواعد الدولية في إدارة البلدان المحتلة، فقد خالفتها في مجالات عدة، وكانت تخضع لنصائح وتوجيهات البعثة الصهيونية التي زارت فلسطين، برئاسة حاييم وايزمن (Chaim Wiesmann) وضابط الإرتباط البريطاني (Orms- by Gore)[٢].

وفي تموز ١٩٢٠ سلم (بولز) فلسطين إلى أول مندوب سامي بريطاني (يهودي صهيوني). وبهذا الإجراء انتهت المرحلة الأولى (الإدارة العسكرية) وحلت محلها الإدارة المدنية. وفقاً لقرار المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو ٢٥/ نيسان/ ١٩٢٠، وبموجبها وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني شريطة التزامها تنفيذ وعد بلفور وبإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، الصادر في ٢/ تشرين الثاني/ ١٩١٧. من خلال لجنة يهودية صهيونية تعمل لتحقيق الوطن القومي لليهود في فلسطين.

إن الدارس لوثيقتي (وعد بلفور ١٩١٧- وسان ريمو ١٩٢٠) يلاحظ ما يلي:

أولاً: يعد وعد بلفور دستور السياسة البريطانية في فلسطين. وصك الانتداب يمثل قانون وتعليمات تنفيذ السياسات خلال فترة الانتداب.

---

(١) العارف: ٣٨٧.

(٢) أحمد طربين. فلسطين في عهد الانتداب ١٩١٧- ١٩٤٨.

ثانياً: عبارة (الوطن القومي) لليهود في كلا الوثيقتين يعد امتداداً لنفس العبارة ولقرارات المؤتمر الصهيوني الأول في (بال/ آب/ ١٨٩٧م).

ثالثاً: أهمل وعد بلفور وصك الانتداب ذكر أهل البلاد الأصليين وركز على عبارة «اليهود – اليهودية – اليهودي». علماً بأن أهل فلسطين يمثلون ٩٣٪ من السكان واليهود ٧٪ في تلك الفترة.

رابعاً: اقتصرت السياسة البريطانية في مرحلة الانتداب على استخدام كل الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية لتحقيق الهدف الصهيوني بإقامة (وطن قومي لليهود). أيد ذلك الهدف رسالة ملك بريطانيا إلى أول مندوب سامي في فلسطين (هربرت صموئيل) وهو يهودي. وقد وزعها على أهل البلاد باللغات الثلاث (العربية – الإنجليزية – والعبرية).

وكما قال المؤرخ البريطاني المشهور أرنولد توينبي (Arnold Toynbee): «إذا كانت الدول الغربية تتحمل قسطاً كبيراً من مسؤولية ما حدث في فلسطين، فإن بريطانيا المحتلة، والمنتدبة، تتحمل القسط الأكبر من محنة الحق والإنسانية في فلسطين. فقد كان موقفها الشامل لجميع حكوماتها المتعاقبة، ولكل أحزابها الحاكمة هو التواطؤ المرسوم مع الصهيونية، والتآمر المرير ضد فلسطين، والتعامي الجدير بالإدانة والاتهام»[١].

بداية لم يرض كثير من زعماء الصهيونية البارزين عن السياسة البريطانية في فلسطين. لأنهم سعوا إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. بقدر ما هي إنكلترا إنكليزية. وذلك من خلال اقتراح الدكتور وايزمان الزعيم الصهيوني «إن تسرع بريطانيا في تحويل فلسطين إلى دولة يهودية بشكل يجعل الإدارة الفلسطينية بكاملها على نحو يجعل معه فلسطين كومنولث يهودي تحت الوصاية البريطانية». ولعل ما دار

---

(١) خالد فلاح العلي. فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩ – ١٩٤٨، ص٩، بيروت، سنة ١٩٨٠.

في المقابلة التي تمت بين بلفور ووايزمان في الرابع من كانون الأول سنة ١٩١٨، في وزارة الخارجية البريطانية دليل على سعة مسافة الحلف بين الجانبين. وقد ظهر ذلك من خلال طموح الزعيم الصهيوني بقوله: «مجتمعنا من أربعة إلى خمسة ملايين يهودي يقيمون في فلسطين. ومن هذا المجتمع يستطيع اليهود أن ينشروا في الشرق الأوسط اشعاعهم. ولكن ذلك كله يفترض أن يسبقه تطور حر غير مقيد للوطن القومي اليهودي في فلسطين لا مجرد مزيد من التسهيلات اللازمة للاستعمارٍ».

من هنا بدأ الاستعمار البريطاني التعجيل بتحقيق أهداف الصهاينة، وللدلالة على ذلك فقد أجبر رونالد ستورز Ronal Storrs الحاكم العسكري البريطاني العام في القدس، وجهاء مدينة القدس من مسلمين ونصارى على الاجتماع باللجنة اليهودية الصهيونية، التي قدمت إلى القدس للإعداد لتنفيذ مخططات الاستيطان اليهودي في فلسطين عامة، وهو أمر ظل المسلمون والنصارى في فلسطين يخشونه لأنه خطر يهدد كيانهم ومستقبلهم ويعتدي على حقوقهم القومية[1]. وهيأ ستورز اجتماعاً آخر في السابع و العشرين من أبريل عام ١٩١٨م إلتقى فيه وجهاء مدينة القدس باللجنة الصهيونية بزعامة حاييم وايزمان من أجل أن تبيّن اللجنة الصهيونيّة أهداف اليهود ومقاصدهم في فلسطين. ومن جملة ما قاله حاييم وايزمان في هذا الاجتماع: «أنا وإن كنت قد ولدت بعيداً عن هذه البلاد فليس بغريب عنها. ولا يصح القول بأن اليهود قادمون على فلسطين بل هم راجعون إليها. وغرضنا كيهود أن نحيي تقاليدنا المجيدة الماضية ونصلها بالمستقبل لنوجد فيها نظاماً أخلاقياً فكريّاً ينشأ منه عالم جديد. وهو جل المراد من جعل فلسطين وطناً قوميّاً لليهود»[2].

حاول ستورز أن يقنع زعماء القدس من المسلمين ببيع ممر يؤدي إلى حائط

---

(١) قاسمية، خيرية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨م- ١٩١٨م، بيروت، ١٩٧٣م، ص٣٥٣.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (٢)، ص٢٣٣.

البراق مقدماً مقابل مبلغ ثمانين ألف جنيه قال عنها ستورز إنها بالإمكان أن تصلح الخراب الذي حل بقبة الصخرة، وهذا مر ليس له أدنى قيمة ماديّة أو معنويّة، لكن زعماء القدس من المسلمين رفضوا المحاولة وأعادوا تشكيل الجمعيّة الإسلاميّة، التي تختص بشؤون الممتلكات الإسلاميّة في مدينة القدس، جواباً على تلك المحاولة وإسكاتاً لكل المحاولات البريطانيّة الرامية إلى تهويد مدينة القدس(١).

وطلب اليهود من ستورز أن يقنع وجهاء مدينة القدس من المسلمين ببيع حائط البراق لليهود ولما عُرض الأمر على كامل الحسيني مفتي القدس كان جوابه: «لا يستطيع أي إنسان أن يتصرف بأملاك الوقف الإسلاميّ ولا سيما هذا المكان، على وجه التخصيص، بأي مبلغ مهما كان حتى ولو إلى مسلم فكيف إذا كان طالب الشراء يهوديّاً، ونحن نعرف أهداف اليهود لامتلاك الحائط وما في جوانبه»(٢).

وكان جواب أهالي القدس على تلك المحاولات الصهيونيّة المتلاحقة تشكيل الجمعيات والمنتديات الأدبيّة والثقافيّة والسياسيّة، لإفشال تلك المحاولات من جهة، والمحافظة على المقدسات الإسلامية وما يلحق بها من تلف وغيره من جهة أخرى. وأخذت هذه الجمعيات والمنتديات، تُعلم عدداً من الشباب المسلم اللغة العبريّة لمتابعة ما تنشره الصحف الناطقة بالعبريّة من معلومات وأفكار، حول مخططات اليهود الرامية إلى تهويد القدس وفلسطين. وكان من بين النوادي التي تأسست في مدينة القدس، النادي العربي برئاسة الحاج أمين الحسيني، ومنتدى آل دجاني، والجمعيّة الإسلاميّة، والجمعية الفدائيّة، والجمعية المشتركة الإسلاميّة النصرانيّة. جعلت هدفها الأول مقاومة الأهداف الصهيونيّة والتصدي لخططها الاستعماريّة، والحيلولة دون تمكين اليهود من شراء الأراضي في القدس الشريف، ثم عملت على إيفاد أعداد من الشباب الفلسطيني إلى القرى الفلسطينية لإثارة الفلاحين فيها ضد

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (٢)، ص٣٣٥.
(٢) قاسمية، النشاط الصهيونيّ، ص٣٨٤.

أطماع اليهود ومخططاتهم، وهذا الأمر اعترف به حاييم وايزمان نفسه[١]. وقد عقدت هذه الجمعيات مؤتمراً في القدس حضره مسلمون ونصارى في الفترة بين ٢٧ يناير – ١٠ فبراير ١٩١٩م قرروا فيه أن فلسطين (سورية الجنوبيّة) لا تنفصل عن سورية الشمالية، وهي بلد مستقل متحرر عن كل السيادة والنفوذ والحماية الأجنبية[٢]. وتنفيذاً لذلك صدر في مدينة القدس صحيفة سميت باسم سورية الجنوبيّة لصاحبها حسن البديرى وعارف العارف وهما من مدينة القدس. في المقابل دعا الجنرال بولز مدير عام إدارة بلاد العدو الجنوبيّة يعني (فلسطين) زعماء البلاد الفلسطينيّة إلى اجتماع عقده في القدس في العشرين من فبراير عام ١٩٢٠م تلا عليهم قرار دولة الوفاق القاضي بانتداب بريطانيا على فلسطين، وكان وعد بلفور الرامي إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين قد أدمج في وثيقة صك الانتداب[٣].

وجد البريطانيون بعد احتلالهم لفلسطين عام ١٩١٧م/ ١٣٣٦هـ أن الأمر لم يكن أمراً سهلاً. وذلك بسبب المقاومة الفلسطينية من جهة، والتعارض القانوني بين صك الانتداب ووعد بلفور من جهة أخرى.لأن المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم تطلب من الدولة المنتدبة تطويرو تحسين أحوال الشعب الفلسطيني نحو التقدم الحضاري. وفي نفس الوقت نجد وعد بلفور التزاماً بريطانياً بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وقد ضُمن ذلك في صك الانتداب[٤]. كذلك جاء في صك الانتداب عدم قيام وكالة يهودية، التي من أول أهدافها تسهيل العمل لظهور الوطن القومي لليهود في فلسطين (المادة ٤). وفي الوقت نفسه أُمرت السلطة المنتدبة تسهيل أمر الهجرة اليهودية وفق أحوال مناسبة (المادة ٦) وتسهيل حصول اليهود على الجنسية الفلسطينية (المادة ٧). وفي المقابل ساورت العرب والفلسطينيين شكوك

---

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٣م، ص١١٦.
(٢) الكيالي، تاريخ فلسطين، ص١٣٥.
(٣) السفري، عيسى، فلسطين العربيّة بين الانتداب والصهيونيّة، ج١، يافا، ١٩٣٧م، ص٣٨.
(٤) عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص٣٨٨-٣٩٨، بيروت، سنة ١٩٧٣.

حيال نوايا السياسة البريطانية المنحازة تماماً إلى الحركة الصهيونية وأهدافها. حتى غلب على قيادات العرب والفلسطينيين السذاجة حتى أواسط الثلاثينيات حيال نوايا بريطانيا الطيبة ظاهرياً.

المرحلة الثانية ١٩٢٠ – ١٩٤٨:

كان نموذج الحكم البريطاني في فلسطين على نمط حكم المستعمرات، فالمندوب السامي هو السيد المشرع، وأعلى الموظفين ويتصل مباشرة بويز المستعمرات باعتباره المسئول أمام البرلمان البريطاني عن سياسة المستعمرات، وللحكومة البريطانية، وبرلمانها، وللملك في المجلس الخاص السلطة في سن القوانين النافذة في فلسطين[١].

فالإدارة البريطانية المركزية في القدس كانت برئاسة المندوب السامي وكان مقره في مبنى مستشفى الملكة أوجستا فكتوريا Augus Victoria على جبل سكوبوس Scopus إلى أن دُمر بزلزال سنة ١٩٢٧[٢]. وقد تولى هذا المنصب في الفترة ما بين سنة ١٩٢٠ وحتى سنة ١٩٤٨ سبعة مندوبين ساميين هم[٣]:

١- هربرت صموئيل 1925-1920) Herbert Samuel).

٢- الجنرال بلومر، 1928 -1925) Plumer).

٣- جون تشانسلور، 1931 -1928) John Chanccellor).

٤- آرثر غرنفيل وآكهوب، 1938 -1931) Arther Wauchope).

٥- الفرد ماك مايكل (1944 -1938 Alfred MacMichel).

٦- جورت Gort،1944-1945.

---

(١) زعيتر، القضية، ص٦٣، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٥٥.

(٢) Ency Judalca vol, 9, Jerusalem

(٣) العارف. المفصل، ص٤٠١ – ٤٢١.

٧- الن جوردون كانجهام: Alin Gordon Cunningham (1945-1948).

وإلى جانب المندوب السامي كان يقوم مجلس تنفيذي يتألف من كبار رؤساء الدوائر الإنكليز، منهم: السكرتير الإداري العام للحكومة، وكان يشرف على عدد من الدوائر. والخدمات والمرافق العامة والآثار القديمة، وجمعيات التعاون والمهاجرة، على حساب إدارة الألوية. أما النائب العام فهو الذي يعد مشاريع القوانين، وهو بمثابة المستشار القضائي للحكومة وإلى جانبه السكرتير المالي. وأما المجلس الاستشاري فنصف أعضائه من كبار الموظفين، العرب فيه أقلية، فقد كان لهم سبعة مقاعد من أصل (٢١) مقعداً. في مقابل العشرات من الموظفين الكبار اليهود الصهاينة وخاصة المناصب الحساسة مثل: السكرتير الإداري العام، وندهام ديدز Wynham Deeds، ومديري الهجرة والسفر، والتجارة العام، والمدعي العام نورمان بنتويش Norman Bentwich ونائب حاكم القدس وسكرتير المندوب السامي.

وهكذا تجمع في الإدارة المركزية في القدس صهيونيون معروفون أمثال: صموئيل، وويندهام ديدز، ونورمان بنتويش، ومداينرتزهاجن Minertzhagen وبينهم من اعترف صراحة أنه لم يعمل في الإدارة كموظف محايد، بل كصهيوني يخدم الأغراض الصهيونية[1].

وكانت الوكالة اليهودية التي شكلت تنفيذاً لنص المادة (٤) من صك الانتداب من أجل تقديم المشورة إلى إدارة فلسطين، والتعاون معها في كل ما له علاقة في إنشاء وطن اليهود القومي، ومصالح السكان اليهود في فلسطين. ولقد أشار تقرير اللجنة الملكية لسنة (١٩٣٧)، إلى الدور الذي لعبته الوكالة في إدارة فلسطين، فقد كانت بمثابة حكومة داخل الحكومة.«إذ ليس هناك فرع من فروع الإدارة لا

---

(١) زعيتر: القضية، ص٦٣.

تتدخل الوكالة به»[1].

في الوقت نفسه أصبحت اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب العربية والإنجليزية. واستقل اليهود بإدارة معارفهم، ومدارسهم بإشراف اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية. أما المعارف العربية فكانت بيد إنكليزي، ومساعدين إنكليز إدارة وإشرافاً وتفتيشاً وتوجيهاً[2].

وفيما يتعلق بالإدارة المحلية، كانت القدس قاعدة لواء القدس الذي كان أحد الألوية الثلاثة التي تألفت منها فلسطين عام ١٩٢٢، وضم لواء القدس أقضية بيت لحم والخليل، والقدس وأريحا، ورام الله، ثم زيدت الألوية في فلسطين إلى ستة في عام ١٩٣٩، كان لواء القدس أحدها، وظلت تتبعه الأقضية الثلاث السابقة. وظل هذا التقسيم حتى نهاية الانتداب ١٩٤٨[3].

بلغت مساحة لواء القدس عام ١٩٤٥، ٤.٣٣٣.٥٣٤ دونم، امتلك الصهيونيون منها ٣٩.٦٧٩ دونما أي ما يعادل نحو ٩٪ من مجموع أراضي اللواء. أما عدد سكان اللواء فبلغ ٣٨٤.٨٨٠ نسمة، منهم ٢٨٤.٦٠٠ عرب بنسبة ٧٣.٩٪ في حين كان عدد الصهيونيين ١٠٠.٢٨٠ أي نحو ٢٦.١٪[4].

وقد انتقلت إلى القدس، وأقيمت فيها عدة مؤسسات صهيونية، أو يهودية فقد أصبحت مقراً للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (WZO) Organization Worl Zionist ولاحقاً اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية (Jewish Agency) [5] والصندوق التأسيسي (Kern Haysod). والصندوق القومي (Kern Kaymuth) والحاخامية الرئيسية، (لطائفتي اليهود الغربيين Ashkenazim

(١) الموسوعة الفلسطينية: ج١/ ١٢٦، ٢٢٦-٢٣٠.
(٢) زعيتر: القضية، ٦٤.
(٣) الموسوعة الفلسطينية، ج١، ١٢٥-١٢٦.
(٤) الموسوعة، ١٢٨.
(٥) المؤسسات الصهيونية (هاميسود، ١٩٢١). انظر: زعيتر. القضية، ص٦٤. هامش (١).

والشرقيين Sephardism[1]، والجامعة العبرية التي أقيمت على أرض عربية إنتزعتها السلطات البريطانية من أيدي أصحابها العرب بالقوة، أي بقانون نزع الملكية وأعطيت لليهود[2]، وقد افتتحها بلفور سنة ١٩٢٥، وشملت المكتبة الوطنية التي كانت قد أسست سابقاً. وفي سنة ١٩٣٩ أفتتح مستشفى هداسا الجامعي، وأقيم عدد من هذه المؤسسات على جبل سكوبس Scopus في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة القديمة، وهو بالاتجاه الوحيد المتبقي لأي توسع عربي مما شكل شبه حصار كلي على المدينة. وتحولت المدينة المسكوبية (المجمع السكني الروسي) في وسط المدينة إلى مقر لقيادة البوليس، والسجن المركزي، والمستشفى الحكومي والمحاكم القانونية[3].

لقد استمرت فلسطين والقدس تحت الإدارة العسكرية البريطانية (إدارة أراضي العدو المحتلة) حتى شهر تموز/ ١٩٢٠ وذلك بسبب إنشغال بريطانيا بمحاولة تخفيف الخلل الناشئ عن الحرب، وتنظيم الشؤون الاقتصادية والإدارية. وإدارة الأماكن المقدسة خاصة من قبل حاكم القدس العسكري «رونالد ستورز».

اهتم هذا الحاكم بوضع القدس وعمل على الحفاظ على تراثها وتحسين أوضاعها. لذلك ألف (جمعية محبي القدس) من زعماء دينيين مسلمين ومسيحيين ويهود ومن أعيان مدنيين. حيث قامت الجمعية برئاسة المهندس المعماري (أشبي) بعمليات الإصلاح والترميم والتجديد للمباني الدينية والمدنية. وفي شأن العلاقات كذلك قام اللورد بتطبيق روح وعد بلفور من خلال إدخال اللغة العبرية كلغة رسمية ثالثة إلى جانب العربية والإنجليزية.

عينت بريطانيا أول مندوب سامي بريطاني عام ١٩٢٠ (هربرت

---

(١) Encyc, J., 251. 1471.

(٢) بويصير، ملحق (٥)، ص٥٩٠.

(٣) سمير جريس: القدس المخططات الصهيونية الاحتلال والتهويد، ص٢٥، بيروت، سنة١٩٨١.

صموئيل)[1]. فتعاون مع زعماء الحركة الصهيونية لغاية تحقيق وعد بلفور. وفي ذلك تعارض واضح مع طموح أغلبية أهل البلاد والفلسطينيون، تمثل في معارضة المؤتمر السوري العام لنفس العام برفض العرب عامة وعد بلفور. في المقابل لجأ البريطانيون إلى تهدئة العرب من خلال اللجان التي كانت تدسها الحكومة البريطانية بين الحين والآخر. والتي لم تكن سوى ذر الرماد في العيون. منها الكتاب الأبيض سنة ١٩٢٢ الذي كتبه وزير المستعمرات «ونستون تشرتل» لتهدئة مخاوف العرب. وفي عام ١٩٢٢، ١٩٢٣. قوبلت المقترحات التي قدمتها الدولة المنتدبة بشأن تشكيل مجلس تشريعي بالرفض من كلا الجانبين من اليهود الصهاينة لأنهم أقلية. ومن العرب الفلسطينيون لاعتبارهم أقلية كالأقلية اليهودية. وفي عام ١٩٢٥ نال اليهود استقلالاً في التعليم والنواحي التنظيمية الخاصة بهم.

وفي عهد الإدارة المدنيّة البريطانية في حكم فلسطين في ظل الانتداب البريطاني افتتح اللورد بلفور الجامعة العبريّة في القدس في مارس عام ١٩٢٥[2]، واعتبر المقادسة اليوم الذي وصل فيه بلفور إلى القدس يوم حداد عام، ويوم إضراب شامل أغلقت المتاجر والمدارس أبوابها استنكاراً لقدومه. وأصدر الإنجليز قانوناً يقضي بعقاب كل من يشترك في هجمات على اليهود في كل أنحاء فلسطين، وذلك ضمن قانون العقوبات العام الصادر عن الإدارة المدنيّة البريطانيّة في فلسطين عام ١٩٢٦م.

شهد حكم المندوب السامي «لورد بلومر» ١٩٢٥ نوعاً من الهدوء النسبي حتى عام ١٩٢٨. وظفه تنظيم اليهود «اليشوف» والذي كا ن أشبه بنظام دولة دولة داخل دولة. من خلال تكوين جيش خاص من (عصابات الهاغانا) ممول من الضرائب والمؤسسات المالية. إلى جانب وجود المنظمات التعليمية والثقافية والخيرية.

(١) libd, pp. 150- 151.

(٢) مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٢٤، أغسطس ١٩٧٣م، حول الوسائل التعليمية والجامعات والمعاهد العليا في فلسطين.

في المقابل كان العرب غير منظمين إلى حد كبير. قادهم وجهاء تقليديون نالوا قسطاً من الثقافة لكن لم تكن لديهم خبرات سياسية على المستوى العام. إضافة إلى وقوف الحكام البريطانيين أمام أي محاولة عربية للتأثير السياسي. وفي ظل تنافس عربي فلسطيني متعارض بين المصلحة الوطنية والقومية، كذلك وجود التنافس الشخصي والفئوي وحتى على مستوى العائلات. أيضاً تأرجح نظر العرب والفلسطينيين إلى السياسة البريطانية بين مؤيد لها ومعارض.

كان العقد الأول من الحكم البريطاني لفلسطين مدعاة للسخط والغضب من جهة العرب. في الوقت الذي حققت فيه السلطة البريطانية المنتدبة نوعاً من الاستقرار في العلاقات بين الطوائف. وقامت كذلك بتحسينات بلدية. لكن نظرة العرب إلى الانتداب ظلت نظرة غير شرعية ومرفوضة. وفي المقابل كانت نزعة اليهود اليشوف تزداد قوة وتطرفاً أمام نزعة القتال والعنف.

بدأ اليهود يخططون لامتلاك حائط البراق، وهو الحائط العربي للمسجد الأقصى الذي يعتقد المسلمون أنه المكان الذي ربط في البراق ليلة الإسراء، ومنه أصبح هذا الحائط يعرف بحائط البراق، الذي هو ملك للمسلمين ومحفوظة ملكيته في صكوك خاصة محفوظة لدى دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس الشريف، علماً بأن طول هذا الحائط يصل إلى حدود مائة وستة وخمسين قدماً وارتفاعه في حدود ست وخمسين قدماً. وتعود غاية اليهود من امتلاك هذا الجزء من المسجد الأقصى إلى خططهم الرامية إلى امتلاك المسجد الأقصى جميعه بزعم أنه مكان الهيكل.

قاوم المسلمون في فلسطين وغيرها خطة اليهود هذه، فعقدوا مؤتمر إسلامياً في القدس الشريف في نوفمبر عام ١٩٢٨م، حضره ممثلون عن العالم الإسلاميّ، قرروا فيه أن لا حق لليهود في مكان البراق من حيث الملكيّة أو تغيير معالمه أو إضافة جديد عليه أو وضع أي أدوات عليه مؤقتاً كان ذلك أم دائماً. وتعهد المؤتمرون أن يدافع المسلمون عن حقهم في الحائط، إذا لم توقف الحكومة البريطانية اليهود عند

حدهم تجاه هذه المسألة، التي ظلت مثاراً للقلائل بين المسلمين واليهود ومثاراً للجدل والنقاش في الداخل والخارج خاصة في المحافل الدولية.

القدس والحركة الوطنية الفلسطينية

أصبحت القدس خلال الاحتلال البريطاني. الصهيوني من سنة ١٩١٨-١٩٤٨. عاصمة فلسطين الإدارية. ومقر المؤسسات الصهيونية. إلى جانب اعتمادها قلب الحركة الوطنية الفلسطينية التي عبرت عن نفسها من خلال اتجاهين. الأول: سلمي من خلال الهبات والمؤتمرات والانتفاضات. والثاني: يميل إلى العنف. وكلا الاتجاهين في الحركة الوطنية متداخلان متكاملان. إلى جانب ظهور الأحزاب الفلسطينية والمظاهرات السلمية. نذكر منها: هبة عام ١٩٢٠ استغل فيها الفلسطينيون تجمعهم في موسم النبي موسى عليه السلام، ضد السياسة البريطانية الصهيونية في فلسطين[١]. أما الانتفاضة الثانية الدموية (الثورة عام ١٩٢٩) المعروفة بثورة البراق[٢]. دفاعاً عن المسجد الأقصى. وادعاء اليهود بأن حائط البراق هو حائط المبكى حسب زعمهم. هذا العمل حوّل السخط الفلسطيني إلى ذعر مع العنف في حائط المبكى[٣] سنة ١٩٢٩، خاصة بعد زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مما دعا إلى تنظيم مقاومة مسلحة. عجزت أمامها قوة بريطانيا. وللدلالة على ذلك ما جاء على لسان (القائد العسكري ستورز) قوله: «إن صهيون وإنجلترا بعد أن وجدتا مشروع الوطن القومي اليهودي قد فشلتا حتى الآن».

والحقيقة أن اضطرابات حائط المبكى كانت عاملاً حافزاً على الطوفان الوشيك الحدوث الذي سترجع أسبابه إلى ما قبل عام ١٩٢٨/ ١٩٢٩، لأن تاريخ فلسطين كل تراكمي جعل من مدينة القدس وفلسطين بؤرة نزاع، نظراً لأهميتها

(١) زعيتر: القضية، ص٦٤.
(٢) الكيالي: ٢٣١، الموسوعة الفلسطينية، ج٣/ ٦١٤-٦١٧.
(٣) زعيتر: وثائق الحركة ١٨-١٩٣٩. ص٣٢٩- ٣٣٠، بيروت، ١٩٧٩.

الدينية والاستراتيجية لكلا الطرفين.

لقد حقق اليهود في ظل الحكم البريطاني هجرة واسعة إلى جانب حرية دينية، لم تكن لهم في ظل الحكم العثماني خاصة في باب (ترتيبات الوضع الراهن الذي منع اليهود الزيارة أو الصلاة عند حائط البراق إلا بإذن المسلمين) هذا الأمر تغير في عهد الانتداب البريطاني فسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين، وامتلاك أوقاف خاصة لهم في القدس حتى على حساب الوقف الإسلامي. حتى بلغ الأمر من اليهود بجهود لشراء الحائط في وقت مبكر في خمسينيات القرن الماضي. وتجددت هذه الجهود بقوة فور قيام الاحتلال البريطاني. وفي عام ١٩١٨ كشف اليهود المصلون عند الحائط عن جهود وضع كراسي ومقاعد طويلة وتجهيزات أخرى للمتعبدين. برزت في يوم عيد الغفران سنة ١٩٢٨ فكانت بداية شرارة الثورة والاضطرابات عام ١٩٢٩. وقد ضخمت المنظمات ووسائل الإعلام اليهودية الأحداث. فدفعت بزعماء فلسطين إلى تعبئة الجماهير للاحتجاجات العنيفة.

أظهرت بريطانيا محاولة للتهدئة من خلال لجنة دولية في ١٥/ ٥/ ١٩٣٠[١]، لكن هذه الحركة كانت جوفاء غايتها تهدئة الشعور الفلسطيني. في حين تسارعت الأحداث نحو المواجهة بين أهل فلسطين واليهود على كل المستويات في ظل زيادة عدد المهاجرين إلى المدينة المقدسة.

بدأت بانعقاد سبعة مؤتمرات فلسطينية بين سنة ١٩١٩- ١٩٢٨ «ثلاثة منها في القدس» الأول (٢٧/ ١-٢٩/ ١٩١٩)، الرابع (٢٩/ ٥-٢/ ١٩٢٦)، والسابع (٢٠، ٢١/ ٦/ ١٩٢٨) [٢] وغاية هذه المؤتمرات استقلال فلسطين، وتحقيق الوحدة العربية وعدم القبول بوجود وطن قومي لليهود في فلسطين[٣]. في القدس عقد مؤتمر

(١) جريس: ص١٩٣- ١٩٤، أوصت اللجنة بملكية الحائط الغربي للمسلمين وحرية اليهود في الشعائر. تحول ذلك إلى قانون في ٨/ حزيران ١٩٣١.
(٢) الموسوعة الفلسطينية، ج٤/ ٣٦٨-٣٧٥.
(٣) الكيالي: ٢٠١- ٢٠٢، الموسوعة الفلسطينية، ج٤/ ٣٧٦.

نسائي في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٢٩م حضره نساء فلسطينيات من كل أنحاء فلسطين، وقررت الحضور ورفض وعد بلفور ورفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإقامة حكومة فلسطينية وطنيّة تكون مسؤولة أمام مجلس برلماني فلسطيني وطني(١).

ولمواجهة الأعباء الاقتصادية والمالية في القدس بخاصة وفلسطين بعامة تأسس في مدينة القدس الشريف أول بنك فلسطيني سمي البنك العربي عام ١٩٣٠م، وغدا هذا البنك وبشكل تدريجي مؤسسة مالية فلسطينية عربية إسلاميّة دولية، وأضحى في أيامنا الحاضرة من البنوك العالمية ذات السمعة الطيبة، ومن البنوك العالمية ذات الشهرة الواسعة والمكانة العالمية المرموقة.

وانطلقت من المجلس الإسلامي الأعلى في القدس فكرة تأسيس جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبحت هذه الفكرة حقيقة، عندما انبثقت هذه الجمعية عن مؤتمر علماء فلسطين وفقهائها الذي انعقد في مدينة يافا الفلسطينية، وتأسست لهذه الجمعية عدة فروع في المدن والقرى الفلسطينية هدفها تقوية الروح الإيمانية بين الأهالي من جهة وتقوية الروح الوطنية من جهة أخرى(٢). وأنشئ في مدينة القدس مصرف زراعي عربي برأس مال مقداره ستون ألف جنيه فلسطيني(٣) هدفه الأول تحسين الأراضي الزراعية في فلسطين والعمل على حمايتها خوفاً من أن يستولي اليهود عليها بالقوة أو بالشراء. وما هذه المؤسسات العربية الفلسطينية إلا جزءاً من سياسة عرب فلسطين الرامية إلى مواجهة المخططات الصهيونية، وإفشال المخططات الاستعمارية البريطانية في فلسطين، وكسب القوى العربية والإسلامية إلى جانب الحق الفلسطيني وتأييده.

ولحماية الأرض الفلسطينية من المصادرة أو البيع تأسس صندوق الأمة سنة

---

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين، ص٢٤٨.

(٢) الكيالي، تاريخ فلسطين، ص٢٨٦.

(٣) الدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (٢)، ٢٧٦.

١٩٣٥. وفي نفس العام عقد مؤتمر علماء فلسطين في القدس. صدرت بموجبه فتوى تحرم بيع أي شبر من أرض فلسطين لليهود. واعتبار البائع أو السمسار مارق من الدين. كذلك أنقذ المجلس الإسلامي الأعلى في القدس بعض القطع المعروضة للبيع[١].

كذلك ساهمت الأحزاب السياسية الفلسطينية في عملية المقاومة[٢]. منها حزب الاستقلال سنة ١٩٣٢ بزعامة (عوني عبد الهادي). وحزب الدفاع سنة ٢/ ١٢/ ١٩٣٤، بزعامة راغب النشاشيبي. و حزب الإصلاح ١٩٣٥، بزعامة حسين فخري الخالدي. والحزب العربي، بزعامة جمال الحسيني، ١٩٣٥. والكتلة الوطنية، بزعامة عبد اللطيف صلاح، ١٩٣٥. وحزب الشباب، بزعامة يعقوب الغصين.

تألفت هذه الأحزاب بعد الانتخابات البلدية عام ١٩٣٤ وبعد انتهاء وجود اللجنة التنفيذية. وقد شكلت هذه الأحزاب قيادة موحدة باسم (اللجنة العربية العليا) برئاسة أمين الحسيني ومقرها القدس. هذا فقد ضعفت اللجنة العربية العليا بعد اعتقال زعمائها أو مغادرة بعضهم لأرض فلسطين، إضافة لظروف الحرب العالمية الثانية وبروز دور الدول العربية على الساحة الفلسطينية.

زاد عداء الفلسطينيين للانتداب البريطاني والوجود الصهيوني في القدس. بعد زيادة عدد المهاجرين اليهود، وتسهيل شراء اليهود للأراضي، بعد وضع ضرائب كبيرة على الفلسطينيين، والاستيلاء على أراضي الوقف الإسلامي لصالح اليهود، إضافة للقوانين المجحفة بحق أراضي الفلسطينيين. فضلاً عن إبعاد الفلسطينيين عن الوظائف الكبيرة في أجهزة الدولة. الأمر الذي ولد ثورات متتابعة ضد البريطانيين

---

(١) الكيالي، ٢٦٨- ٢٦٩، الموسوعة الفلسطينية، ج٤/ ٣٧٦.

(٢) انظر: العارف: المفصل، ٤١٢-٤١٣، الكيالي ٢٨٨، ٣٠٥، زعيتر: يوميات الحركة الفلسطينية، ١٩٣٥-١٩٣٩، ص٧٦، بيروت، سنة ١٩٨٠.

والحركة الصهيونية ضمن ثورات مسلحة، ابتداء من عام، ١٩٢٢، ١٩٢٩، ١٩٣٣، ١٩٣٦، وما تلاها عام ١٩٣٧، ١٩٤٧.

اندلع في عام ١٩٣٣ عنف شديد. ابتعد فيه الشعب عن اللجنة التنفيذية العربية. التي كانت هي المنظمة السياسيةالرئيسية طيلة فترة العشرينيات. باعتبارها أقرب إلى المحافظة المفرطة والليونة في ضوء أعمال العنف الجديدة. ونتيجة الضغط الجماهيري الذي كان يتوافق مع تسارع الأحداث الخطيرة على فلسطين، لجأ الشعب إلى تكوين أحزاب من النخب (حزب الاستقلال) المنادي بالجامعة العربية، وحزب الدفاع وحزب الإصلاح وحزب الكتلة الوطنية. لكن هذه الأحزاب لم تلبي أيضاً مشاعر الجماهير. فاتجهت الأمور نحو الكفاح المسلح ضد البريطانيين والصهاينة على السواء. توجت بحركة الشيخ عز الدين القسام عام ١٩٣٥. الذي اعتبر أول شهداء المقاومة. وبذلك فتح الباب لبدء مرحلة جديدة في الكفاح المسلح الفلسطيني. وفي عام ١٩٣٦تشكلت اللجنة العربية العليا في القدس بزعامة الحاج أمين الحسيني، وضمت زعماء جدد إليها. واستخدمت تكتيك جديد تمثل بالعصيان المدني أو الاضراب عام ١٩٣٦، وثورة عام ١٩٣٦، ١٩٣٩[١].

القدس ومشاريع التقسيم البريطانية والدولية

بعد الاضراب الفلسطيني عام ١٩٣٦م، وصلت إلى مدينة القدس اللجنة الملكيّة (بل) البريطانية في ١١ نوفمبر عام ١٩٣٦م، وضعت تقريراً مفصلاً عن الحوادث في فلسطين وعن الوضع فيها وعن مرئياتها تجاه ذلك. وعرضت اللجنة التقرير على البرلمان البريطاني عام ١٩٣٧ موصية فيه بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربيّة ويهوديّة تضم الدولة العربية شرقي الأردن مع القسم الشرقي والجنوبي من فلسطين. وتضم الدولة اليهودية القسم الشمالي والغربي من فلسطين. أما

---

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين، ٣٤٨.

منطقة القدس وبيت لحم فتوضع تحت الانتداب البريطاني الدائم عليها. وقد رفض العرب ذلك[1]. وقامت حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين بنقل الحكم في فلسطين من يد السلطات المدنية إلى السلطات العسكرية لمواجهة الموقف الفلسطيني ضد الاستعمار البريطاني وضد التغلغل اليهودي الصهيوني في بلادهم بمساعدة بريطانيا.

ظهرت القدس كأكبر دور في الأحداث الدامية عام ١٩٣٦، ١٩٣٩. وكانت مسرحاً لحوادث عنف وإرهاب صهيوني متعددة الوجوه. بدأ عام ١٩٣٦ بسلسلة من التفجيرات استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الثانية. قابلها الفلسطينيون بالثورة المسلحة على الصهاينة اليهود والإنجليز المحتلين. وقد سيطر المجاهدون على معظم الأجزاء الريفية والجبلية الرئيسية في فلسطين خلال الثورة. لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على المدن، مع أنهم سيطروا على القدس القديمة لفترة وجيزة.

وقد دفع العنف المتزايد بين الفلسطينيين واليهود إلى التدخل البريطاني المنحاز إلى جانب اليهود. حيث تجاهلوا تسلح وتدريب العصابات اليهودية، بل إن ضابطاً بريطانياً هو (أورد ونغيت) قام بتدريب رجال العصابات. وفي المقابل اتخذ البريطانيون إجراءات صارمة ضد تسلح الفلسطينيين ومصادرة كل أنواع الأسلحة، وحلت اللجنة العربية العليا عام ١٩٣٧. في الوقت الذي انتقلت فيه قيادة المجاهدين من المدن إلى الريف. وفي الوقت نفسه فقدت القدس مكانتها البارزة على المسرح السياسي الفلسطيني.

هذا وعلى الرغم من قدرة البريطانيين على مواجهة هذه الثورات الفلسطينية المتتابعة بالقوة وتحقيق النصر عليها، إلا أن ثورة عام ١٩٣٩ أحرز فيها الفلسطينيون نصراً دبلوماسياً كبيراً تم بمساعدة بعض الدول العربية. حيث أقنعت البريطانيين إلى التقليل من التزامهم لليهود، مقابل حفاظهم على مصالحهم في البلاد العربية

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين، ص٣٤٨. أول مشروع بريطاني لتقسيم فلسطين.

والإسلامية. واستجابة لذلك صدر الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩.

اعتبر الكتاب الأبيض نكسة كبيرة للأطماع الصهيونية. لو أحسن استغلاله من جانب العرب. لكن المقاومة الفلسطينية لم تكن قادرة على تنظيم نفسها استعداداً لمواجهة مسلحة قادمة، في حين ضاعف اليهود جهودهم التنظيمية والعسكرية. وقد أدركوا أن قوة بريطانيا تسير إلى الإضمحلال. لذلك استمروا في تهيئة العصابات المسلحة سواء الرسمية أو غير الرسمية مثل «الهاغانا، الآرغون وشتيرن». وبعد هدوء مؤقت نتيجة ظروف الحرب العالمية الثانية. استؤنف الصراع سنة (١٩٤٤، ١٩٤٥) كان ذروته تصاعد العنف الإجرامي اليهودي ضد البريطانيين والعرب على السواء.

ظهرت في عدة حوادث، أولها: حادثة نسف اليهود فندق الملك داود في مدينة القدس سنة ١٩٤٦، حيث تقيم سكرتارية الحكومة العامة وقسم من القيادة العسكرية لحكومة الانتداب البريطاني، وأخذ اليهود يقومون بعمليات إرهابية في القدس الشريف ليس ضد العرب الفلسطينين وحدهم، وإنما ضدّ بريطانيا أيضاً كقوة ضاغطة على الحكومة البريطانية، لإجبارها على تقديم مساعدة أكبر لهم ولتكون قوة ضاغطة على الفلسطينيين لصالح اليهود. ثانيا: وصل الإرهاب الصهيوني اليهودي أوجه عندما اغتال اليهود اللورد موين وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط في مدينة القاهرة في ٦ نوفمبر عام ١٩٤٤[(١)]، وكان المغتالون من يهود عصابة شتيرن. ثالثاً: نسف اليهود الإرهابيون السفارة البريطانية في إيطاليا في يوم الأربعاء الموافق ٢٧ نوفمبر ١٩٤٦م[(٢)].

---

(١) الكيالي، تاريخ فلسطين، ص٣٢٥، والدباغ، بلادنا فلسطين، بيت المقدس (٢)، ص٢٨٤، وفلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٥٢.

(٢) رسالة من السفارة الأمريكية في روما إلى وزير الخارجية الأمريكية، مؤرخه في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٦م في شأن المؤتمر الصحفي الذي عقده البرفسور جوهان سمير تنكو Johan Smer=

في حين عجز الفلسطينيون القيام بأي دور لمواجهة السياسة البريطانية الاستعمارية من جهة. ولمواجهة الإرهاب الصهيوني المعتمد على الاستعمار الأوروبي وخاصة البريطاني من جهة أخرى.

وفي مؤتمر لندن (تموز/ ١٩٤٦- شباط/ ١٩٤٧) قدم نائب رئيس الوزراء البريطاني هربرت موريسون (Herbert Morison) مشروعاً لحل القضية الفلسطينية دعا فيه إلى تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق، وهي منطقة عربية، ومنطقة يهودية ومقاطعة القدس، ومقاطعة النقب، وبالنسبة لمقاطعة القدس فإنها كانت تشمل القدس، وبيت لحم، والمناطق المجاورة لها، وينشأ فيها مجلس له صلاحية المجلس البلدي، وينتخب معظم أعضائه انتخاباً، على أن يكون للمندوب السامي تعيين بعضهم، ويقوم مشروعه على أساس أن لا تكون فلسطين بأجمعها لا دولة عربية، ولا دولة يهودية، لأنه يصعب التوفيق بين أماني العرب الساسية، وأماني اليهود. والتقسيم يكفل حكماً ذاتياً لكل من العرب واليهود تحت إدارة مركزية، وتكون الحدود بين المقاطعات حدوداً إدارية، ولا علاقة لها بأمور الدفاع، أو الجمارك أو المواصلات، ويعتبر هذا المشروع تراجعاً بريطانياً عن سياسة الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٣٩[١].

قدم العرب مشروعاً مضاداً يوم ١٩٤٦/٩/٣٠، طالبوا فيه بفلسطين موحدة على أن يتضمن دستورها ضماناً للأماكن المقدسة يشتمل على حصانتها، وصيانتها وحرية الوصول إليها طبقاً للعادة المرعية «Statas Quo» على أن ترد هذه الضمانات في تصريح تدلي به الدولة الفلسطينية المستقلة أمام الهيئة العامة للأمم المتحدة وتتقيد به، وأن لا تعدل هذه الضمانات إلا بموافقة هذه الهيئة[٢]. وهذا

=tenko نائب رئيس الجمعية الأمريكية اليهودية لتحرير فلسطين. والرسالة المذكورة منشورة ضمن وثائق تاريخ فلسطين المعاصر للدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية.

(١) محمد عزت دروزة. الحركة العربية، ج٤/ ٦٣- ٦٦، صيدا، سنة ١٩٥١.

(٢) .libd, pp. 9- 11

المشروع رفضته الحكومة البريطانية.

وبذلك اسقطت المشروع العربي الذي يهدف إلى إنهاء الانتداب وإعلان استقلال فلسطين في ١٥/ أيار ١٩٤٧. ثم تم عرض القضية على الجمعية العامة بعد تشكيل لجنة خاصة لإعداد تقرير بشأن فلسطين.

وعقدت لجنة فلسطين الخاصة في الفترة ما بين ٢٦/ ٥-٣١/ ٨/ ١٩٤٧ (١٦) اجتماعاً و(٣٦) اجتماعاً خاصاً في ليك سكسيس (Lake Success)، والقدس، وبيروت، وجنيف استمعت خلالها إلى بيانات سلطة الانتداب، وشهادات ممثلي العرب واليهود. وبدا واضحاً من المعلومات التي حصلت عليها أن الفلسطينيين العرب يمثلون الأغلبية الساحقة من السكان، فقد قدر عددهم ب ١.٢٣٧.٣٧٤، مقابل ٦٠٨.٢٢٥ يهودي (والواقع أن العرب أكثر، وعدد اليهود أقل)، وكان العرب يملكون ٨٦٪ من أراضي فلسطين[١]. انقسمت اللجنة بشأن توصياتها إلى فريقين: فريق الأكثرية ونص تقريره على التوصية بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية، وأخرى يهودية، وإنشاء نظام دولي خاص بالقدس ومنطقتها، مع إقامة وحدة اقتصادية بين الدولتين. أما فريق الأقلية فقد أوصى بإقامة دولة إتحاد فيدرالي تكون القدس عاصمتها، وفيها بلديتان مستقلتان عربية ويهودية.

اشتملت الدولة اليهودية على الجليل الشرقي، ومرج ابن عامر، والقسم الأكبر من السهول الساحلية ومنطقة النقب وبئر السبع، وضمت ما بين (٤٦٠- ٤٩٧) ألف عربي و(٤٩٨- ٥٣٠) ألف يهودي، واشتملت على (١٤.٤٠٠)كم٢ بنسبة ٥٦.٧٤٪ من مساحة فلسطين، علماً «بأن ٣/ ٢ الأراضي والممتلكات فيها ملكاً» للعرب. أما الدولة العربية فاشتملت على الجليل الغربي، ومناطق نابلس، القدس، الخليل، غزة، وضعت ما بين (٦٥٠- ٧٢٥) ألف عربي، (١٠- ١١) ألف يهودي، واشتملت على (١٢) ألف كم أي بنسبة ٤٢.٨٨٪ من مساحة فلسطين ولا

(١) الموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٥٥٨.

يملك اليهود في هذه المنطقة سوى (١٠٠) ألف دونم. أما منطقة القدس فضمت (١٠٠) ألف يهودي و(١٠٥) آلاف عربي[١].

شكلت الجمعية العامة لجنتين فرعيتين أوكلت إلى إحداها دراسة توصيات لجنة الأكثرية، والأخرى دراسة توصيات لجنة الأقلية. ووافقت اللجنة الخاصة يوم ٢٥/ ١١/ ١٩٤٧ على مشروع التقسيم مع الوحدة الاقتصادية بأغلبية (٢٥) صوتاً مقابل (١٣)، وامتناع (١٧) عن التصويت[٢].

بحثت الجمعية العامة توصيات لجنة الأكثرية في الفترة ما بين ٢٦ و٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ ووافقت عليه يوم ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ بأغلبية (٣٣) صوتاً مقابل (١٣)، وامتناع (١٠) عن التصويت، وذلك بعد الدور الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية لدى الدول المحتاجة إلى العون الأمريكي. وهذا ما اعترف به وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لوفيت Lovett بقوله: «أنه لم يتعرض في حياته قط لمثل هذا الضغط الذي تعرض له خلال الأيام الثلاثة[٣] فكيف كان وضع القدس طبقاً» لما جاء في الجزء الثالث من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة أعلاه؟

أوصى ذلك القرار بأن يكون لدى لمدينة القدس كيان منفصل (Corpus Serparatum) خاضع لنظام دولي خاص وتتولى الأمم المتحدة إداتها، ويعين مجلس وصاية ليقوم بأعمال السلطة الإدارية فيها نيابة عن الأمم المتحدة.

يشمل كيان القدس هذا بلدية القدس الحالية (١٩٤٧)، مضافاً إليها القرى المجاورة وأبعدها شرقاً أبو ديس، وأبعدها جنوباً بيت لحم، وأبعدها غرباً عين كارم، كما تشمل معها المنطقة المبينة من قرية قالونيا (انظر الخارطة ص١٤٤).

يتولى مجلس الوصاية وضع دستور للمدينة يبحث في كل ما له علاقة

---

(١) دروزة، ج٤/ ٩٦- ٩٧، والموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٥٥٨.
(٢) الموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٥٥٩- ٥٦٠.
(٣) الموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٥٦٠- ٥٦١.

بإدارتها، واستقلالها المحلي وتدابير الأمن، ونظام التشريع، والقضاء وحرية العبور والزيارة، والإقامة، وحريات وحقوق مواطنيها. وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وحمايتها، وحصتها (أي القدس) من عائدات الجمارك، وممتلكات الدولة، وتستثنى من وعد بلفور واللغتان الرسميتان فيها هي العربية والعبرية، ويعين حاكمها على أساس الكفاءة من قبل مجلس الوصاية على أن لا يكون من مواطني دولتي فلسطين (العربية، واليهودية) ويعاونه مجموعة من الموظفين الإداريين كموظفين دوليين يختارون من بين سكان المدينة ومن سائر أنحاء فلسطين، دون أي تمييز عنصري، وتجرد المدينة من السلاح، ويعلن حيادها ويحافظ عليه. ويكون أفراد البوليس فيها من خارج فلسطين.

يكون التشريع بيد مجلس تشريعي منتخب بالاقتراع السري العام على أساس التمثيل النسبي لسكان المدينة، ويتمتع حاكم القدس بحق النقض (الفيتو) (Veto) على مشاريع القوانين المتنافية مع الدستور، وتكون القدس مقراً لمجلس الاتحاد الاقتصادي، وعضواً فيه، ومقيدة بقراراته، والمعاهدات التي يعقدها. ولمواطني الدولتين (العربية، واليهودية) حق الدخول، والإقامة في منطقة القدس بشرط مراعاة الاعتبارات الأمنية، ويعتبر جميع المقيمين فيها مواطنين، إلا إذا اختاروا جنسية الدولة التي كانوا من رعاياها.

يبدأ تنفيذ دستور المدينة الذي يضعه مجلس الوصاية في ضوء المبادئ السابقة في موعد أقصاه ١/ تشرين أول ١٩٤٨، ويكون لمدة عشر سنوات، يعاد النظر بعدها فيه من قبل مجلس الوصاية، ويكون للمقيمين حرية الإعلان بطريقة الاستفتاء عن رغباتهم في التعديلات الممكن اجراؤها. وعلى الدول التي حصلت على امتيازات أثناء الحكم العثماني، سواء في القدس، أو في الدولتين العربية واليهودية التنازل عنها.

كان انتخاب المجلس التشريعي في القدس من أهم نقاط الخلاف بين العرب واليهود فقرر مجلس الوصاية، تقديم مشروع نظامه إلى الجمعية العامة في ٢١/

نيسان/ ١٩٤٨ بعد أن وافق مجلس الوصاية عليه في ١٠ آذار ١٩٤٨، وفي ٦/أيار/١٩٤٨. أوصت الجمعية العامة سلطة الانتداب تعيين رجل محايد يقبله العرب واليهود معاً كمفوض بلدي، ليقوم بتنفيذ المهمات التي تقوم بها الآن اللجان البلدية وذلك قبل ١٥/أيار/١٩٤٨، وتم تعيين هارولد ايفانز Harold Evans الأمريكي الجنسية، إلا أنه عاد إلى بلاده لعدم تعاون أحد معه، وفي ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ تم تعيين الكونت برنادوت وسيطاً دولياً فأعد تقريراً في ٢٧/ ٦/ ١٩٤٨ أوصى فيه بضم منطقة القدس إلى الدولة العربية، على أن تكون لليهود إدارة لا مركزية فيها[1].

الملاحظ أن قضية سيادة اليهود على القدس، لم تظهر في المناقشات اليهودية والدولية حتى عام ١٩٤٨. حيث أصبحت هذه المطالبة حقيقية بقوة السلاح الصهيوني في هذا العام. كذلك لم يقبل اليهود قبل ذلك بأي تصور أو تقرير تضعه اللجان الملكية لفلسطين يدعو إلى تدويل القدس. والحقيقة أن قرار الجمعية العامة لمشروع التقسيم وتدويل القدس، لم يغفل ظاهرياً الوجود العربي والديموغرافي، والاقتصادي والاجتماعي في المدينة المقدسة. خاصة إذا أخذنا عدد العرب واليهود في القدس خارج حدودها البلدية. لأن القدس في جغرافيتها وطوبوغرافيتها كانت المركز الاقتصادي والإداري لفلسطين الوسطى. وبهذه الصفة فهي تمتد عضوياً خارج حدود البلدية القديمة. استدلالاً بنسبة وجود العرب فيها ٧٠٪ وأملاكهم أكثر من ٨٠٪.

ونتيجة لهذه الأحداث اتجهت المواجهة نحو المعارك المتعددة، غرضها الفلسطيني تحرير كل فلسطين وإنهاء الانتداب. وغرض اليهود احتلال فلسطين وإقامة الوطن القومي لهم في فلسطين عامة والقدس خاصة عاصمة لدولتهم المحتلة.

(١) الموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٥٤٨.

المواجهة العربية الصهيونية

بعد أن أظهر البريطانيون والصهاينة أطماعهم في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. حدث خلال هذه الفترة عدة معارك في مدن فلسطين عامة. والقدس خاصة باعتبارها حسب زعم اليهود عاصمة ملكهم الصهيوني.

هذا فقد رؤي تقسيم المواجهة إلى مراحل ثلاث:

الأولى: تبدأ من ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ بقرار تقسيم فلسطين إلى ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ نهاية الانتداب البريطاني.

الثانية: تبدأ من ١٥/ ٥/ ١٩٤٨ إلى فترة الحرب العربية الإسرائيلية الأولى إلى ١١/ ٦/ ١٩٤٨.

الثالثة: الحرب العربية الإسرائيلية الثانية ٨-١٨/ تموز ١٩٤٨ إلى الهدنة الأردنية الإسرائيلية الأولى ٣٠/ ١١/ ٤٨ والهدنة الدائمة ٣/ ٤/ ١٩٤٩.

أولاً: المرحلة الأولى: تركزت الجهود العسكرية العربية واليهودية خلال هذه المرحلة حول السيطرة على الطرق التي تصل القدس بتل أبيب غرباً، ورام الله شمالاً، وبيت لحم الخليل جنوباً.

شاركت في هذا الميدان قوتان عربيتان هما:

١- قوات الجهاد المقدس، بإشراف الهيئة العربية العليا، وبقيادة عبد القادر الحسيني وكانت تتألف من المناضلين الفلسطينيين، ومن التحق بهم من العرب من خارج فلسطين، وكانت هذه القوات مسئولة عن الدفاع عن القطاع الأوسط من فلسطين: القدس، رام الله – باب الواد من مسئولية عبد القادر الحسيني. واللد – الرملة – يافا، مسئول عنها الشيخ حسن سلامة[1].

---

(١) الخطر الصهيوني، ص٢٥٣- ٢٥٧.

٢- قوات جيش الإنقاذ العربي وتتألف من المتطوعين العرب، بإشراف اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، وتألف من ثمانية أفواج.

٣- بقيادة الضابط السوري فوزي القاوقجي، وقد كلف فوج اليرموك الثالث منها بالعمل في قطاع القدس، وكان بقيادة الرئيس (النقيب) العراقي عبد الرحمن الراوي[١].

قامت قوات الجهاد بالمهام الموكولة لها، فاشتبكت مع القوات اليهودية المرافقة لقوافل التموين المتجهة إلى القدس وضواحيها من ناحية، ومع القوات اليهودية التي حاولت احتلال بعض القرى والممرات، والتلال العربية، كبيت سوريك، وباب الواد، والقسطل، من ناحية ثانية، ومع أن القوات اليهودية احتلت القسطل (٤- ٨) نيسان ١٩٤٨، إلا أنها فشلت هجماتها على النبي صموئيل، والشيخ جراح (في ٢٦/ ٤/ ١٩٤٨) شمال القدس[٢].

ارتكبت القوات اليهودية مجزرة بشعة في دير ياسين في ٩/ نيسان/ ١٩٤٨. ذهب ضحيتها ما بين (٢٥٠-٣٠٠) من سكانها نصفهم من النساء، والشيوخ والأطفال، باعتراف ممثل الصليب الأحمر الدولي. والهدف إثارة الرعب في نفوس السكان العرب لمغادرة قراهم وفقاً للخطة الصهيونية التي تريد الأرض بدون سكانها. وقد ثأر العرب لهذه المجزرة فهاجموا قافلة يهودية كانت متجهة يوم ١٤/ ٤/ ١٩٤٨ إلى جبل المكبر وقتلوا ما يقرب (٧٧) شخصاً من ركابها[٣].

وشنت قوات الجهاد المقدس عدة هجمات على مستعمرات كفار عصيون (Kfar Etzion) الواقعة بين بيت لحم والخليل وعلى قوافل تموينها في شهري (آذار – نيسان) ١٩٤٨ ولكن هذه المستعمرات لم تحتل إلا بمساعدة قوات الجيش الأردني

---

(١) الخطر الصهيوني، ص٢٥٥-٢٥٦.
(٢) الموسوعة الفلسطينية، ج١/ ٤٥٢، ٥٧٠- ٥٧٣.
(٣) الموسوعة الفلسطينية، ج٢/ ٤٣٢- ٤٣٥.

(قبل انسحابها من فلسطين) بين ١٢ و١٤/ ٥/ ١٩٤٨[1].

وقامت قوات الجهاد المقدس بأعمال نسف وتفجير في مدينة القدس الجديدة مثل كاتب جريدة البالستاين بوست (Palestine Post) اليهودية، وشارع بن يهودا (Ben Yehuda) في (١٠ و٢٢/ شباط ١٩٤٨). وجزءاً من مكاتب الوكالة اليهودية في ١٢.

وتحدث بن غوريون يوم ١٢/ ٥/ ١٩٤٨، أمام المجلس الوطني اليهودي، عن الوضع العسكري في فلسطين عامة والقدس خاصة فقال: «سيطرنا على القدس الجديدة والحي اليهودي في القدس القديمة داخل السور، وفشلت حتى الآن جميع محاولاتنا للسيطرة على طريق اللطرون القدس، وفقدنا مستوطنات كفار عصيون، والحالة في القدس (رغم أننا سيطرنا على القسم الأكبر منها) خطرة جداً ما دامت المواصلات إليها من الغرب والجنوب والشمال تحت سيطرة العرب[2].

ومع انتهاء الانتداب البريطاني وإنزال العلم عن المباني الحكومية، بعد ظهر يوم ١٤/ ٥ قامت القوات الصهيونية، وفقاً لخطة هجومية، محكمة بالسيطرة على تلك المباني، كمكتب البريد العام، وعمارة الجنايات العامة، وبنك باركليس، ومركز قيادة البوليس، وستوديوهات دار الإذاعة وجميع مراكز البوليس البريطاني في الحي اليهودي، وباب الخليل، ولكنها لم تنجح في فك الحصار الذي فرضه العرب على الحي اليهودي[3].

وفي اليوم نفسه الذي غادر فيه المندوب السامي البريطاني فلسطين، أي مساء يوم ١٤/ ٥ أعلن بن غوريون قيام دولة إسرائيل وصدر أول مرسوم للحكومة

---

(١) بويصر: ٣٤٤-٣٤٥.
(٢) الأحمد: ٤٥٤ (٢)، الأحمد، ٤٥١- ٤٥٢.
(٣) الأحمد: ٤٥١- ٤٥٢.

الإسرائيلية ألغي فيه الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩[١].

ثانياً: المرحلة الثانية: وتغطي الفترة ما بين ١٥/ ٥/ ١٩٤٨ وحتى نيسان ١٩٤٩ أي فترة الحرب العربية الإسرائيلية الأولى.

إن فكرة التدخل العسكري العربي على يد القوات النظامية العربية، في فلسطين طرحها العراق في اجتماعات اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في عالية (لبنان) في تشرين الأول ١٩٤٧، وأعاد طرحها مرة ثانية في اجتماعات اللجنة نفسها في القاهرة في كانون الأول ١٩٤٧، ورفضت في كلا الاجتماعين من قبل مصر، وسوريا، والسعودية ولبنان، والهيئة العربية العليا. واكتفت هذه الدول بالموافقة على قرار ينص على اتخاذ احتياطات عسكرية على حدود فلسطين. واعتبر رئيس العربية العليا أن الهدف منها هو إبعاد المجاهدين الفلسطينيين عن ميدان المعركة[٢].

ومع ذلك فقد وافقت اللجنة السياسية على هذه الفكرة في اجتماعها في دمشق في ١١/ ٥/ ١٩٤٨، موضحة في مذكرتها التي أذاعتها يوم ١٦/ ٥ أن الهدف من دخول الجيوش العربية لفلسطين هو: وضع حد للفوضى، وإعلان استقلالها. ومنحها حق تقرير المصير، وإنشاء دولة فلسطينية موحدة وفق المبادئ الديمقراطية[٣].

يعنينا من هذا التدخل العربي ما له علاقة بمدينة القدس التي كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة لكل من الملك عبد الله، وبن غوريون، بالنظر لموقعها الجغرافي، ولمكانتها الدينية لكل منهما، وكان بن غوريون يدرك معارضة الغرب المسيحي في وضعها تحت الهيمنة اليهودية بينما كان الملك عبد الله يدرك أهمية لقب حامي الأماكن المقدسة في القدس، ولذا عارض كل منهما بوضعها تحت الإشراف الدولي، وفضلا مشروع تقسيمها على تدويلها. واعتبر بن غوريون الجيش الأردني العدو الأول

(١) الأحمد: ٤٥٥- ٤٥٦.

(٢) الروسان: ٢٥٨- ٢٥٩.

(٣) الروسان: ٢٥٨- ٢٥٩.

وأصبحت القدس بؤرة حرب الاستقلال وجائزتها، يتضح ذلك من يومياته، ففي اجتماعه مع هيئة أركان حرب القوات الإسرائيلية يوم ٢٤/ ٥/ ١٩٤٨، أي بعد عشرة أيام على بدء الحرب العربية الإسرائيلية، كتب في يومياته يقول: «عليكم إعداد هجوم لسحق لبنان، وشرقي الأردن وسوريا، خطتنا هذا الأسبوع تحرير القدس، والمنطقة المحيطة بها، معركة القدس ذات أهمية خاصة من الوجهة السياسية والمعنوية، وإلى حد ما العسكرية، قواتنا الجوية يجب أن تقصف بل تدمر عمان[١].

الحرب العربية الإسرائيلية الأولى:

١٥/ ٥- ١١/ ٦/ ١٩٤٨ ١- (معركة القدس القديمة) والجديدة.

شنت القوات اليهودية هجوماً محكماً في قطاع القدس هدفه السيطرة على جميع المناطق العربية، والمختلطة في المدينة الجديدة، وإقامة قاعدة يهودية صلبة لمهاجمة المدينة القديمة. ولفك الحصار الذي فرضه المناضلون الفلسطينيون على الحي اليهودي في القدس القديمة، شن اليهود هجومين على (باب الخليل) يوم ١٦/ ٥/ ١٩٤٨. ولكن المدافعين العرب أفشلوا الهجومين، وكان أمام اليهود خيارين لمعالجة مشكلة الحي اليهودي وهما: إخراج المقاتلين منه، وإبقائه تحت علم الصليب الأحمر، ولكن قائد قطاع القدس شالتيل Shaltile رفض الخيارين وخطط للسيطرة على الحي، وجعله قاعدة لاحتلال كامل المدينة القديمة[٢].

لمواجهة هذه الهجمات استنجد المجاهدون العرب بالملك عبد الله، وأبرق أحمد حلمي للملك عبد الله قائلاً: «ما لم تنجدنا حالاً، فسوف تسقط القدس أخيراً بيد اليهود». تردد كلوب في إنجاد المناضلين، بحجة أن ادعاءاتهم بسقوط القدس مبالغ فيها. كما أنه لا يريد إدخال الجيش في حرب المدن، والشوارع، ولكنه تلقى في الساعة (١١.٣٠) صباح يوم ١٧/ ٥ برقية مقتضبة تقول: «صاحب الجلالة الملك،

---

(١) Shlaim, pp. 233- 236.

(٢) libd, P. 240.

يأمر بالتوجه إلى القدس من رام الله، وهدفه تهديد اليهود من أجل قبولهم هدنة القدس». وبعد نصف ساعة تلقى برقية أطول من وزير الدفاع تقول: «جلالة الملك قلق جداً، ويطلب بإصرار إرسال قوة من رام الله، مع مدفعية لمهاجمة اليهود سيخفف الضغط على العرب، ويجعل اليهود يميلون لقبول هدنة في القدس، وهذا ما عبر عنه قنصل بلجيكا (رئيس لجنة هدنة الأمم المتحدة في القدس) جلالة الملك ينتظر عملا سريعا أبرق بسرعة أن الطلب نفذ[١].

نفذ كلوب أوامر الملك، فقد أمر يوم ٨/ ٥ بتوجه مائة جندي (من جنود المشاة المرابطين في جبل الزيتون) بدخول المدينة القديمة، وفي اليوم نفسه شن اليهود هجوماً على الشيخ جراح، حيث قطعوا طريق الاتصال بين القدس ورام الله، فجاء الأمر الثاني بتوجه (٣٠٠) جندي إلى الشيخ جراح من رام الله، ومع فجر يوم ١٩/ ٥ كانت القنابل تتساقط على القوات اليهودية في الحي اليهودي، ودارت معركة شديدة في مدرسة الشرطة في الطرف الشمالي الشرقي من حي الشيخ جراح، فقد جرى قتال بالأيدي والسلاح الأبيض، ومن غرفة إلى أخرى، واستمرت حتى الساعة الثانية ظهراً، وكان الملك يتابع المعركة لحظة بلحظة من عمان[٢].

في يوم ١٩/ ٥ شنت القوات اليهودية هجوماً عبر الباب الجديد باتجاه الحي اليهودي في القدس القديمة، وكان حي الأرمن يفصل بين الحي اليهودي، والباب الجديد، طلب عبد الله التل قائد القوات الأردنية في القدس من المدافعين إخلاء الباب، وتركه دون حراسة، فأغرى ذلك المهاجمين اليهود، الذين اندفعوا إلى الباب، فوقعوا في مصيدة ولم ينج منهم أحد إلا من تمكن من الهرب. وتم تسليم جميع المقاتلين كأسرى حرب، وإعطاء العجزة والنساء والأطفال والجرحى حرية البقاء، أو الذهاب إلى القدس الجديدة، مع ضمان القوات الأردنية لسلامة اليهود الذين يرغبون

---

(١) الأحمد، ٤٨٣- ٤٨٤.

(٢) الأحمد، ٤٨٣- ٤٨٤.

في البقاء في الحي، على أن يوضع الحي بكامله تحت سيطرة القوات الأردنية[1]. بلغت خسائر اليهود (٣٠٠) قتيل، و(٨٠) جريحاً، جراح نصفهم خطيرة، كان من بين (١٣٠٠) من الشيوخ، والنساء والأطفال قد سمح لهم بالذهاب إلى القدس الجديدة، أما عدد الأسرى فكانوا (٣٤٠) مقاتلاً نقلوا إلى معسكر الأسرى في أم الجمال، شرقي المفرق. أما الخسائر العربية فكانت (١٤) شهيداً من الجيش الأردني و(١٠) شهداء من المناضلين بالإضافة إلى (٢٥) جريحاً من الجيش الأردني[2].

٢- معارك باب الواد (اللطرون):

نظراً لفشل الهجمات اليهودية في القدس القديمة، والحصار المحكم الذي فرضه الجيش الأردني على الحي اليهودي فيها منذ يوم ١٩/ ٥، تحولت أنظارهم إلى اللطرون التي تحكم موقعها بالطريق الذي يربط القدس الجديدة بتل أبيب. فالحصار الذي يمكن للعرب أن يفرضوه على القدس الجديدة يهدد المائة ألف يهودي الذين يعيشون فيها بالجوع والعطش. لهذا قرر بن غوريون فتح جبهة في اللطرون.

كان جيش الإنقاذ قد أخلى القرية يوم ١٥/ ٥ بدون أن يشعر الجيش العربي بذلك، وبقيت بدون احتلال مدة ثلاثة أيام عندما أمر كلوب باحتلالها من قبل الكتيبة الرابعة التي جاءت من نابلس، بعد وصول القوات العراقية إليها.

عين بن غوريون شلومو شامير Shlomo Shamir قائداً للقوات الإسرائيلية التي كلفت بمهاجمة واحتلال اللطرون. وكان القائد الأردني محمود الروسان يقظاً ومستعداً. شنت القوات الإسرائيلية ثلاثة هجمات ابتداء من يوم ٢٥/ ٥ على اللطرون فشلت جميعها وكبدتهم خسائر كبيرة قرابة (١٤٠) قتيلاً، وسيطرت على ساحة المعركة ، وعلى أثر فشل الإسرائيليين في التلغب على الجيش الأردني، وفتح الطريق إلى القدس. قام الإسرائيليون بمبادرة من الضابط الأمريكي (المتطوع في

(١) الأحمد، ٤٨٧- ٤٨٨.

(٢) عبيدات، ١٨٢- ١٨٣.

القوات الإسرائيلية مايكل ماركوس (Michel Marcus) بشق طريق يوم ٦/٦) غير ممهدة عرفت باسم طريق بورما، وذلك قبل دخول الهدنة الأولى حيز التنفيذ، وتحت إلحاح بن غوريون جرت محاولة رابعة يوم ٦/٩ لاحتلال اللطرون وحي الشيخ جراح لفك الحصار عن جبل المكبر ولكن الهجوم الإسرائيلي أحبط بشكل مزر[١].

وفي ٦/٧ أبلغ الوسيط الدولي الكونت برنادوت Count Bernadotte أطراف القتال بأن هدنة لوقف القتال سوف تبدأ اعتباراً من ٦/١١، كان الإسرائيليون هم المبادرون بقبولها، قد وصفها أحد قادتهم موشي كارميل Moshe Carmel بقطرة ندى قادمة من السماء «واضطرت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية إلى الموافقة عليها»[٢].

الحرب العربية الإسرائيلية ٨- ١٨تموز ١٩٤٨:

استغل اليهود الهدنة لتعزيز إمكاناتهم، خلافاً لشروط الهدنة، التي اشترطت عدم تحقيق أي مكاسب عسكرية مثل: احتلال أراض، أو جلب الإمدادات، من مقاتيلن وأسلحة. فقد حصلوا على كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة، بما في ذلك الدبابات والطائرات وبخاصة من الكتلة السوفيتية، وحدد بن غوريون إستراتيجية إسرائيل المرغوب فيها في اجتماع للقادة العسكريين يوم ٦/١٨ قائلا: «إذا استؤنف القتال، فواجبنا تجميد الجبهتين في الشمال والجنوب، وإعداد خطة، وقوة للإطاحة بالجيش الأردني الحرب من أجل القدس، وضواحيها هي حرب من أجل البلاد، إذا كسبناها كسبنا الحرب»[٣].

استؤنف القتال يوم ٧/٩، وأخذ جيش الدفاع الإسرائيلي المبادرة في الجبهة الوسطى طبقاً لعملية داني (Danny) ونفذها على مرحلتين: في مرحلتها الأولى احتل

---

(١) الروسان، معارك باب الواد، ص١١١- ١١٣، ١٤٨، عمان ١٩٥٠.

(٢) الأحمد، ٤٩٤.

(٣) الأحمد، ٥١٨.

اللد والرملة في (١٠-١٢/ ٧) أما في المرحلة الثانية فشن هجوماً على اللطرون محاولاً الالتفاف حولها ومهاجمتها من الشمال لقطع خطوط اتصال الجيش العربي مع رام الله. وقام الجيش الأردني بهجوم مضاد أفشل به الهجوم الإسرائيلي ولكن الهجوم استنفذ ما لدى الجيش الأردني من قذائف المدفعية. وكانت أوامر الملك تحظر على الجيش التراجع تحت أي ظروف فجاءت الهدنة الثانية لتنقذه من خطر التطويق. وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الجيش الأردني مشتبكاً في رد الهجوم الإسرائيلي في اللطرون. دعت القيادة الإسرائيلية إلى القيام بهجومين في وقت واحد. أحدهما ضد الشيخ جراح، والآخر لإقامة جسر داخل المدينة القديمة. وأعطيت الأولوية لهجوم الشيخ جراح. إلا أن القائد الإسرائيلي اختار الهجوم الثاني ورمزه خطة كاديما Kadema وقد فشل فشلاً تاماً وبقيت القدس القديمة تحت سيطرة الجيش الأردني خلال الهدنة الثانية[١].

في يوم ٧/١٥ أصدر مجلس الأمن قراراً دعا فيه إلى وقف إطلاق النار. وأمهل المتقاتلين مدة ثلاثة أيام . ولم تحدد الهدنة الثانية بفترة زمنية كالهدنة الأولى. ووافقت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في اجتماعها في عالية (لبنان) يوم ٧/١٨ عليها باستثناء سوريا والعراق لأسباب سياسية، كسبت إسرائيل خلال حرب العشرة أيام أكثر مما كسبته في الجولة الأولى وامتلكت زمام المبادرة. وإذا استثنينا سقوط اللد والرملة، فإن الجيش الأردني هو الوحيد من الجيوش العربية الذي احتفظ بالسيطرة على المدينة القديمة واللطرون ورام الله[٢].

وفي ١٩٤٨/١١/٣٠ وقع اتفاق لوقف إطلاق النار بين الأردن وإسرائيل، تحول في ١٩٤٩/٤/٣ إلى هدنة دائمة. وبموجبه قسمت القدس إلى قسمين: شرقي تحت السيادة الأردنية، ومساحته ٢٢٢٠دونم بنسبة ١١.٤٨٪ من المساحة الكلية

---

(١) محمود الروسان، ضياع اللد والرملة، ص١٦٦- ١٦٩.
(٢) Shlaim, P. 267.

للقدس وغربي تحت السيادة الإسرائيلية ومساحته ١٦.٢٦١ دونما، بنسبة ٨٤.١٢٪ من مساحة القدس الكلية. أما الباقي وهو ٨٥٠ دونماً بنسبة ٤.٣٩٪ فكان منطقة حرام، ومناطق الأمم المتحدة[1].

تهويد القدس بعد عام ٤٨ وبعد عام ١٩٦٧

بعد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والقدس الغربية عام ١٩٤٨، ومن ثم الاحتلال الثاني لبقية فلسطين والقدس الشرقية ١٩٦٧. عمدت الدولة المحتلة إلى تغيير شامل في البلاد الفلسطينية وطبعها بالطابع الصهيوني الاحتلالي، على مستوى الأرض والسكان ومخطط المدينة المقدسة، والتعليم والثقافة والقضاء والاقتصاد وكل مستويات الحياة لتغيير وجهها الإسلامي العربي.

يُقصد بعملية التهويد: مجموعة الإجراءات والأساليب والسياسات التي تتبعها إسرائيل في مجال السيطرة على القدس، وتحويل طابعها العربي، وطمس هويتها الثقافية العربية، وتغيير المعالم الأساسية في القدس في مجالات السكان والأرض، وكذلك المجالات العمرانية والاقتصادية وأخيراً عمليات الاستيطان اليهودي في القدس.

وتشمل الدراسة عملية تهويد القدس بشقيها الجزء الغربي المحتل سنة ١٩٤٨م، والجزء الشرقي المحتل سنة ١٩٦٧ لتشمل مدينة القدس وضواحيها كاملة.

ويُلاحَظ هنا بأن مخططات التهويد كانت في كثير من الحالات تسبق الإجراءات الواقعية، وفي بعض الأحيان تأتي لاحقة لها وفق انسجام واضح ودون تضارب، كما أن عمليات التهويد ظلت مستمرة على الرغم من تغير الحكومات الإسرائيلية لأن هذه المسألة تمثل إجماعاً لدى كل القوى السياسية، وتسير وفق إستراتيجية شاملة محددة الأهداف والوسائل، وتقوم على أسس عنصرية تعمل

---

(١) زعيتر، القضية، ٢٣٩- ٢٤٢، الموسوعة الفلسطينية، ج٤/ ٥٣٠- ٥٣٢.

لصالح اليهود على حساب سكان القدس من العرب، ومن خلال إدخال تغييرات جوهرية على التركيب الثقافي والحضاري في القدس.

المبررات والأسانيد الأساسية لعملية تهويد القدس: استخدمت الحركة الصهيونية منذ البداية مكانة القدس الدينية والسياسية والتاريخية، كأساس أيدولوجي وإقناعي لدعم المشروع الصهيوني في فلسطين، من خلال شحذ عواطف اليهود خاصة المتدينين منهم للهجرة إلى فلسطين[1]، باعتبار ذلك جزءاً من القيام بالواجب الديني، فاليهودي كما يقول بن غوريون لا تكتمل يهوديته إلا بالهجرة إلى أرض الميعاد[2].

وقد استندت هذه المزاعم على مبررات دينية تقول: بأن الله أعطى أرض كنعان إلى إبراهيم وخلفائه كمنحة إلهية لأنهم شعب الله المختار، واعتماداً على ذلك، آمن اليهود بأن من حقهم العودة إلى أرض الميعاد امتثالاً للأمر الإلهي. ولذلك يطلق اليهود على مفهوم الهجرة عالياه Aliyah وتعني الصعود للسماء من خلال العودة لأرض إسرائيل. وكذلك للاعتماد على مبررات تاريخية بالوجود التاريخي والديني في فلسطين قبل ثلاث آلاف سنة، وأحقيتهم المزعومة في استعادة القدس عاصمة لهم باعتبارها كانت العاصمة القديمة لمملكة داود وسليمان عليهما السلام، هذا إلى جانب كونها تضم المعبد اليهودي المقدس، ولذلك برروا لأنفسهم طرد سكان البلاد الأصليين باعتبارهم غرباء[3]، وإن سيطرة إسرائيل على القدس وتهويدها هي الوسيلة الفعالة لإعادة مجد الدولة اليهودية القديمة وتأكيد وحدة الأمة اليهودية والتفافها حول القدس باعتبارها تمثل الرمز لهذه الوحدة، ومحاولة إعادة بناء الهيكل

---

(١) ثيودور، يوميات هرتزل، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٨.

(٢) David Ben Gurion, Rebirth and Desting of Israel, Philosophical Libarary, New Yourk, 1954, p. 42.

(٣) روجيه جارودي، الأساطير المؤسسية للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٧، ص٦٧ – ٦٨.

باعتباره التجسيد لليهود باعتبارهم شعب الله المختار الذي عاد إلى «أرض الميعاد»، لإقامة دولته كما تطالب الحركة الصهيونية، وقد عبّر عن هذا الموقف موشي ديان عشية احتلال القدس سنة ٦٧ بقوله أمام حائط المبكي: «لقد أعدنا قدسنا الموحدة مدينتنا المقدسة ولن نغادرها أبداً»[١]. معتمداً في ذلك على ما جاء في كتبهم التوراة والتلمود.

وحول هذه المزاعم لا بد من بيان الأسانيد التي تردّ وتسقط هذه المزاعم منها:

أولاً: هناك شكوكاً عديدة في صحة ما جاء في التوراة، على أساس أنها لا تمت للنبي موسى بأية صلة، وأن الذي وضعها هو الكاهن اليهودي (عزرا بن سرايا) من سبط هارون في عهد الملك الفارسي ارتشحيا في عام ٤٥٨ قبل الميلاد، من أجل تعليم الشريعة اليهودية لليهود بعد أن أعادهم قورش الفارسي إلى فلسطين من العراق. لأن الملك البابلي (نبوخذ نصر) كان قد مزق التوراة الأصلية عندما سباهم، مما أدى إلى وجود شكوك كبيرة حول صحة ما جاء فيها. ويكفي أن نذكر في هذا المجال، ما قاله المفكر الفرنسي روجيه غارودي Roger Garaudy، الذي حوكم في باريس في مطلع عام ١٩٩٨، بسبب كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية Les Mythes Fondateurs De La Politique Israelienne) الذي منع من التداول في فرنسا، وشكك فيه بصحة الإدعاءات الإسرائيلية التي جاءت في التوراة حول الحق اليهودي الديني في فلسطين. وكتاب (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي Early History Of The Israelite People From The Written Archeologist Sour) (ces، لأستاذ عالم اللاهوت في جامعة كوبنهاجن، دكتور توماس طومبسون Thomas Thompson)، الذي أثار ضجة كبيرة عند صدوره لتشكيكه بالتوراة واعتمادها

---

(١) Meron Benvenisti, Jerusalem, The Torn City, University of Minnesota Press, 1976, p. 84.

أساساً لدراسة التاريخ، مما أفقده وظيفته كأستاذ لعلم الآثار في جامعة مليووكي الأمريكية.

كما أن علماء الآثار الإسرائيليين، لم يستطيعوا، منذ احتلال إسرائيال للقدس، أن يثبتوا ما جاء في التوراة من إدعاء بوجود (هيكل سليمان) في القدس، وبوجود صلة بين اليهود وبين المدينة المقدسة، ولا بالمسجد الأقصى الذي تزعم إسرائيل بناءه على أنقاض الهيكل. وكان آخر هؤلاء، عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل بلنكشتاين من جامعة تل أبيب، الذي شكك بوجود أي صلة لليهود بالقدس، مشيراً إلى أن هيكل سليمان المزعوم مجرد خرافة ولا وجود له. وأكد بلنكشتاين، على أن علماء الآثار اليهود لم يعثروا على أي شواهد تاريخية أو أثرية على أن هيكل سليمان كان موجوداً بالفعل، كما أن كتبة التوراة في القرن الثالث أضافوا قصصاً لم تحدث أصلاً.

ثانياً: قدسية القدس ثابتة قبل الوجود اليهودي فيها بسنوات طويلة، فقد كانت مهمة دينياً وسياسياً لدى الكنعانيين واليبوسيين العرب حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. أي قبل مرور النبي إبراهيم عليه السلام عليها، وقبل اعتبارها عاصمة داود عليه السلام فيما بعد وبناء هيكل سليمان عليه السلام فيها بآلاف السنين، وتؤكد التوراة على ذلك.

كذلك فإن داود اقتبس طريقة اليبوسيين في بناء (بيت الرب) على مرتفع ليضع فيه تابوت العهد، وجاء ابنه سليمان ليكمل بناء الهيكل فيما بعد. ولم تأت أهمية القدس بسبب أهميتها عند اليهود، بل هي مهمة قبل الوجود اليهودي، واستمرت كذلك عند المسيحيين والمسلمين العرب بعد طرد اليهود منها.

ثالثاً: تدخل أطماع إسرائيل والحركة الصهيونية بالقدس ضمن أطماعها التوسعية الشاملة في فلسطين والوطن العربي. ولا يمكن فصل قضية القدس ببعدها الديني الخاص عن بقية قضايا الصراع العربي – الإسرائيلي الأخرى.

رابعاً: الملاحظ في دراسة الكتب المقدسة اليهودية (التوراة والتلمود)، تكرار

ذكر (أرض كنعان) فلسطين (أورشليم) القدس فيها. وأول ذكر للمدينة في التوراة ارتبط بتعريف الملك اليبوسي العربي ملكي صادق على أساس أنه «ملك ساليم (القدس) وكاهن الإله العلي». وورد في التوراة علة أنه «أعظم من إبراهيم» وجاء في التوراة بعد ذلك أن الرب أعطى أرض كنعان لإبراهيم وذريته، عندما هم بذبح ابنه (إسماعيل عند المسلمين وإسحق حسب ما ورد في التوراة) «ظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات». وفي مكان آخر قال الرب مخاطباً إبراهيم «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا الآن جميع الأرض التي أنت ترى أعطيها لنسلك للأبد، وجعل نسلك كتراب الأرض».

وإذا وافقنا جدلاً على أن الرب قد خاطب إبراهيم وطلب منه أن ينظر حوله في جميع الاتجاهات، فليس من المنطق أن تكون قوة نظر إبراهيم قوية بحيث يستطيع أن يرى من مكان معين في فلسطين جميع أنحاء فلسطين بما فيها القدس. كما أنه ليس من المعقول أن يقوم الرب بإعطاء (أرض كنعان) وهي وطن الكنعانيين العرب، إلى شعب آخر وهم اليهود، أي أن يكون الوعد الرباني لليهود على حساب شعب آخر. إلى جانب أن إبراهيم لم يكن يهودياً، بل كما جاء في القران الكريم في سورة آل عمران، آية ٦٧: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وكذلك بالنسبة إلى ذريته من بعده، فليس هناك ما يؤكد من أنهم كلهم يهود، لأن الرب لم يحدد اليهود بأنفسهم لكي يعطيهم (أرض كنعان). بل على العكس من هذا. نجد أنه ورد في التوراة ما يؤكد على أن (أرض كنعان) لم يعطها الرب فقط لليهود. وجاء فيها «فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط بني إسرائيل ويكون أنكم تقتسمونها بالقرعة لكم وللغرباء المغتربين في وسطكم، الذين يلدون بنين في وسطكم فيكونون كالوطنيين من بني إسرائيل، يقاسمونكم في وسط أسباط بني إسرائيل. ويكون أنه في السبط الذي فيه يستغرب غريب هناك، تعطونه

ميراثه، يقول السيد الرب».

خامساً: إنه لا يوجد ما يؤكد وجود أية علاقة بين أحفاد يعقوب من اليهود وبين من دخل الديانة اليهودية من شعوب مختلفة من العالم، أمثال يهود الخزر الذين ينحدر منهم يهود أوروبا الشرقية. ويبقى السؤال هنا عما إذا كان الرب الذي يدعي اليهود أنه وعدهم بـ(أرض كنعان) هو نفسه إله المسلمين والمسيحيين وإله موسى. خاصة أن اليهود انتقدوا سليمان لأنه فضل عبادة الإله بعل إله اليبوسيين على عبادة إله اليهود، ووصفوا سليمان بأنه مال للمجون وتزوج ألف امرأة.

كما أن الرب عندما غضب من اليهود، نقض وعده لهم بسبب ممارساتهم، وقال مخاطباً اليهود الذين تخلى عنهم «من أجل أن ملك يهوذا أساء أكثر من جميع الذين عمله الأموريون الذين قبله، هاأنذا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا وأمسح أورشليم كما يمسح واحداً الصحن ويقلبه على وجهه، وأرفض بقية ميراثي وأدفعهم إلى أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبا. أني انزع يهوذا من أمامي كما نزعت إسرائيل، وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم الذي قلت يكون اسمي فيه».

وحسب ما جاء في التوراة، فقد وعد الرب بنقل العاصمة الدينية لليهود من أورشليم إلى شكيم إذا حافظ ملكها رحبعام وجماعته على وصايا الرب لموسى.

سادساً: يعتقد أنه من دون القدس لا يوجد كتاب مقدس (توراة) ولا يهودية، يربطون تدميرها بانتقام الرب من ملوكهم، ويتذكرونها من أجل تذكر ما حصل لكي يكون من الممكن أن يتوبوا ويكفروا عن غضب الرب عليهم.

ومن جهة ثانية فقد اهتم الكتاب المقدس الآخر عند اليهود وهو التلمود بالقدس أكثر من اهتمام التوراة التي ركزت على أهمية فلسطين المقدسة ككل وليس القدس فقط لليهود. وجاء في التلمود «سبحي يا أورشليم سبح إلهك يا صهيون». كما جاء في مكان آخر «من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى

يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد».

ويصل قمة ارتباط التلمود بالقدس في المزمور السابع والثلاثين. إذ يتغنى شاعر يهودي بالقدس بعد سبي اليهود إلى بابل ويقول: «على أنهار بابل جلسنا بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا لأنه هناك سألنا الذين سبونا أن نغني لهم ترنيمة. وسألنا معذبونا فرحين قائلين رنموا لنا ترنيمة من ترنيمات صهيون. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ فلتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم، ليلتصق لساني بحلقي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي».

سابعاً: ربط اليهود قدسية القدس ليس لأنها كانت عاصمة لمكلة داود وسليمان (السياسية) بل لكونها مهمة دينياً بسبب وجود تابوت العهد الذي يحتوي حسب اعتقادهم. على الوصايا العشر الإلهية لموسى. والتي بنى سليمان هيكله فوقها في جبل موريا في القدس. وكذلك لاعتقادهم أن الله أورثهم إياها بصفتهم أحفاد إبراهيم وإسحق ويعقوب. وأن القدس بالنسبة إليهم هي حارسة تابوت العهد الحاوي على الوصايا الإلهية. وفيها الهيكل المقدس، ليكون المكان الوحيد الذي يستطيع اليهود فيه أن يعبدوا الله وأن يقدموا القرابين. أي أن البعد الديني كما هو ملاحظ من متابعة ما جاء في التوراة والتلمود، هو الذي أعطى أهمية خاصة للقدس عند اليهود، وليس لكونها كانت عاصمة سياسية لليهود في فترة من الفترات. بعكس ما سعت إليه الحركة الصهيونية عندما ربطت البعدين الديني والسياسي مع بعضهما البعض لتحقيق أهدافها.

ثامناً: جاء اهتمام وتركيز زعماء الحركة الصهيونية بمدينة القدس منذ منتصف القرن التاسع عشر من أجل استغلال الشعور الديني لدى اليهود في أوروبا، لكسب تأييدهم للمشروع الصهيوني الرامي إلى إقامة وطن يهودي في فلسطين. ومع أن بعض زعماء الحركة الصهيونية أمثال تيودور هرتزل كان علمانياً، إلا أنه كان يرى بأنه لا

أهمية للدولة اليهودية من دون القدس، لما تمثله من بعد ديني وتاريخي لليهود. ولتوضيح أهمية القدس في الفكر الصهيوني سوف نحلل بإيجاز مواقف زعماء ومفكري الحركة الصهيونية الذين كانت لهم علاقة بالقدس.

من أوائل من اهتم بالقدس والاستيطان فيها موسى مونتيفوري. الذي يعتبر أحد زعماء الحركة الصهيونية الذين قاموا بشراء الأراضي بالقرب من القدس، على الرغم من معارضة الدولة العثمانية بيع الأراضي لليهود في منتصف القرن الماضي. ونجح مونتيفوري في الحصول من السلطان عبد المجيد عام ١٨٤٩ على موافقة شراء أراضي بالقرب من أسوار مدينة القدس. وعلى الرغم من أن الهدف كان بناء مستشفى، إلا أن مونتيفوري قام ببناء حي سكني لليهود، واعتبر هذا الحي الذي ما زال موجوداً للآن، أول حي يهودي في المدينة المقدسة.

وجاء بعده حاخام يهودي من بولندا يدعى زفي هيرش كاليشر (Zvi Hirch Kalischer) الذي شجع اليهود على الهجرة إلى فلسطين وتطهير أنفسهم في القدس من أجل الحصول على رضى الله، وعلى موقع قدم بالقرب من هيكل سليمان المدمر منذ مئات السنين. وكتب رسالة إلى عائلة روتشيلد تحدث فيها عن أهمية قيام دولة يهودية وعن العلاقة بين اليهود والأراضي المقدسة، وقال: «إن بداية الخلاص سوف تأتي عن طريق أسباب طبيعية نتيجة للجهد الإنساني وعن طريق إدارة الحكومات لجمع شمل إسرائيل المبعثرة في الأراضي المقدسة».

وركز في كتابه (البحث عن صهيون. Derishat Zion Seeking Zion) الذي كتبه في عام ١٨٦٢ على البعد الديني في تجميع اليهود في فلسطين والقدس، وقال «عندما يتطوع يهود كثيرون للذهاب إلى أرض إسرائيل والسكن في القدس ويسكنون هناك وتتزايد صلواتهم على جبال القدس، عندها يسمع الله ويسرع في يوم خلاصهم».

ومن الصهاينة الذين ربطوا بين القدس والعقيدة اليهودية، المفكر الصهيوني

هو موسى هس (Moses Hoss) الذي كان له دور مهم في ربط المشكلة اليهودية في أوروبا مع إقامة وطن لليهود في فلسطين. ودعا في كتابه (روما والقدس، Rome and Jerusalem) الذي كتبه في عام ١٨٦٢، إلى حل مشكلة اليهود في أوروبا عن طريق بعث القومية اليهودية وهجرة اليهود وتوطينهم في القدس. ودعا إلى قومية يهودية في كتابه «تحرر القدس» تكون من أجل انبعاث عصر الانبعاث اليهودي الجديد، على غرار تحرير روما في التاريخ القديم. وعندما يتم ذلك، كما يقول، فسوف تتفوق القدس على روما في النفوذ والعظمة. ووصف شعوره نحو القدس بقوله:

«لقد تبين لي أن العاطفة التي ظننت بأني قد أخفيتها عادت إلى الحياة من جديد، إنها التفكير في وطنيتي التي تربط بتراث أسلافي وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة».

وكان هس يخطط لأن تكون القدس عاصمة لإسرائيل وقال عن ذلك «إن المدينة الخالدة (القدس) ستكون مركز الإشعاع الحضاري بالنسبة للعالم، حيث ستدور في فلكها جميع المدن الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها».

كما اهتم كل من المفكرين الصهاينة موشيه لايب ليلينبلوم (Moshe Leib Lilienblum) واليعازر بن يهودا (Eliezer Ben Yahudah) بالقدس، ودعا كلاهما إلى ضرورة هجرة اليهود إلى القدس كحل ضروري للمسألة اليهودية في أوروبا. وبعد أن استقر في القدس اهتم باللغة اليهودية وتطويرها.

إلا أن مؤسس الحركة الصهيونية. تيودور هرتزل (Theodor Herzel)، فقد دعا إلى إقامة القدس اليهودية خارج الأسوار. ولم يحدد بذلك القدس القديمة، حيث يعتقد اليهود وجود هيكل سليمان فيها. وهو بذلك كان من أوائل الصهاينة الذين لم يربطوا القدس التي يريدونه بالقدس التوراتية. وقال في مذكراته «فقط خارج أسوارها سوف تقوم المدينة الجديدة، القدس الجديدة، تسيطر عليها وتحميها عظمة الأسوار القديمة». وهذا يدل على أن هرتزل العلماني، كان يتصور ولادة قدس جديدة

لها أهمية سياسية غير مرتبطة بالتاريخ أو الوجود الديني اليهودي في القدس، كما هو عند حاخامات ومفكري الحركة الصهيونية الآخرين. ولكن هرتزل يعترف بأنه «إذا قدر لنا يوماً أن نملك القدس وأنا على قيد الحياة وكنت قادراً على أن أفعل أي شيء فسوف أدمر كل ما هو غير مقدس عند اليهود فيها».

تاسعاً: ويلاحظ في هذا المجال أن جميع هذه المبررات تقوم على إنكار وجود الشعب الفلسطيني وأحقيته في أرضه بما فيها القدس، وتقوم على تجاهل الارتباط التاريخي والديني للقدس بالحضارة العربية بدءاً من الكنعانيين الذين بنوا القدس وأسسوها قبل الوجود اليهودي فيها، إلى الحضارة العربية الإسلامية التي حكمت القدس حوالي ١٤ قرناً منذ فتحها على يد عمر بن الخطاب، فكيف يمكن للمهاجرين اليهود الغرباء من شتى بقاع العالم، والذين ليسوا بالضرورة من أحفاد العبرانيين القدامى، كما تدل على ذلك الوقائع التاريخية المعروفة الادعاء بملكيّة القدس وفلسطين؟ وتجاهل سكانها الأصليين وحقوقهم التاريخية والدينية في هذه الأرض.

وبالإضافة إلى هذه الأسانيد الدينية والتاريخية التي استخدمتها إسرائيل لتبرير عمليات التهويد في القدس، لجأت باستمرار إلى استخدام حجة توحيد المدينة وتسهيل عملية الانتقال والوصول إلى الأماكن المقدسة كذريعة للسيطرة الإسرائيلية على القدس الشرقية، كما تستخدم إسرائيل المبررات الاقتصادية والديموغرافية لتبرير التوسع الإسرائيلي على حساب القدس والمناطق المجاورة لها، لاستغلال موارد المياه والتوسع الاستيطاني لحل مشاكل التركز السكاني اليهودي في الجزء الغربي من القدس.

وأخيراً جاء استخدام العامل الأمني والرغبة في تحصين القدس من أية هجمات عربية محتملة، من خلال خلق سور من المستوطنات المحصنة حولها في المناطق الإستراتيجية، وعزل القدس عن بقية مناطق الضفة الغربية التي يمكن أن

تكون مجالاً للمفاوضات العربية الإسرائيلية وإمكانية قيام نوع من السيادة الفلسطينية في هذه المناطق[١].

إجراءات التهويد: اعتمدت إسرائيل مجموعة من الإجراءات في كل المجالات. لغرض طمس الهوية العربية الإسلامية لفلسطين عامة والقدس خاصة. ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. امتداداً إلى الاحتلال الأول ١٩٤٨. والثاني سنة ١٩٦٧. وهذه الإجراءات مستمرة حتى الآن. منها في مجال التشريع والقانون. وفي المجال السياسي الداخلي والخارجي. والثقافي والفكري والاقتصادي وعلى الأرض والسكان خاصة.

تهويد القدس (١٩٤٨) وبعد عام (١٩٦٧): بدأت سياسة الاستيطان اليهودي في فلسطين والقدس خاصة مبكرة، يعود أولها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على أساس محاصرتها. وذلك من خلال إقامة أحياء جديدة خارج أسوراها، لإسكان المهاجرين اليهود فيها. وبدأ العمل بإقامة أول هذه الأحياء عام ١٨٥٨ إلى الغرب من بوابة يافا، ويعتبر هذا الحي بمثابة حجر الأساس للحصار الاستيطاني الذي أخذ بالامتداد لإحكام الطوق حول مدينة القدس. ومثلت هذه الفترة ما بين ١٨٥٨ وحتى عام ١٩١٧ المرحلة الأولى من هذه السياسة الاستيطانية، فقد وصلت حدود البناء إلى مدخل روميما (Romemah) على طريق يافا غربا، وحي بوخارين والشيخ جراح شمالاً، وكان البناء أقل في الجهتين الشرقية والجنوبية لأسباب طبغرافية بالدرجة الأولى. ولقد أقيمت تلك الأحياء على أراضي استطاعت المؤسسات والجمعيات اليهودية، والصهيونية شراءها عن طريق التحايل على القانون الذي يمنع ذلك.

انتهت المرحلة الأولى من المخططات الصهيونية لمحاصرة مدينة القدس،

---

(١) نظام بركات: الاستيطان والصراع العربي الإسرائيلي، مجلة العلوم الاجتماعية، عدد١، مجلد٢٣/ ربيع/ ١٩٩٥.

بدخول القوات البريطانية يوم ١١/ ١٢/ ١٩١٧، بعد أن هيأت قاعدة متينة للمرحلة الثانية، من سياسة حصار المدينة، وصهينتها، وهي فترة الاحتلال – الانتداب البريطاني ١٩١٧- ١٩٤٨ ويشكك عبد اللطيف الطيباوي بكثرة عدد السكان اليهود في القدس قبل الاحتلال البريطاني وينسبها إلى مبالغة القناصل الإنجليز، وتخمين الرحالة. ففي عام ١٩٣٩ قدر عددهم بـ(٥) آلاف، في حين قدر عددهم عام ١٨٧٤ بـ(٣) آلاف، بينما قدر عددهم عام ١٩١٠ بـ(٥٥) ألفاً، وهذا ما يعادل عدد اليهود في جميع أنحاء فلسطين عام ١٩١٨، كما أشار إلى ذلك هربرت صموئيل عام ١٩٢٢. ولذا فلا صحة إطلاقاً للمقولة الصهيونية بأن اليهود في القدس، كانوا يمثلون أغلبية السكان إذا ما علمنا أن عدداً كبيراً منهم كانوا يحملون جنسيات أجنبية، ولديهم إقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر فهؤلاء ليسوا مواطنين عثمانيين.

بادر الجنرال اللنبي بالعمل على تمكين اليهود من السيطرة على فلسطين وبخاصة القدس، فقبل من أن يتمكن من دحر القوات التركية الألمانية. استدعى مهندس مدينة الإسكندرية ماكلين (Maclean) وطلب منه وضع الخطة الهيكلية الأولى للمدينة، والمقاييس والقيود المتعلقة بالبناء والتطوير فيها. فوضع أول مخطط هيكلي لها عام ١٩١٨، والذي أصبح بمثابة أساس المخططات التي تلته، وبناء على هذا المخطط قسمت القدس إلى أربع مناطق هي:

١- البلدة القديمة وأسوارها ٢- المناطق المحيطة بالبلدة القديمة

٣- القدس الشرقية (العربية) ٤- القدس الغربية (اليهودية)

ونصت الخطة على منع البناء منعاً باتاً في المناطق المحيطة بالبلدة القديمة (Prohibittied Building Area). ووضعت قيود على البناء في القدس الشرقية العربية (Restrictied Building Area).

أما القدس الغربية (اليهودية) فاعتبرت منطقة تطوير (Development

Area) بمعنى أن البناء فيها مفتوح بدون أية قيود. عززت هذه السياسة الوجود اليهودي في القدس، وأحكمت تطويقها. كي تمنع أي توسع عربي محتمل فيها. وجرت محاولات للسيطرة على الحكم البلدي فيه كخطوة لاحتلال المدينة بكاملها. تمهيداً لتحويلها عاصمة للدولة اليهودية المنتظرة. وساعد على ذلك ارتفاع تيار الهجرة اليهودية إلى فلسطين وبخاصة في النصف الأول من عقد الثلاثينات. إثر تولي النازيين الحكم في ألمانيا. فقد ارتفع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين من ١٨٠٦ مهاجر عام ١٩١٩، إلى ٦٦.٤٢٢ عام ١٩٣٥، بمعنى أن عددهم تضاعف ما يقرب من (٣٧) مرة خلال تلك الفترة وبلغ عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٧، ١.٥٤٨.٢٥٥، منهم مسلمون عرب ١.٠٧٦.٧٨٣، ومسيحيون ١٤٥.٠٦٣، ويهود ٦٠٨.٤٨١، وآخرون ١٥٤٨١. فعدد اليهود تزايد من ٥٥ ألف نسمة سنة ١٩١٨ إلى ٦١٨٤٨١ سنة ١٩٤٧.

استمرت خطة إقامة الأحياء الجديدة في القدس لإسكان المهاجرين اليهود الجدد. ففي الفترة ما بين ١٩٢١، وحتى عام ١٩٤٨ بلغ مجموع الأحياء الجديدة ستة عشر حياً، ثلاثة عشر حيا منها أقيمت في عقد العشرينات، وإثنان منها في عقد الثلاثينات، وواحد منها في عقد الأربعينات. وقد ساهمت هذه الأحياء في سد الثغرات بين الأحياء الأولى وزادت كثافة الحصار حول المدينة فشكلت مع مرور الوقت شبه حلقة متصلة مع بعضها بعضا.

أصر رونالد ستورز حاكم مدينة القدس على أن تكون الواجهة الأمامية للمباني الجديدة في المدينة، عامة أو خاصة، من حجر القدس، مما أعطى المدينة طابعها الخاص. وفي أعوام الثلاثينات والأربعينات سمح بأن تكون الواجهة الأمامية من الإسمنت؛ بالنظر لارتفاع سعر الحجر. كما أقيمت أحياء بعيدة عن مركز المدينة كقلندية، والنبي يعقوب شمال المدينة، وأخرى جنوبها.

وإلى جانب الاستيطان في القدس، فتح الصهيونيون بدعم من السلطات

البريطانية جبهة جديدة، وهي السيطرة على المجلس البلدي في مدينة القدس. ومع أن البلديات في فلسطين ظلت تؤدي أعمالها وفقاً لقانون البلديات العثماني حتى عام ١٩٣٤ فقد كان المجلس يعين على أساس طائفي، بمعدل إثنين من المسلمين أحدهما رئيس للبلدية، وإثنان من اليهود أحدهما نائب للرئيس وإثنان من المسيحيين. وفي عام ١٩٢٤ عين مجلس بلدي على أساس ثلاثة أعضاء عن كل من الطوائف الثلاثة. ثم جرى في العام نفسه انتخاب المجلس البلدي لأول مرة بمعدل أربعة أعضاء عن كل طائفة. وظل الرئيس مسلماً ونائبه يهودياً. وفي عام ١٩٣٤ وضع قانون جديد قسمت المدينة بموجبه إلى اثنتي عشرة دائرة انتخابية ستة دوائر يهودية وستة دوائر عربية ينتخب كل منها ممثلاً واحداً، وبهذا ارتفع التمثيل اليهودي في المجلس البلدي من الثلث إلى النصف، وانتخب حسين فخري الخالدي رئيساً للمجلس. وشكل اليهود مجلساً للجالية اليهودية يمثل الطائفتين الاشكنازية، والسفاردية، وكان يعنى بقضايا الجالية اليهودية، وهو بمثابة بلدية ظل.

والشخصيات التي تولت رئاسة المجلس البلدي خلال هذه الفترة هي: حسن سليم الحسيني وموسى كاظم الحسيني، وراغب النشاشيبي وجميعهم عينوا من السلطة، وحسين فخري الخالدي منتخب، ولما اعتقل عام ١٩٣٧ عينت الحكومة نائبه دانيل أوستر Daniel Uster رئيساً للمجلس بالوكالة، وفي العام التالي عينت الحكومة مصطفى الخالدي رئيساً، ولما توفي في تشرين ثاني ١٩٤٥ عينت دانيال أوستر رئيساً، وهو أول يهودي يتولى هذا المنصب فاستقال الممثلون العرب من المجلس البلدي، وعينت الحكومة في ١١/ تموز/ ١٩٤٦، لجنة حكومية رئيسها وجميع أعضائها من الإنكليز، وقدرت ميزانية البلدية لعام ٤٧/ ١٩٤٨ بـ(٧٥٠) ألف جنيه فلسطيني.

هذا فقد أثرت السياسات الاستيطانية على تغير نسبة اليهود في فلسطين. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الجدول التالي للفترة ما بين ١٩٢٢- ١٩٤٦:

السنة	يهود	نسبتهم المئوية٪	مسلمون	نسبتهم المئوية٪	مسيحيون	نسبتهم المئوية٪	آخرون	نسبتهم المئوية٪	المجموع الكلي
١٩٢٢	٣٣.٩٧١	٥٤.٣	١٣.٤١٣	٢١.٤	١٤٦٩٩	٢٣.٥	٤٩٥	٠.٨	٦٢.٨٧٥
١٩٣١	٥١.٢٢٢	٥٦.٦	١٩٨٩٤	٢٢	١٩٣٣٥	٢١.٤	٥٢	٠٠	٩٠٥٠٣
١٩٤٤	٩٧٠٠٠	٦١.٧	٣٠٦٣٠	١٩.٥	٢٩٣٥٠	١٨.٧	١٠٠	٠.١	١٥٧٠٨٠
١٩٤٦	٩٩٣٢٠	٦٠.٤	٣٣٦٨٠	٢٠.٤	٣١٣٣٠	١٩.١	١١٠	٠.١	١٦٤٤٤٠
١٩٤٨	١٠٠.٠٠	٦٠.٦	٤٠.٠٠٠	٢٤.٢	٢٥.٠٠٠	١٥.١	–	–	١٦٥.٠٠٠

يتضح لنا من هذا الجدول زيادة عدد سكان القدس من ٦٢٥٧٨ عام ١٩٢٢، إلى ١٦٥.٠٠٠ عام ١٩٤٨ بمعنى أنهم تضاعفوا بمعدل يزيد على مرتين ونصف، وفي حين تضاعف عدد اليهود بمعدل يقترب من ثلاث مرات، فإن عدد المسلمين تزايد بمعدل مرتين ونصف، أما بالنسبة للمسيحيين فقد تزايدو بمعدل مرتين في الوقت الذي تناقص فيه عدد الفئات الأخرى.

كما نلاحظ فإن نسبة اليهود إلى مجموع السكان قد تزايدت من ٥٤.٣٪ إلى ٦٠.٤٪، في حين تزايدت نسبة المسلمين من ٢١.٤٪ إلى ٢٤.٢٪ أما المسيحيون فقد تناقصت نسبتهم إلى السكان من ٢٣.٥٪ عام ١٩٢٢ إلى ١٥.١٪ عام ١٩٤٨. وحتى إذا اعتبرنا أن جميع المسيحيين عرباً (وهم ليسوا كذلك) فإن اليهود كانوا يشكلون أغلبية سكان القدس. وهذا يؤكد ما أشرنا له سابقاً حول سياسة الاستيطان اليهودي الصهيوني الرامية إلى حصار المدينة وتشكيل أكثرية سكانها.

فالأكثرية اليهودية في مدينة القدس جاءت بسبب الأحياء الجديدة التي بناها اليهود الصهيونيون في ضواحي القدس، لإسكان المهاجرين فعدد سكان البلدة القديمة ٧٤.٨٠٠، منهم ٦٣.٦٠٠ من العرب يشكلون ٨٥٪ من السكان، أما عدد اليهود فكان ١١.٢٠٠ يشكلون نسبة ١٥٪، أما في القدس الجديدة فكان عدد اليهود ٨٨ ألفا، في حين أن عدد العرب فيها يشكلون ١٥٠٠ وبهذا فإن نسبة اليهود في القدس الجديدة تبلغ ٦٠٪ أما مساحة مدينة القدس فقدرت في أيار ١٩٤٨ بـ

٢١.١كم٢، منها ٢٠كم٢ للقدس الجديدة.

زاد اهتمام إسرائيل بالقدس بعد قيامها سنة ١٩٤٨، وكان قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١، في عام ١٩٤٧، والقاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، قد أعطى القدس وضعاً خاصاً (كياناً منفصلاً Corpus Separatum) بحيث تكون تحت السيادة الدولية. إلا أن إسرائيل سرعان ما قامت بتوسيع مساحة الأراضي المخصصة لها حسب قرار التقسيم واحتلت الجزء الغربي من القدس مع بعض القرى العربية، بما يتعارض مع قرار تدويل المدينة.

وفي ٣ أبريل ١٩٤٩م/ ١٣٦٩هـ قسمت هيئة الأمم المتحدة مدينة القدس الموحدة إلى ثلاثة أقسام:

١- القدس العربيّة وهي القدس القديمة ومساحتها (٥٥٥) فداناً أي ما نسبته في حدود (١١.٤٨) بالمائة من مساحة القدس الموحدة وقتذاك.

٢- القطاع اليهوديّ من القدس ومساحته (٤٠٦٥) فداناً أي ما نسبته في حدود (٨٤.١٣) بالمائة من مساحة القدس الموحدة آنذاك.

٣- القطاع الدوليّ والأراضي الحرام أي أنها لا للعرب ولا لليهود، مساحتها (٢١٤) فداناً أو ما يعادل ما نسبته في حدود (٤.٣٩) بالمائة من القدس الموحدة. وتشتمل هذه ا لمنطقة على مقر المندوب الساميّ البريطانيّ، وهذا المقر موجود على جبل مطل هو جبل المكبر، وبعد رحيل المندوب الساميّ على فلسطين أصبح هذا المكان مقراً لهيئة الرقابة الدوليّة المشرفة على خط الهدنة الموقعة بين المملكة الأردنية الهاشمية وإسرائيل في ٣ أبريل ١٩٤٩م/ ١٣٦٨هـ، بالإضافة إلى منطقة هداسا والجامعة العبريّة وجبل سكوبس ومنطقة فاصلة بين القطاعين العربيّ واليهوديّ. وكانت بوابة مندلبوم بين القطاعين العربيّ واليهوديّ.

وتقع الأماكن المقدسة الإسلاميّة والنصرانيّة في القدس القديمة، ففيها الحرم القدسيّ الشريف وعدد كبير من المساجد الإسلاميّة والأوقاف الإسلاميّة والحارات القديمة والمكتبات القديمة والمساكن القديمة المتوارثة وغيرها من المعالم ذات الطابع الدينيّ والأثريّ. وتقع الأماكن النصرانيّة المقدسة في القدس القديمة أيضاً وتأتي كنيسة القيامة على رأسها.

واعترف زعماء إسرائيل بأن الدولة اليهودية لن تكتمل من دون أن تكون القدس عاصمة لها. وقال حاييم وايزمان، أول رئيس لإسرائيل في عام ١٩٤٨، بأن «للقدس مكانة خاصة في قلب كل يهودي وهي رمز خلاص لإسرائيل. إنها مدينة الله منذ القدم عاصمة مملكة داود وسليمان، وعاصمتنا التاريخية. والآن بعد أن قامت دولة إسرائيل أليس من الأمور المؤسفة أن القدس خارجة عن دولة إسرائيل. لم يكن في وسع اليهود خلال آلاف السنين الماضية أن ينسوا القدس فكيف ينسونها الآن. ولا يمكن لأحد أن يصدق أو يعترف أنه في الوقت الذي يعيد اليهود فيه بناء دولتهم، يقتطع منها القلب النابض العاصمة التاريخية».

ويلاحظ أن وجهة نظر وايزمان من القدس أشمل من وجهة نظر هرتزل الذي أرادها أن تكون خارج الأسوار بينما أرادها وايزمان داخل الأسوار. أي أنه ربطها بالماضي وبملوك إسرائيل. ولكنه أرادها أن تكون عاصمة سياسية لإسرائيل بعد أشهر من قيامها عام ١٩٤٨. وهذا يفسر الإصرار الواضح من قبل الإسرائيليين للإستيلاء على القدس. على الرغم من تعارض ذلك مع قرار التقسيم. وهذا «القلب النابض والعاصمة التاريخية» كما يريدها وايزمان، هو نفس الموقف الذي سارت عليه الحكومات الإسرائيلية منذ خمسين عاماً.

وبدأ بن غوريون أول رئيس وزاء لإسرائيل بتنفيذ سياسة احتلال القدس وتهويدها وضمها لإسرائيل. ورد على الاحتجاجات الدولية الرافضة للسياسة الإسرائيلية في القدس بقوله: «إن إسرائيل لن تتخلى عن القدس باختيارها. إن

القدس عضو حيوي وجزء لا يتجزأ ولا ينفصل من الدولة. وإن اليهود سيضحون بأنفسهم من أجلها ولا معنى لإسرائيل بدون القدس ولا معنى للقدس بدون الهيكل».

وقال مخاطباً أعضاء الكنيست الإسرائيلي بعد عام واحد من قيام إسرائيل «منذ تشكيل الحكومة المؤقتة وضعنا العناية بسلامة وأمن وتعزيز القدس اقتصادياً في أعلى سلم اهتمامنا وفي خضم الحرب عندما كانت القدس محاصرة كنا مضطرين لتحديد مقر الحكومة مؤقتا في الكريا. بجوار تل أبيب. ولكن لدولة إسرائيل كانت وستكون عاصمة واحدة فقط هي القدس الخالدة. هكذا كان الأمر قبل ثلاثة آلاف عام وهكذا سيكون، كما نؤمن حتى نهاية كل الأجيال».

إجراءات تهويد القدس (١٩٤٨): سياسياً بعد استيلاء إسرائيل على الجزء الغربي من مدينة القدس سنة ١٩٤٨، اتخذ الكنيست الإسرائيلي سنة ١٩٤٩ قراراً بأن القدس ستظل العاصمة التاريخية والأبدية لإسرائيل ولم تعترف الأمم المتحدة بذلك باعتباره مخالفاً لقرار التقسيم وشروط قبول إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة[١].

ومنذ سنة ١٩٥٠ بدأت الحكومة الإسرائيلية بتطبيق هذا الإعلان من خلال العمل على نقل الحكومة الإسرائيلية ومقر الكنيست وبعض الإدارات الحكومية[٢]، وفي سنة ١٩٥٢ أعلنت الحكومة الإسرائيلية نقل مقر وزارة الخارجية للقدس، عام ١٩٦٦ أعلنت نقل مقر الكنيست، استخدمت مجموعة من القوانين والأنظمة العسكرية لضمان عمليات التهويد بما فيها من طرد للسكان العرب وإحلال مهاجرين

---

(١) انظر ذلك في: أ- كيت ماجواير، تهويد القدس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص١٨.
ب- سالم الكسواني: المركز القانوني لمدينة القدس، عمان، ١٩٧٨، ص٢١٧.

(٢) انظر ذلك في: أ- رفيق النتشة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، دار الكرمل، عمان، ١٩٨٤، ص١٦٣.
ب- Tawfik Al-Khalil, Jerusalem, from 1947 to 1967, Apolitical Survey, Amman, 1992, pp. 86- 91.

يهود مكانهم وإقامة المستوطنات على الأراضي العربية عليها[1]، منها:

– تفعيل قانون الطوارئ المعمول بها زمن الانتداب لطرد السكان العرب من القدس.

– قانون العودة يُعطي الحق لأي يهودي في العالم المجيء للقدس وفلسطين واستيطانها والحصول على الجنسية الإسرائيلية.

– قانون أملاك الغائبين لسنة ١٩٥٠ والذي تم بموجبه نقل ملكية المهجرين الفلسطينيين إلى القيم على أملاك الغائبين والذي يحظر نقل ملكيتها لغير اليهود.

– قانون استملاك الأراضي لسنة ١٩٥٢ والذي أعطى الحكومة الإسرائيلية الحق باستملاك الأراضي العربية بحجة استخدامها لأغراض التطوير والإنماء الاقتصادي.

التهويد بعد سنة ١٩٦٧: أصدرت السلطات الإسرائيلية بعد احتلالها القدس الشرقية مجموعة من القرارات والأوامر العسكرية بقصد ضمان السيطرة على القدس وتهويدها نذكر منها[2]:

١- بتاريخ ١٢/٦/١٩٦٧ صدر قانون السلطة والقضاء المعدل والذي

---

(١) انظر ذلك في:

أ- Josef Badi, Fundemental Laws of Israel, Twayne Publishers, New Yourk, 1961.

ب- معين أحمد محمود، تاريخ مدينة القدس، دار الأندلس، ١٩٧٨، ص١٩١-١٩٩.

(٢) انظر ذلك في:

أ- تيسير النابلسي،الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص١٠٤- ١٠٦.

المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، ندوة الأمانة العامة لجامعة الدول العربي، واشنطن، ١٩٨٥.

Malison, T. and Malison, S., Settlements and the Law, The American Education Trust, USA, 1983.

يخوّل حكومة إسرائيل صلاحية تطبيق القوانين الإسرائيلية عليها، القانون رقم ٤٩٩[١].

٢- استناداً للقانون السابق صدر الأمر المنشور في مجموعة الأنظمة ٤٦٠٢ و٥٦٠٢ القاضية بتطبيق القوانين الإسرائيلية والإدارة على منطقة القدس العربية بعد توسيع بلدية القدس لتشملها.

٣- صدر القانون رقم ١٠/ ٦٧ قانون المحافظة على الأماكن المقدسة والذي يعطي الحق لكل أبناء الطوائف في الوصول للأماكن المقدسة بالنسبة لهم، وقد استندت الجماعات الدينية اليهودية لهذا القرار في رفع شكاوى لمحكمة العدل العليا الإسرائيلية لضمان وصولهم للصلاة داخل الحرم القدسي الشريف.

٤- اتخذت الحكومة الإسرائيلية في ٢٨/ ٦/ ٦٧ قراراً بضم القدس العربية إلى إسرائيل بعد أن حصلت على موافقة الكنيست وقد كان هذا القرار يمثل قراراً جماعياً اتفقت عليه الأحزاب العمالية واليمينية على السواء واعتبرت من القرارات التي تدعم الوحدة الوطنية.

٥- في ٢٩/ ٦/ ٦٧ تم حل مجلس أمانة القدس ومصادرة سجلاتها وأملاكها المنقولة وغير المنقولة ودمجها مع معظم موظفي الأمانة في بلدية القدس المحتلة سنة ٤٨ وكذلك إبعاد أمينها العام إلى الأردن[٢].

٦- إلغاء القوانين الأردنية واستبدالها بالتشريعات والقوانين الإسرائيلية وإغلاق المحاكم النظامية الأردنية وإرغام عرب القدس على التقاضي لدى المحاكم

---

(١) روحي الخطيب، تهويد القدس، ص١٢، ١٩٧٠، سالم الكسواني: المركز القانوني لمدينة القدس، ص٢١٧، عمان، ط٢/ ١٩٧٨.

(٢) تيسير النابلسي، الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية في ضوء القانون الدولي لعام ١٩٧٥، ص١٢١ وما بعدها.

الإسرائيلية فيها، وعدم الاعتراف بالمحاكم الإسلامية الشرعية[1].

٧- يتبع ذلك صدور مراسيم عسكرية لتقلد الحكم والإدراة في المنطقة لفصل القدس قضائياً عن بقية الضفة الغربية.

٨- سنة ١٩٨٠ صدور القانون الأساسي لتوحيد القدس وجعلها عاصمة لإسرائيل وبدأت الحكومة باتخاذ الإجراءات لتحقيق هذا القانون مثل نقل مكتب رئيس الوزراء للمدينة، ومطالبة السفارات بنقل مقرها للقدس، لكن هذا القرار مخالف للقانون الدولي وصدر قرار مجلس الأمن رقم ٨٧٤ سنة ١٩٨٠ باعتبار هذا الإجراء باطل ولم يُعترف به[2].

٩- سنة ١٩٩٤ وعقب توقيع اتفاقية أوسلو صدر القانون الخاص بتقييد نشاطات السلطة الفلسطينية في القدس ومنعها من فتح أي ممثليّة أو عقد اجتماعات دون موافقة وزير الشرطة الإسرائيلية[3].

١٠- صدور أمر قانون البلديات بتاريخ ٢٨/ حزيران/ ١٩٩٧ يقضي بتوسيع بلدية القدس اليهودية بعد ضم القدس العربية إليها.

يلاحظ هنا بأن القرارات الإسرائيلية للإستيلاء على مدينة القدس، ووضع القوانين اللازمة لذلك تجد إجماعاً إسرائيلياً على المستوى الحكومي والحزبي وعلى المستوى الشعبي، وكانت تعد رمزاً للإجماع الوطني ومن القرارات التي تقوي وتدعم

---

(١) روحي الخطيب، القدس في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي، شؤون عربية، عدد٤٠ بتاريخ ديسمبر، ١٩٨٤، ص٤٨-٥١.
فايز جابر، تطور النشاطات الاستيطانية في القدس، ورقة مقدّمة إلى ندوات القدس ٥٠٠٠عام من الحقوق العربية، جامعة مؤتة ٧/ ١٢/ ١٩٩٧.

(٢) الأمم المتحدة، المستوطنات الإسرائيلية، دراسة أعدتها لجنة الأمم المتحدة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه، نيويورك، ١٩٨٢، ص٣.

(٣) إبراهيم أبو جابر، مستقبل القدس وسبل إنقاذها من التهويد، مركز الدراسات المعاصرة، أم الفحم، ١٩٩٧، ص٢٩.

الوحدة الوطنية.

كما يلاحظ بأن القرارات الإسرائيلية بشأن القدس كانت باستمرار قرارات علنية وصريحة وتسبق الإجراءات العملية بشأن تهويد القدس، وذلك على خلاف الوضع الموجود في بقية الضفة الغربية، حيث تسعى إسرائيل لفرض الأمر الواقع وتقوم باتخاذ مجموعة إجراءات عملية بشأن السيطرة عليها، دون الإعلان عن ذلك أو دون اتخاذ قرارات مسبقة بشأن مستقبلها.

ثانيا: التهويد في المجال الثقافي:

أ- طمس الطابع العربي والإسلامي للقدس: بدأت إجراءات التهويد في المجال الثقافي منذ الاحتلال الإسرائيلي للجزء الغربي من مدينة القدس سنة ١٩٤٨، حيث تم تشكيل هيئة يهودية خاصة بتسمية الأماكن اليهودية في القدس واستبدال المسميات العربية وطمس معالمها، وقد ربطت تلك المؤسسة برئيس الوزراء مباشرة، وكانت تضم أعضاء فنيين من المتخصصين في الآثار والتاريخ والجغرافيا واللغة وصناعة الخرائط وأساتذة الجامعات(١).

ب- اقتلاع الأصول الثقافية والفكرية لمواطني القدس من العرب ومحاربة الاتجاهات الإسلامية والعروبية، ومحاولة تسريب الانحلال للحياة الاجتماعية العربية لاجتثاث روح المقاومة لدى السكان(٢).

ج-تشويه مناهج التعليم والتربية: وقد عمدت السلطات الإسرائيلية إلى مجموعة من الإجراءات لتهويد التعليم والثقافة العربية، وفرض الهوية الإسرائيلية على سكان القدس العربية، وتهويد المؤسسات الثقافية وفي مقدمتها المتحف

---

(١) كمال عبد الفتاح، المسميات العربية للمواقع المهودة، بحث مقدّم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٨٠.

(٢) وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، أساليب الاحتلال الصهيوني، حلقة بحث عقدت في عمان بتاريخ ١/ ٥/ ١٩٧٨، ص١- ٦.

الفلسطيني[1].

د- **تفريغ القدس من النخب الثقافية والعلمية وكذلك** من رؤساء الطوائف الدينية والروحية من خلال إبعادهم وتقييد دورهم، ومنع أي عربي من الترشيح لمجلس بلدية القدس ما لم يكن يحمل الجنسية الإسرائيلية.

هـ- **الانتهاك المستمر لحرمة الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية:** ومنها الحفريات حول القدس وإحراق المسجد الأقصى والاعتداء على كنيسة القيامة، ومحاولة تدنيس وإزالة الأماكن المقدس كلما أمكن ذلك، وكان من أبرزها الحفريات الأخيرة حول الأنفاق تحت المسجد الأقصى والأماكن المقدسة الأخرى[2]. وتحدي المعتقدات الدينية للمسلمين والمسيحيين العرب. ومحاولة إقامة الصلوات اليهودية داخل الحرم الشريف كتمهيد مرحلي لترسيخ حق صلاتهم داخل الحرم. ومن ثم الانتقال إلى مصادرة المسجدين (قبة الصخرة والمسجد الأقصى) في محاولة لإقامة هيكلهم المزعوم.

و- **تهويد القضاء** وفق قانون (القضاء والإدارة) وإلغاء جميع المحاكم المدنية والشرعية.

ثالثاً: التهويد في مجال الأراضي والسكان:

أ- في الأراضي:

١- الاستيلاء على مساحات واسعة من أراضي القدس وتصفية الأملاك العربية فيها من خلال مجموعة من الإجراءات والأساليب نذكر منها[3]:

---

(١) القدس عربياً وإسلامياً، وثيقة مقدمة من وزارة الخارجية الأردنية والمكتب التنفيذي لشؤون الأراضي المحتلة لمؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، إسلام آباد، ١٩٨٠، ص٢٣-٣٠.

(٢) رائف نجم، الحفريات الأثرية في القدس، ورقة مقدمة إلى نداوت القدس ٥٠٠٠عام من الحقوق العربية، جامعة مؤتة، ٨/ ١٢/ ١٩٩٧.

(٣) انظر ذلك في: أ- سمير جريس، القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص٨٢-١١١. =

١- وضع اليد على الأراضي الحكومية وممتلكات الدولة سواء العائدة لحكومة الانتداب سنة ٤٨ أو الحكومة الأردنية بعد سنة ٦٧ والاستيلاء على أراضي الوقف والأبنية العامة والأبنية الخاصة، وتفريغ الأحياء العربية بالقوة.

٢- الاستيلاء على أملاك الغائبين، وهم السكان العرب في القدس الذين تركوا المدينة أثناء حرب ٤٨ وحرب ٦٧، وقد تم تعيين قيم إسرائيلي لإدارة هذه الأراضي بموجب قانون أملاك الغائبين.

٣- مصادرة مساحات واسعة من الأراضي بحجة استخدامها للمصلحة العامة والتطوير وهي في الحقيقة مقصورة على مصلحة اليهود فقط.

٤- إغلاق مساحات واسعة بحجة استخدامها للأغراض العسكرية استناداً إلى قانون الطوارئ ومناطق الأمن الصادر سنة ٤٩.

٥- الاستيلاء على مساحات من الأراضي بدعوى أنها كانت مملوكة لليهود قبل سنة ٤٨، وأهمها الحي اليهودي في القدس.

٦- اللجوء إلى الإحتيال والتزوير من خلال بيوعات وهمية بوثائق مزورة، والتستر وراء شركات أجنبية استثمارية لشراء الأراضي.

٧- إجراء حفريات واسعة وعميقة تهدد مباني البلدة القديمة بحجة التنقيب الأثري لتصديع الأبنية العربية وخاصة المسجد الأقصى.

٨- تهويد الممتلكات العربية وفق وضع تنظيمات (مخطط البلدة القديمة) ومخطط عام القدس الكبري (المخطط التنظيمي للقدس الكبري) وفق عمليات نهب واغتصاب ومصادرة، تحت نظام ما يسمى (مصادرة الأراضي والممتلكات للمنفعة العامة). مما اقتضى اغتصاب مساحات كبيرة من الممتلكات العربية الإسلامية

= ب- Meron Benevensiti, The West Bank Data Project American Enterprise Institute, Washington, 1984, pp. 17- 20.

والمسيحية. والاستيلاء على مبنى النوتردام لهدف إقامة الجامعة العبرية.

ب- في مجال السكان:

العمل على رفع عدد السكان اليهود في القدس ومحاولة تقليل الوجود السكاني العربي فيها من خلال مجموعة من الإجراءات نذكر منها[1]:

١- التهجير والطرد المباشر للسكان العرب من القدس واللجوء إلى وسائل العنف والطرد بالقوة العسكرية. وقد تم طرد حوالي ٦٠ ألف عربي سنة ٤٨ من القدس وحوالي ٦٠٠٠ عربي من سكان القدس فور الاحتلال الإسرائيلي سنة ٦٧.

٢- التشجيع على نزوح السكان وتقديم الإغراءات لهم بالهجرة إلى أمريكا والدول الغربية خاصة من أبناء الطوائف المسيحية والنخب المتعلمة.

٣- تشتيت التجمعات العربية في داخل القدس والعمل على عزلها عن بعضها من خلال خلق تجمعات يهودية بينها.

٤- رفع عدد السكان اليهود داخل القدس، وفي المستوطنات المحيطة بها، وتقديم إغراءات للسكن في القدس من خلال توفير فرص عمل وأماكن للسكن بصورة مغرية.

٥-تطويق المدينة بكثافة بشرية يهودية تستوطن الأحياء الجديدة المقامة حديثاً، كحزام حول المدينة وفي المستوطنات المحيطة بها.

٦- نشر الفساد الخلقي في الأوساط العربية عامة والقدس خاصة لإخراجها عن الطابع الإسلامي الجهادي.

---

(١) انظر ذلك في:

أ- Meron Benevenisti, The West Bank: A Survey of Israel's Policies, Jerusalem, 1985, pp. 30- 31.

ب- حسن عبد القادر، سكان القدس في ظل الاحتلال الصهيوني، ورقة مقدمة إلى نداوت القدس ٥٠٠٠عام من الحقوق العربية، جامعة مؤتة ٨/ ١٢/ ١٩٩٧.

٧- إحصاء السكان العرب في القدس بتاريخ ٢٥/ تموز/ ١٩٦٧. ومن كان خارج المدينة اعتبر غائباً وحرم من دخول القدس. ولا يحق له الرجوع لحيه. والغاية من هذا الإحصاء هو حصر السكان العرب، ومنحهم بطاقات هوية إسرائيلية. كذلك أنشأت السلطات الإسرائيلية الصهيونية مكتباً خاصاً لتوطين اليهود في القدس العربية. وسنت قانون دمج سكان القدس العرب بالسكان الإسرائيليين (قانون الإجراءات الإدارية) تمهيداً لمصادرة الأملاك العربية والأوقاف الخيرية والشركات. ومصادرة أسهم الأشخاص الغائبين.

خامساً: في المجال العمراني: عملت إسرائيل على تحقيق الاتصال المادي بين القدس الشرقية والغربية وهدم الحواجز بين شطري المدينة، وشمل ذلك عدة إجراءات منها[1]: إعادة بناء الحي اليهودي وتوسيعه بعد هدم مجموعة من الأحياء العربية المجاورة ومنها حي المغاربة. توسيع حي المكبر ومنطقة الجامعة العبرية وربطها بالقدس الغربية.

إقامة تجمعات سكنية ومباني حديثة على شكل أحياء متكاملة في الضواحي الشرقية لمدينة القدس لتحقيق التواصل المادي بين شقي المدينة.

عمليات التهويد ونتائجها عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧:

تهويد سنة ١٩٤٨: تعود جذور عملية التهويد إلى سنة ١٨٤٩ حين حصل الزعيم اليهودي موسى مونتيفوري على فرمان من السلطات العثمانية للسماح له بشراء الأراضي في القدس، واستطاع سنة ١٨٥٥ بناء أول حي يهودي في القدس بمساعدة بريطانيا سمي الحي باسم حي مونتيفوري، ومن بعد ذلك واصلت الجهود

---

(١) انظر ذلك في:
أ- كيت ماجواير، المرجع السابق، ص٢٧- ٢٩.
ب- عبد الرحمن أبو عرفة، القدس تشكيل جديد للمدينة، جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٩٦، ص٦٢.

الصهيونية التركيز على الاستيطان في القدس خلال فترة الانتداب البريطاني[١].

حين انتهاء حرب ١٩٤٨ تم تقسيم مدينة القدس إلى قسمين، قسم انضم للأردن وقسم احتله الجيش الإسرائيلي ويشكل ٨٠٪ من مساحة المدينة، وقد تم طرد حوالي ٦٠ ألف من سكانها العرب المسلمين والمسيحيين، ومصادرة أراضيهم وأملاكهم ومنعوا من العودة إليها خلافاً لقرارات الأمم المتحدة، وتم رفع عدد سكان اليهود في المدينة من المهاجرين إلى حوالي ١٩٠ ألفاً حتى سنة ١٩٦٧، تم احتلال عدد كبير منهم في الأحياء العربية التي هجرها أصحابها، وانخفض عدد السكان العرب إلى حوالي ٣٥ألفاً سنة ٤٨ ووصل إلى ٧٥ ألفاً سنة ٦٧[٢]. وقد تم خلال هذه الفترة إقامة أحياء يهودية جديدة في القدس وهدم بعض الأحياء العربية والقرى التابعة للمدينة واستبدالها بمستوطنات يهودية.

نتائج عمليات التهويد: أسفرت عمليات التهويد والاستيطان وتهجير المواطنين العرب في القدس عن تغيير المعالم الديموغرافية للقدس بشكل عام من بداية الوجود اليهودي فيها، فقدر سكان القدس في بداية عهد الانتداب من العرب حوالي ٣٠ ألفاً يشكلون ٧٥٪ من سكان المدينة لكن عدد السكان العرب في نهاية الانتداب وصل إلى حوالي ١٤٠ ألفاً يشكلون ٥٨.٤٪ من سكان المدينة واليهود ٤١.٦٪ أما في القدس الشرقية وحتى سنة ٦٧ كان العرب يشكلون ١٠٠٪ من السكان، إلا أن هذه النسبة تناقصت إلى ٤٧٪ مقابل ٥٣٪ لليهود وإذا ما أخذنا القدس بشقيها فإن النسبة الآن لصالح اليهود ٣: ١[٣]، مما يعكس جسامة التأثيرات التي أحدثها اليهود في القدس في المجال البشري. وهذا سيخلق عقبات أمام أي

---

(١) إبراهيم أبو جابر، المرجع السابق، ص١٠.
(٢) انظر بخصوص التحولات السكانية في القدس: libd, pp. 86- 95
(٣) انظر في ذلك:
أ- لجنة يوم القدس، القدس حقائق وأرقام، عمان، ١٩٩٦.
ب- حسن عبد القادر، المرجع السابق.

تسويات سياسية في حالة اللجوء إلى الاستفتاء الشعبي لتقرير مصير المدينة.

أما في مجال الأراضي فلم يكن اليهود يملكون سوى ٤٪ من أراضي مدينة القدس زمن الانتداب و٩٤٪ للعرب و٢٪ للأجانب، أما حالياً فإن اليهود يسيطرون على ٧٤٪ من أراضي القدس بشقيها الغربي والشرقي مقابل ١٤٪ للعرب و٢٪ للأجانب.

أما في القدس الشرقية فإن اليهود وضعوا أيديهم على ٧٤٪ من الأراضي مقابل ٢٦٪ للعرب حتى سنة ٢٠٠٠[١]. وخلال الفترة الأولى للاحتلال تم التركيز على التوحيد المادي للمدينة من خلال مد خطوط المواصلات وربط شبكات المياه والمجاري والخدمات بالمرافق الإسرائيلية، والعمل على عزل القدس عن المناطق العربية المجاورة.

تهويد أراضي القدس وما حولها بعد عام ١٩٦٧: بعد أيام قليلة من احتلال اليهود للقدس الشريف قامت الجرافات الإسرائيلية بجرف المنطقة القريبة من المسجد القدسي الشريف وتدمير حيّ عربيّ بأكمله. وجرف اليهود منطقة شارع الأنبياء، والمنطقة القريبة من البراق ومنطقة باب العامود وهي جميعها مناطق قديمة أثرية تدل على عتاقة المدينة وعمق تاريخها. ونتج عن هذا الجرف أن تصدعت المباني القريبة من مناطق الجرف منها مؤسسات تعليمية ومرافق عامة ومستشفيات ومراكز صحية بالإضافة إلى عدد كبير من المباني السكنية، وكلها إجراءات يهودية لتفريغ القدس القديمة من سكانها العرب كوسيلة عملية من وسائل تهويد مدينة القدس بكاملها.

وفي الثامن من يناير عام ١٩٦٨م/ ١٣٨٧هـ أصدرت إسرائيل قراراً يقضي بمصادرة (٣٣٤٥) دونماً من أرض منطقة الشيخ جراح ووادي الجوز وجبل

---

(١) Israel YearBook and Almanac, 1996, vol. 50, IBRT, Translation Documentation Ltd, Jerusalem, 1967.

سكوبس والتلة الفرنسية. كذلك أصدرت إسرائيل قراراً آخر في الرابع عشر من شهر أبريل عام ١٩٦٨م/ ١٣٨٨هـ يقضي بضم (٢٠٠) دونم من أرض مدينة القدس القديمة، ثم ألحقت هذا القرار بقرار آخر يقضي بضم (٣٠٠) دونم من أرض مدينة القدس القديمة من الجزء الغربي منها. ثم ضمت (١١٦) دونماً من أرض القدس القديمة الواقعة داخل السور القديم. وصادرت كذلك (١٠٠) دونم من حي المغاربة في القدس القديمة وأجلت سكانه العرب.

ونتجت عن تلك المصادرات اليهودية لأرض القدس القديمة، أن فقد عرب مدينة القدس بالقوة والظلم والتعسف (٥٩٥) عقاراً سكنياً تحتوي على (١٠٤٨) شقة سكنية و(٤٣٧) محلاً تجارياً و(٥) مساجد و(٤) مدارس وزاويتين إسلاميتين وسوقاً أثرياً يسمى بشوق الباشورة، وشارعاً تجارياً يسمى باب السلسلة وبعض العقارات التابعة للوقف الإسلامي[١]. ولم يكن هدف إسرائيل من وراء تلك المصادرات أخذ الأرض في القدس القديمة فحسب، وإنما طمس الهوية العربية الإسلامية فيها، وتقليل الأثر العربي الإسلامي في المدينة. ولم تقف إسرائيل عند هذا الحد من مصادرات الأراضي العربية في مدينة القدس، بل أصدرت قراراً في الثلاثين من أغسطس عام ١٩٧٠م/ ١٣٩٠هـ يقضي بمصادرة (١١٦٨٠) دونماً من أرض العرب في القدس ومن أرض العرب في القرى العربية المجاورة لبيت المقدس مثل الرام وقلندية وبيت حنينا وهي قرى في شمال القدس والنبي صمويل وبيت إكسا في غرب القدس وبيت صفافا صور باهر في جنوب القدس.

ونلحظ هنا أن إسرائيل أخذت تصادر أراضي عربية من قرى مجاورة وملاصقة لمدينة القدس، وذلك من أجل تنفيذ مشروع إسرائيلي جديد يهدف إلى إقامة ما يعرف بالقدس الكبرى[٢]. التي تضم القدس الموحدة وعدداً من القرى

(١) الخطيب، روحي، القدس تحت الاحتلال، مقال منشور في مفكرة القدس لعام ١٩٧٨م، ص١٣.

(٢) د.قاسمية، خيرية، الإجراءات الصهيونية لتهويد القدس الشريف، مقال منشور في مجلة=

العربية المحيطة بالمدينة المقدسة، وهو مشروع واسع يجري العمل فيه بشكل تدريجي متلاحق، مهيئين له كل الإمكانات المادية والطاقات البشرية والظروف السياسية.

وصادرت إسرائيل في الأول من فبراير عام ١٩٧٢م/ ١٣٩١هـ أرضاً عربية جديدة من المناطق المحيطة بالقدس قدرت بـ(١٧٠٠) دونم كانت كلها من أرض شعفاط وأرض الشيخ جراح[1]. وهكذا استطاعت إسرائيل من خلال هذه الإجراءات الظالمة التعسفية المتمثلة في مصادرات أراضي مدينة القدس والقرى المحيطة بها أن تقلب ميزان الملكية العقارية في مدينة القدس الشريف لحسابها، وهو أمر لا يستند إلى الحق ويخالف القانون الدولي مخالفة صريحة. وفي مراحل متأخرة زادت إسرائيل من المساحات الأرضية المصادرة من عرب مدينة القدس ومن عرب القرى المجاورة للقدس مثل قرى: بيت جالا والنبي يعقوب وعناتا والعيزرية والنبي صمويل.

ومن مظاهر التعسف الإسرائيلي أن اليهود منعوا السكان العرب من البناء في مساحات واسعة شملت مناطق كثيرة من القدس. وحددت مناطق واسعة أطلق عليها اسم المناطق الخضراء يمنع إقامة البناء عليها لأنها حدائق ومتنفس للمدينة، وهي في الواقع وسيلة لتفريغ السكان العرب من مدينة القدس. وهكذا قلت مساحة الأرض العربية في القدس الشريف، ولم يبق لهم سوى بعض الأراضي داخل المناطق السكنية المقامة عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ.

ونتيجة لمصادرة الأراضي التي اتبعها اليهود في مدينة القدس، أصبح اليهود يضعون أيديهم على (٥٦٠٠٠) دونم من أصل (٦٣٠٠٠) دونم هي مساحة القدس القديمة[2]، أي القدس التي بقيت للعرب بعد تقسيم المدينة على أثر هدنة عام

=القدس المحتلة، العدد ٢٠٩، ٨ تشرين الأول ١٩٧٩م، ص١٧.

(١) د.قاسمية، الإجراءات الصهيونية، ص١٧.

(٢) عرفة، عبد الرحمن، الاستيطان، التطبيق العملي للصهيونية، ط١، دار الجليل للنشر، ١٩٨١م، ص٢٢٤.

١٩٤٩م/ ١٣٦٨هـ الموقعة بين الأردن وإسرائيل. فبعد أن كان العرب يملكون ٨٣٪ من أرض القدس عام ١٩٤٨م/ ١٣٦٨هـ، أصبحوا في نهاية السبعينيات من القرن الحالي يملكون ١٤٪ من أراضي المدينة، ويملك الأجانب المقيمين في المدينة ٣٪ وباقي الأراضي سيطر اليهود عليها بطرق غير قانونية.

وبدأت إسرائيل تخطط لقدس كبرى موحدة، وهو ما أشارت إليه جريدة دافار الإسرائيلية في عددها الصادر في الثلاثين من شهر سبتمبر ١٩٧٥م، تقول الجريدة: «صرح مسؤول إسرائيلي كبير أن خريطة القدس الموسعة، التي تمت الموافقة عليها في الكنيست الإسرائيلي والتي رسمت بإيعاز من رئيس الوزراء الإسرائيلي، شملت منطقة واسعة تمتد من الخان عند مستعمرة كريات أربع التي أنشأتها إسرائيل بعد عام ١٩٦٨م جنوباً، واللطرون أو مستعمرة بيت شمس غرباً».

وقال المسؤول الإسرائيلي الكبير: «إنه ومن أجل أن نؤمن القدس مدينة موحدة عاصمة لإسرائيل فإن علينا أن نؤمن فيها أكثريّة يهودية. وعلينا أن نقلل من النقاش حول مشكلتها، كما لا توجد ضرورة لعرض الحلول السياسية المختلفة ووضع المشروعات والمقترحات لحلها، كل ذلك من أجل تخدير العالم لينسى هذه القضية»[١].

ويكون مشروع القدس الكبرى المقرر من قبل الكنيست الإسرائيلي مشروع يوسع حدود مدينة القدس، في أراضي المدن والقرى المحيطة بها فيضم تسع مدن وستين قرية عربية فلسطينية[٢]. ولتنفيذ هذا المشروع قامت إسرائيل بمصادرة الأراضي المحيطة بالقدس وبناء المستوطنات الإسرائيلية عليها، كما هو الحال في إنشاء مستوطنة كالية الواقعة على الشاطئ الشمالي للبحر الميت، وتبعد عن القدس حوالي

---

(١) جريدة دافار الإسرائيلية، العدد الصادر في تاريخ ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥م، نقلاً عن الترجمة العربية الواردة في مذكرة أمانة القدس، إعداد روحي الخطيب، ١٩٧٧م.

(٢) مذكرة أمانة القدس، إعداد روحي الخطيب، ١٩٧٧م، انظر المستوطنات اليهودية في القدس في:
.HRH Crown Prince Hassan Ibn Talal Astudy on Jerusalem. Amman. 1979

أربعين كيلاً. ومستوطنة كريات أربع الملاصقة لمدينة الخليل والتي أقيم فيها منطقة صناعية، ومستوطنة عوفرة الواقعة في شمال مدينة رام الله. ومستوطنة هناني في الأراضي العربية شرق بلدة العيزرية، ومستوطنة افراتا على أراضي غرب السواحرة في جنوب شرق القدس. ومستوطنة في أرض قلندية قرب مطار قلندية وهي خاصة بالصناعة. ومستوطنة تاكواع في جنوب مدينة بيت لحم، ومستوطنة معاليه أدوميم في منطقة الخان الأحمر مفتاح الطريق إلى القدس من جهة مدينة أريحا والبحر الميت، وأقيم فيها مدينة صناعية. ومستوطنة جيعون الواقعة على أرض قرية الجيب العربية في غرب مطار قلندية. ومستوطنة اللطرون الواقعة على أرض جبل اللطرون في موضع يسمى جبل المقطم. ومستوطنة جبل الطويل في مدينة البيرة. ومستوطنة بيت عور التحتة القريبة من قرية بيت عور العربية الفلسطينية. وأقام اليهود مستوطنتين في أراضي النبي صمويل، ومستوطنة قرب مدينة بيت جالا الفلسطينية القريبة من مدينة بيت لحم، ومستوطنة قرب قرية دير جرير[1].

وهكذا أقام الإسرائيليون هذا الكم الهائل من المستوطنات اليهودية في القدس والمدن أو القرى المحيطة بها، لإقامة القدس الكبرى الموحدة على حساب أرض عرب فلسطين هادفين من وراء ذلك إلى:

١- جعل مدينة القدس الكبرى عاصمة إسرائيل بعد أن صادر اليهود الأراضي العربية بالقوة والظلم والسلاح.

٢- العمل على إسكان أعداد من اليهود تكون نسبتهم تفوق كثيراً نسبة السكان العرب الفلسطينيين في القدس الكبرى.

٣- تغيير الطابع العربي لمدينة القدس وما حولها، ليحل مكانه طابع يهودي في ظل القبول بسياسة الأمر الواقع، الذي يفرض طابعاً عمرانياً وثقافياً وسكانياً

---

(١) ارجع إلى مذكرة أمانة القدس حول معالم تغيير أوضاع مدينة القدس، إعداد روحي الخطيب، أمين القدس، ص٢٣-٢٩.

يهودياً في مدينة القدس الشاملة ليكون الحل الحتمي لصالح اليهود.

٤- تقطيع أوصال سبل الاتصالات والمواصلات بين البلدان الفلسطينية من خلال زرع المستوطنات اليهودية في مناطق فاصلة، لتكون البلدان الفلسطينية تحت رحمة إسرائيل وتأثيرها ومؤثراتها.

٥- العمل على إيجاد طوق دفاعي يهودي محصن يحيط بمدينة القدس كوسيلة دفاعية عنها، وهو أمر يخطط له اليهود، لأنهم غاصبون ومحتلون وتراودهم حالات قلق واضطراب دائم على الرغم من آلة السلاح التي يقتنوها.

٦- استغلال المستوطنات كمدن صناعية لإضعاف اقتصاد عرب فلسطين، وإجبارهم على أن يظلوا قوة عاملة مستخدمة لصالح الاقتصاد اليهودي، مما يجعل اقتصادهم اقتصاداً تابعاً وخاضعاً لهؤلاء السياسيين الإسرائيليين المتطرفين والمعتدلين ومما يلحق بهما.

٧- عزل مدينة القدس عن غيرها من مدن فلسطين وقرها مما يركز في المدينة الطابع اليهودي ويقلل من التأثير العربي الفلسطيني فيها، وهذا بدوره يركز مفهوماً سياسياً يخدم مخططات إسرائيل في الحاضر والمستقبل، خاصة في ظل غياب التخطيط والتنسيق على الجهة الأخرى.

وبإلقاء نظرة على مواضع الاستيطان اليهودي في مدينة القدس وما حولها، نجد أن المستوطنات اليهودية المقامة حتى الثمانينات من هذا القرن تطوق المدينة من جهة، وتقطع أوصال التجمع العربي من جهة أخرى. نذكر على سبيل المثال لا الحصر الحيين اليهوديين المقامين عام ١٩٦٩م في داخل مدينة القدس القديمة وهما مستوطنات حي المغاربة ومستوطنات الحي اليهودي. وهناك مستوطنات تطوق المدينة مثل مستوطنات شرق جبل سكوبس المسماة بمستوطنات التلة الفرنسية وقد أقيمت تلك عام ١٩٦٩م. ومستوطنات قرى بيت صفافا وشرفات وبيت جالا

المقامة عام ١٩٧٤م. ومستوطنات بيت حنينا المسماة بحي النبي يعقوب المقامة عام ١٩٧٣م. ومستوطنات حي الشيخ جراح المسماة رامات إشكول المقامة عام ١٩٦٨م. ومستوطنات منطقة شعفاط وعناتا المسماة تل عناتوت المقامة عام ١٩٧٤م. ومستوطنات منطقة صور باهر المسماة بحي تل بيوت المقامة عام ١٩٧٣م. ومستوطنات أخرى أقيمت في شمالي القدس تسمى مستوطنات حي سانهدريا عام ١٩٧٣م، ومستوطنات عطروت ومعلومات ودفنا وجيلو وراموت وغيرها(١).

وما زالت إسرائيل تبني المستوطنات في ضواحي مدينة القدس وحولها، إمعاناً في سياسة القمع والظلم واحتلال الأراضي العربية بالقوة وتحت حماية الجيش الإسرائيلي وحرابه ودباباته. وأقدم دليلاً على هذا احتلال إسرائيل لجبل أبو غنيم بالقوة والشروع في بناء مستوطنة عليه. وجبل أبو غنيم على الرغم من مساحته الصغيرة إذا ما قيست بمساحات المستوطنات المقامة في القدس لكنه يظل يتمتع بموقع ممتاز مطل على مدينة القدس من جهة، ويشرف على معالم مدينة بيت لحم مسقط رأس عيسى ﷺ، وحيث كنيسة المهد من جهة أخرى، فهو جبل مطل على منطقتين مقدستين. والسبب الرئيس في حرص إسرائيل على إقامته لأنه يقطع أجزاء المناطق العربية ويشتت وحدتها، ويعيق عمليات الاتصال الطبيعي بين السكان العرب، ويصبح هؤلاء تحت رحمة اليهود في تنقلاتهم وطرق مواصلاتهم واتصالاتهم. كما أنه مشروع سياحي مهم لاستقبال زوار المقدسات النصرانية، فهو حلقة وصل بين القدس وبيت لحم، وبالإضافة إلى أهمية موقعه الاستراتيجي المطل على المنطقة برمتها.

ومن أساليب تهويد المناطق العربية ما قامت به إسرائيل من فتح نفق حول المسجد الأقصى تحت سوره مدعية وجوده قبل ذلك. والواقع أن جميع الذين سكنوا

---

(١) عرفة الاستيطان، ص٢٣٤.

الفرحان، يحيى، قصة مدينة القدس، المنظمة العربية للتربية والعلوم، دار الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ص ص١٤٨.

القدس وحكوماتهم عنوا كثيراً بمسألة المياه في المدينة، وما هذه الأنفاق إلا لتأمين عملية توفير المياه للمدينة. ففي حوالي عام ٢٠٠٠ق. م بنى سكان مدينة القدس القدماء نفقاً تحت الأرضي في الصخرة يصل المدينة بعين أم الدرج، مما يسهل وصول السقاة إليها، وكان هذا النفق وغيره من الأنفاق المماثلة يفيد السكان في وقت الحصار فيختبئون فيه.

ومثال آخر على حفر الأنفاق القديمة ما فعله الملك العادل أبو بكر عام ١١٩٣م/ ٥٨٩هـ حين جلب ماء العروب إلى مدينة القدس، وتبعد العروب عن مدينة القدس في حدود[١] كيلاً. وبنى العادل حوضاً للسقاية في الجهة الجنوبية من مدينة القدس[٢]. وقد تطلب مثل هذه المشروعات أعمال حفر الأنفاق لهذه الغاية. والغريب حقاً أن يستخدم النفق الذي فتحه اليهود في القدس لأغراض سياحية وجمع الأموال من السياح والمتفرجين، فيدفع الواحد منهم مبلغ (١٥) دولاراً أمريكياً تذكرة دخوله.

تهويد الكثافة السكانية في القدس: تحاول إسرائيل جاهدة تهويد الكتلة السكانية في مدينة القدس الكبرى حتى يصبح عدد اليهود في المدينة أكثر بنسبة كبيرة جداً من نسبة عدد السكان العرب المقيمين فيها. وبناءً عليه قامت إسرائيل باتخاذ عدد من الإجراءات والقوانين والوسائل التي تخدم أغراضها، نذكر من أهمها:

١- شجعت إسرائيل الهجرة اليهودية إلى مدينة القدس، وشجعت على الاستيطان فيها مساهمة في كل جهد يركز الاستيطان اليهودي في المدينة.

٢- منعت إسرائيل عرب القدس الغربية الذين طردهم اليهود منها عام ١٩٤٨م/ ١٣٦٨هـ من العودة إلى أرضهم وأملاكهم، ووصل عدد هؤلاء العرب إلى

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٩، ق٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥م، ص٢٥.
(٢) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٣٥.

٦٠.٠٠٠ نسمة، واعتبرتهم إسرائيل في حكم الغائبين، فصادرت أرضهم وجميع ممتلكاتهم بموجب قانون الغائبين الذي سنته إسرائيل من أجل مصادرة ممتلكات العرب في مدينة القدس وغيرها، علماً بأن هذا القانون مخالف تماماً لقوانين هيئة الأمم المتحدة وقراراتها ويتعارض كذلك مع مبادئ القانون الدولي[1].

٣- شكلت إسرائيل لجنة إعمار وتطوير الأحياء اليهودية في مدينة القدس، مهمتها الإشراف على إسكان اليهود في المدينة والمحافظة على أحيائهم ومستوطناتهم[2].

٤- تضييق الخناق على عرب القدس عن طريق تطويقهم بأحياء سكنية يهودية، وعن طريق إضعاف اقتصادهم وتقليل فرص العمل المتاحة لهم، وغير ذلك من مجالات تضييق الخناق لإرغام السكان العرب على ترك المدينة والرحيل عنها إلى المناطق العربية المجاورة.

٥- شكلت إسرائيل لجنة للبحث عن أملاك اليهود في مدينة القدس القديمة لأخذها من السكان العرب[3]، علماً بأن إسرائيل كانت وما تزال تطرد السكان العرب من مدينة القدس وغيرها من البلدان الفلسطينية وتصادر أملاكهم دونما رادع.

وظهرت أصوات يطالبون بكل وقاحة طرد العرب من مدينة القدس، فصرح الحاخام اليهودي مئير كاهانا مؤسس رابطة الدفاع اليهودية المتطرفة في مايو عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ: «إن إبقاء تسعين ألفاً من العرب في القدس يحول المدينة في المستقبل إلى إيرلندا شمالية أخرى».

---

(١) القدس تاريخ وصور، ص٣٨.

(٢) قاسمية، خيرية، الإجراءات الصهيونية لتهويد القدس الشريف، ص١٩.

(٣) قاسمية، خيرية، الإجراءات الصهيونية لتهويد القدس الشريف، ص١٩.

٦- قامت إسرائيل بإحصاء سكان القدس في يوليو عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ، ومنعت جميع السكان العرب الغائبين الذين لم يكونوا موجودين في القدس عند إجراء الإحصاء من حق العودة إلى المدينة وكانوا وقذاك في حدود عشرين ألف عربي خارج المدينة وقت الإحصاء، على الرغم من أن هذا الإجراء يخالف ما ورد في المادة الثالثة من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ومخالفاً لقرار هيئة الأمم المتحدة رقم ١٩٤ بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨م/ ١٣٦٨هـ القاضي بإعادة جميع اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم وإعادة أملاكهم[١].

٧- قامت السلطات الإسرائيلية بعد احتلال مدينة القدس عام ١٩٦٧م بتدمير أحياء عربية بكاملها. بحجة أنها قديمة أو بحجة فتح طرق جديدة، أو بحجة تشجير المنطقة وزراعتها من أجل تحسين المدينة وغير ذلك من الحجج الواهية التي تهدف أولاً وآخراً إلى تهجير عرب القدس وتقليل نسبتهم في المدينة.

٨- وضعت إسرائيل مجموعة من القواني والإجراءات المعقدة لمنح رخص بناء للمواطنين العرب، وأصبحت رخصة البناء تحتاج إلى شهور وأحيانا إلى سنوات، كما أن رخصة البناء مكلفة إلى حد كبير جداًحتى لا يتمكن العربي من ذوي الدخل المحدود أو المتوسط من البناء في مدينة القدس رغم الزيادة الكبيرة في أعداد عائلاتهم، وهذه وسيلة ضغط عليهم لإجبارهم على الرحيل من مدينة القدس وخاصة المدينة القديمة لتتاح لليهود تغيير معالم المدينة من النمط العربي إلى النمط اليهودي ضمن مخطط إسرائيلي واسع، يهدف إلى إجلاء ثمانية عشر ألف عربي من سكان الأحياء الإسلامية في القدس القديمة خاصة تلك الأحياء المحيطة بالمسجد القدسي الشريف[٢].

٩- ولزيادة عدد سكان القدس من اليهود وما يلحق بها من زيادة في مصادرة

(١) أبو علية وعويس، بيت المقدس، ص٥٩.

(٢) مذكرة أمانة القدس، إعداد روحي الخطيب، ص٣٠.

الأراضي العربية في المدينة، تم إنشاء عمارتين كبيرتين في المنطقة العربية بحي الشيخ جراح لاستخدامها مكاتب حكومية، والأرض التي أقيمت عليها هاتين العمارتين الكبيرتين هي في الأصل كانت مستشفى عربي. وعمرت هاتين العمارتين بالموظفين العاملين في وزارتي الزراعة والإسكان الإسرائيليتين الذين يقومون بمهمة إقامة العقارات اليهودية في مدينة القدس العربية. وأمر مناحيم بيغن عام ١٩٨٠م بمصادرة (٣٧) دونماً من أرض العرب في حي الشيخ جراح بالقدس العربية من أجل إقامة مباني الذي قرر نقله إلى القدس العربية قبل مدة قليلة من موافقة الكنيست الإسرائيلي على مشروع قانون يقضي بضم مدينة القدس العربية لتصبح مع القدس الغربية موحدة مشكلة عاصمة إسرائيل[١].

وتتضح سياسة التهويد السكاني في مدينة القدس من خلال الأرقام التالية[٢]، وهي أرقام إحصائية تقريبية:

عام	مسلمون	نصارى	عرب	يهود	النسبة المئوية لليهود
١٩٤٦م	٦٠.٥٦٠	٤٤.٨٥٠	١٠٥.٤١٠	٩٩.٦٩٠	٤٨.٦٪
١٩٤٨م	٤٠.٠٠٠	٢٥.٠٠٠	٦٥.٠٠٠	١٠٠.٠٠٠	٦٠.٦٪
١٩٦٧م	٥٤.٩٦٣	١٢.٦٤٦	٦٧.٦٠٩	١٩٥.٠٠٠	٧٤.٢٪
١٩٨٠			١٢٠.٠٠٠	٢٨٠.٠٠٠	٧٠٪
١٩٨٢م			١١٤.٠٠٠	٣٣٧.٠٠٠	٧٥٪

(١) كيت ماجواير، تهويد القدس، مركز الدراسات العربية، بيروت، ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، ص٤٨.
(٢) هذه أرقام إحصائية تقريبية وردت عن إحصاءات السكان من قبل هيئة الأمم المتحدة حين وضعت مشروعات التقسيم وكذلك دائرة المعارف البريطانية وتيرنس بريتي Ternes Pritte في كتابه القدس عن «Whose Jerusalem».
كيت ماجواير، تهويد القدس، ص١٤، ١٥.
الفرحان، يحيى، قصة مدينة القدس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ص٩٨-٩٩.

نلحظ من قراءة الجدول السكاني أن نسبة السكان العرب في القدس أخذت في التناقص بعد عام ١٩٤٦م/ ١٣٦٥هـ، وبأن هذا النقص بشكل واضح عام ١٩٤٨م/ ١٣٦٧هـ، حيث نشوب الحرب الفلسطينية اليهودية. فنقص عدد العرب المسلمين ٢٠.٠٠٠ نسمة ونقص عدد العرب النصارى في حدود ٢٠.٠٠٠ نسمة، ويعود هذا النقص الملحوظ إلى عمليات الطرد القهري الذي مارسه اليهود ضد السكان العرب من مسلمين ونصارى بغية تهويد القدس. وبالمقابل زادت نسبة السكان اليهود في حدود ١٢٪ لأن إسرائيل شجعت هجرة اليهود إلى المدينة وساعدتهم على السكن فيها تمهيداً لزيادة كثافة اليهود السكانية تلبية لمخططاتهم الرامية إلى السيطرة على القدس برمتها.

ونلحظ من خلال الإحصاء التقريبي لعدد سكان القدس عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ أن عدد السكان اليهود زاد في حدود ٩٥.٠٠٠ نسمة، بينما وصلت زيادة السكان العرب المسلمين في حدود ١٥.٠٠٠ نسمة وهي نسبة قليلة إذا ما قورنت بسنبة الزيادة في عدد اليهود. وملحوظة أخرى وهي تناقص عدد العرب النصارى في القدس، حيث نقص عددهم في حدود ١٢.٠٠٠ نسمة لأن معظمهم سافر إلى الولايات المتحدة وكندا ودول أوروبا نتيجة لاحتلال اليهود لكل مدينة القدس عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ.

وبإلقاء نظرة على نسبة السكان العرب واليهود عام ١٩٨٠م/ ١٤٠١هـ نجد زيادة كبيرة في عدد السكان اليهود، فزادوا في حدود ٨٥.٠٠٠ نسمة عمّا كانوا عليه عام ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ، علماً بأن عدد زيادة السكان العرب لم تتعدى في حدود ٥٣.٠٠٠ نسمة على الرغم من كثرة نسلهم وتناسلهم – وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرب المعنيين بالأمر هم في معظمهم مسلمون.

ونجد عدد السكان اليهود عام ١٩٨٢م/ ١٤٠٣هـ زاد في حدود ٥٧.٠٠٠ نسمة وهي زيادة لا يمكن أن تكون بسبب كثرة الإنجاب لأن هذا ليس

من طبعهم ولا من سمتهم، وإنما سببه فتح أبواب مدينة القدس على مصراعيها أمام هجرة يهودية مدروسة ومخطط لها. وبالمقابل فإن عدد العرب نقص في حدود ٦٠٠٠ نسمة، نتيجة للضغط الذي يمارسه اليهود على السكان العرب، لإجبارهم على الرحيل أو اختلاق القوانين التي تمنع إقامتهم وتسبب في هجرتهم القهرية تحت ظروف عدة لا تحتمل، أو نتيجة قوانين ظالمة مخالفة لكل المعايير الدولية والقيم الإنسانية. وما زال عدد اليهود في القدس في ازدياد بسبب الاحتلال، وبالمقابل ما زال عدد السكان العرب لم يبرح مكانه إذا ما قيس بالنسبة إلى الزيادة المطردة في عدد اليهود.

عمليات الاستيطان في القدس: عمدت السلطات الإسرائيلية منذ احتلالها للقدس سنة ١٩٦٧ إلى تركيز عملياتها الاستيطانية في مدينة القدس، واعطائها الأولوية على بقية المناطق الأخرى في الضفة الغربية انظر الملحق رقم (١).

وقد باشرت هذه السلطات بإحاطة المدينة بمجموعة من الأطواق الاستيطانية لمحاصرة المدينة وعزلها عن بقية الضفة الغربية ولتسهيل اندماجها واتصالها بالمناطق الإسرائيلية المحتلة سنة ١٩٤٨، وأقيمت معظم المستوطنات في القدس على أنقاض الأحياء العربية والممتلكات العربية في محاولة لتفتيت الوجود العربي في المدينة المقدسة والتخطيط لإخلائها من السكان العرب وخلق أغلبية يهودية بداخلها.

وفيما يلي نقدم موجزاً عن الأحزمة الاستيطانية حول القدس[1]: انظر الملحق

---

(١) انظر في ذلك:

أ- نظام بركات، الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين، المرجع السابق.

ب- جوزيف الفير، المستوطنات والحدود، مركز الدراسات الاستراتيجية، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦.

جـ- جيفري أرنسون، مستقبل المستعمرات الإسرائيلية في لبضفة الغربية والقطاع، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٦.

رقم (٢).

١- الطوق الأول: ويقع في قلب المدينة ويشمل:

أ- الحي اليهودي: باشرت إسرائيل عقب احتلال القدس سنة ١٩٦٧ بنقل مجموعة من العائلات اليهودية للسكن في قلب المدينة في المساكن التي تركها أصحابها أثناء الحرب والبدء بإعمار الحي اليهودي الذي دمّر سنة ١٩٤٨ وتوسيعه إلى الضعف وامتداده إلى بعض الأحياء العربية القديمة مثل حي الباشورة وحي المغاربة الملاصق لحائط المبكى وقد أقيمت في الحي ٣٢٠ وحدة سكنية وسوق وكنيس يهودي.

ب- الحديقة الوطنية وهي المنطقة المحيطة بسور القدس من الشرق والجنوب ويصل إلى منطقة سلوان وعين الحلوة.

جـ- المركز التجاري ويقع إلى الشمال الغربي من القدس ويشمل مناطق باب الساهرة وباب العامود والشيخ جراح ويمتد للمناطق المحتلة سنة ١٩٤٨.

٢- الطوق الثاني: ويشمل جميع المناطق الواقعة ضمن حدود أمانة مدينة القدس.

يتضمن هذا الطوق إقامة سلسلة من الأحياء السكنية الضخمة في جميع المناطق المحيطة بالقدس من ثلاث جهات مدعومة بمجموعة من المستوطنات الخلفية على النحو التالي:

أ- من الناحية الشمالية: يتكون من مستوطنات رامات اشكول ومعالوت وحي شابيرا في التل الفرنسي وحي سانهدريا قرب شعفاط.

ب- من الناحية الجنوبية: وتتكون من مستوطنات الحي السكني لطلبة الجامعة العربية في تلبيوت قرب جبل المكبّر وصور باهر.

جـ- من الناحية الشرقية: أقيمت مجموعة من المستوطنات على أراضي

الجامعة العبرية ومستشفى هداسا وحي غفعات همفتار في الشيخ جراح. وتستند هذه المستوطنات إلى معاليه أدوميم في منطقة الخان الأحمر.

٣- **الطوق الثالث:** ويهدف لإقامة سلسلة من المستوطنات في حدود القدس الكبرى الموسعة ويمتد هذا الطوق من رام الله شمالاً حتى أطراف مدينة الخليل جنوباً ومن منطقة الخان الأحمر شرقاً وحتى اللطرون غرباً ما يعادل ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية ويضم هذا الطوق ٦٠ قرية عربية ويضم حوالي ٢٥٠ ألف نسمة. هذا وقد ظهرت في الفترة الأخيرة مجموعة من المشاريع الإسرائيلية المستقبلية للاستيطان والسيطرة على القدس نذكر منها الحل الحلزوني لتقاسم السيادة في موقعين من البلدة القديمة: أولاً: في أسوار القدس، ثانياً: في البلدة القديمة.

وقدم هذا المشروع شلومو بن عامي مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي لشؤون الأمن، حيث يطالب هذا المشروع بإعطاء نقاط لليهود في محيط ساحة الحرم القدسي، يقيم فيها اليهود كنس قرب الحائط الغربي من الحرم عند باب الرحمة يتصل بحائط المبكى عن طريق جسر فوق المقبرة الإسلامية(١). والمشروع الثاني مشروع الحل على غرار إدارة واشنطن D.C والذي اقترحته رابطة المهندسين المعماريين برئاسة إسرائيل جودفتش ويطالب هذا المشروع بالتوقف عن تطوير مدينة القدس القديمة وتوسعة حدودها كمدينة Metroplitan واعتبارها عاصمة مستقلة في مكانتها مثل واشنطن أي عاصمة لدولتين ثم توسيع القدس حولها لتصبح مدينة كبرى على طول خط استيطاني جبلي يمتد على طول جبال القدس ونابلس وحتى الخليل بحيث تشكل خطاً دائرياً على طول الجبال شرق إسرائيل(٢).

(١) شلومو بن عامي، جريدة هآرتس ٧/ ٨/ ٢٠٠٠، ترجمة سمير كنعان.
(٢) يسرائيل جودفتش، جريدة إيديعوت أحرنوت ٧/ ٨/ ٢٠٠٠، ترجمة سمير كنعان.

٤- تقييم عملية الاستيطان الإسرائيلي في القدس:

١- إن الاستيطان في القدس كان سابقاً لغيره من عمليات الاستيطان في المناطق الأخرى، وقد بدأ هذا الاستيطان عقب حرب عام ١٩٦٧ مباشرة وما زال مستمراً حتى الآن.

٢- إن هذا الاستيطان ارتبط بالدعاوي الايدولوجية والتاريخية بأن اليهود يملكون حقوقاً تاريخية ودينية في القدس تبرر شرعية الاستيطان أكثر من الاعتماد على المبررات الأمنية والدفاعية التي ارتبط بها بقية الاستيطان في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة.

٣- إن الاستيطان في القدس أخذ من البداية طابعاً رسميا وعلنياً، إذ كانت قرارات الاستيطان والقوانين اللازمة لذلك تصدر بصورة مسبقة وعلنية، وذلك على خلاف الوضع الموجود في الضفة الغربية، حيث يلاحظ بأن معظم الإجراءات العملية التي تسعى لفرض الأمر الواقع، كانت تجري على الأرض دون الإعلان عن اتخاذ قرارات مسبقة بشأنها.

٤- كان الاستيطان في القدس موضع إجماع بين كافة الأحزاب الإسرائيلية العمل والليكود والقوى الدينية، بينما كان هناك بعض التباين في مواقف الأطراف بخصوص الاستيطان في المناطق الأخرى.

٥- إن الاستيطان في القدس كان على شكل أحياء سكنية متكاملة، وأخذ طابع مدني من اتصاله المباشر بالأحياء اليهودية في القدس، ولذلك اتصف الاستيطان بالقدس بالكثافة البشرية الواضحة، إذ أن مجموع المستوطنين في القدس لوحدها يفوق سكان المستوطنات الأخرى في كل الضفة الغربية.

٦- إن عمليات التهويد سارت وفق خطط منظمة بصورة مسبقة للسيطرة على القدس، ومحاولة استئصال المجتمع الأصلي للمدينة من العرب بشكل كلي،

حسب مخططات زمنية متراكمة تتسارع أحياناً وتبطئ في أحيان أخرى، ولكنها تبقى مستمرة، وغالباً ما كانت هذه المخططات علنية وصريحة بعكس الوضع في المناطق المحتلة.

٧- ارتبطت عمليات التهويد بعملية الإحلال Replacement من خلال العمل على طرد وتهجير السكان العرب الأصليين، واستبدالهم بالمهاجرين اليهود القادمين في شتى بقاع العالم، متجاهلة الحقوق الشرعية للعرب في القدس.

٨- تم استخدام العنف والقوة في عملية التهويد من خلال طرد السكان العرب وتدمير المنازل والأحياء، واللجوء إلى الإجراءات التعسفية والعسكرية لضمان السيطرة على القدس.

٩- تحاول إسرائيل من خلال عمليات التهويد تقوية موقف إسرائيل التفاوضي وتزود إسرائيل بورقة مهمة للغاية في أي مساومات للوصول إلى حل نهائي لقضية القدس في حال المفاوضات. من خلال خلق أمر واقع مقابل القوانين الدولية.

ملحق رقم (١)

الاستيطان في منطقة القدس الكبرى

حدود ١٩٤٨م	حدود بلدية القدس الموسعة
المناطق الاستيطانية	القدس القديمة
مشروع القدس الكبرى	القدس المحتلة سنة ١٩٤٨م

البيرة ورام الله، منطقة عطاروت المخططة، منطقة معاليه أدوميم، النبي يعقوب، النبي يعقوب المخططة، جبل المكبر، الحي اليهودي، تالبيوت الشرقية، بيت ساحور، التل الفرنسي، القدس القديمة، جيلو، بيت جالا، بيت لحم، منطقة عطاروت الصناعية، راموت النبي صمويل، راموت اشكول[1].



(١) المصدر: اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، ملحق رقم(٢)، المستوطنات الإسرائيلية القائمة والمحتملة، المصدر: West Bank Data Project, p.93.



الفصل الثامن

المسجد الأقصى وقبة الصخرة

الجذور الدينية والتاريخية للمسجد
الأقصى وقبة الصخرة

المسجد الأقصى وقبة الصخرة في ظل
دول الإسلام



الجذور الدينية والتاريخية للمسجد الأقصى

المسجد الأقصى في اللغة والاصطلاح: اسم شامل لم يعرف «المسجد الأقصى الشريف»، والمسجد شرعاً يطلق على كل موضع من الأرض لقوله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». والأقصى كما يراها علماء اللغة والمؤرخون نسبة إلى البعد الجغرافي الدنيوي بين المسجدين المسجد الحرام في مكة، والمسجد الأقصى في القدس. وفسر البعض المسجد الأقصى بالأقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار والتي تشد إليها الرحال لأن موقع المسجد النبوي هو الأقرب إلى المسجد الحرام.

يتألف المسجد الأقصى من المسجد الكبير ومسجد الصخرة المشرفة، وما بينهما وما حولهما من منشآت ومرافق، مثل: الأسبلة والبركة وأماكن الوضوء وغيرها، وكل ما يحيط بها سور المسجد الأقصى وتبلغ مساحته (١٤٠٩٠٠)م٢[1].

قداسة المسجد الأقصى: إن قدسية المسجد الأقصى خاصة والقدس وأرض فلسطين عامة. ترجع إلى سندها الديني والتاريخي، إلى أنهما أرض المسجد الأقصى الذي باركه الله تعالى وبارك من حوله، وقداسة المسجد الأقصى قداسة موغلة في القدم. وهي قبل عهدي موسى وعيسى عليهما السلام. لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] وفي قوله تعالى في شأن مسألة طلب النبي الله موسى عليه السلام من بني إسرائيل الذين هاجروا معه دخول أرض فلسطين التي فيها القدس والمسجد الأقصى ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة]. قضية نجاة أنبياء الله تعالى «إبراهيم ولوط»

---

(١) انظر: د.عبد الفتاح أبو عيلة: القدس دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، ص٢٧-٣٨، دار المريخ، الرياض ١٤٢١هـ؛ الدباغ: بلادنا فلسطين؛ بيت المقدس (١)، ص١٩٩.

عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء] وفي أمر نبي الله سليمان ﷺ. قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء]. والمسجد الأقصى اسم لجميع المسجد وما احتواه داخل السور «أي جميع ما دار عليه السور»(١).

والقدسية هنا في نصوص القرآن معممة على المسجد الأقصى والقدس، باعتبارها أرض المسجد الأقصى، وعلى أرض فلسطين. باعتبار المسجد الأقصى جزء من أرضها، وأرض القدس جزء من أرض فلسطين وعموم أرض الشام. لأن فلسطين جزء منها. وهكذا فإن حركية البركة ولولبيتها تنطبق في ماديتها ومعنويتها على كل المنطقة والأرض التي ضمت المسجد الأقصى، أولى القلبتين وثاني الحرمين وثالث المساجد. وعليه سميت القدس في فترة معينة باسم بيت المقدس، وبيت المقدس نسبة إلى المسجد الأقصى المبارك، كما أن اسم مدينة القدس، كان يسبقه أحياناً كلمة (بيت) وأحياناً كلمة (مسجد) مثل مسجد إيليا وبيت إيل والمسجد الأقصى، وفي وصف تلك المدينة بالقدسية المباركة ورد كذلك في أسمائها: الأرض المباركة، الأرض المقدسة، القدس الشريف. وغيرها من الأسماء التي تحمل في طياتها الطابع الديني المقدس(٢) والمباركة.

مساحة المسجد الأقصى: تضم المسجد الكبير (الأقصى) ومسجد قبة الصخرة وما احتواه السور داخلاً. وهناك اتفاق تام بين العلماء والمؤرخين حول شكله المستطيل ومساحته مع وجود تباين قليل نسبياً في أدوات القياس. وأكثر العلماء تقارباً حول مساحته: بين ابن الفقيه: ذكر أن قياس المسجد الأقصى طوله ألف ذراع

---

(١) الحنبلي: الأنس، جـ٢، ص٢٧٢.

(٢) سيد فرج راشد: القدس، ص٢٧، دار المريخ؛ الدباغ: بلادنا فلسطين في بيت المقدس(١)، ص٢٥، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

وعرضه سبعمائة ذراع، والمقدسي[1]: ذكر أن قياس المسجد الأقصى طوله ألف ذراع وعرضه سبعمائة. ومجير الدين الحنبلي[2] طوله ٦٦٠ذراع وعرضه ٤٠٦ذراع، وفي تباين ضئيل بين ابن عبد ربه الذي ذكر طول المسجد ٧٨٤ذراع وعرضه ٤٥٥ذراع. وابن جبير في رحلته ذكر طوله (٧٨٠) ذراع وعرضه (٤٥٠) ذراع، وناصر حسرو: ذكر أن طوله (٧٥٤)ذراع وعرضه (٤٥٥)ذراع.

وبناء على ما تقدم فإن مجمل مساحة المسجد الأقصى الشامل تمثل بقعة المسجد القدسي الشريف بما فيه السور، وهي البقعة المقدسة الواقعة على جبل موريا وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

الجذور الدينية والتاريخية للمسجد الأقصى: تعددت الروايات حول الجذور التاريخية الأولى لبناء للمسجد الأقصى منها:

أولاً: أن الملائكة هم الذين بنوا المسجد الأقصى بأمر من الله تعالى، بعد أن قاموا ببناء المسجد الحرام قبله بحوالي أربعين سنة، وتعتمد الرواية على ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: «أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به، وكان هذا قبل خلق آدم ثم إن آدم بنى ما بنى، وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم استتم بناءه إبراهيم عليه السلام». وهنا احتمال واضح في بناء الملائكة للمسجدين وبينهما حوالي أربعين عاماً. وللتأكيد على ذلك ما ذكره البخاري في صحيحه إن أول مسجد بني هو المسجد الحرام، وثاني مسجد هو المسجد الأقصى المبارك. روى البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول، قال: المسجد الحرام. قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان

---

(١) انظر ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٧٧؛ والمقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٢١.
(٢) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جـ٢، ص٢٤، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.

بينهما؟ قال: أربعون سنة[1]». والرأي في بناء الملائكة للمسجد الحرام أولاً ثم إمكانية بناء الملائكة للمسجد الأقصى. إرتآه عدد من العلماء[2].

ثانياً: كجذور دينية وتاريخية يرى عدد من العلماء في تاريخ المسجد الأقصى وقداسته، إلى ارتباط البناء من عهد آدم عليه السلام الذي بنى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ويحتمل أن يكون ولده قد بنى المسجد الأقصى من بعده[3].

ثالثاً: اعتقاد ملكي صادق اليبوسي الكنعاني بشكل جازم في عقيدة التوحيد. وبأن الله تعالى واحد لا شريك له. وعليه فإن الملك اليبوسي (ملكي صادق) ومن آمن معه بالتوحيد منذ (٤٠٠٠) سنة. قد وضعوا أسس تلك العبادة في مدينتهم (مدينة السلام (القدس) فيما بعد[4]. وجاء في الكتاب المقدس أن (ملكي صادق) كان محافظاً على سنة الله بين شعب وثني. فكان له الأسبقية على إبراهيم عليه السلام وعلى الأنبياء الذين هم من نسله عليهم السلام[5]. وعليه استناداً إلى المصادر الدينية والتاريخية: التي تذكر أن بقعة المسجد الأقصى. هي البقعة ذاتها التي كان الملك الكنعاني اليبوسي (ملكي صادق) قد خصصها لعبادة ربه. وكان يقدم الذبائح له طلباً الرحمة على الصخرة الكائنة هناك[6]. وأثبتت التوراة كما روي في سفر التكوين في الإصحاح الثاني والعشرين أن إبراهيم عليه السلام كان قد ذهب إلى جبل المريا «موريا أو مورينر» أو

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، ص١١١، طبعة المكتب الإسلامي في إستانبول؛ ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، جـ٩، ص٢٧٥، دمشق.

(٢) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ص٤٠٨-٤٠٩، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩؛ القرطبي: الجامع، جـ٤، ص١٣٨-١٣٩؛ د.محمد عثمان بشير: بيت المقدس وما حوله، ص٣٦-٣٧، مكتبة الفلاح، الكويت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ٤، ص١٣٨، بيروت ١٩٦٤.

(٤) الدباغ: بلادنا فلسطين، في بيت المقدس(١)، ص٢٥، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٥) عبد الملك بطرس وآخرون: الكتاب المقدس، جـ٢، ص٩٢٢، بيروت ١٩٦٧م.

(٦) الدباغ: بلادنا فلسطين بيت المقدس(١)، ص٥-٦.

بقعة المسجد الأقصى. امتثالاً لأمر ربه بذبح ابنه[1]. كذلك ورد في الكتاب المقدس (العهد القديم) الإصحاح الرابع عشر: أن ملكي صادق... مالك شاليم كان كاهناً لله العلي، وبارك إبراهيم عليه السلام قائلاً: «مبارك إبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض»[2].

رابعاً: رواية أخرى تذكر أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، لرواية تستند إلى حديث نبوي شريف، حيث روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ أن سليمان عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأله الله خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنين وأرجوا أن يكون قد أعطاه الثالثة، سأله ملكاً لا ينبغي لأحد بعده، فأعطاه إياه، وسأله حكماً يواطئ حكمه، فأعطاه إياه، وسأله من أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرج من الذنوب كيوم ولدته أمه، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أرجوا أن يكون قد أعطاه الثالثة». وحول هذه الرواية التي تذكر أن بناء المسجد الأقصى من بناء سليمان عليه السلام أدلة كثيرة تدحضها منها:

أ- هناك فارق زمني كبير بين المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام، وبناء المسجد الأقصى الذي بناه سليمان عليه السلام، فقد يصل الزمن إلى مدة أربعين سنة أو حوالي ألف سنة وعليه قال القرطبي: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام جددا بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى. وهما بذلك ليسا أول من بناهما[3]. لقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة].

ب- أمر الله تعالى لسليمان عليه السلام بناء مسجد أي داراً للعبادة وليس المقصود به

---

(١) حسن محمد أحمد: المسجد الأقصى في الكتب المقدسة، ص٩.

(٢) أبو عرفة عبد الرحمن: القدس تشكيل جديد للمدينة، ص١٥، عمان ١٩٨٦.

(٣) ورد الحديث في صحيحي ابن حبان وابن خزيمة، وحديث مشابه للنص الأول: انظر: النسائي أخرجه بإسناد صحيح.

الهيكل المزعوم في مكان المسجد الأقصى[1].

جـ- بيَّن الأثري الفرنسي (دي سولسي) في كتابه (تاريخ الفن اليهودي). الخلاف بين مساحة المسجد الأقصى ومسجد سيدنا سليمان عليه السلام من حيث الشكل والاتجاه ومن حيث المساحة والموقع، فالمسجد الأقصى مختلف تماماً عن المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام في الشكل، المسجد الأقصى «أقرب للإستطالة باتجاه الكعبة» ومسجد سليمان مربع الشكل[2].

د- أكدت الآيات القرآنية والأسفار والروايات الإسرائيلية أن سليمان عليه السلام أقام مسجداً ولم يقم هيكلاً. حتى أن الهيكل المزعوم والمنسوب إلى سليمان عليه السلام مشكوك في أمر موضعه بين مدينة القدس أم في مدينة نابلس. وكذلك فإن المسجد الأقصى أوسع وأعم من بقعة مسجد سليمان وقد حدد المسجد الأقصى موقعه المكاني الذي يشكل جزء من البقعة المقدسة.

هـ- كذلك ما ورد في ذكر الصخرة المشرفة (صخرة المعراج)، فهي غير الصخرة في مسجد سليمان عليه السلام. من حيث ارتفاعها عن الأرض «صخرة سليمان ترتفع ثلاثة أصابع عن الأرض بينما صخرة المعراج ترتفع حوالي المتر الواحد. وهذا يدلك على أن موضع مسجد سليمان عليه السلام، ليس في نفس موضع المسجد الأقصى»[3]. حسب الروايات السابقة.

---

(١) انظر: الحنبلي: الأنس، جـ١، ص١٢٣؛ سليم محمد: الإسراء والمعراج، ص١١٠، المختار الإسلامي للطبع والنشر، القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. استخدم لفظ المسجد على معنى دار العبادة دون تحديد.

(٢) انظر: نظام الدين عرفان وآخرون: القدس إيمان وجهاد، ص٦٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٧م.

(٣) د.طمسن جون: قاموس الكتاب، ص٢١٧، بيروت ١٩٦٤؛ د.حسن محمد أحمد: المسجد الأقصى في الكتب المقدسة، ص١٢٧.

مسجد الخليفة عمر بن الخطاب: تعد مدينة القدس مدينة محصنة بحكم موقعها وسورها وأهميتها الدينية والتاريخية. وهي في كل الأحوال جذورها عربية إسلامية. لأكثر من (٤٠٠٠ق.م) ابتداء من الأموريين والعهد العربي الكنعاني، إلى اليبوسيين وامتدادا إلى العهد الإسلامي. الذي امتد أكثر من ١٤٠٠سنة. ابتداء من عهد رسول الله ﷺ وعهد الراشدين والخلافة الأموية، والعباسية، والسلاجقة والفاطميين والمماليك والعثمانيين. باستثناء فترة الإحتلال العبراني حوالي (٧٠سنة) والصليبي (٢٠٠سنة) ثم آخرها الاحتلال الصهيوني.

شهد عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. الفتح الإسلامي للقدس على يد القائد «أمين الأمة» أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ولأهمية المدينة. اشترط صفرونيوس بطريرك القدس تسليم مفاتيح القدس إلى شخص الخليفة. فوافقهم أبو عبيدة. وكتب إلى عمر بذلك بقوله: «فإنا أقمنا على أهل إيلياء، فظنوا أن لهم في مطاولتهم فرحاً، فلم يزدهم الله بهذا إلا ضيقاً ونقصاً وهزالاً، فلما رأوا ذلك سألوا أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو الموثق لهم، والكاتب»[1]. ولما وصل كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرء الكتاب واستشار الصحابة. وقد وافقوا على هذا الصلح. سار الخليفة إلى القدس بعد أن أعلن أهل إيلياء الاستسلام وطلب الصلح. وقد أعطاهم الأمان (العهدة العمرية). ثم دخل القدس سلماً في يوم الخميس ٢٠ربيع الأول/ ١٥هـ. وهكذا نرى أن الفتح الإسلامي للقدس سبقه وجود عربي امتدت جذوره التاريخية إلى العهد العربي الكنعاني اليبوسي الأموري.

موقع مسجد عمر: صلى رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج في المسجد الأقصى المبارك استناداً إلى الحديث النبوي الذي رواه أنس بن مالك «أتيت بالبراق فركبته، حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت

---

(١) الواقدي، جـ١، ص١٥١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٤-١٤٥.

المسجد فصليت فيه ركعتين...»[1] وهذا المسجد هو المسجد الذي بناه آدم عليه السلام وفي رواية أخرى بنته الملائكة، وجدده وزاد عليه وجمله عدد من الأنبياء منهم إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام. ومن هنا فإن قدسية المسجد وأهميته تكمن في كونه مسجداً للأنبياء باركه الله تعالى.

وفي ليلة الإسراء والمعراج وجد الرسول الكريم محمد ﷺ عدداً من الأنبياء في بيت المقدس منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ونفر من الأنبياء غيرهم. فأمهم الرسول ﷺ في هذا المسجد المبارك[2].

وفي موضع هذا المسجد بنى عمر بن الخطاب مسجداً عرف بمسجد عمر بن الخطاب في بقعة المسجد الأقصى، البقعة المباركة في بيت المقدس. فجاء في الرواية أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد توجه في موكب من كنيسة القيامة التي رفض أن يصلي عمر بن الخطاب فيها، وكذلك رفض أن يصلي في كنيسة قسطنطين خوفاً أن يقول المسلمون هنا صلى عمر بن الخطاب ويتخذون هذا الموضع مسجداً، وتوجه عمر من كنيسة قسطنطين إلى كنيسة صهيون التي قال عنها البطريرك صفرونيوس، إنها مسجد داود عليه السلام، فأجابه الخليفة عمر بن الخطاب، أريد مكاناً أبني فيه مسجداً لا صاحب له، فتوجه الخليفة ومعه البطريرك ومكبه إلى خرائب بيت المقدس، وهناك أخذ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفرس تلك الخرائب ويتفحص موضعها، وبعد مدة من البحث قال عمر بن الخطاب بصوت مرتفع: «والذي نفس عمر بيده، إنه لمسجد داود الذي وصفه لنا نبينا عليه السلام في الإسراء والمعراج. وأخذ عمر رضي الله عنه ومن معه يتعاونون على تنظيف المكان[3]، وكان النصارى الروم قد طرحوا الأقذار والأوساخ في هذا المكان، مكان الصخرة وما حولها غيظاً في اليهود

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) سليم، محمد: الإسراء والمعراج، القاهرة، المختار الإسلاميّ، ص١٢٧.

(٣) العبادي، محمود: قدسنا، القاهرة ١٩٧٢م، ص٦٠؛ السائح: القدس، ورقة ٢٠.

وانتقاماً منهم. يقول ابن البطريق في هذا الصدد: «وكانوا (وكان) الروم لما تنصروا، وبنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس في بيت المقدس، كان موضع الصخرة وحولها خراب، فترك، ورموا على الصخرة التراب حتى صار فوقها مزبلة عظيمة، وإنما تركوها الروم، ولم يعظمونها كما كان بني (بنو) إسرائيل يعظمونها، ولم يبنوا عليها كنيسة لقول سيدنا المسيح في إنجيله الطاهر إن: «هو ذا يترك بيتكم خراباً». وقال أيضاً: «إنه لا يبقى ههنا حجر على ألا يهدم ويخرب»[1].

رواية العلماء والمؤرخين في موقع المسجد: يقول صاحب هذا بلاغ للناس: «وعند الصخرة المشرفة التي صلى إلى يمينها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وصلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث صلى الرسول الكريم. وكان المكان مغموراً بالأقذار[2]، فأزالها بيده الشريفة ومعه كبار القادة والرؤساء من جند المسلمين، وبنى في ذلك المكان مسجداً بجانب الصخرة المشرفة، سمي بمسجد عمر، ويضمه الآن ما يسميه المسلمون إلى اليوم «المسجد الأقصى» الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. وهذه الصخرة المشرفة منها كان عروج الرسول ﷺ، وهي قبلة المسلمين الأولى».

ويذكر القلقشندي في نهاية الأرب: قال ابن زيد لما استقبل النبي ﷺ نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول: والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، قالوا جميعاً: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وددت لو أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فإني أبغضهم وأبغض موافقتهم، فقال جبريل: إنما أنا عبد ملك،

---

(١) ابن البطريق، سعيد وهو من مواليد الفسطاط، واشتهر بالطب والتاريخ، وكان بطريركاً في الإسكندرية، له كتاب «نظم الجوهر» أو ما يسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ٢، عن مسجد عمر والصخرة؛ أورد الدباغ هذا النص في كتابه بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص٩٤.

(٢) إرجع إلى أبي الفداء: تقويم البلدان، بيروت، ص٢٤١.

ليس لي من الأمر شيء، فسل ربك، فعرج جبريل: وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة...»[1]، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة]. ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: «إن المسجد الأقصى هو الطرف الشرقيِّ من القدس نحو القبلة (أي باتجاه الجنوب) أساس عمل داود، وهو طويل عريض، وطوله أكثر من عرضه، وفي نحو القبلة المصلى الذي يخطب فيه الجمعة[2].

والمعروف من هذا النص أن ياقوت يعني بالمسجد الأقصى، المسجد الذي بناه الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك، ولكن المهم في الأمر أن بناء الوليد للمسجد الأقصى كان في موضع مسجد داود عليه السلام، وهو أمر يتفق مع رواية عمر بن الخطاب حين تفرس موقع الخراب في بيت المقدس وقال هنا موضع مسجد داود عليه السلام الذي وصفه سيدنا محمد ﷺ لأصحابه بعد حادثة الإسراء والمعراج، وهو الموضع نفسه الذي بنى فيه عمر بن الخطاب المسجد الذي حمل اسمه، وهو في الواقع المسجد الأقصى الذي بني وجدد وجرت عليه إضافات في حقب تاريخيّة متعاقبة، وبناء عليه فإن المسجد الذي بناه الوليد، وهو المعروف اليوم بالمسجد الأقصى، كان بناؤه في موضع مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومسجد عمر رضي الله عنه أقيم في المكان نفسه الذي فيه مسجد داود عليه السلام.

ويحدد المؤرخ الفلسطيني المعاصر الأستاذ عارف العارف موقع مسجد عمر بن الخطاب الذي بناه عمر عندما قدم إلى القدس واستسلمت له، بأنه في الطرف الشرقيّ الجنوبي من ساحة الأقصى[3]، ويعني بالأقصى هنا البقعة الشاملة للحرم

---

(١) القلقشندي: نهاية الأرب، القاهرة ١٩٥٩م، جـ١، ص٣٣٠.

(٢) ياقوت الحمويّ: معجم البلدان، جـ٤، دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ص٢٢٣.

(٣) العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، موضوع بناء مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

القدسي الشريف.

وأورد العلامة مجير الدين الحنبليّ في الأنس الجليل أن موقع المسجد الأقصى الحالي هو في الجهة الشرقية الجنوبية، وهو المكان نفسه الذي أقام عليه عمر بن الخطاب مسجده، ويؤكد كرزويل Creswell هذا الاتجاه ويأخذ به[١].

وأورد المقدسيّ في أحسن التقاسيم وابن خلدون في تاريخه أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أقام مسجداً متواضعاً وصغيراً في الجزء الجنوبيّ من الحرم القدسيّ الشريف بالقرب من المكان الذي يقال إن الرسول محمد ﷺ قد ربط البراق فيه ليلة الإسراء والمعراج[٢].

والثابت تماماً أنه عندما فتح العرب المسلمون بيت المقدس لم يكن المسجد الأقصى المعروف في أيامنا، وهو المسجد الكبير الواقع في الجهة الجنوبيّة من الحرم القدسيِّ موجوداً، كما أن مسجد الصخرة لم يكن موجوداً أيضاً لأنهما بنيا في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك، وكل الذي كان موجوداً وقتذاك هو السور بما فيه من ساحات واسعة والصخرة، وهذا هو المراد بالمسجد الأقصى المبارك الذي ورد في سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴿١﴾ ﴾.

والثابت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما كان في بيت المقدس سأل كعب الأحبار عن مكان يبني فيه المسجد. فقال كعب: خلف الصخرة ليجمع المصلى بين القبلتين. فقال عمر رضي الله عنه لكعب: خالطتك يهوديّة لكن نبنيه أمامها، فبناه في قبلي المسجد[٣] في الركن الشرقي الجنوبيّ من ساحة المسجد الأقصى.

---

(١) Creswell, Ashort Account of Early Muslim Architecture (London, 1949), p.33.

(٢) انظر كذلك: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ص٨٩.

(٣) تقي الدين أبي بكر زيد الجراعيّ الحنبليّ: تحفة الراكع والساجد، المكتب الإسلاميّ، بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ويذكر الشيخ عبد الحميد السائح أنه لما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القدس كان أول ما اهتم به إعمار المدينة وترميم الخراب وبنى مسجداً لإقامة الصلاة فيه وبنى المسجد في المدينة لإقامة الصلوات فيه. وأقام عمر بن الخطاب المسجد في قبلي ساحة الأقصى، في الركن الشرقيّ، وهو المعروف حتى الآن بمسجد عمر.

وأورد ابن تيمية في شأن المسجد الأقصى ومسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلي: «المسجد الأقصى اسم لجميع المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام، وقد صار بعض الناس يسمي الأقصى المصلى الذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقدمة. والصلاة في هذا المصلى الذي بناه عمر للمسلمين أفضل من الصلاة في سائر المسجد. قال عمر بن الخطاب لما فتح الله بيت المقدس وكان على الصخرة زبلة عظيمة لأن النصارى كانوا يقصدون إهانتها مقابلة لليهود الذين يصلون إليها، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإزالة النجاسة عنها، وقال لكعب الأحبار: أين ترى أن نبني مصلى المسلمين؟ فقال: خلف الصخرة، فقال: يابن اليهوديّة، خالطتك يهوديّة، بل نبنيه أمامها، فإن لنا صدور المساجد ولهذا كان أئمة الأمة إذا دخلوا المسجد فصلوا قصدوا الصلاة في المصلى الذي بناه عمر، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه صلى في محراب داود»[1].

بناء مسجد عمر بن الخطاب ومظهره: كم يستغرب الإنسان عندما يجد عدداً من المؤرخين المسلمين المشهورين لم يذكروا لنا تفصيلات عن المسجد الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بيت المقدس في المكان الذي بنى عليه الأنبياء والمسلمون الأوائل مسجدهم في تلك البقعة.

وعلى الرغم من ذلك فقد وصلتنا معلومات مفيدة عن بناء المسجد وسعته وشكله ومظهره والمادة البنائية والإنشائية التي استخدمت في بنائه. روى لنا شاهد

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد السابع والعشرون، مطابع الرياض، ص ص١١-١٢.

عيان في القرن الأول للهجرة ما كان عليه مسجد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا الشاهد هو المطران أركولفس « Arculfus » الذي زار القدس في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وذلك حوالي ٥٠هـ/ ٦٧٠م. فذكر هذا الشاهد الذي ساح في القدس والمنطقة، أن المسجد مبني من ألواح الخشب ومن جذوع الأشجار. وبناؤه في حد ذاته بسيط جداً وهو في شكله ومساحته جاء على هيئة مربع، يتسع هذا المربع لثلاثة آلاف من المصلين[١].

وجامع عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتصف بالبساطة التي تغلب على مساجد المسلمين في العهد الإسلاميِّ الأول، خاصة في فترة صدر الإسلام. وعلى الرغم من بساطة هذا المسجد إلا أنه يعد واسعاً إذا قيس بمعايير ذلك العهد، حيث أنه يتسع لثلاثة آلاف من المصلين «وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بإظهار الصخرة وتنظيف مكانها الذي ظل مهجوراً وقذراً طيلة العهد الروماني[٢]، نكاية باليهود وانتقاماً منهم، وظل هذا المكان مهجوراً منذ القرن الخامس الميلاديّ، وظل بذلك ساحة مهملة مهجورة حتى جاء عمر بن الخطاب فأمر بتنظيف الصخرة وإظهارها.

وبناء عليه فإن عمر بن الخطاب كان قد أقام مسجده في موضع كان أصلاً مسجد تقام فيه الصلاة لله عز وجل. وقد ظل هذا المسجد قائماً ويصلي المسلمون فيه فترة طويلة من الزمن، تكاد تكون مستمرة لولا أنه اعتراها ظروف سياسية قاهرة، وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب نصب عينيه إقامة مسجده هذا، وهو أول مسجد بناه المسلمون في بلاد الشام قاطبة، في موضع المسجد الأقصى المتعارف على موقعه آنذاك. مستلهما ومسترشداً بوصف الرسول الكريم ﷺ المسجد الأقصى الذي صلى فيه نبينا محمد ﷺ عند وصوله إلى بيت المقدس في ليلة الإسراء والمعراج، وهي عملية

(١) ارجع في ذلك إلى الموسوعة الفلسطينية، مجلد٢، ص٩٠.

(٢) د.ظاظا، حسن: القدس، ص٤٠.

ذات ظاهرة دينية صحيحة عندما تركز العبادة وتجسد في مسجد كان يصلي فيه المسلمون الأوائل من الأنبياء والصالحين من العباد الذين عبدوا الله وحده لا شريك له.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسجد المعروف باليوم بمسجد عمر بن الخطاب الكائن أمام كنيسة القيامة بالقدس يختلف في مكانه وشكله وطراز بنائه عن المسجد الذي أقامه عمر بن الخطاب على بقعة أرض المسجد القدسيّ الشريف، إذ أن مسجد عمر بن الخطاب اليوم المسمى بالمسجد العمريّ هو مسجد عاديّ وغير مميز، حتى أن ما وردنا من معلومات عن المسجد العمريّ تظل قليلة ونادرة، وأعتقد أن مرد ذلك يعود إلى أن هذا المسجد هو من المساجد العامة وليس له صفة خاصة تميزه أو ينفرد بها. وقد سمي بمسجد عمر بن الخطاب نسبة إلى إقامته في المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب أثناء وجوده في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة، فرفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصلي في كنيسة القيامة على الرغم من إلحاح البطريرك صفرونيوس عليه، خوفاً من أن يتخذها المسلمون مسجداً فيما بعد، دلالة على احترم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعهوده ومواثيقه مع الآخرين، ودلالة على مدى التسامح الدينيّ لدى المسلمين تجاه أتباع الديانات السماويّة الأخرى.

وجامع عمر بن الخطاب بناه اليوم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن صلاح الدين الأيوبي أثناء سلطنته على دمشق، وأقيم هذا الجامع في الجهة الجنوبيّة الغربيّة بالقرب من كنيسة القيامة ولا يفصل بينهما سوى شارع ليس بعريض، كما أن الأفضل هذا كان قد وقف المدرسة الأفضلية الواقعة في حارة المغاربة على جماعة المغاربة المقيمين في بيت المقدس(١). ويكون الملك بالأفضل قد شيد في القدس مسجد عمر بن الخطاب أو ما يسمى اليوم بمسجد عمر بن الخطاب

---

(١) الفرحان، يحيى: قصة مدينة القدس، سلسلة المدن الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ص٦٩.

والمدرسة الأفضلية نسبة إلى لقبه.

ورد نص في مجلة القدس بخصوص هذا المسجد جاء فيه: «مسجد الملك الأفضل المعروف اليوم بالمسجد العمري، وهو من مساجد القدس القديمة، عمره الملك الأفضل بن صلاح ا لدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م. ورممه السلطان عبد المجيد العثماني. وكان هذا المسجد موجوداً في هذا المكان قبل العصر الأيوبيّ، والأرجح أنه بني في الفترة الإسلامية الأولى في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب أمام كنيسة القيامة وفي باحتها. وهناك من يعتقد أنه من المساجد العمرية القديمة، أن أن بانيه كان الخليفة عمر بن الخطاب»[١].

ويقول الشيخ عبد الحميد السائح: «وكانت القدس من نصيب ابن صلاح الدين علي الملقب بالملك الأفضل أبي الحسن نور الدين، وهو الذي أنشأ المدرسة الأفضلية بحارة المغاربة، وأنشأ أيضاً المسجد العمريّ في الجهة الجنوبية لكنيسة القيامة على المكان الذي يعتقد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلى فيه، حينما امتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة[٢].

الصخرة المشرفة: يعتقد البعض أن النبي محمد ﷺ صعد إلى السماء من عند صخرة بيت المقدس[٣] التي هي ضمن أرض المسجد القدس المبارك، أو بمعنى آخر هي موقع من مواقع المسجد الأقصى الذي باركه الله وطهره وقدسه.

ويأتي موقعها في وسط ساحة المسجد القدسي في القسم الجنوبيِّ الشرقيِّ من مدينة بيت المقدس[٤]. ومن مصدر قدسية تلك الصخرة أن الملائكة يصعدون منها إلى

---

(١) مجلة القدس الشريف، مقال للدكتور كامل العسلي، زيارة إلى التراث في بيت المقدس، الحلقة الرابعة، ص٧١ وما بعدها.

(٢) السائح، مقال عن بيت المقدس، ص١٠٨.

(٣) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص١١٩.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص٢٣.

السماء، وهي المكان الـذي صـعد منـه النبـي ﷺ إلى الـسماوات العـلى في ليلـة الإسراء والمعراج، وهي المكـان الـذي ينـادى منـه النـاس يـوم القيامـة[١]. ويقـول عـدد مـن المفسرين[٢] إن إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي يا أيها الناس: هلموا إلى الحساب إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء وهذه هي النفخة الأخيرة. وقد بنـوا تفسيرهم هذا على تفـسير الآيـة الكريمـة: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ق].

وهذه الصخرة هي التي ورد ذكرها في حديث الرسول الكريم ﷺ الذي رواه أبو هريره رضي الله عنه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «صليت ليلة أسري بي إلى بيت المقدس عن يمين الصخرة». والصخرة هذه هي قبلة المـسلمين الأولى وقبلـة اليهود أيضاً، ومنها عرج الرسول الكـريم ﷺ إلى الـسماوات وإلى سـدرة المنتهـى[٣]. وقال عمر بن الخطاب إن الرسول الكريم ﷺ قال: «وصليت ليلة أسري بي في مقـدم المسجد ثم دخلت الصخرة»[٤].

يقول علي بن الحسين الهرويّ وهو سائح فارسيّ متصوف عـن الـصخرة «في القدس قبة الصخرة، وهو موضع به عرج يالنبي، والصخرة التي عرج عليها، وقدمه عليها، وهذه الصخرة رأيتها في زمن الإفرنج، شمالي هذه القبة، ودايرها درابزين مـن

(١) د.شبير، محمد عثمان: بيت المقدس وما حوله، ص٣٩.

(٢) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، جـ٨، بيروت ١٩٦٤م، ص٢٤؛ ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، جـ٤، بيروت، ص٢٣٠؛ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، جـ١٧، بيروت ١٩٦٥م، ص٢٧؛ شبير: بيت المقدس، ص٣٩؛ والأنس الجليل، جـ١، ص١٢٧.

(٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، تصحيح وتعليق محمد علي الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ، ص٤٢٥.

(٤) رواه القاضي عياض في كتابه: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى.

الحديد... وتحتها مغارة الأرواح، ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها[1].

ويقول ابن عبد ربه: «فإذا دخلت الصخرة فصل في أركانها وصل على البلاطة التي تسمى الصخرة فإنها على باب من أبواب الجنة»[2].

ويقول مجير الدين الحنبليّ عن الصخرة: «يستحب لمن أراد الدخول إلى الصخرة الشريفة أن يجعلها عن يمينه حتى يكون بخلاف الطواف حول البيت الحرام، ويقدم النية ويعقد التوبة بالإخلاص لله تعالى... إن أحب المسلم أن ينزل تحت الصخرة المشرفة في المغارة فليفعل، فإذا نزل يكون بأدب وخشوع ويصلي ما بدا له ويدعوا بدعاء سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء مسجده[3].

وروى الإمام أحمد بن حنبل في سنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: «يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس؟. قال: «أرض المحشر والمنشر».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصخرة: «أما الصخرة فلم يصل عندها عمر رضي الله عنه، ولا الصحابة ولا كان على عهد الخلفاء الراشدين عليها قبة، بل كانت مكشوفة من خلافة عمر وعثمان وعلي ومعاوية ويزيد ومروان»[4].

ويقول أيضاً: «وما أهل العلم والصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظمون الصخرة فإنها قبلة منسوخة... والصخرة إنما يعظمها اليهود وبعض النصارى... ويذكر بعض الجهال أن الصخرة أثر قدم النبي ﷺ، وأثر عمامته وغير ذلك، فكله كذب، وأكذب منه من يظن أنه موضع قدم الرب»[5].

---

(١) الهرويّ، الإشارات في معرفة الزيارات، أورد ذلك الدباغ في كتابه بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١).

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، مجلد٦، دار الكتاب العربيّ، بيروت. (بدون).

(٣) الحنبليّ: الأنس الجليل، جـ١، ص١٢٩.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، المجلد السابع والعشرون، ص ص١٢-١٣.

(٥) ابن تيمية: الفتاوى، جـ٢٧، ص١٣.

بناء مسجد الصخرة: على الرغم من أن أكثر المؤرخين والكتاب قالوا بأن موقع مسجد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في موضع المسجد الأقصى (الكبير) اليوم، إلا أن روايات بعض المؤرخين تفيد بأن موقع مسجد عمر بن الخطاب كان في موضع مسجد قبة الصخرة اليوم، أو أنه كان يضم هذا المسجد في مساحته العامة، علماً بأن أرض المسجد الأقصى الشاملة والكاملة كلها أرض مسجد وكلها أرض باركها الله تعالى، بخاصة وأن كلاً من المسجد الأقصى (الكبير) ومسجد قبة الصخرة يقعان داخل سور المسجد القدسيّ ولا يوجد سور لأي منهما وهما جزء من المسجد القدسي.

ومن الروايات التي تفيد بأن موقع مسجد عمر بن الخطاب كان في موقع مسجد قبة الصخرة اليوم، أو بمعنى آخر أن مسجد قبة الصخرة اليوم كان موقعه جزء من موقع مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تأتي رواية سعيد بن البطريق وهو من مواليد الفسطاط، وكان بطريركاً في الإسكندرية، وقد عني بالتاريخ والطب، ونظم كتاباً سماه: نظم الجوهر أو ما يعرف باسم «التأريخ المجموع على التحقيق والتصديق». فقد أورد ابن البطريق في كتابه هذا في جزئه الثاني ما يلي: «ثم إن عمر بن الخطاب قال لصفرونيوس: وقد وجب لي عليك حق وذمام فأعطني موضعاً أبني فيه مسجداً. فقال له البطريرك: أنا أعطي أمير المؤمنين موضعاً يبني فيه مسجداً عجز ملوك الروم عن بنائه، وهي الصخرة التي كلم الله يعقوب عليها. وسماها يعقوب «باب السماء» وسماها بنو إسرائيل «قدس القدس»، وهي في وسط الأرض. «وكانت هيكلاً لبني إسرائيل»، وكان بنو إسرائيل يعظمونها حيث إذا صلوا تكون وجوههم إليها، على أن تكتب لي سجلاً أن لا يبنى في بيت المقدس غير هذا المسجد وحده[1].

---

(١) يبد لي أنه من المستبعد تصديق رواية ابن البطريق في شأن قول صفرونيوس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «على أن تكتب لي سجلاً أن لا يبنى في بيت المقدس غير هذا المسجد وحده». فابن البطريق نصرانيّ شغل وظيفة بطريرك في الإسكندرية أولاً، ثم إنه لم يعثر على نص=

ويتابع ابن البطريق كلامه قائلاً: «أخذ صفرونيوس بيد عمر، فأوقفه على المزبلة، فأخذ عمر بطرف ثوبه فملأه تراباً، ورمى به في وادي جهنم (الوادي الذي يطل عليه المسجد الأقصى). فلما نظر المسلمون أن عمر بن الخطاب قد حمل التراب في حجره، لم يتأخر أحد من هؤلاء حتى حمل التراب في حجره، وفي الثياب والأتراس، وفي الزنابيل والأحانين، حتى نقوا الموقع ونظفوه، واستبانت الصخرة. فقال البطرك: قوم (قم) نبني المسجد ونصير الصخرة في القبلة، فقال عمر: لا بل نبني المسجد ونصير الصخرة في آخر المسجد. فبنى عمر المسجد وصير الصخرة في آخره».

والواضح أن المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب يضم موضع المسجد الذي أقامه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي على الصخرة والذي يعرف اليوم بمسجد الصخرة وأحياناً بمسجد قبة الصخرة. وبما أن مسجد عمر بن الخطاب كان واسعاً وبسيطاً وغير مكلف. فمن المحتمل أن يكون موقع مسجد الصخرة اليوم كان يدخل ضمن مساحة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فبالإضافة إلى مساحة المسجد الأقصى (الكبير) القائم في أيامنا الحاضرة.

وتؤيد رواية البكريّ في كتابه معجم ما استعجم، الجزء الثاني من هذا الاتجاه. يقول البكري: «الصخرة هي بيت المقدس نفسه... إن عمر بن الخطاب لما ولي زار

=مسجل من ابن الخطاب في شأن هذا الأمر. وكل الذي كتبه وسجله ابن الخطاب لصفرونيوس ولنصارى القدس ورد في الوثيقة التاريخية المعروفة في التاريخ باسم العهدة العمريّة. والعهدة المدونة تخلو تماماً من هذا النص أو نص يشبهه، كما أن معلوماتها ومحتوياتها وبنودها تخلو تماماً من أي معنى يشير إلى هذا الأمر لا من قريب ولا من بعيد، لا ظاهراً ولا باطناً. كما أن المسلمين لم يتقيدوا أبداً في هذا النص أو مثله لأن عدد المساجد المبنية في بيت المقدس وصل إلى أربعة وثلاثين مسجداً، فبالإضافة إلى المسجدين الكبيرين: الأقصى ومسجد الصخرة، منها سبعة وعشرون مسجداً في المدينة القديمة داخل أسوار القدس، وسبعة أخرى خارج الأسوار، ولمعرفة المزيد من التفصيلات راجع: الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(٢)، ص٢٣٦، وغيرها.

أهل الشام فنزل الجابية... فافتتح القدس صلحاً، ومعه كعب الأحبار. فقال عمر يا أبا اسحق أتعرف موضع الصخرة؟ قال أبو إسحق: أذرع من الحائط الذي يلي وادي جهنم كذا ذراعاً، ثم احفر فإنك تجدها، وهي يومئذ مزبلة، فحفروا فظهر لهم. فقال عمر لكعب الأحبار: أين ترى أن يجعل المسجد؟ أو قال: القبلة. فقال كعب خلف الصخرة، فتجمع القبلتين، قبلة موسى وقبلة محمد. فقال عمر: ضاهيت اليهود يا أبا إسحق خير المساجد مقدمها، فبناها في مقدمة المسجد...».

ويؤيد هذا الاتجاه ما يقوله روجيه غارودي: «وكان الخليفة عمر بن الخطاب بعد دخوله القدس قد بنى مسجداً متواضعاً من الخشب عام ٦٣٧م على سطح مقفر من الأرض تعلوه بقايا الآثار... وفي هذا الموضع شيد الخليفة الأموي عبد الملك مسجد الصخرة المجاورة المعروفة بكنيسة القيامة، والذي يشبهها أشد الشبه. إن مسجد الصخرة رمز للوحدة القائمة بين الديانات السماويّة الثلاث واستمراريتها»[١].

ويؤيد هذا الرأي الأستاذ الدباغ فيقول: «قبة الصخرة من أهم وأبدع آثار الأمويين، كما أنها أقدم أثر إسلامي في تاريخ العمارة الإسلامية وتعتبر هذه البقية عند معظم مؤرخي الفنون أعظم العمارات الإسلامية في الجمال والفخامة وإبداع الزخرفة، كما تمتاز عنها ببساطة التصميم وتنسيق الأجزاء، تم بناؤها سنة ٧٠هـ (٧٢هـ)/ ٦٩١م على مكان الجامع البسيط الذي أقامه عمر بن الخطاب[٢].

ويدعم هذا الاتجاه أيضاً الإفرنج الذين ظلوا يسمون مسجد الصخرة بمسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مهما كان في هذه التسمية من صواب أو خطأ

---

(١) غارودي، روجيه: فلسطين أرض الرسالات السماويّة، ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم، دكشق، دار طلاس ١٩٨٨م، ص١٢٥.

(٢) الدباغ: بيت المقدس(١)، ص١٩٩.

فيذكر فيليب حتى أن تسمية الإفرنج قبة الصخرة بمسجد عمر تسمية خاطئة[1]. فنلحظ أن الإفرنج ظلوا يسمون مسجد الصخرة بمسجد عمر بن الخطاب، وقد تناقلوا ذلك بغض النظر عن مدى الصحة في تلك التسمية.

وروى شهاب الدين المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أن موقع مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو في مكان الصخرة. ومن هنا نلحظ أن عدداً من الكتاب والمؤرخين غير المحدثين يرون أن مسجد قبة الصخرة بني في مكان مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو على الأقل فإن مسجد عمر في كليته وشموليته كان يضم مسجد قبة الصخرة إلى جانب المسجد الأقصى اليوم.

بناء عبد الملك بن مروان لقبة الصخرة المشرفة: حضر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى مدينة القدس وفكر أن يبني قبة كبيرة على الصخرة، لتقي المسلمين الحر والبرد، وتكون غطاء لمسجد يصلي فيه الناس. وقبل أن يبدأ في التنفيذ كتب إلى عماله في الأمصار يخبرهم بذلك، كعملية عرض واستشارة، فجاءت الردود بالتأييد، «إن شاء الله يتم له ما نوى من بناء بيته وصخرته ومسجده، ويجري ذلك على يده ويجعله تذكرة له ولمن مضى من سلفه»[2].

واهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالأمر كثيراً وباشر في التنفيذ ورصد لهذا البناء خراج مصر لسبع سنوات كاملة، ويقع مسجد الصخرة وقبته في وسط الساحة من أرض المسجد القدسيّ، الموقع الذي فيه الصخرة، وأهم مظهر فني في هذا البناء يتمثل في قبة المسجد التي صممت على شكل مثمن. وتدل عناصرها الفنية على مدى تأثر العمارة الإسلامية وقتذاك بالعمارة السائدة في بلاد الشام خاصة في عهدي دولة بيزنطة والدولة الرومانية الأم، وقد شرع في بناء هذا المسجد عام ٦٨هـ/ ٦٨٨م، وانتهى منه في عام ٧٢هـ/ ٦٩١م، وترتكز القبة المثمنة على رقبة مستديرة مستندة على

---

(١) حتى، فيليب: تاريخ العرب، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٨٣.

(٢) الحنبليّ: الأنس الجليل، جـ١، ص٢٧٢.

ورق مستدير، ومحمولة على أربعة أركان من الرخام الأبيض المشجر، واثني عشر عموداً موزعة، ويتخلل القبة المثمنة ست عشرة نافذة[1].

والواقع أن بناء مسجد الصخرة وقبته الجميلة يشهدان بكل صدق وإكبار على ما تحلى به المعماريون السوريون من فن وذوق معماريّ لا يجاري وقتذاك. فالأركان والأعمدة قد بنيت بشكل محروف، حتى أن الداخل إلى المسجد من أي جهة تظهر أمامه جميع أطراف المكان دون أن يقاطع بصره شيء من الأبنية فيرى القسم القريب والبعيد، مما أكسب البناء روعة وجمالاً وجلالاً، واتساعاً أكثر مما هو عليه في الحقيقة، ولا شك أن راصفة الفسيفساء لم يكونوا أقل خبرة ومهارة من البنائين. فهناك مهارة فائقة ظاهرة في الزخرفة...»[2].

وتعد قبة الصخرة من أهم وأروع آثار الأمويين، وهي أيضاً أقدم أثر إسلاميّ في تاريخ العمارة الإسلامية. وعهد بإدارة هذا العمل العمرانيّ في المسجد المقدسيّ لرجاء بن حيوة الكنديّ ويزيد بن سلام المقدسيّ[3] ويعلق الأستاذ مصطفى الدباغ على ما وصل إليه الفن المعماري في بناء مسجد الصخرة وقبته بقوله: «ويبدو أن هدف عبد الملك من بناء هذا المسجد الفخم يعود إلى أن تتضاءل ضخامة وفخامة جارته

---

(١) لمزيد من التفصيلات ارجع إلى: الموسوعة الفلسطينية، مجلد٣، ص ص٢٣-٢٤. وكذلك الدكتور صفوان التل: بناء وزخارف قبة الصخرة في القدس، المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام. ود.عبد الفتاح أبو علية ود.عبد الحليم عويس، بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ، دار المريخ للنشر، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ص٤٠-٤٣. ود.محمد عبد الستار عثمان: نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة، مجلة العصور، العدد يوليو ١٩٨٨م، المجلد الثالث، الجزء الثاني، وكذلك عدد يوليو ١٩٩١م، المجلد السادس، الجزء الثاني.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص٢٤.

(٣) الدباغ: بيت المقدس(١)، ص١٢٠، لمعرفة المزيد عن آراء علماء الفن تجاه قبة الصخرة، ارجع إلى: العارف، عارف: تاريخ قبة الصخرة، ص ص٧٣-٧٥.

كنيسة القيامة وغيرها من كنائس المسيحيين في بلاد الشام»[1].

وروى اليعقوبي في تاريخه[2] أن قصد عبد الملك بن مروان من بناء قبة الصخرة هو صرف الناس عن حج بيت الله الحرام إلى حج المسجد الأقصى بحجة الثورة القائمة في الحجاز تحت قيادة عبد الله بن الزبير المعادي لعبد الملك بن مروان. ولم يرو هذه الرواية إلا اليعقوبي من المؤرخين المسلمين الأوائل.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذا الموضوع في مجموع الفتاوى فيقول: «... ولكن لما تولى ابنه عبد الملك الشام، ووقع بينه وبين ابن الزبير الفتنة كان الناس يحجون فيجتمعون بابن الزبير، فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن ابن الزبير فبنى القبة على الصخرة وكساها في الشتاء والصيف ليرغب الناس في زيارة بيت المقدس، وينشغلوا بذلك عن اجتماعهم بابن الزبير»[3].

والواقع أن القارئ لهاتين الروايتين يجد اعتدالاً شديداً في رواية ابن تيمية الذي قال: «إن عبد الملك بن مروان أراد أن يصرف الناس عن ابن الزبير فبنى القبة على الصخرة ليرغب الناس في زيارة بيت المقدس، وينشغلوا بذلك عن اجتماعهم بابن الزبير».

أما رواية اليعقوبي الذي انفرد بها فتذكر أن عبد الملك بن مروان أراد أن يصرف الناس عن حج بيت الله الحرام إلى حج المسجد الأقصى بسبب الثورة القائمة في الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير. وعليه ترفض رواية اليعقوبي هذه وذلك للأسباب التالية:

١- لأن اليعقوبي يكره بني أمية، وهو صاحب نزعة شيعية علويّة مغايرة تماماً

(١) الدباغ: بيت المقدس(١)، ص١٢١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢، دار صادر، بيروت، ص٢٦١.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المجلد٢٧، ص ص١٢-١٣.

للنزعة الأمويّة، فهو عباسيّ النزعة إلى حد كبير.

٢- إن المعروف عن عبد الملك بن مروان أنه من خيرة العلماء التابعين والفقهاء، حتى قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب: «إنكم معشر أشياخ قريش توشكون أن تنقرضوا، فمن نسأل بعدكم؟ فقال ابن عمر: إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه. فهل يقوم مثل هذا الرجل بتغيير موقع أحد أركان الإسلام، وهو الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، وهو يعلم أن الحج هو الوقوف على عرفة؟.

٣- إن بناء مسجد كبير فوقه قبة كبيرة عالية يحتاج إلى جهد عمرانيّ مميز، ويحتاج معه إلى وقت طويل، إذ استغرق بناء هذا المسجد بقبته مدة طويلة من الزمن امتدت من سنة ٦٨-٧٢هـ/ ٦٨٨-٦٩١م، فمن يضمن استمرار الفتنة طيلة هذه المدة أو غيرها، فعلم ذلك عند الله عز وجل وخارج عن دائرة معرفة الإنسان. وبالفعل فقد قضى الحجاج على ثورة ابن الزبير في الحجاز عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م[١].

٤- كم يستغرب القارئ وتصيبه الدهشة عندما يقرأ رواية اليعقوبي التي تقول بأن عبد الملك بن مروان كان منع أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس وقالوا تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا. فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس. وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام. وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها إلى السماء تقوم مقام الكعبة. فهل كان المسلمون وقتذاك في صدر الإسلام من السذاجة بمكان كي يقبلوا بهذا العرض البديل؟ وهل يعقل أن يصدر هذا الكلام عن عبد الملك بن مروان الذي اعتنى بأمر المسلمين ومساجدهم وجوامعهم؟ وهل يعقل أن

---

(١) حتّى: تاريخ العرب، ص٢٦٨.

يقبل علماء بلاد الشام بمثل هذه الحجج الساذجة؟. ولعل من المفيد أن يكون بناء تلك القبة الرائعة ليضاهي بها عبد الملك كنائس النصارى في القدس وليظهر عز الإسلام وشموخه[1]، ولتكون بيوت الله لأداء الصلاة فيها.

أما عن بناء القبة فوق الصخرة تظلها وتظل مسجدها، فهذا أمر تعود عليه فن البناء الإسلامي في المساجد والجوامع الكبيرة والصغيرة. ونظرة على المساجد والجوامع التي ما زالت ماثلة والتي بنيت في حقب تاريخية مختلفة من حقب التاريخ الإسلاميّ الشامل لهي خير دليل على ما قطعه الفن الإسلاميّ من مرحلة عمرانية متطورة، يتباهى بها جميع المسلمون في الدنيا.

كما أن إقامة مسجد الصخرة في مكانه هذا هو جزء من الموقع الكامل للمسجد القدسيّ الذي يعد مسجداً واسعاً للمسلمين، وإن كل الأرض الداخلة في سوره هي أرض المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. كما أن عدداً من الروايات التاريخية كما أسلفنا تبين أن مسجد عمر بن الخطاب كان يشمل موقع مسجد الصخرة الحالي. فمسجد الصخرة قائم عليه مسجد كما هو الحال بالنسبة للمسجد الأقصى اليوم فهو قائم على مسجد أيضاً. ومن هنا تأتي الأهمية الدينيّة للمسجد القدسيّ الشريف بمسجديه الأقصى والصخرة وباقي أرضه المباركة.

وخلاصة القول فإن المسجد القدسيّ بأبنيته الرائعة وجماله الفني من حيث نشأته العمرانية، يظل دلالة ثابتة على مدى عناية المسلمين ببيوت الله كبيرها وصغيرها، وهي ظاهرة توازي ظاهرة تمسك أولئك بدينهم الإسلامي الحنيف على مر تاريخهم الإسلامي الطويل. وهذا الأمر شهد لهم فيه القاصي والداني. قال الأستاذ الكابتن كرزويل «Creswell» أستاذ فن العمارة الإسلامية بجامعة القاهرة سابقاً:

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يرجع إلى: د.محمد عبد الستار عثمان، دلالات سياسية دعائية للآثار الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، مجلة العصور، عدد يناير ١٩٨٩م، المجلد الرابع، الجزء الأول.

«لقبة الصخرة أهمية ممتازة في تاريخ فن العمارة الإسلاميّة. فقد بهرت ببنائها ورونقها وفخامتها وسحرها وتناسقها ودقة نسبها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين»[1]. وقال البرفسور ت.هايتر لويس «T.Hayter Lewis» «إن مسجد الصخرة بلا شك من أجمل الأبنية فوق البسيطة، لا بل إنه أجمل الآثار التي خلدها التاريخ»[2]. وقال ابن بطوطة عن قبة مسجد الصخرة: «وهي من أعجب المباني المباني وأثمنها وأغربها شكلاً، وقد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشر في وسط المسجد يصعد إليها في رخام، ولها أربعة أبواب، والدار بها مفروض بالرخام أيضاً محكم الصنعة وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشي بالذهب فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكر في الآثار، فإن النبي ﷺ عرج منها إلى السماء، وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها، أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة ورقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون أنها ورقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه»[3].

وقد وصف لنا ابن الفقيه في كتابه «مختصر كتاب البلدان» القبة فقال: «والقبة بناها عبد الملك بن مروان على إثني عشر ركناً وثلاثين عموداً. وهي قبة عليها صفائح

---

(١) العارف، عارف: تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، طبعة القدس ١٩٩٥م، ص ص٧٤-٧٥.

(٢) العارف: تاريخ قبة الصخرة، ص٧٥.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨مم، ص٥٨.

الرصاص وصفائح النحاس مذهبة جدرها من الداخل وملبسة من الخارج بالرخام الأبيض».

ووصف ابن عبد ربه مسجد الصخرة في كتابه «العقد الفريد» فقال: «والعمد التي داخل الصخرة ثلاثون عموداً، والعمد التي خارج الصخرة ثمانية عشر عموداً، وفيه الصخرة الملبسة صفائح الرصاص عليها ثلاثة آلاف صفحة وثلاثمائة واثنتان وتسعون صفيحة، ومن فوق ذلك صفائح النحاس مطلية بالذهب يكون عليها عشرة آلاف صفيحة، ومائتا وعشر صفائح، وجميع ما يسرج في الصخرة من القناديل أربعمائة قنديل وأربعة وستون قنديلاً بمعاليق النحاس وسلاسل النحاس...».

ووصف الاصطخري في كتابه «المسالك والممالك» قبة الصخرة فقال: «وعلى الصخرة قبة عالية مستديرة الرأس، قد غشيت بالرصاص الغليظ السمك، وارتفاع هذه الصخرة من الأرض إلى صدر القائم، وطولها وعرضها ما متقارب، وعليها حصار حائط ملوح، ويكون نصف قامة، ومساحة الحجر بضعة عشر ذراعاً في مثلها.

قال المقدسي الذي يتباهى ببلده في مؤلفه «أحسن التقاسيم»: وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة: باب القبلة، باب إسرافيل، باب الصور، باب النساء يفتح إلى الغرب جميعها مذهبة..، والقبة ثلاثة ساقات: الأولى من ألواح مزوقة، والثانية من أعمدة الحديد، قد شبكت لئلا تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح. وفي وسطها طريق إلى عند السفود، يصعدها الصناع لتفقدها ورمها. فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة، وتلألأت المنطقة، ورأيت شيئاً عجيباً. وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة».

وقال ناصر خسرو في رحلته «سفر نامة»: بني المسجد بحيث تكون الدكة في وسط الساحة، وقبة الصخرة في وسط الدكة والصخرة وسط القبة، وقبة

الصخرة بيت مثمن منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعاً وله أربعة على الجهات الأربع الأصلية... ومحيط الصخرة مائة ذراع، وهي غير منتظمة الشكل، لا هي مدورة ولا هي مربعة، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل...».

وقال الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق»: «في وسط الجامع قبة عظيمة تعرف بقية الصخرة المسماة بالواقعة، وهو حجر مربع كالدرقة في وسط القبة... ولهذه القبة أربعة أبواب. والباب الغربي منه يقابله مذبح كان بنو إسرائيل يقربون عليه القرابين، وبالقرب من الباب الشرقي من أبواب هذه الشرقي من أبواب هذه القبة، المسماة قدس القدس، وهي لطيفة القدر، والقبلي منها يقابله المسقف الذي كان مصلى للمسلمين.

بناء المسجد الأقصى في العهد الأموي

يعرف المسجد الأقصى الذي بناه الأمويون بالمسجد الكبير في المسجد القدسي الشريف، وهو بالفعل أكبر و أوسع مما هو عليه مسجد الصخرة، وبالتالي فإن مساحة هذا المسجد هي جزء من المساحة العامة لأرض المسجد القدسي. وهو يجاور مسجد الصخرة. ويذكر عدد المؤرخين والكتاب غير المحدثين أن هذا المسجد أقيم في المكان نفسه الذي أقيم عليه مسجد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو أن مساحة المسجد الكبير هذا هي جزء من مساحة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويبلغ طول المسجد الأقصى (الكبير) في حدود الثمانين متراً . ويبلغ عرضه في حدود خمسة و خمسين متراً. يقوم المسجد على ثلاثة وخمسين عموداً من الرخام بينها تسع وأربعون سارية مربعة الشكل مبنية من الحجارة ، ويبلغ ارتفاع العمود الواحد خمسة أمتار ويبلغ طول ارتفاع السارية الواحدة خمسة أمتار أيضاً . وتأتي فوق الأعمدة وتلك السواري أقواس حجرية اتساع كل واحد منها تسعة أمتار ، وترتبط

الأعمدة بروابط نحاسية[1].

موقعه: ويقع المسجد الأقصى على بعد نحو خمسمائة متر إلى الجنوب من مسجد الصخرة وقد شرع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في إقامته عام ٧٤هـ-٦٩٣م . بعد أن أتم بناء مسجد الصخرة، وتجد الإشارة هنا إلى أن المسجد الأقصى قد أتم بناءه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان. وجاء في معجم البلدان بان المسجد الأقصى طويل عريض وطوله أكثر من عرضه، وهو في غاية الحسن والإحكام، مبني على أعمدة من الرخام، ملون بالفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منها[2]،وتذكر المصادر التاريخية أن للمسجد سبعة أبواب يتوسطها باب هو أعلاها جميعاً ، وعندما يدخل المرء من احد الأبواب يجد بهواً أوسط يعلو على الأبهاء الجانبية الأخرى. وللمسجد الأقصى قبة يبلغ ارتفاعا سبعة عشر مترا من سطح الأرض . وغطت تلك القبة بالفسيفساء وبرسوم ذات أشكال نباتية مختلفة[3].

وجاء في الأنس الجليل أن أبواب المسجد الأقصى كانت ملبسة بصفائح الذهب والفضة، إلا أن أبا جعفر المنصور ، الخليفة العباسي أمر برفع هذه الصفائح وصرفها دنانير أنفقها على إصلاح المسجد وقبة الصخرة بعد تصدعها من الزلزال الذي أصابها عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م ، وكان أهل بيت المقدس هم الذين طلبوا من أبي جعفر المنصور ترميم ما أصاب المسجد القدسي من خراب ودمار بسبب تلك

---

(١) العابدي، محمود: الآثار الاسلامية في فلسطين والأردن، من موضوع «المسجد الأقصى»؛ انظر كذلك د.عبد الفتاح حسن أبوعليه و د.عبد الحليم عويس: بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ ، دار المريخ للنشر بالرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ص ٤٣-٤٤.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،جـ٥، دار صادر، بيروت١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، ص١٩٨.

(٣) العابدي: الآثار الإسلامية ؛ أنظر كذلك : النتشة وياغي وأبوعليه: تاريخ مدينة القدس ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٤م، ص ص ٤٩-٥٠.

الزلزلة[1]. وتجدر الإشارة هنا أن المآذن والمحاريب التي أقامها الأمويون في المسجد القدسي كانت من أقدم ما عرفته بلاد الشام في جوامعها ، فالأمويون هم أول من استحدث المئذنة[2].

أوصاف المسجد الأقصى : وصف الاصطخري مسجد بيت المقدس بقوله ((و بها مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه ، تسرج فيه في الليلة خمسة آلاف قنديل وله سبعون خادماً[3].ويدل هذا دلالة قاطعة على ما يتحلى به المسجد الأقصى من مكانة مرموقة لدى المسلمين بوصفه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة]. وروى البخاري عن النبي محمد ﷺ ، قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، ومسجد الحرام ومسجد الأقصى»... وجاء هذا الحديث بنص آخر هو: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد الحرام، ومسجد الأقصى ، ومسجدي».

وجاء في الموسوعة الفلسطينية عن أهمية المسجد الأقصى ومكانته ما يلي: للمسجد الأقصى مكانة رفيعة في السلام بوصفه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسجد الإسراء والمعراج. وكان له أثر عظيم على مدى التاريخ في الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية في فلسطين . وقد حفل عبر القرون بالنشاط التدريسي ، فكان من أكبر مراكز التعليم لديني في الإسلام ، ومركز الاحتفالات الدينية الكبرى ومقر الحياة السياسية ، تعقد فيه الاجتماعات، وتتلى فيه المراسيم

(١) الحنبلي: الأنس،ص١٨١ .

(٢) راجع ذلك في العابدي: نحن والآثار، عمان١٩٧٣م، ص٩٦ وما بعدها؛ كذلك: الآثار الإسمية،ص ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) الاصطخري: المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦١م، ص٤٣.

السلطانية وبراءات تعيين كبار الموظفين[1].

يُلحظ أن اسم المسجد الأقصى أُطلق في فترات زمنية على لمسجد الكبير الذي بناه عبد الملك بن مروان وأتمه ابنه الوليد بن عبد الملك ، وما زال هذا الاسم متداولاً حتى أيامنا الحاضرة ، وبهذا يكون المسجد الأقصى قد شمل اسمه كل منطقة المسجد القدسي ، بينما هو في الواقع يشكل جزءاً متواضعاً من هذه البقعة الدينية المباركة. لأن اسم المسجد الأقصى الشامل يعني كل المنطقة التي أحاط بها السور ، مما يوجد في ساحة المسجد القدسي ، فالمسجد الأقصى مفهومه الصحيح والشامل يقصد به : المسجد الاقصى في أيامنا الحاضرة والمعروف بالمسجد الكبير الذي تقام به صلاة الجمعة ، وما تزال ، والصخرة ومسجدها ، وجامع عمر بن الخطاب الذي يقع بظاهر المسجد الأقصى من جهة الغرب في صحن المسجد وكانت تقام فيه صلاة الجمعة المالكية[2] وفي هذا دلالة قاطعة على ان المسجد الاقصى اليوم يقع في مكان مسجد عمر بن الخطاب أو على جزء منه ، وجامع المغاربة ويقع في الجانب الغربي من المسجد الأقصى ويعتقد ان الفاطميين هم الذين بنوه[3].وجامع النساء الواقع بجوار الزاوية الختنيّة[4]،ودار الخطابة التي تقع خلف منبر المسجد الأقصى[5]،والزاوية الختنية التي تقع بحارة المشارقة في شرقي القدس ، والزاوية البسطامية وتقع شرقي قبة الصخرة على بعد عدة أمتار من بابها المعروف بباب داود[6]،وقبة السلسلة وتقع غربي مسجد الصخرة باتجاه الشمال وقيل إنها بنيت لتكون ذكرى لعروج الرسول الكريم ﷺ الى

(١) الموسوعة الفلسطينية، المجلد ط ٤، ص ٢٠٤.

(٢) الأنس الجليل،جـ٢،ص١٣.

(٣) الأب مرمرجي الدومنكي: بلدانيّة فلسطين العربية، عالم الكتب، بيروت (بدون) ص٧٣.

(٤) الأنس الجليل جـ٢،ص١٣.

(٥) الأنس الجليل، جـ٢، ص٢٤.

(٦) الأنس الجليل، جـ٢،ص١٨.

السماء[1]،وقبة المعراج وهي تقع تجاه باب السلسلة أنشئت بأمر مـن الملـك الـصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٩هـ[2]،وقبة موسـى عليه السلام والقبـاب الأخـرى[3]،والمـآذن والأروقة والمنابر والمصاطب والأبواب والآبار وغرف الاقامة والسكن وغير ذلك بما هو موجود داخل سور المسجد القدسيّ[4].

وذكر ياقوت الحموي المسجد الاقصى في مؤلفه معجـم البلـدان فقـال: « إن المسجد الأقصى هو في الطرف الشرقي من القدس نحـو القبلـة أساسـه عمـل داود ، وهو طويل عريض ، وطوله اكثر من عرضه ، وفي نحو القبلة المصلى الذي يخطب فيه الجمعة »[5].

وقال فيليب حتيّ عن هذا المسجد: « لقـد شـيد عبـد الملـك مـسجداً آخـر بالقرب من القبة في القسم الجنوبي من الحرم في مكان لعله كان موقع كنيسة قديمـة ، ولقد أطلق الأهلون على هذا اسم المسجد الاقصى ، ولكـن قـد يطلـق هـذا الاسـم بمعنى اعم على جميع الابنية المقدسة في هذه البقعة وتعرف هذه الابنية أيـضا بـالحرم الشريف»[6].

---

(١) الأنس الجليل، جـ٢، ص١٩.

(٢) الأنس الجليل، جـ٢، ص٢١.

(٣) الأنس الجليل، جـ٢،ص ص ٢١-٢٢؛ أن هذه القباب هي أماكن للصلاة فهي مصليات صغيرة.

(٤) جمع هذه الأماكن الدكتور عبد الجليل في مقال له بعنوان : العلوم الدينية واللسانية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأموي والمملوكي ، قدم الى المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية. وقد استقى تلك المعلومات من : الأنس الجليل ، وبلدانية فلسطين العربية ، وسفر نامة، والمفصل في تاريخ القدس ، وخطط الشام وغيرها.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص١٩٩.

(٦) حتي: تاريخ العرب، ص٢٨٣. أظهرت الحفريات أنه لا أساس من الصحة أن المسجد الأقصى بني في مكان كنيسة قديمة ، حتى أن حتّي استخدم كلمة لعله فهو غير متأكد من ذلك .

وقال عنه صفي الدين الذي اختصر معجم البلدان لياقوت الحموي ، في مصنفه «مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع ، المجلد الثالث منه «المسجد الاقصى هو مسجد كبير متسع الاقطار في وسط مدينة كبيرة ، يسمى بيت المقدس، وهو في طرف المدينة القبلي في شرقيها، قد بنى على سفح الجبل».

وقال عنه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم : «وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود ، طول الحجر عشرة أذرع وأقل ، منقوشة ، موجهة ، مؤلفة صلبة.. وكان أحسن من جامع دمشق...».

ووصفه مجير الدين الحنبلي في عصره في أواخر سنة ٩٠٠هـ بقوله: «وصفته في هذا العصر من الصفات العجيبة لحسن بنائه وإتقانه فالجامع الذي هو في صدره عند القبلة الذي تقام فيه الجمعة وهو المتعارف عند الناس أنه المسجد الأقصى يشتمل على بناء عظيم به قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة وتحت القبة المنبر والمحراب . وهذا الجامع ممتد من جهة القبلة إلى الشمال . وهو سبعة أكوار متجاورة مرتفعة على العمد الرخام والسواري . فعدة ما فيه من العمد خمسة وأربعون عموداً منها ثلاثة وثلاثون من الرخام. ومنها إثني عشر مبنية بالأحجارة هي التي تحت الجملون . وعمود ثالث عشر مبني عند الباب الشرقي تجاه محراب زكريا . وعدة ما فيه من السواري المبنية بالأحجار أربعون سارية . وسقفه في غاية العلو والارتفاع . فالسقف مما يلي القبة من جهتي المشرق والمغرب مسقف بالخشب ومما يلي القبة من جهة الشمال ثلاثة أكوار مسقفة بالخشب... والمحراب الكبير الذي هو في صدره إلى جانب المنبر من جهة الشرق يقال إنه محراب داوود عليه السلام ويقال ان محراب داوود انما هو الذي يظاهر الجامع المبني في السور القبلي من جهة الشرق بالقرب من مهد عيسى عليه السلام وهو موقع مشهور . وقد تقدم أن محراب داود في الحصن الذي يظاهر البلد المعروف بالقلعة فإن هناك كان مسكنه ومعبده فيه، ويحتمل أن يكون محرابه الذي كان يصلي فيه في الحصن في مكان بعيد عنه، ومكان المحراب الكبير الذي في داخل المسجد كان

موضع مصلاه إذا دخل المسجد ».

ويقول مجير الدين عن ذرع الجامع الاقصى : «وذرع هذا الجامع في الطول قبلة من المحراب الكبير إلى عتبة الباب الكبير المقابل له مائة ذراع محوراً بذراع العمل»[١].

وجاء الكتيب الذي أصدرته الهيئة العربية العليا لفلسطين تحت عنوان «الجريمة اليهودية النكراء؛إحراق المسجد الأقصى» : يقع المسجد الأقصى في القسم الجنوبي من ساحة المسجد الشريف ، فالزاوية الشمالية الغربية تبعد عن سور باب المغاربة نحواً من سبعين متراً وتوازي واجهته الشمالية سور المسجد من الجنوب والخط المستقيم المسحوب على واجهته هذه ينحصر بين سوري المسجد الشرقيّ والغربيّ بطول يقرب من مائتين وخمسة وثمانين متراً.

آراء حول من بنى المسجد الأقصى: لا بد من الملاحظة هنا أن معظم المؤرخين المسلمين ينسبون بناء المسجد الأقصى إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مثل: المقدسيّ ومجير الدين الحنبليّ والسيوطيّ وغيرهم، إذ أن بعض المؤرخين ينسبون بناءه إلى الوليد بن عبد الملك مثل: ابن البطريق وابن الأثير وابن الطقطقي وغيرهم. ويستدل من قال بأن الوليد هو من بنى المسجد الأقصى على ورقة بردي تعرف باسم «بردية افروديتو» وهي رسالة رسمية مرسلة من قبل قرة بن شريك عامل مصر في عهد الوليد بن عبد الملك من سنة ٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٩-٧١٤م إلى أحد حكام الصعيد تتضمن ذكر نفقات العمال الذين كانوا يتولون بناء مسجد بيت المقدس. ومن هذه الورقة البردية يستخلص القاري أن العمل في بناء المسجد الأقصى كان عام ٩٠هـ/ ٧٠٩م، ومعنى أن هذا الذي بنى المسجد الأقصى هو الوليد بن عبد الملك وليس والده[٢].

---

(١) ذراع العمل يساوي في حدود ٢.٢٥ قدماً.

(٢) الدباغ: بيت المقدس(٢)، ص٢٤١؛ الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، ص٢٠٤.

ويمكن أن يدعم هذا الرأي بأن عبد الملك بن مروان كان قد صرف خراج مصر لسبع سنوات متتالية في سبيل إتمام بناء مسجد الصخرة وقبته الرائعة، فكان لا بد من التوقف فترة من الزمن حتى يباشر في إنجاز مشروع المسجد الأقصى الذي لا يقل اتساعاً ومعماراً عن مسجد الصخرة لأن اسم المسجد الأقصى هو الاسم السائد دينياً، والاسم المعروف والمتداول لدى المسلمين في شتى بقاعهم. بالإضافة إلى أن الوليد بن عبد الملك كان قد شيد عدداً من المساجد المشهورة التي ما زال بناؤها يحمل اسمه. وفي الوقت نفسه لا يمكن استبعاد عبد الملك من هذا المشروع لأنه لا توجد وثائق دامغة تبعده عن هذا الأمر، بخاصة وأن عبد الملك وابنه الوليد ساهما فعلياً في إعادة بناء مدينة القدس الشريف وتجميلها بالمساجد والقصور الفخمة بعد أن كانت تلك المدينة قد تعرضت أثناء الغزو الخارجي لها للخراب والدمار الذي استمر حتى الفتح الإسلامي للمدينة.

مما لا شك فيه أن المسلمين كانوا على مر حقب تاريخهم المتعاقب قد عنوا بالمسجد القدسي من جهة وبمدينة القدس من جهة أخرى . ويعود ذلك لأن المسألة في حد ذاتها مسألة دينية بحتة ، والأمور الدينية عادة تلقى عناية ورعاية كبيرة من لدن المسلمين والجماعات الإسلامية المسؤولة والقيادية ، بخاصة في القرون الماضية .

ويلتصق الاهتمام بمدينة القدس عادة من خلال كونها الموقع الذي فيه ثالث الحرمين الشريفين، المسجد الأقصى المبارك، والمسلمون عادة هم شديدو الحرص على المقدسات الإسلامية في أي مكان وجدت، وفي أي زمان. ويعد هذا الحرص المتفاني في خدمة المسائل الدينية من بين مجموعة الثقة التي تميز بها المسلمون عن غيرهم بسبب احترامهم للديانات السماوية وأتباعها والتسامح معهم على مر حقب التاريخ على الرغم من تجاوزات بعضهم وغدر البعض الآخر منهم، وأن صفة التسامح والاحترام هذه أعطتهم أحقية حماية المقدسات في القدس الشريف، إسلامية كانت أو غير إسلامية بقلوب مفتوحة من لدن الجماعات غير الإسلامية التي تعيش في المدينة

المقدسة أو تعيش في خارجها، والجماعات غير الإسلامية التي تعيش في القدس هي ألصق من غيرها في معرفة مدى التسامح الإسلامي والتجربة الإسلامية ذات الطابع السلمي في التعايش مع غير المسلمين .

وظل المسجد القدسي بكل أبنيته ومنشاته يلقى عناية المسلمين خاصة الخلفاء الأموية والحكام منهم ، فرمم الخليفة عبد الملك بن مروان في أواخر أيامه قبة المسجد المقامة على الصخرة المشرفة بعد ما أصابها من تصدع وخراب بسبب الزلزال الذي ضرب مدينة القدس عام ٨٦هـ / ٧٠٥م .واستمرت العناية في عهد الدول الإسلامية اللاحقة .

في العهد العباسي : زار الخليفة أبو جعفر المنصور مدينة القدس عام ١٥٤هـ / ٧٧٠م طلب أهالي المدينة منه ترميم المسجد الأقصى المبارك مما أصابه من خراب بسبب الزلزال الذي أصاب المدينة عام ١٣٠هـ / ٧٤٧م . ولعدم توفر الأموال أمر الخليفة ابو جعفر المنصور بقلع جميع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت تلبس أبواب المسجد في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ثم ضربها نقوداً وعمر بها الخراب الذي أصاب هذا المسجد [١] .

وفي عهد الخليفة المهدي بن المنصور رمم البناء الذي كان قد رممه من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور بسبب الخراب الذي أصابه من جراء الزلزال الذي ضرب مدينة القدس عام ١٥٨هـ / ٧٧٥م . وكان الخليفة المهدي قد زار مدينة القدس ورأى بنفسه ما حل بالمسجد الأقصى من خراب[٢].ويروى عنه انه قال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري :يا أبا عبيد الله ، سبقتنا بنو أمية بثلاث ، فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بهذا البيت يعني المسجد (مسجد دمشق) ولا أعلم على ظهر الأرض مثيله ، ونيل الموالي فإن لهم موالي ليس لنا مثيلهم ، وعمر بن عبد العزيز لا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط٢، دار الكاتب العربيِّ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٣٧.

(٢) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص ١٢٥ .

يكون والله فينا مثله أبدا ،ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ثم قال : يا أبا عبيد الله وهذه رابعة[1].

وقد زار الخليفة العباسي عبد الله المأمون مدينة القدس أثناء سفره من دمشق إلى مصر ، وأمر الخليفة المأمون بترميم ما كان قد خرب من عمارة المسجد القدسي الشريف كعمل امتدادي لما قام به أسلافه من الخلفاء العباسيين .

أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بإصلاح قبة مسجد الصخرة وترميمها على اثر ما حل بها من خراب بعد زلزال عام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م . وقيل ان الخليفة الفاطمي السابع الظاهر علي أبو الحسن هو الذي أعاد بناءها عام ٤١٣هـ / ١٠٢٢م . بعد ان كانت قد سقطت[2] على أثر الزلزال المذكور. وهذا يدل على ان العناية بأمر المسجد القدسي وأمر بيت المقدس لا يقتصران على الأموين والعباسيين فقط ، وإنما تبنى هذا الجهد الإسلامي الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وغيرهم . فقد اهتم البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي بأمر المقدسات الإسلامية في بيت المقدس ، فنظفها من كل الرواسب التي علقت بها إبان الغزو الصليبي بعد أن حررها من النصارى الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . فأمر بإزالة كل العوائق[3] التي لحقت بالمسجد القدسي الشريف من جراء هذا الغزو الصليبي الباطل الذي كان قد غير بعض المعالم الإسلامية تغييرا هامشيا ، ووضع في تلك المقدسات صورا ورسومات ونقوشاً لا يقرها الدين الإسلامي ، وهي صور دينية نصرانية تقرها الكنيسة الكاثوليكية وتعظمها «فكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فلما دخل المسلمون

---

(١) أورد ذلك الحنبلي في كتابه الأنس الجليل ، ونقل عنه ذلك الدباغ في كتابه بلادنا فلسطين ، بيت المقدس (١) ص ١٢٥ .

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد : العبر في أخبار من غير ، جـ٣ ، طبعة الكويت، ١٩٦٦م ، ص ٩٦.
انظر أيضا: الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص ١٢٧.

(٣) علي، محمد كرد، خطط الشام، دمشق، جـ١ ، ص١٢٩.

البلد يوم الجمعة في السابع والعشرين من شهر رجب عام ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧م تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهرة المسلمون والفرنج. أما المسلمون فكبروا فرحا، وأما الإفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً»[١].

ولما خرج النصارى من بيت المقدس أمر البطل صلاح الدين الأيوبي بإعادة الأبنية إلى حالها القديم فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من مساكن واستراحات وغير ذلك، وادخلوا أجزاء من الأقصى في أبنيتهم، فأعاد صلاح الدين كل ذلك إلى الأصل، وطهر المسجد الأقصى بكامله من الأقذار والأنجاس التي لحقت به.

وفي ٤ شعبان ٥٨٣هـ / ٩ أكتوبر ١١٨٧م ، في يوم الجمعة الأولى التي أعقبت فتح القدس على يد صلاح الدين الأيوبي صلي المسلمون ومعهم صلاح الدين في مسجد قبة الصخرة . وكان الخطيب وقتها القاضي محي الدين أبو المعالي محمد بن القاضي الذكي علي بن محمد القرشي المتصل نسبه بالخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه . وكان هذا القاضي يعمل قاضيا في دمشق . ولما فتح صلاح الدين مدينة حلب من الصليبيين انشده القاضي محي الدين قصيدة جاء فيها :

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب[٢]

ولما أتم صلاح الدين صلاة الجمعة تفقد عمارة المسجد الأقصى بكامله، وأمر بتحسين أبنيته وترصيف بلاطه، وترميم نقوشه، وأمر بإحضار الرخام الثمين، والفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما تحتاجه عمارة المسجد القدسي الشريف. فرمم المسجد وعمره وأزال ما كان في أبنيته من صور وثنية. ورفع عن الصخرة

---

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص١٩٦.

(٢) ارجع إلى: الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص١٩٧.

الرخام الذي كان قد فرشه عليها النصارى الصليبيون لإخفائها من عبث رعاياهم، وخاصة أولئك القسيسين الذين اخذوا يبيعون من صخرها لنصارى الإفرنج الأوروبيين الذين كانوا يأتون إلى البيت المقدس للزيارة رجاء بركتها، حتى أن بعض أولئك النصارى كانوا إذا عادوا إلى بلادهم أقاموا الكنائس ووضعوا فيها ما أخذوه من صخر صخرة بيت المقدس ليوضع في مذابح تلك الكنائس الجديدة[1]. لهذا كانت تجارة الصخر هذه مربحة جدا بالنسبة للقسيسين الذين عنوا بمثل هذه التجارة، ولهذا رأى المسؤولون النصارى في القدس قبل فتح الأيوبي لها أن يفرشوها بالرخام لحمايتها من جهة، وكي لا يتمكن القسيسون من بيع أحجارها من جهة ثانية، علما بأن النصارى الصليبيين كانوا قد بنوا على الصخرة كنيسة ومذبحاً وجعلوا فيها الصور والتماثيل ذات الطابع الديني النصراني.

وأمر صلاح الدين الأيوبي «بإظهار المحراب وكان الداوية قد بنوا أمامه جداراً وتركوه مكاناً للاستراحة. وبنوا غربي القبة داراً واسعاً وكنيسة. فهدم صلاح الدين ما بني أمام المحراب من الأبنية ونصب المنبر[2].الذي كان قد عمل في عهد نور الدين زنكي لمسجد حلب، فتقل هذا المنبر الجميل الى بيت المقدس. وفرش المسجد بالبسط، وعلقت القناديل، وزود المسجدين بالمصاحف، ورتب لهما الأئمة المؤذنين والخدم.

وتجدر الإشارة هنا أن المسجد الأقصى المعروف بالمسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة كان الإفرنج قد غيروا فيه كثيراً ، واستعملوه لأغراضهم الدينية والحربية والاجتماعية، فجعلوا جانباً منه كنيسة ، والجانب الآخر مسكناً لفرسان

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، بيروت ١٩٦٦م، ص٣٢٦.

(٢) إن منبر نور الدين زنكيّ الذي نقله صلاح الدين الأيوبيّ إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف هو الذي أتت عليه النار عندما أحرق اليهود المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م.

الهيكل[١]، وأضافوا إليه أبنية جديدة في الجانب الغـربي منـه وقـد اسـتخدمت تلـك الأبنية الجديدة لتكون مستودعاً لأسلحتهم وذخيرتهم أما الـسراديب القديمـة التـي هي تحت المسجد الأقصى والتي يسميها أهل القدس بالأقصى القديم، فقد جعل منها الصليبيون الإفرنج إسطبلاً لخيولهم[٢].

واهتم صلاح الـدين الأيـوبي بـشؤون مدينـة بيـت المقـدس ، فـأمر بإنـشاء المدارس والمعاهد والأربطة والملاجـئ والمستـشفيات، ورتـب أمـور المدينـة، ورمـم أسوارها وزاد من تحصينها كي يستطيع المقاومة والصمود في وجـه الأعـداء، وعمـر صلاح الدين في بيت المقدس الزاوية الختنية بجوار قبلة المسجد الأقصى خلف منبره، وأوقفها على أعمال الخير. وانشأ عمال صلاح الدين الأيوبي في المدينة المقدسة المدرسة الميمونة عند باب الساهرة. وانشأ صلاح الـدين البيمارسـتان المستـشفى (الاسـبتار) الحكومي في الحي المعروف بالدباغة[٣].في بيت المقدس، واستمر أبناء صـلاح الـدين الأيوبي على النهج الاصطلاحي الذي نهجه والدهم صلاح الدين الأيوبي تجاه مدينـة بيت المقدس. فأنشأ ابنه علي الملقب بالملك الأفضل المدرسة الأفضلية بحارة المغاربـة بمدينة القدس الشريف. وبنى المسجد العمري الواقع في الجنوب من كنيسة القيامـة. وأوقف كل الأرض التي تحيط بالبراق الشريف على جماعة المغاربة المقيمين في القدس على اختلاف أجناسهم مـن ذكـور وإنـاث وزوار وحجـاج وغـيرهم مـن المغاربـة،

---

(١) فرسان الهيكل: اشتق هؤلاء اسمهم من قبة الصخرة التي ظنها النصارى هيكلا منذ أيام المسيح عليه السلام. فسموا بفرسان الهيكل. وقد أحدث هؤلاء تغييرات كثيرة في المسجد الأقصى ومـا جاوره من منطقة المسجد القدسي الـشريف فبنـوا مـستودعا لأسـلحتهم. وبنـوا الإسـطبلات لخيولهم في الزاوية الجنوبية الـشرقية لمنطقـة المـسجد القـدسي الـشريف. انظـر: الـدباغ: بلادنـا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص ١٩٩.

(٢) العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، القدس ١٩٦١م، ص ص١٥٧-١٥٨.

(٣) العارف، المرجع السابق، ص ص١٧٨-١٧٩.

وأصبحت تلك المنطقة تعرف باسم حارة المغاربة في القدس الشريف[١].

ولما تبع بيت المقدس الى العزيز بن صلاح الدين الأيوبي بعد منازعات بينه وبين أخيه الأفضل، اهتم العزيز بأمر بيت المقدس وما فيه من مقدسات إسلامية، فاعتنى بمسألة الوقف في المدينة المقدسة، فأوقف قرية دير أبي ثور وأراضي القمرة الشرقية والغربية على الشيخ الزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس احمد بن جمال الدين عبد الله بن محمد بن عبد الجبار المعروف بالمقدسي. فأوقف العزيز ذلك على الشيخ وأولاده وأسرته وذريته، وفي حال انقطاع النسل تصبح وقفا على بر لا ينقطع[٢].

وفي عهد الملك العادل اخو الملك صلاح الدين الذي تولى حكم القدس عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م عمرت قبة المعراج التي تقع غربي الصخرة ، وأقيمت تلك القبة لتكون ذكرى لعروج الرسول ﷺ. وفي عهده أيضا أقيمت السقاية في المسجد القدسي الشريف، وبنيت الزاوية الجراحية في شمالي مدينة القدس الشريف[٣].

وانشأ الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الذي حكم بيت المقدس المدرسة المعظمية، والمدرسة النحوية، والمدرسة البدرية. وأنشأ أيضا البرج القائم في وسط القلعة بباب الخليل، وعمر سبيل شعلان الذي يقع في شمالي المسجد القدسي الشريف، وعمر القناطر التي أقيمت على درج الصخرة ف الجهة القبلية عند قبة الطومار، كما وعملت معظم الأبواب الخشبية المركبة على أبواب المسجد الأقصى[٤].

عناية المماليك بالمسجد القدسي الشريف: اهتم المماليك بأمر المقدسات الإسلامية في مدينة القدس الشريف، واهتموا أيضا بأمر المدينة المقدسة التي تضم

---

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص٢١١.

(٢) العارف: المفصل، ص١٨٣؛ الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص ص٢١١-٢١٢.

(٣) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص٢١٣.

(٤) العارف: المفصل، ص١٥٥؛ الدباغ: بلادنا، بيت المقدس(١)، ص٢١٦.

ارض المسجد القدسي الشريف الذي يوليه المسلمون في كل أصقاعهم العناية الشديدة والاهتمام المستمر. فنالت المدينة المقدسة اهتمام الظاهر بيبرس، خاصة اهتمامه في مجال عمارة المسجد القدسي الشريف. فعمر عام ٩٥٩هـ / ١٢٦٠م ما تداعى وخرب من قبة الصخرة. وجدد قبة السلسلة، وجدد زخارفها، وخصص مصروفات سنوية للمسجد القدسي الشريف بلغت خمسة آلاف درهم، واهتم بأمر الأوقاف الإسلامية في المدينة المقدسة، وبنى خانا خارج المدينة اهتماما منه بشؤونها الاقتصادية والاجتماعية، وكان ذلك عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م [١].

وبنى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الرباط المنصوري عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م باب الناظر بالمدينة المقدسة ليكون وقفا على الفقراء وزوار بيت المقدس، وعمر سقف المسجد الأقصى من الجهة الجنوبية غربي مسجد النساء، وأنشأ المسجد القلندري، وربما جدده فقط عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م[٢].

وفي عهد السلطان كتبغا المنصوري جددت فصوص الصخرة، وجددت عمارة السور الشرقي عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م. وبنيت في عهده المدرسة الدوادارية التي تعرف بدار الصالحين، وخصص لها أوقاف كثيرة كانت في جلها عبارة عن مباني من دور وحمامات وجوانيت وبساتين غيرها، فقد أوقف ربع ذلك كله على تلك المدرسة[٣].

وفي عهد السلطان الناصر حسام الدين لاشين جددت عمارة محراب النبي داود عليه السلام الواقع بالسور الجنوبي عند مهد عيسى عليه السلام. وهو محراب من محارب المسجد القدسي الشريف، كما وعمر منارة الغوانمة بالمسجد الأقصى[٤].

---

(١) الحنبليّ: الأنس الجليل، ص٣١٨.

(٢) العارف: المفصل، ص٢٤١.

(٣) العارف: المفصل، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤) الحنبلي: الأنس، ص٤٥١.

وانشأ السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون الرباط المعروف برباط كرد، وانشأ المدرسة الوجيهية عند باب الغوانمة بالقدس الشريف، والمدرسة السلامية قرب المدرسة الدوادارية، وزاوية المحمودي في حارة المغاربة، وبنى المسجد الكائن داخل القلعة، ورمم القلعة نفسها وزاد في تحصينها[١]. وفي عهده شح الماء بالقدس الشريف، فعمرت قناة السبيل عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، وبنى على القناة المذكورة حوض ماء كبير، ووصلت قناة السبيل إلى وسط المسجد الأقصى في السنة نفسها، وكان إنشاء هذا السبيل عملاً اجتماعياً ممتازاً خفف من معاناة سكان المدينة المقدسة بسبب شح الماء الذي يصل إليها. وعملت في عهده البركة المبنية من الرخام الواقعة بين الصخرة والمسجد الأقصى[٢].

ويقول الحنبلي عن إصلاحات محمد بن قلاوون في بيت المقدس: « وبناصر الدين محمد بن قلاوون في المسجد الأقصى خيرات كثيرة. ومنها أنه عمر في أيامه السور القبلي الذي عرف عند محراب داود عليه السلام ورخم صدر المسجد الأقصى ومسجد سيدنا الخليل عليه السلام بإشارة تنكر نايب الشام. وفتح بالمسجد الأقصى شباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله وكان فتحهما في سنة إحدى وثلاثين وسبعماية. وجدد تذهيب قبة الصخرة . . وعمر القناطر على الدرجتين الشماليتين لصحن الصخرة . . وعمر باب القطانين بالبناء المحكم . . . وكل مكان من عمارته من هذه الأمكنة مكتوب عليه تاريخ عمارته، وعمر قناة السبيل التي عند بركة السلطان بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب وله غير ذلك من العماير بالقدس الشريف وغيره من البلاد من عمارة الحصون والقلاع»[٣].

---

(١) العارف: المفصل، ص٢٠٢.

(٢) لمعرفة المزيد من الأعمال الإصلاحية التي قامت في عهد محمد بن قلاوون ارجع إلى: الحنبليّ: الأنس الجليل.

(٣) الحنبليّ: الأنس، ص٣٢٠-٣٢١.

واهتم محمد بن قلاوون اهتماما بارزا في الشؤون التعليمية في بيت المقدس، بالإضافة إلى عنايته واهتمامه بشؤون المسجد القدسي الشريف والأحوال الدينية في المدينة المقدسة. فأمر بإنشاء المدرسة الجاولية الواقعة في شمالي غرب المسجد القدسي الشريف. والمدرسة الكريمية باب حطة، والمدرسة التنكزية القريبة من باب السلسلة، وانشأ في داخلها مسجداً، ولعظمتها اصبحت فيما بعد مركزاً للحكام والقضاة والنواب العاملين في بيت المقدس، والمدرسة الامينية عند باب شرف الأنبياء في شمالي المسجد القدسي الشريف، والمدرسة الملكية الواقعة في شمالي المسجد القدسي الشريف[1].

وكل هذه المدارس هي أوقاف عمرها محبو الخير والصلاح لتكون وقفا على أعمال الخير والبر والصلاح، وقد ساهمت تلك المدارس بأساتذتها وطلابها في ازدهار الناحية العلمية في بيت المقدس.

وتابع أولاد السلطان محمد بن قلاوون منهج أبيهم في تعمير القدس والاهتمام بها، فأنشأوا المدارس فيها مثل: المدرسة الفارسية والمدرسة الارغونية الواقعة بباب الحديد، والمدرسة الخاتونية الواقعة بباب الحديد أيضا، والمدرسة القشتمرية الواقعة بباب الناظر، ومدرسة دار القران السلامية، والمدرسة الحسنية الواقعة عند باب الأسباط، والمدرسة الجاولية في شمالي المسجد القدسي الشريف، بالإضافة إلى عدد من المدارس الأخرى التي أقامها السلاطين المماليك بعد أبناء السلطان محمد بن قلاوون، فبنوا المدرسة الطازية، والمدرسة المنجكية، والمدرسة

---

(١) لمعرفة المزيد من المعلومات عن تلك المؤسسات العلمية في القدس ارجع إلى: الأنس الجليل للحنبلي والمفصل في تاريخ القدس للعارف وبلادنا فلسطين، بيت المقدس للدباغ، ومعاهد العلم في بيت المقدس للدكتور كامل العسلي بحيث قدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ١٩٨٠م، الجامعة الأردنية، عمان.

الباوردية والمدرسة الحنلية والمدرسة اللولوية[1].

واستمر سلاطين دولة المماليـك الثانيـة، المماليـك الشراكـسة في إعـمار بيـت المقدس، فبنى الظاهر برقوق المدرسة الجهاركسية، وعمر بركـة المـاء المعروفـة ببركـة السلطان.

واقيمت في عهده دكة المؤذنين القريبة من الصخرة الى جانب باب المغارة وأنشئ خان السلطان على الطريق الموصل الى باب السلسلة. واهتم السلطان برقوق بمياه الشرب التي يشرب منها سكان المدينة المقدسة، وكانت تلك المياه معرضة للشح والنقصان. فأوصل الماء اليى بيت المقدس من قناة العروب. وبنى المدرسة الطولونية والمدرسة الفنرية[2].

وفي عهد ابنه السلطان محمد بن برقوق انشئت المدرسة الصبيبية نسبة الى قلعة الصبيبية في بانياس من أعمال منطقة الجولان. وينبع بجوارها نبع بانياس أحد ينابيع نهر الأردن[3] وأنشئت المدرسة الكامليّة عند باب حطة[4].

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي انشأ سبيلان أحدهما في عربي المسجد القدسي الشريف ، والثاني سبيل شعلان الذي جدد فقط، وأنشئت عدة مدارس مثل المدرسة الباسطية الواقعة في شمالي المسجد القدسي الشريف والمدرسة الغادرية والمدرسة الحسنية الواقعة بباب الناظر في غربي المسجد القدسي الشريف، والمدرسة العثمانية الواقعة بباب المتوضأ في غربي ساحة المسجد القدسي الشريف[5].

وخصص السلطان الظاهر جقمق العلائي قـراءة للقـرآن الكـريم يقـوم بهـا

(١) الحنبلي: الأنس، ص ص٢٨٢-٢٨٧؛ العارف: المفصل، ص ص٢٤٧-٢٥٠.

(٢) الحنبلي: الأنس، ص٢٧٨؛ العارف، المفصل، ص ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس(١)، ص٢٨٣.

(٤) العارف: المفصل، ص٢٥٣.

(٥) العارف: المفصل، ص٢٥٤.

قارئ خاص في مسجد قبة الـصخرة. وأنـشئت في عهـده المدرسـة الجوهريـة ببـاب الحديد. واهتم السلطان الأشرف العلائي بأمر عمارة المسجد الأقصى، فرمم من البناء ما كان بحاجة إلى ترميم. وعمر السلطان الملك الظـاهر خـشقدم قنـاة الـسبيل التـي تصل بواسطتها المياه من عين العروب إلى مدينة القدس، إذ أن هذه القناة كانت دوما بحاجة إلى إصلاح وترميم وعناية بأمرها حتى تتوافر المياه الصالحة للشرب في المدينة المقدسة. وفي عهده أيضاً أنشئت البركة الشرقية من برك سليمان. وفي عهده بدأ العمل ببناء المدرسة الأشرفية قرب باب السلسلة من جهة الشمال وكانت في الأصل تـسمى بالمدرسة السلطانية[1].

وهكذا نلحظ أن المسلمين حكامـاً وإداريـين وفـرادى اهتمـوا بـأمر شـؤون المدينة المقدسة خاصة في مجال الشؤون التي تخص المرافق الدينية في المـسجد القـدسيّ الـشريف، وفي المجـالات الأخـرى كـالتعليم والعمـران والمجـالات الاجتماعيـة والاقتصادية التي تعمل على تطوير القدس وتهتم بشؤون سكانها. وقد تواصـل هـذا الجهد المميز تجاه القدس الشريف خاصة المسجد القـدسي الـشريف عـلى مـر حقـب التاريخ الإسلاميِّ، وفي صدر الإسـلام وعهـود الأمـويين والعباسـيين والفـاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين ومن جاء بعدهم من سلطات وحكومات إسـلامية. وهو أمر يعتز به المسلمون لأنهم يقدمون خدمة جليلة للشؤون الدينية في مدينة بيـت المقدس، وهو أمر ديني يفرضه عليهم دينهم الإسلاميّ الحنيف الذي يعنى بالشؤون الدينيّة والاجتماعيّة والمدنيّة للمسلمين وغيرهم من الناس الذين هم تحـت إشرافهـم ورعايتهم وتبعيتهم.

---

(١) الحنبليّ: الأنس، ص٣٢٦؛ الدباغ: بلادنا، بيت المقدس(١)، ص ص٢٨٧-٢٨٨.



الملاحق



أهم كتب فضائل بيت المقدس المطبوعة[1]:

١- فضائل بيت المقدس: لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي، من علماء القرن الخامس الهجري. طبع بالقدس عام ١٩٧٩م.

٢- فضائل القدس: لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ. حققه الدكتور جبرائيل جبور. بيروت. ١٩٧٩.

٣- باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس: لإبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري، الشهير بابن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٩هـ. نشره تشارلز ماتيور، في المجلدين الخامس عشر والسادس عشر من مجلة الجمعية الشرقية بفلسطين، ثم نشر مستقلاً عام ١٩٣٥م بالقدس.

٤- مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام: لأحمد بن محمد بن سرور المقدسي المتفوى سنة ٧٩٥هـ.

طبع منه الفصل الأخير الذي يبحث في فضائل المسجد الأقصى، وفيه ذكر عدد من الصحابة والتابعين، والعلماء الأخيار الذين وردوا إلى لاقدس، أو دفنوا فيها. طبع هذا الفصل من الكتاب في مدينة يافا ١٣٦٥هـ، بعناية أحمد سامح الخالدي.

٥- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى: لشمس الدين محمد السيوطي من علماء القرن التاسع الهجري. طبع الجزء الأول منه بالقاهرة.

٦- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: لعبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٨هـ.

طبع بمصر سنة ١٩٧٢، وترجمه إلى الفرنسية هـ. سوفير، وطبع في باريس ١٨٧٦م.

٧- روضة الأنس في فضائل الخليل والقدس: لعارف لاشريف المتوفى سنة ١٣٨٣هـ، طبع في القدس ١٩٤٩م.

---

(١) نقلاً من مقدمة "فضائل بيت المقدس للمقدسي: ٢٢، ٢٣.

الكتب المخطوطة:

١- فضائل بيت المقدس والخليل، عليه الصلاة والسلام، وفضائل الشام: لأبي المعالي المشر بن المرجى بن إبراهيم المقدسي، من علماء القرن الخامس الهجري. منه نسخة في مكتبة توبنغن كتبت سنة ٨٠٦هـ وهي برقم (٢٧).

٢- الجامع المستقصي في فضائل المسجد الأقصى: للقاسم بن علي بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر المتوفى سنة (٦٠٠هـ).

منه قطعة مخطوطة في مكتبة الأزهر. كتبت سنة ٩٦٦هـ برقم ٣٩٧١. تاريخ أباظه.

٣- مفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس: عبد الرحيم بن علي القرشي، المتوفى سنة ٦٢٥هـ. منه نسخة في معهد التراث العلمي العربي بحلب.

٤- فصل الخطاب لتضعيف الثواب، وهو من مضاعفة ثواب الصلاة في المسجد الأقصى وفي الجماعة. تأليف محمد بن طولون الدمشقي الصالحي. المتوفى سنة (٩٥٢هـ). منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ضمن مجموع برقم ٩٠٥٤ من الورقة (١٣٨-١٤٢).

٥- المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، لمحمد بن محمد العلمي القدسي من علماء القرن الحادي عشر. منه نسخة مخطوطة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.

الرحالة إلى القدس عبر القرون:

القرن	اسم الرحالة	المدينة والقطر	عنوان الرحلة	سنة زيارته إلى القدس	سنة الوفاة
الخامس / الحادي عشر	(١) ناصر خسرو (٢) أبو بكر ابن العربي	بلخ / خراسان إشبيلية / الأندلس	سفر نامه ترتيب الرحلة أو الرحلة	٤٣٨/ ١٠٤٧ ٤٨٥/ ١٠٩٢	٣٩٠/ ١٠٠٠ ٥٤٣/ ١١٤٨
السادس / الثاني عشر	(٣) علي الهروي (٤) أسامة بن منقذ	هراة / خراسان (ولد في الموصل) قلعة شيزر / الشام	الإشارات إلى معرفة الزيارات كتاب الاعتبار	٥٦٩/ ١١٧٣-٧٤	٦١١/ ١١٦٢ ٥٨٤/ ١١٨٨
السابع / الثالث عشر	(٥) محمد بن رشيد الفهري	سبتة / الأندلس	ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة	٦٨٤/ ١٢٨٥	٧٢١/ ١٣٢١
السابع / الثالث عشر	(٦) محمد بن عبد الله (٧) القاسم بن يوسف التجيبي	بلاد حاحة / المغرب الأقصى سبتة / الأندلس	رحلة العبدري أو الرحلة المغربية مستفاد الرحلة والاغتراب	٦٨/ ١٢٨٩ ٦٩٦/ ١٢٩٦-٩٧	؟ ٧٣٠/ ١٣٢٩
الثامن / الرابع عشر	(٨) محمد بن جابر الوادي آشي (٩) محمد بن بطوطة (١٠) محمد بن أحمد بن مرزوق (١١) ممد بن محمد بن نباتة (جمال الدين) (١٢) خالد بن عيسى البلوي	وادي آش / الأندلس طنجة / المغرب الأقصى تلمسان / المغرب الأقصى القاهرة / مصر (أصله من ميافارقين بديار بكر) قنتوربة / الأندلس	تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار عجالة المستوفز المستجاز حظيرة الأندلس إلى حضرة القدس تاج المفرق	٧٢٢/ ١٣٢٢ ٧٢٥/ ١٣٢٥ و٧٤٩/ ١٣٤٨ حوالي ٧٣٠/ ١٣٢٩ ٧٣٥/ ١٣٣٤-٣٥ ٧٣٧/ ١٣٣٧	٧٤٩/ ١٣٣٨ ٧٧٩/ ١٣٧٧ ٧٨١/ ١٣٧٩ ٧٦٨/ ١٣٦٦ قبل ٧٨٠/ ١٣٧٨

القرن	اسم الرحالة	المدينة والقطر	عنوان الرحلة	سنة زيارته إلى القدس	سنة الوفاة
التاسع / الخامس عشر	(١٣) عبد الرحمن بن خلدون	تونس / تونس (أصله من أشبيليه	التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً	٨٠٢/١٣٩٩-١٤٠	٨٠٨/ ١٤٠٦
العاشر / السادس عشر	(١٤) محب الدين محمد بن داود الحموي (١٥) أحمد الخالدي الصفدي	حماة / الشام صفد / فلسطين	حادي الأظعان النجدية	٩٧٨/ ١٥٧١؟	١٠١٦/ ١٦٠٨ ١٠٣٤/ ١٦٢٥
الحادي عشر / السابع عشر	(١٦) محمد بن أحمد بن حافظ الدين المقدسي (١٧) محمد بن أحمد المقري	القدس / فلسطين تلمسان المغرب الأقصى	أسفار الأسفار وأبكار الأبكار نفح الطيب	١٠١٣/ ١٦٠٤	١٠٥٥/ ١٦٤٥ ١٠٤١/ ١٦٣٢
الحادي عشر / السابع عشر	(١٨) عبد الله العياشي (١٩) إبراهيم الخياري (٢٠) أوليا جلبي (٢١) يوسف النابي	فاس / المغرب المدينة / الحجاز (أصله من مصر) استانبول / بلاد الروم (تركيا – الدولة العثمانية الرها / ديار بكر (الدولة العثمانية)	رحلة العياشي أو ماء الموائد تحفة لأدباء وسلوة الغرباء سيا حتنامه سي	١٠٧٤/ ١٦٦٣ ١٠٨١/ ١٦٧٠ ١٠٨٣/ ١٦٧٢ ١٠٨٩/ ١٦٧٨	١٠٩٠* ١٦٧٩ ١٠٨٢/ ١٦٧١ ١٠٩٠/ ١٦٧٩ ١١٢٤/ ١٧١٢
الثاني عشر / السابع عشر والثامن عشر	(٢٢) عبد الغني النابلسي	دمشق / الشام	الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية والحقيقة والمجاز	١١٠١/ ١٦٩٠ و١١٠٥/ ١٦٩٣	١١٤٣/ ١٧٣١
الثاني عشر / السابع عشر والثاني عشر	(٢٣) مصطفى البكري الصديقي (٢٤) مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي (٢٥) إلياس غضبان الحلبي (٢٦) محمد بن	دمشق / الشام دمياط / مصر حلب الشام مكناس / المغرب الأقصى	الخمرة المحسية في الرحلة المقدسية الخطرة الثانية الإنسية في الرحلة الدانية القدسية الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية موانح الأنس برحلتي لوادي	١١٢٢/ ١٧١٠ ١١٢٦/ ١٧١٤ ١١٢٨/ ١٧١٥-١٦ ١١٤٣/ ١٧٣١ ١١٦٨/ ١٧٥٥ ١٢٠٠/ ١٧٨٥	١١٦٢/ ١٧٤٩ ١١٧/ ١٧٥٩ أو ١١٧٨/ ١٧٦٥ ١٢١٣/ ١٧٠٨

القرن	اسم الرحالة	المدينة والقطر	عنوان الرحلة	سنة زيارته إلى القدس	سنة الوفاة
	عثمان المكناسي		القدس إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب		
الثالث عشر / الثامن عشر والتاسع عشر	(٢٧) أبو القاسز الزباني (٢٨) نعمان القساطلي (٢٩) عبد الرزاق البيطار	فاس / المغرب الأقصى دمشق / الشام دمشق / الشام	الترجمة الكبرى الرحلة النعمانية	١٢٠٨/ ١٧٣٩ ١٢٩١هـ ١٨٧٤-٧٥ أواخر القرن التاسع عشر	١٢٤٩/ ١٨٣٣ ١٣٣٨/ ١٩٢٠ ١٣٣٥/ ١٩١٦
الرابع عشر / التاسع عشر والعشرون	(٣٠) محمد بن عبد الجواد الفاياتي (٣١) جمال الدين القاسمي (٣٢) يوسف الحكيم (٣٣) جرجي زيدان (٣٤) رشيد نخلة (٣٥) محمد كرد علي (٣٦) خليل مردم بك (٣٧) عبد المؤمن الحكيم (٣٨) جرجس فيلوتاوس عوض (٣٩) محمد ثابت (٤٠) عبد السلام محمد الكوبرة	القايات (صعيد مصر) مصر دمشق / الشام اللاذقية / الشام القاهرة / مصر (أصله من بيروت) الباروك / لبنان دمشق الشام دمشق / الشام القاهرة / مصر القاهرة / مصر القاهرة / مصر تطوان / المغرب	نفحة الشام سورية والعهد العثماني فلسطين، تاريخها وآثارها كتاب المنفى الرحلة الأنورية دمشق والقدس في العشرينات رحلة مصري إلى فلسطين ولبنان وسورية مشاهداتي في اقدس جولة في ربوع الشرق الأدنى رأيت بنفسي طريق مدينة الرسول	١٣٠٢/ ١٨٨٥ ١٣٢١/ ١٩٠٣ ١٣٢٨/ ١٩١٠ ١٣٣١/ ١٩١٣ ١٣٣٥-٣٦ / ١٩١٦ ١٩٢٣ ١٣٤١/ ١٩٢٣ حول ١٩٣١ الثلاثينات من القرن العشرين ١٩٦٦	١٢٣٠/ ١٩٠٢ ١٣٣٢/ ١٩١٤ ١٣٣٢/ ١٩١٤ ١٣٥٨/ ١٩٣٩ ١٩٥٣ ١٣٧٩/ ١٩٥٩ ١٣٤٤/ ١٩٢٥ ؟ ١٣٧٧/ ١٩٥٨

وفيما يلي خلاصة مرتبة على شكل جدول لمجمل تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية العصر الروماني

فرع العصور	زمن العصور ق.م	اسم القدس الشائع	طبيعة القدس السكانية الغالبة وحضارتها	أهم حكامها
القديم الأعلى الوسيط الحديث النحاسي	١٤٠٠٠٠- ١٩٠٠٠ ١٩٠٠٠-٨٠٠٠ ٨٠٠٠ ٥٠٠٠-٣٣٠٠	مستوطنات صيادين وفلاحين تستعمل الأدوات الحجرية في حياتها اليومية	الأحمرية الكبارية والنطوفية الطاحونية الغسولية	لم يظهر بعد نظام الحكم السياسي، ولم تكن على أرض القدس مدينة بالمعنى المعروف.
المبكر المتوسط المتأخر	٣٣٠٠-٢٠٠٠ ٢٠٠٠-١٥٥٠ ١٥٥٠-١٢٠٠	منورتا أورشاليم يبوس	الأمورية الكنعانية اليبوسية	 ملكي صادق عبدي حبيبيا
الأول الثاني الثالث	١٢٠٠-١٠٠٠ ١٠٠٠-٥٣٩ ٥٣٩-٣٣٣	يبوس أورشليم (من القرن ٧ق.م) أورشليم	اليبوسية اليهودية (من القرن ٧ق.م) أهل السبي واليهود والأدوميون والفرس	؟ حزقيا، يوشيا يهوياقين زربابل، عزرا
المقدوني البطلمي السلوقي دولة يهوديا المكابية الإسمونية	٣٣٢-٣٢٣ ٣٢٣-٢٠٠ ٢٠٠-٦٣ ١٤٢-١٠٦ ١٠٦-٤٨	أورشليم أورشليم أورشليم أورشليم	اليهود والإغريق اليهود والإغريق اليهود والإغريق اليهود والإغريق	يهو يا داع أونياس، طوبيا أونياس ٣، باسون يهوذا المكابي
الهيرودية المقسمة الاحتلال الروماني الاحتلال البيزنطي	٤٨ق.م-٤٤م ٤٤-٧٠م ٧٠-٦٢٨ ٦٢٨-٦٣٦	أورشليم أورشليم ابليا كابيتولينا إيليا	اليهود والرومان اليهود والرومان اليهود والرومان اليهود والمسيحيون	هيرودس سبعة ولاة رومان

أبرز موقع وجغرافية القدس الطبيعية

بعد الحوض في تاريخ القدس القديم نود التعرف بشكل سريع على موقع المدينة وجغرافيتها. تقع مدينة القدس على خط طول °35 َ14 شرقي خط غرينتش، وعلى خط عرش °31 َ46 شمال خط الاستواء، وتستقر المدينة على مرتفعات يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ٧٢٠-٧٨٠ متراً وتبعد في خطوط مستقيمة عن البحر المتوسط نحو ٥٣كم، وعن البحر الميت نحو ٢٢كم، وعن البحر الأحمر نحو ٢٥٠كم.

وترتفع المدينة اليوم على ثلاثة مرتفعات تحيطها ثلاثة وديان (انظر الخارطة ١٢).

أما المرتفعات الثلاثة فهي:

١- مرتفع موريا (Moria Hilll): وهو المرتفع الشمالي الذي يضم الحرم القدسي الشريف، ونرى أ، كلمة موريا ذات علاقة أكيدة بالأوريين وباسم فلسطين القديم (موريا). ولا علاقة لهذا الاسم بأي اشتقاق لاتيني.

٢- مرتفع أوفل (Ophel Hill): ويعرف أيضاً بجبل (الضهور) ويرتفع عن سطح البحر حوالي ٦٨٠متر وينخفض عن ساحة الحرم القدسي الشريف بنحو (٢٠٠م) ويبلغ طوله الممتد من لاشمال إلى الجنوب نحو (٤٠٠م)، وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو (١٣٥م) أي أن مساحته تبلغ حوالي (٥٥) دونماً، ويطل المرتفع على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من الحرم، كما عرف مرتفع أوفل بـ(حصن يبوس) و(حصن صهيون) و(الأكمة) و(جبل صهيون).

وفي أسفل المرتفع تقع عين جيحون أو عين (روجل) أو عين (القصار) أو عين (ستنا مريم) أو عين (أم الدرج) وقد سميت بالاسم الأخير لخروج العين من نبع منخفض يخرج من الصخر الصلد في الجانب الشرقي من المرتفع وينزل إليها بدرجات يوصلها إلى كهف طبيعي عند منتصف وادي قدرون.

ونطلق على مرتفع موريا ومرتفع أوفل والمرتفع الذي أنشأت عليه مدينة يبوس بـ(المرتفع الشرقي).

٣- المرتفع الجنوبي الغربي (Southwestern Hill): وهو المرتفع الذي يقع مقابل المرتفع الشرقي وينحصر ما بين وادي تيروبيون شمالاً ووادي هنوم

جنوباً.

أما الوديان الثلاثة فهي:

١- وادي قدرون (Kidron Vally) ويقع شرق المدينة ويسميه العرب وادي سلوان ووادي ستي مريم ووادي النار ووادي جهنم، ودعي في القرن الرابع الميلادي بوادي (يهو شافط).

٢- وادي تيروبيون (Tyropoen): ويقع غرب المدينة باتجاه الشمال ويلتقي بوادي قدرون على بعد ٩٠٠م جنوب مرتفع أوفل فيتخذان شكل حرفV وتقع المدينة والمرتفع بينهما. وقد دعاه يوسيفوس بهذا الاسم ومعناه (صانعو الجبن) وفسره بعضهم (وادي الروث) وهو اليوم مليء بالأحجار والطوب التي ألقيت فيها على مر العصور.

٣- وادي هنوم (Hinnom Vally): ويقع إلى الجنوب والجنوب الغربي من المدينة ويسمى أيضاً (وادي الربابة) وهو يلتقي بوادي قدرون على بعد ٢٠٠م من نقطة التقائه بوادي تيروبيون.

ومن خلال هذا التكوين الطوبوغرافي للمدينة نلاحظ أنها كانت متميزة في موقعها ومحمية بخطوط دفاعية طبيعية من ثلاث جهات شرقية وغربية وجنوبية تمثلها الوديان وتجعل اقتحامها من هذه المناطق أمراً صعباً في العصور القديمة، لكن جهتها لاشمالية مكشوفة ولا توجد عوائق طبيعية فيها ولذلك كان شمال المدينة نقطة الضعف التي كان يخترقها الغزاة بسهولة.

أما مصادر المياه في القدس فكانت تأتي من قرية سلوان وهي القرية المجاورة لسور القدس من الجنوب وفيها عيون تسمى عيون سلوان منها:

١- عين جيحون (أم الدرج): التي تبعد ٣٠٠ متراً عن الزاوية الشرقية لسور الحرم وكانت المصدر الوحيد لمياه القدس منذ القدوم وعدد درجاتها حوالي سبعة عشر درجة تنتهي في العمق إلى مغارة ضيقة عمقها ثمانية أمتار.

٢- بركة سلوان: قبلي عين أم الدرج وعلى بعد أمتار قليلة منها وتقع غربي مرتفع أوفل (الضهور).

٣- البركة التحتانية: إلى الجنوب الشرقي من بركة سلوان وعلى بعد بضعة أمتار منها، وتدعى أيضاً البركة الحمراء وهي التي دعاها يوسيفيوس في القرن

الأول للميلاد بحيرة سليمان.

٤- بئر أيوب: يصل عمقها إلى حوالي ١٢٥ قدماً، وظن بعضهم أنها عين روجل المذكورة في العهد القديم، وهي تبعد عن البركة الحمراء حوالي ألف قدم ولا نبع فيها ولا عين بل يأتيها الماء رشحاً من أم الدرج وغيرها.





١ – المخطوطات

٢ – المصادر

٣ – المراجع العربية

٤ – المراجع الأجنبية



١- المخطوطات:

برهان الدين الغراري باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس. مخطوط بدائرة مكتبة الأوقاف العامة رقم (٣٨٠٩).

الأصفهاني: العماد: الفتح القسي في الفتح المقدسي. تحقيق محمد صبح / مصر

الشيخ الشرف بن المرحبي: مخطوط فضائل بيت المقدس. القدس.

ابن ميسر: مرآة الزمان الورقة (٢٢٨ب).

٢- المصادر:

ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢ / المطبعة العثمانية / مصر.

الكامل في التاريخ ط بيروت – ١٩٧٩.

الاصطخري: المسالك والممالك. القاهرة. ١٩٦١.

البخاري: صحيح البخاري. ج٤/ المكتب الإسلامي، استنبول.

البلاذري: فتوح البلدان. مصر ١٩٥٩م.

ابن الجوزي: فضائل بيت المقدس، زاد المسير في علم التفسير ط٨ / بيروت ١٩٦٤.

ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩م.

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب. ج٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢/ القاهرة ١٢٩٩هـ.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢ / طبع بيروت.

ابن عبد ربه: العقد الفريد، مجلد ٦، دار الكتاب العربي بيروت (بدون).

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت / ١٩٠٨.

القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج٤ / بيروت / ١٩٦٤م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الرابع، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٦٦م.

القلقشندي، أبو لاعباس أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة ١٩٥٩م.

القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

ابن القيم، الإمام شمس الدين الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت (بدون).

ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، ١٩٦٦م.

المقريزي: اتعاظ الحنق بأخبار الأئمة الفاطميين مجلد ٢، القاهرة ١٩٧١م.

الخطط: المجلد ٢، مكتبة العرفان، بيروت.

ابن منظور الخزرجي: لسان العرب.

النويرين شهاب الدين أبو أحمد بن عبد الوهاب البكري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة (بدون).

الواقدي: فتوح الشام، ط٢، مصر ١٩٣٤م.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ – ١٩٥٧م.

اليعقوبي، أحمد بن أبي واضح الكاتب، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، والجزء الثاني، دار صادر، بيروت (بدون).

المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص٢، بيروت ١٩٦٥م.

٣- المراجع العربية:

إبراهيم، معاوية، (تاريخ فلسطين القديم) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠م.

أرمسترونج، كارين، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، عمان ١٩٨٨م.

المسلي، و. (سقوط أورشليم وأهميته العالمية)، تاريخ العالم للسيرجون. أ. هامرتون، المجلد الثالث، الفصل التاسع والستون، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ب. ت.

آمنون كوهين – دراسات في تاريخ القدس – ترجمة سليمان مصالحة.

إلياد، مرسيا، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٨.

إيمار، أندريه وجانيين أبواويه، الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد. م. داغر وفؤاد. ج. أبو ريحان، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ١٩٨١م.

ريموند توليني، دراسة في التاريخ، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٠م.

د. محمد علي البار: أباطيل التوراةت في العهد القديم، ج١، ص٢، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠.

برستد، جيمس هنري، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة الدكتور حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٢٩م.

بوب، م. هـ و ف. رولينغ، (قاموس الآلهة والأساطير في الحضارة السورية)، قاموس الآلهة ولاأساطير، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة سومر، حلب، ١٩٨٧م.

البار: أباطيل الثوار.

بنو كلمان. كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، دار القلم، بيروت.

طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الثاني، بغداد، ١٩٥١م.

تارن، وليم وود تورب، الحضارة الهلينستية، ترجمة زكي علي، القاهرة، ١٩٦٦م.

توماس تويسون: القدس أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م.

نوكاريف، سيرغي أ. الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة د. أحمد. م. فاضل، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٨م.

جارودي روجيه: الأساطير المؤسسية للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.

جاردنر، سير ألن، مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

جوردن، سيروس هـ، (الأساطير الكنعانية)، أساطير العهد القديم، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.

جيرجي زيدان، فلسطين تاريخها وآثارها، مجلة الهلال، ص٣، ١٩١٣م.

خبريسي. سمير، القدس: المخططات الصهيونية، الاحتلال التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١م.

حتّي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨.

الدباغ . مصطفى: بلادنا فلسطين في بيت المقدس، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥.

أبو ريان، محمد علي، وحربي عباس عطيتو، دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٩م.

السفري عيسى: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ط١، يافا، ١٩٣٧م.

سركيس، خليل، تاريخ القدس الشريف. مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م.

شوفاني، إلياس، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، الطبعة الثانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٨.

الصليبي، كمال، البحث عن يسوع (قراءة جديدة في الأناجيل)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م.

طومسون، توماس ل، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٥م.

طربين أحمد: فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، الموسوعة الفلسطينية، قسم ٢، بيروت.

العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، منشورات فوزي يوسف، مكتبة الأندلس في القدس، القدس ١٩٦١م.

: تاريخ القدس: القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م.

العبادي، مصطفى، العصر الهيلنستي، مصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

عبد الحليم، نبيلة محمد، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

أبو عساف، علي، الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً، دار أماني للطباعة والنشر.

أبو عيلة: د. عبد الفتاح أبو عيلة: القدس، دراسة تاريخية حول المسجد الأقصى والقدس الشريف، دار المريخ، الرياض، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٠م.

: القدس دراسة تاريخية.

الفرحان، يحيى، قصة مدينة القدس، المنظمة العربية للتربية، دار الثقافة.

فلاح خالد علي

الفني إبراهيم، القدس عبر الحضارة والتراث منذ ستة آلاف عام، منشورات وزارة الإعلام، عمان، ١٩٩٧م.

الكتاب المقدس، العهد القديم، أسفار (التكوين، الملوك الأول، الملوك الثاني، عزرا، نحميا، إشعيا، إرميا، مراثي إرميا، حجي، زكريا، المكابيين)، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

الكيالي عبد الوهاب: المطامع الصهيونية التوسعية، بيروت، ١٩٦٦م.

: تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٣م.

: الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ج٤.

جورجي كنعان: أمجاد إسرائيل في أر كنعان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٧م.

كيلاني: ماجد: الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، الطبعة السعودية، ط٣، ١٩٨٩م.

الماجدي، خزعل، تاريخ القدس في عصور ما قبل التاريخ إلى الغزو الروماني

الماجدي خزعل، تاريخ القدس لقديم، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (٢٠٠٥).

الماجدي، خزعل، المعتقدات الكنعانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠١م.

معين أحمد محمود: تاريخ مدينة القدس، دار الأندلس، ١٩٨٧م.

مندنهول، جورج، ٠القدس من ١٠٠٠-٦٣ق.م) القدس في التاريخ، ترجمة د. كامل جميل العسلي، عمان، ١٩٩٢م.

نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الأول، مطبعة جامعة القاهرة، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

زعيتر: أكرم، القضية الفلسطينية، دار المعارف، مصر ١٩٥٥م.

راشد سيد فرج: القدس عربية سلامية، دار المريخ، الرياض ١٩٨٦م.

العبيد. وائل العبيد، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، دار مجدلاوي، عمان / ٢٠٠٥.

الأعظمي: عواد مجيد، تاريخ مدينة القدس، بغداد، ١٩٧٢م.

العسلي: كامل جميل، مخطوطات فضائل بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م.

العسلي: القدس في التاريخ.

العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، المجلد الأول، عمان / ١٩٨٣م.

غوانمة: يوسف، القدس الشريف، دار الفكر / ٢٠٠٢م.

قاسمية: الإجراءات الصهيونية لتهويد القدس الشريف.

قاسمية: خيرية، النشاط الصهيوني والشرق العربي وصداه، مركز أبحاث منظمة التحرير، بيروت ١٩٧٢م.

القزقي: سعيد: بيت المقدس في الحديث النبوي الشريف، جمعة الماجد، (٢) ١٤٢٣/ ٢٠٠٣م.

الهزايمة: محمد عوض، القدس في الصراع العربي الصهيوني، عمان، دار السراج / ٢٠٠٠م.

هـ. س. فرانكن: القدس في العصر البرونزي، من كتاب القدس في التاريخ، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٩٢م.

أبو زكي: وجيه، القدس عبر القرون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

الموسوعة الفلسطينية: القسم العام، ج٢، مجلد ١، ٢، ٣، ٤، ميلانو، إيطاليا، ١٩٨٤م.

الموسوعة الفلسطينية: تاريخ فلسطين القديم، مجلد ٢ / القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠م.

٤- المراجع الأجنبية:

Buckingham. Travels in Palestine throught the countries of Bashan and Gilead East of the River of Jordan (London, 1821).

Dixson, William. H. The Holy Land (Leipzig, 1865).

Mandel Neville, Turks Arab and Jewish Immigration into Palestine, (Oxford, 1965).

Ahlstrom, Gosta W. The History of Ancient Palestine, Frotress press, Minneapolis, 1993.

Geva, Hillel "Jerusalem. The early periods and the first Temple period" The new Encyclopedia of Archaeology Excavations in the Holy Land, Volume2, The Israel exploration society, Carta Jerusalem, 1993.

Gray, John, A History of Jerusalem, London, 1969.

Holland, T.A "A Study of, Palestinian Iron Age Baked Clay Figurines With Special References to Jerusalem: Gave I "The Iron Age cave Deposits on the south – east hill and isolated Burials in cemeteries Elswhere. Eshel and K. prag, London, 1985.

Kenyon, Kathleen. M, Jerusalem, Excavation 3000 Years of history, Thames and Hudson, London 1967.

Mare, W. Harlod, The Archaeology of the Jerusalem, Baker Book house, Michigan, 1987.

Mazare, Benjamin, The Mountain of the Lord, Garden City, Double day, New York, 1975.

Mazare, Benjamin, "Jerusalem. The early periods and the first Temple period" The New Encyclopedia of Archaeology Excavation in the Holy Land Volume 2, The Israel exploration, Society, Carta, Jerusalem, 1993.

Rahmani, LY, "Ancient Jerusalem's Funerary Custme and Tombs", part two, Biblical Archaelogist, 1981.
Shiloh, Yigal, "Jerusalem. The early periods and the first Temple period" The New Encyclopedia of Archaeology Excavations in the Holy Land, Volume 2, The Israel exploration Society, Carta , Jerusalem, 1993.
Slousch, N. "Jewish and Judaism in Ancient Cyrenaica" Being and Appendix to the Report on the work of the Commission sent out by the Jewish Territorial Organization (ITO) for the purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica, ITO offices, London, 1909.
Terrien S. The Omphalos Myth and Hebrew, VT, XX, 1970.
Lewis (H), The Holy Places of Jerusalem.
Richmond (E.T) The Dum of the Rock, Oxford, 1924.
M.F. Kirt an outline of the Cultural History of Palestine Palestine, 1943.
Buckingham, Travels in Palestine through the contries of Bashan and Gilead East of the River of Jordan (London, 1821).
Dixson, William, H., The Holy Land (Leipzig, 1865).
Mandel Neville, Truks Arab and Jewish Immigration into Palestine, (Oxford, 1965).